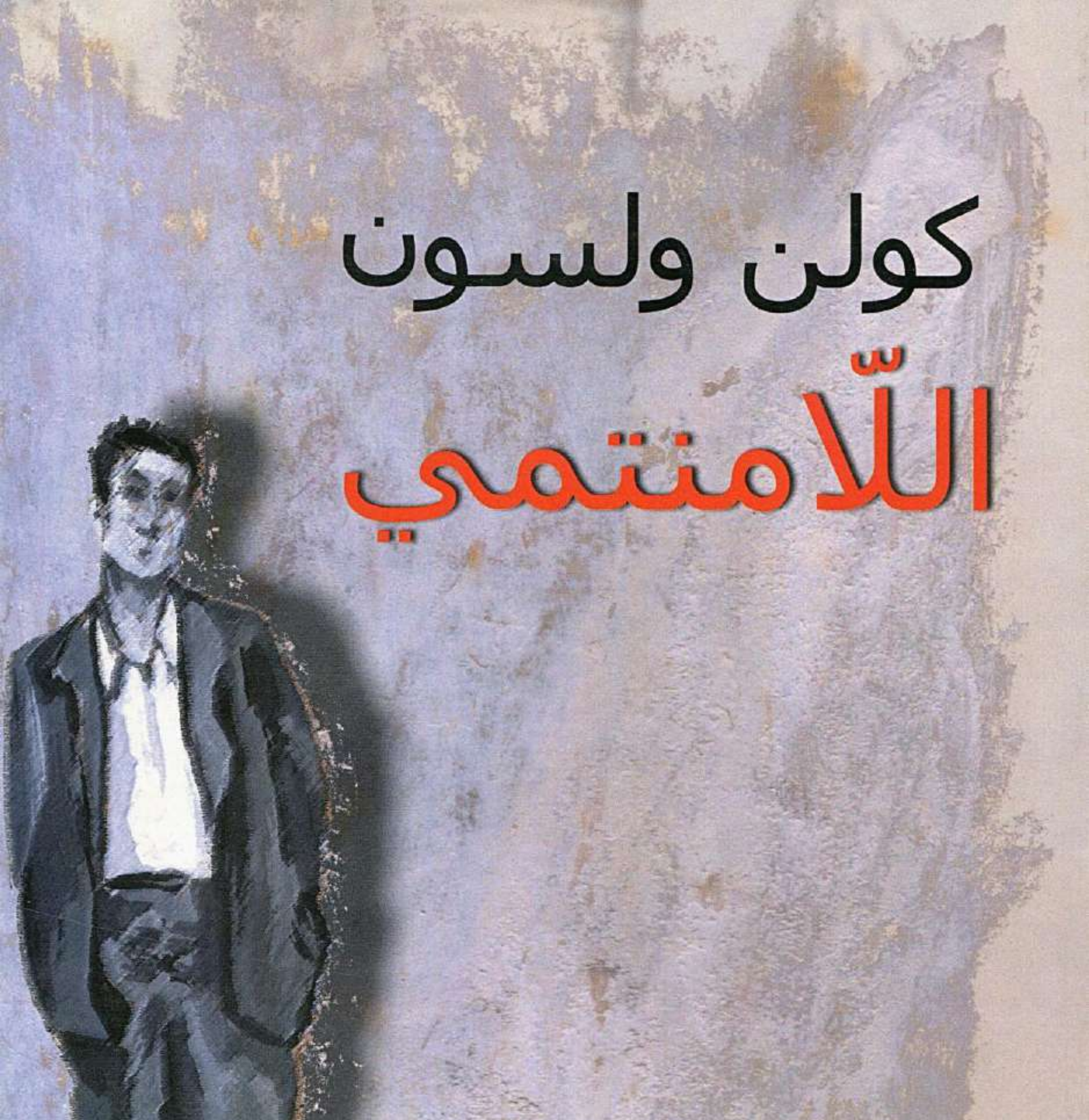


كولن ولسون

اللّامنتمي

علي مولا

دار الآداب



اللاّمنتمي


محمد خطاب

كولن ولسون

اللاّمنتمي



دار الآداب ـ بيروت

اللاّمنتمي
كولن ولسون
الطبعة الخامسة عام ٢٠٠٤
حقوق الطبع محفوظة

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

تقــديم

هناك دائماً نوع من الاشخاص ، يعتبر ذا اهمية خاصة وتجتمع فيه الصفات التي يمكن ان تجعله صورة صادقة لعصره . وتجد هذا النوع بطلاً في عصر ، وثائراً في عصر ثان ، وأحد أفراد حاشية البلاط في عصر ثالث ، وقديساً في عصر رابع . فما هو النوع الذي يظهر في عصرنا اليوم ؟ هذا العصر الذي يمتد بعد داروين وفرويد وآينشتاين والقنبلة الذرية ؟ ان هذا الكتاب الرائع يقدم لنا الجواب على ذلك ، انه اللامنتمي .

يُعرّف ولسن اللامنتمي بقوله إنه الانسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة الانسانية من أساس واه ، والذي يشعر بأن الاضطراب والفوضوية هما اعمق تجذراً من النظام الذي يؤمن به قومه . لقد رأى الماضي اشخاصاً مثل هذا توفرت لديهم مثل هذه الرؤى المفزعة الا ان هذا النوع لم يمثل عصره يوماً كما يفعل الآن . لقد قدم لنا ولسن ، بأخذه هذا المجهود على عاتقه ، كتاباً عظيم الاهمية بالنسبة الينا ، اذا كنا نريد حقاً ان نجد حلولاً لمشاكل عصرنا .

يضرب لنا ولسن مثلاً على اللامنتمي النموذجي في الادب الحديث ، فيدلنا الى بطل قصة باربوس « الجحيم » ، الذي يلجأ الى غرفته في الفندق ليغلق بابها ويعيش ليرقب الآخرين من ثقب في الحائط . انه كما يقول باربوس « يرى اكثر وأعمق مما يجب » . وهو لا يرى الا الفوضى . وتعطينا كراسة هـ. ج.

ولز الاخيرة « العقل في منتهى حدود الاحتمال » نذيراً بمثل هذا الاستيقاظ . فهنا نجد رجلاً عاش حياته كلها منتمياً ، وفجأة يرى الهوة امامه ، فيصرخ مدعياً اننا لم نكن ذاهبين الى اي مكان ... ويتتبع ولسن طبيعة اللامنتمي خلال قصة كامو « الغريب » ، وأعمال ارنست همنغواي الاولى ، وبطريقة اشد طرافة في مسرحية كرانفيل باركر « الحياة السرية » ليعود بعد ذلك الى بحث اللامنتمي الرومانسي في فصل كامل .

ويقر ولسن بأن الجو الذي يتميز به عالم اللامنتمي المعاصر ، جو كريه جداً . ان هؤلاء الاشخاص لا يرفضون الحياة فحسب ، وانما يعاديها الكثير منهم . ان عالمهم المجرد من القيم هو عالم اشخاص بالغين ، والفرق بين عالم البالغين وعالم الاطفال هو احد الفروق الرئيسية بين عالم القرن العشرين وعالم القرن التاسع عشر . لقد كان لامنتمي القرن التاسع عشر طفلاً لا ينتظر منه ان يكون نهيلستيا متشائماً ، (في الوقت الذي كان فيه الفلاسفة يشبهون مربي البقر (الكاوبويز) حين يتنافسون في لعبة من ألعابهم) ، ولم يستطع لامنتمي القرن التاسع عشر ان يعتقد بأن الخطأ كامن في الطبيعة الانسانية ، لأن الفلسفة التي كانت غالبة على ذلك العصر كانت تقول بأن الكمال الانساني شيء يمكن ان يتحقق . ولهذا فقد ظن ان الخطأ يكمن فيه هو ، وكان يعتبر امراً طبيعياً بالنسبة اليه ان يكون مريضاً مثل شيللر وان يتناول المخدرات مثل كولرج وان يموت شاباً مثل شيللي . ويتتبع ولسن اللامنتمي الرومانسي في (آلام فرتر) لغوتيه ، وفي اللصوص لشيللر ، وكثيرين غيرهم ، مثل تيك وهولدرلن ورامبو ومالارميه ورلكه وبروست .

على أن مشكلة اللامنتمي هي في جوهرها مشكلة حية ، ولهذا فان ولسن يعود من الادب الى الحياة نفسها فيعتبر فان كوخ وت. ي. لورنس ونجنسكي لا منتمين . انه يختارهم باعتبارهم نماذج ثلاثة للامنتمي يتميز كل واحد منهم بمميزات خاصة ينافس بها الآخرون في لا انتمائيته ، ميزات في العقلية والشعور والجسد. الا اننا نجد ان الطريق التي شقها كل واحد من هؤلاء لم تكن مثمرة في حد

ذاتها ، ذلك ان الامر انتهى بفان كوخ ونجنسكي الى الجنون . في حين لم يكن انتحار لورنس العقلي ليقل عن جنون نجنسكي . وينتهي ولسن الى ان اهم ما يشغل بال اللامنتمي هو عدم رغبته في ان يكون لامنتمياً ، الا انه لا يستطيع ان يتخلى عن كونه لامنتمياً لانه لا يريد ان يكون بورجوازياً عادياً ، فليس ذلك بالحل الصحيح . ان مشكلته هي .. كيف ينطلق الى الامام ؟ الا ان لورنس ونجنسكي وفان كوخ انما عادوا الى الخلف ، فاندحروا جميعاً .

وهكذا فان اللامنتمي ليس مجنوناً .. انه فقط اكثر حساسية من اولئك الاشخاص المتفائلين صحيحي العقول . انه يبدأ بنوع من التوترات الداخلية ، ترى كيف يستطيع ان يزيلها ؟ اما الجواب الذي يخطر ببال صحيح العقل فهو « أرسله الى المحلل النفساني » ، الا ان هذا لا يمكن ان يعتبر جواباً بالنسبة اليه . اما الجواب الذي يكشف عنه بحث ولسن هذا فلا بد انه جواب ديني . ان مشكلة اللامنتمي هي في اساسها مشكلة الحرية ، ولا نقصد بذلك الحرية السياسية طبعاً ، وانما الحرية بمعناها الروحي العميق ، وان جوهر الدين هو الحرية ولهذا : فغالباً ما نجد اللامنتمي يلجأ الى مثل هذا الحل ، اذا قيض له ان يجد حلاً .

يريد اللامنتمي ان يكون حراً ، وهو يرى ان صحيح العقل ليس حراً . ولقد وجد نيتشه ، الذي يتناوله ولسن بالبحث ايضاً ، حلاً في إخباره العالم بأن جميع الناس يجب ان يكونوا لامنتمين . اما لا منتمو تولستوي فقد هربوا من انفسهم بتمسكهم بانكار الذات باعتبار انه جوهر المسيحية . وينتهي هذا الفصل بدوستويفسكي الذي يخصص له ولسن معظم ما تبقى من الكتاب ، محللاً أعماله تحليلاً دقيقاً ، ذلك لأن اعمال هذا الكتاب تمهد الطريق لتطورات جديدة .

ويرى اللامنتمي ان الدين لا يمكن ان يكون جواباً على مشكلته . وعليه فقد يعود كما فعل جورج فوكس ليشهّر بفساد العالم وضلاله ، او انه يجد الجواب في اعتقاد بليك بان البشر جميعاً يجب ان يتمتعوا بقابلية التخيل . ويقودنا هذا الى الحلول التي وجدها نساك الشرق ، الذين يختار ولسن من بينهم سري راما كريشنا ليبحثه بحثاً وافياً . ويلوح معظم البشر في نظر امثال سري راما كريشنا

أرواحاً مترابطة ، وهنا نجد ان الاساس الذي تنهض عليه كل واحدة من هاتين الجماعتين هو : كن متطرفاً . ان القديس المسيحي يجرب وهو معلق على صليبه نوعاً من الغبطة العنيفة الرهيبة . على انه اذا كان مثل هذا التطرف مفروضاً فرضاً كعقوبة ، فان اللامنتمي سيقول بانه تطرف عديم الفائدة ، بل مضر . ان قيمة التطرف هي في حيوية الارادة الكامنة فيه .

وهكذا نجد ان البحث الذي ينتهي منه ولسن في هذا الكتاب يتصل شيئاً فشيئاً حتى يشكل حلقة كاملة : « انني لا اهدف الى ايجاد حل صحيح كامل لمشاكل اللامنتمي ، وانما اهدف الى بيان ان مثل هذه الحلول ، والمحاولات التي بذلت في سبيلها موجودة فعلاً » . وقد حقق ولسن هذا تماماً . فاذا اعتبرنا هذا الكتاب بحثاً عن الشخصيات المهمة في الادب الحديث ، وعن افكار هذا الادب فاننا نجد ان ذلك وحده يجعله يستحق القراءة ، عن جدارة ، الا انه اكثر من ذلك بمراحل كثيرة . انه في الحقيقة سجل حافل للامراض الروحية التي يعانيها البشر في منتصف القرن العشرين ، وانه يمثل تحدياً لكل فكر ..

ان مؤلف هذا الكتاب هو الآن في الرابعة والعشرين من عمره ...

(مقدمة الناشر الانكليزي للطبعة العاشرة — ١٩٥٦)

الفَصۡلُ الأول

بلد العميان

يلوح اللامنتمي من النظرة الاولى مشكلة اجتماعية ، انه الرجل الغامض .

« على سطح الترام ، في الهواء الطلق ، تجلس فتاة ، ترتفع أذيال ثوبها قليلاً ، الا ان توقفاً في حركة المرور يفصلني عنها ، فيبتعد الترام شيئاً فشيئاً مختفياً وكأنه كابوس .

« الشارع مملوء بالاثواب المتأرجحة المنطلقة في الاتجاهين والتي تعلن عن نفسها بمرح ، والاذيال ترتفع ، الاذيال التي ترتفع ولا ترتفع !

« انني ارى نفسي في المرآة الطويلة الضيقة المعلقة في واجهة ذلك المحل ، قادماً يلوح علي الشحوب والنعاس . لست اريد امرأة واحدة ، انني اريد النساء جميعاً . انني ابحث عنهن بين من حولي من النساء ، واحدة بعد الأخرى » (١) *

هذه السطور من قصة هنري باربوس « الجحيم » تدلنا على مظاهر معينة من اللامنتمي . فبطله يسير على شارع من شوارع باريس ، تفصله الرغبات المشتعلة فيه عن غيره من الناس بحدّة ، وان الحاجة التي يحسها في نفسه للنساء ليست حيوانية تماماً ، فهو يستمر قائلاً :

---

* يراجع بشأن الارقام فهرست المصادر الملحق بآخر الكتاب .

« ولم استطع المقاومة ، فتبعت دوافعي بصورة عرضية ، تبعت امرأة كانت ترقبني من زاويتها ثم سرنا جنباً الى جنب ، وقلنا بعض الكلمات ، وأخذتني معها الى بيتها ، ومرّ المشهد المعروف ، ومرّ وكأنه سقوط عنيف مفاجيء .

« ورأيت نفسي على الرصيف ثانية ، لا اشعر بالطمأنينة التي كنت أمني نفسي بها ، وانما احس باضطراب مربك . كنت وكأنني لا ارى الاشياء على حقيقتها . كنت ارى اكثر من اللازم وأعمق من اللازم » .

ويظل البطل بلا اسم خلال صفحات الكتاب ، انه الرجل اللامسمى الذي يعيش خارجاً . يأتي الى باريس من الريف ويجد وظيفة في احد البنوك ، وغرفة لدى احدى الاسر . ويجلس في غرفته وحيداً متأملاً . وليس لدى هذا الرجل شيء من النبوغ ، لا غاية يحققها ، لا مشاعر ذات قيمة ليمنحها : «لا املك شيئاً ولا استحق شيئاً ، وبالرغم من ذلك ، اشعر بالحاجة الى تعويض » . (٢) وهو لا يكترث للدين ، « اما البحث الفلسفي فانه يلوح عديم المعنى ، لا شيء يمكن إختباره ، لا شيء يمكن تنويعه . اما الحقيقة ، فيا ترى ماذا يعنون بها ؟ » (٣) وتنطلق افكاره بصورة غامضة عن حب قديم ، وما فيه من ملاذ جسدية ، الى الموت .. « الموت ، اهم الأفكار اطلاقاً » ، ثم يعود الى مشاكله اليومية « يجب ان اكسب مالاً » ، وفجأة يرى ضوءاً منعكساً على الجدار . انه منبعث من الغرفة التالية . ويقف على الفراش ويراقب الغرفة التالية « انني انظر وأرى ... الغرفة التالية تدعوني الى عريها » (٤) وهكذا تبدأ القصة ، فهو يقف على الفراش كل يوم ويراقب الحياة الدائرة في الغرفة التالية من ثقب في الجدار ، ويظل على تلك الحال شهراً كاملاً ، يراقب من مكانه الجانبي مكانه المتسلط – كانت مغامرته الاولى هي ان يراقب امرأة كانت قد شغلت تلك الغرفة لتقضي فيها الليل ، وكان يلتهب ويحتدم بينه وبين نفسه كلما رآها تتعرى . ان هذه الصفحات تتميز بالاثارة المتعمدة المتهم بها كتاب فرنسا بعد الحرب ، بحيث يستطيع كيدو روجيرو ان يكتب قائلاً : « تعالج الوجودية الحياة كما تعالجها قصة » .

وتأتي المرحلة المهمة ، فيحاول في اليوم التالي ان يعيد تمثيل ذلك المشهد في

خياله ، فيفشل في ذلك ، تماماً كما فشل في محاولته تخيل الملاذ الجنسية التي كانت له مع حبيبته السابقة : « تركت نفسي تغرق في محاولة لاختراع تفاصيل كافية لاعادة التجربة بنفس شدتها : انها تأخذ اشد الوضعيات اثارة .. كلا ، كلا ، فليس ذلك حقيقياً . هذه كلمات ميتة لا تستطيع ان توصلني الى شدة ما كان » . (٥)

وفي نهاية القصة يقدم البعض بطل القصة اللامسمى الى روائي كان يقص على الجماعة تفاصيل قصة قال انه مستمر في كتابتها . ويا للاتفاق العجيب ، ذلك ان القصة التي يقصها الروائي تدور على رجل يثقب جدار غرفته ليرقب كل ما يحدث في الغرفة التالية . ويلخص الروائي هنا كل ما كان قد رواه الكاتب ، ويعجب سامعوه بالقصة : برافو ، نجاح هائل ، اما اللامنتمي فيستمع بكآبة ، ويستمر الروائي قائلاً : « انني وقد نفذت الى قلب الانسانية لم اجد شيئاً انسانياً في هذا الكاريكاتور الصامت . لقد كان من السطحية بحيث انه كان زائفاً . انه انسان مجرد من خارجيته ، وذلك هو ما اريد ان اصوره ، وبينما يميل البعض الى الخيال «اميل انا الى الحقيقة».وهنا يشعر اللامنتمي بأن ما رآه كان الحقيقة ! (٦)

ولنقرر الآن اننا ، ونحن نقرأ هذه القصة بعد نصف قرن من تأليفها ، لا نستطيع ان نجد شيئاً نختاره بين حقيقة الروائي وحقيقة البطل : ان المشاهد التي رأتها الغرفة التالية تذكرنا احياناً بساردو ، وأحياناً اخرى بدوستويفسكي حين نرى الأخير معنياً بتفسير افكاره اكثر من عنايته باسباغها على الناس والحوادث . على ان باربوس مخلص ، كما ان هذا المثل الاعلى ، البحث عن الحقيقة ، هو من الاتجاهات التي يمكن تمييزها بوضوح في ادب القرن العشرين .

ان لامنتمي باربوس يملك كل مميزات هذا النوع ، فهل هو لا منتمٍ لانه خائب وسوداوي ؟ بل هل هو سوداوي بسبب قطرة عميقة تدفعه الى الوحدة ؟ ان باله مشغول بالجنس والجريمة والمرض منذ البداية . انه يستعيد لنا في بداية القصة حديث احد المحامين بعد الغداء عن رجل كان قد اغتصب وخنق فتاة صغيرة ، ويصمت الجميع ، بينما يلاحظ اللامنتمي الآخرين بامعان وهم

يستمعون الى التفاصيل البشعة :

« شرعت ام شابة بمغادرة المكان مع طفلتها ، الا انها لم تستطع النهوض . وكان احد الرجال البسطاء يتنفس بصعوبة .. بينما كان هنالك رجل آخر تميزه ملامح البورجوازيين المحايدة يحدث صاحبته الشابة بأحاديث تافهة ، وبصعوبة شديدة ، وينظر اليها وكأنه يريد ان ينفذ الى اعماقها ، ويحس بأن نظرته النافذة أقوى من ان تحتمل فيخجل من ذلك » . (٧)

ان حالة اللامنتمي هذه ضد المجتمع واضحة كل الوضوح ، فالرجال والنساء جميعاً يملكون هذه الدوافع الخطرة اللامسماة ، الا انهم يغطونها عن انفسهم وعن الآخرين ، وليست اديانهم وفلسفاتهم الا محاولات لصقل وتمدين شيء حيواني عنيف غير منظم ، غير متعقل ، وهو لا منتم لانه يريد ان يجد الحقيقة .

تلك هي حالته ، الا ان شذوذه وانطواءه يقللان من ظهورها . انها تلوح في الواقع ، محاولة للتبرير الذاتي ، يقوم بها انسان يعرف انه منحط ، مريض ، موزع النفس . اجل ان هنالك توزع نفسي . ان الرجل الذي يرقب المرأة وهي تتعرى ، له ما للقرد من عين حمراء ، الا ان الرجل الذي يرى عاشقين شابين يجلسان معاً لاول مرة ، ويشير اليها بالعطف والشعور الرقيق ، ليس حيواناً بل هو انساني جداً . على ان القرد والانسان يستقران في جسد واحد ، فاذا تحققت رغبات القرد اختفى ليحل محله الانسان الذي يشمئز من شهوات القرد .

تلك هي مشكلة اللامنتمي ، وسنواجهها بأشكال عديدة في صفحات هذا الكتاب ، وعلى مستوى ميتافيزيكي ، مع الاشارة الى سارتر وكامو (حيث تدعى المشكلة بالوجودية) ، وعلى مستوى ديني ، مع دوستويفسكي ، الذي اغتصب فتاة صغيرة وكان مسؤولاً عن موتها ايضاً . على ان المشكلة هي في جميع الحالات واحدة ، وانما الغاية من ذلك هي نبذ كل ما هو بعيد عن المشكلة .

فأما باربوس فانه يقول ان كون بطله يرى اعمق من اللازم هو ما يجعله لا منتمياً ، ويضيف ايضاً انه لا يملك نبوغاً ما ، لا رسالة يقوم بتحقيقها ... الخ

ونستطيع أن نلاحظ من تاريخ بطله الشخصي ، خلال فصول القصة ، اننا لا نستطيع أن نشك في قوله هذا ، اذ لا ريب في أن البطل عادي ، لا يعرف كيف يكتب رسالة الى محل شوكولاتة ، بينما يطفح الكتاب بالعبارات المكرورة والكليشيهات . ويجب أن نؤكد على هذا ، لأننا نريد ان نتجنب كل ما يغرينا على اعتبار اللامنتمي فناناً ، فاذا فعلنا ذلك بسطنا السؤال التالي اكثر من اللازم: مرض هو أم بصيرة ؟ وليس في كثير من الفنانين العظام شيء من اللامنتمي . لقد كان شكسبير ودانتي وكيتس جميعاً ، وبكل وضوح ، اشخاصاً طبيعيين متفقين مع المجتمع كل الاتفاق ، وليس فيهم شيء يمكن أن يقال عنه انه مرض أو نقص عصبي. فأما كيتس الذي يميز تمييزاً رومانسياً شديداً بين الشاعر والانسان العادي فانه لا يملك شيئاً من عقد النقص أو النورالجيا الجنسية في صميم ذهنيته ، لا شيء من معاني مستوى د. هـ. لورانس الاجتماعي ، لا شيء من حاجة جيمس جويس الى الاعلان عن تفوقه العقلي ، وفوق ذلك كله ، لا توافق مع سلوك آكسيل بطل قصة فيير دو ليل آدم التي اعجب بها كيتس كل الاعجاب . وكيتس بالاضافة الى ذلك ، يعتبر قاعدة واساساً بين الشعراء العظام اكثر منه شاعراً فقط ، قد يكون اللامنتمي فناناً ، إلا انه ليس من الضروري أن يكون الفنان لا منتمياً .

ان ما يمكن ان يقال في معرض تمييز اللامنتمي يوحي بمعني من الغرابة واللاحقيقية. لقد كتب كيتس نفسه الى براون قبل موته بعام واحد قائلاً : « انني اشعر وكأنني ميت منذ زمن ، وانني انما اعيش الان حياة ما بعد الموت. » ذلك هو معنى اللاحقيقية ، الذي يمكن ان يبرق في سماء شديدة الصفاء : إلا أن الاعصاب القوية والصحة الجيدة تجعلان ذلك امراً غير ممكن ، غير ان ذلك قد يكون لأن هذا الرجل الذي يتمتع بصحة جيدة يفكر بالاشياء الاخرى دون أن ينظر في الاتجاه الذي يكمن فيه الشك ، لأن من ينظر في هذا الاتجاه لا يستطيع ان يرى العالم كما كان يراه عليه من قبل من استقامة . لقد أرانا باربوس ان اللامنتمي انسان لا يستطيع الحياة في عالم البورجوازيين المريح المنعزل ، أو قبول

ما يراه ويلمسه في الواقع . « انه يرى اكثر واعمق من اللازم » وان ما يراه لا يعدو الفوضى . ان البورجوازي يرى العالم مكاناً منظماً تنظيماً جوهرياً يوجد فيه عنصر مقلق مرعب غير متعقل ، إلا ان انشغال البورجوازي بدقائق حياته اليومية يجعله مضطراً الى اهمال هذا العنصر. أما اللامنتمي فانه لا يرى العالم معقولاً ولا يراه منظماً ، وحين يقذف بمعانيه الفوضوية في وجه دعة البورجوازي ، فليس ذلك لأنه يشعر بالرغبة في قذف معاني الاحترام باهانة لاثارتها ، وانما لأنه يحس بشعور يبعث على الكآبة ، شعور بأن الحقيقة يجب أن تقال مهما كلف الأمر ، وإلا فلن يكون الاصلاح ممكناً .. بل ان هذه الحقيقة يجب ان تقال حتى اذا لم يكن هنالك أمل ما ، (ان النموذج الذي نتحدث عنه الآن يعتبر أغرب النماذج) . ان اللامنتمي انسان استيقظ على الفوضى ، ولم يجد سبباً يدفعه الى الاعتقاد بأن الفوضى ايجابية بالنسبة الى الحياة، بأنها جرثومة الحياة . ان عبارة « توهوبوهو » التي تعني « فوضى » في القبالة اليهودية هي وبكل بساطة حالة يكمن فيها النظام ، فالبيضة هي فوضى الطائر ، إلا ان الحقيقة برغم ذلك يجب ان تقال والفوضى يجب ان تواجه .

ان آخر اعمال هـ. ج. ولز يعطينا مثلاً على هذا الاستيقاظ . ألا يعتبر هـذا نوعاً من الالهام اذ نرى في « العقل في منتهى حدود الاحتمال » شيئاً مثل هذا :

« يجد الكاتب سبباً معقولاً يدعوه الى الاعتقاد بأنه قد حدثت خلال مدة يمكن حسابها بالاسابيع والشهور لا بالقرون : تغييرات جوهرية في الظروف التي سارت عليها الحياة منذ بدايتها — ليست الحياة الانسانية فحسب وانما كل وجود يتمتع بادراك ذاتي — فاذا كان تفكيره هذا صائباً .. فان نهاية كل شيء ندعوه بالحياة صارت قريبة جداً بحيث لا يمكن تجنبها . وسيعطيك بعد هذا النتائج التي ساق الواقع عقله اليها ، وهو يظن انك ستجد فيها من المتعة ما يدفعك الى دراستها، إلا أنه لا يحاول أن يفرض عليك ذلك . » (٨)

ان الجملة الاخيرة جديرة بالملاحظة لمنطقها الغريب . ان اعتقاد ويلز في ان الحياة سائرة الى نهايتها هو ، كما يقول ويلز نفسه ، رأي هائل ، فاذا كان ذلك

صحيحاً فانه ينفي كل ما جاء في ذلك الكراس، ما دام ينفي الحياة وما فيها من طرف اشياء . ان ويلز يوضح ، من غير ان يشعر بالتناقض ، انه يكتب تحت ظروف تدعو اليهـــا الدراسة العلمية التي اضطرته الى محاولة توضيح العالم وتوضيح افكاره الى الحدود التي تسمح بها قابلياته .

« ان ذكاءه المتجدد يجد نفسه في مواجهة حقائق غريبة مقنعة لها من القوة والسيطرة ما يجعله ، لو كان واحداً من أولئك الناس المنطقيين المعقولين الذين ندعي باننا ننتمي اليهم ، يفكر ليل نهار بتركيز متحمس وتفكير وبكفاح ذهني عنيف، في الكارثة النهائية التي ستواجه الجنس البشري . أما نحن فلسنا من هذا الطراز ، وانما نحن نعيش في خبراتنا الماضيـــة ، لا لحوادث المستقبل مهما كانت لا يمكن تجنبها » (٩) .

ويقول ويلز في معرض تعليقه على كتاب سابق يدعى « قهر الزمن » ما يلي : « ان مثل هذا القهر الذي يقره هذا الكتاب هو من صنع الزمن لا الانسان.»

« ان الزمن هو كالجدول الجاري ابداً ، الذي يحمل ابناءه سعيداً ..
وهم يتلاشون كما يتلاشى الحلم عند مطلع الفجر . » (١٠)

ذلك هو تشاؤم شكسبير الاصيل سواء في ماكبث أو تيمون ، وانها لنغمة مدهشة من رجل كان طيلة حياته واعظاً : « بدّل حياتك ان هي لم تعجبك » ، الرجل المتفائل صاحب « بشر كالآلهة » و « يوتوبيـــا حديثة » ، ويصرح ويلز قائلاً إنه اذا كان القارىء يود متابعته ، فانه سيذكر له السبب الذي حداه الى تغيير نظرته الى الامور :

« ان الواقع يشع ببرود وقسوة على أولئك الذين يستطيعون ان يطلقوا أذهانهم حرة .. لمواجهة السؤال المحير الذي اربك الكاتب . انهم يكتشفون ان غرابة مخيفة قد دخلت هذه الحياة ... ان ولع الكاتب المعتاد هو في سبقه الامور بالنقد . ومن الأشياء التي يسألها : الى اين سيقود هذا ؟ وكان من الطبيعي أن التغيير سيكون له حد وان اشياء وحوادث جديدة سوف تظهر ، إلا انها ستظهر بصورة معقولة ، محتفظة في اثناء ذلك بالتسلسل الطبيعي في الحياة .

ولهذا فقد كان في عالمنا الواسع المضطرب دائماً افتراض يقول بأنه سيكون هنالك اصلاح نهائي في الحياة العقلية . لقد كان ذلك السؤال الخلاب : أي شكل سيتخذ هذا المظهر العقلي الجديد ؟ أي فوق مستوى البشر ؟ أي يوتوبيا أو أي لا شيء سينفذ في هذا السحاب العابر وهذا الاضطراب ؟ وعلى هذا الأساس بدأ الكاتب يركز ذهنيته . لقد فعل كل ما في وسعه لتعقب ذلك الحلزون العالي نحو ما تنتهي اليه تلك العقلية في مظهرها الجديد في قصة الحياة ، وكلما وزن الحقائق الموجودة امامه ، كان أقل قدرة على استخلاص أي ميل أو أي اتجاه ، فلم تعد التغييرات نظامية ، وكلما ابتعد في تقديره للاتجاهات التي تلوح انها تأخذها ، تعاظم ذلك التشعب . ان الحوادث التي حدثت حتى الآن تتميز بنوع من المعقولية المنطقية ، تماماً كما يضبط قانون الجاذبيـــة الأجرام السماوية . أما الآن فيلوح أن ذلك التسلسل قد اختفى وأن كل شيء يتجه كيفما كان وانيما كان بسرعة متزايدة بانتظـــام ... واختفى نموذج الأشياء المنتظر حدوثها . » (١١) *

ونجد هذه الأفكار نفسها موسعة ومعادة في الصفحات التالية ، دون أن نرى كيف وصل اليها الكاتب . « لقد دخلت الحياة غرابة قاسية » ثم « نحن نمر في اشعاع قاس من البدع التي لا يمكن حتى هذه اللحظة تصديقها .. وكلما نشط التحليل ، تضاعف الشعور بالانهزام العقلي » ، « ان شاشة السينما أمـام أعيننا ، وتلك الشاشة هي واقع وجودنا . ان حبنا وكرهنا ، حروبنا ومعاركنا ليست اكثر من اطياف ترقص فوق تلك الشاشة ، هي في عدم وجودها كالاحلام . »

(*) قد يشعر قراء البروفسور وايت هيد بأن ويلز يعتبر نموذجاً سيئاً لعدو وايت هيد القديم (تجزئة الطبيعة) ، أي أنه باعتباره عالماً ، تطرف جداً في تقسيمه الطبيعة إلى الأشياء كما هي : (أي االأشياء التي يهتم العلم بها) ، والاشياء كما يفهمها الإنسان : (أي الاشياء التي تهتم بهـا الموسيقـى والفن) ، وأن شعور ويلز بأن العقل والطبيعة لم يعودا يسيرا انمماً نتيجة متطرفة لسلوكه لا شك في أن فلسفة وايت هيد (الفلسفة العضوية) تهتم بنفس الغاية التي تنشد الكمال في تفهم العقل والطبيعة ، ذلك الكمال الذي أنشده أنا أيضاً في هذا الكتاب . إن معادلة تفكير البروفسور وايت هيد بتفكير ت. ي. هوايه يمكنها أن تلقي ضوءاً قوياً على المشاكل الإنسانية المعاصرة .

هناك طبعاً اختلافات كثيرة بين سلوك ويلز وسلوك بطل باربوس ، الا ان فيهما معاً سلوك اللامنتمي نفسه ، عدم قبول الحياة ، الحياة الانسانية التي تعيشها الكائنات السياسية وسط المجتمع الانساني . كل منهما يقول : مثل هذه الحياة كمثل الحلم ، فهي ليست حقيقية ، ويذهب ويلز الى ابعد مما يذهب اليه باربوس في اتجاه النفي التام ، وينهي فصله الاول قائلاً : « ليس هنالك من طريق الى الخارج او الى ما حول او الى الداخل » ، وليس هنالك من شك في ان ويلز يرى بقدر ما يعنيه الامر اكثر من اللازم واعمق من اللازم . ان هذه المعرفة تشبه طريقاً مسدوداً او النهاية المميتة التي وصل اليها جيرونشن بطل اليوت : « اي صفح بعد كل تلك المعرفة ؟ » .

لقد وعد ويلز باعطاء الاسباب التي دفعته الى بلوغ مثل هذه الآراء الهائلة ، الا انه لم يفعل شيئاً من ذلك في بقية الكراس (الذي لا يعدو ١٩ صفحة) . وانما يعيد تصريحه السابق ويكرره : « بناؤنا النملي التافه المقضي عليه » ، « عداوتنا القاسية للكون التي لا تنفع معها تهدئة » ، « لا نموذج لاي نوع » . انه يتحدث بصورة غامضة عن تعابير آينشتاين : سرعة الضوء ، وساعة الراديوم (الطريقة التي يستعملها الجيولوجيون لتحديد عمر الارض) ، بل انه يناقض قوله الاصلي بأن الحياة كلها هي في نهايتها ، ويقول ان هذا الانسان الذاتي التفكير هو الذي سيتلاشى وينفد ، ان النجوم وهي في مجراها الطبيعي قد اصبحت ضده فعليه ان يفسح المجال لحيوان احسن منه استعداداً لمواجهة المصير المطبق على الانسانية . وفي الصفحات الاخيرة من الكراس نراه يغير النغمة التي كان يكررها ليسأل السؤال التالي : هل يمكن انقاذ الحضارة ؟

« الا ان طبعي الخاص يضطرني الى الشك في انه لن تكون هنالك أقلية ستشهد الحياة وهي تسير الى نهايتها التي لا يمكن تجنبها » . (١٢)

يعتبر هذا الكراس اشد نزعة تشاؤمية في الأدب الحديث بعد كتاب ت. س. اليوت « الفارغون » . فأما يأس اليوت فهو في جوهره ديني . وكنا سنقول ذلك نفسه عن يأس ويلز لولا اصراره على الادعاء بانه يتحدث عن حقيقة علمية ،

عن واقع موضوعي .

ولن يدهشنا أن نعلم أن هذا الكراس لقي قليلاً من العناية من معاصري ويلز . ان تصديق النتائج التي خلص اليها ويلز في نهاية كراسه يتطلب ما كان في يد شوبنهاور من سلاح جدلي صارم في « العالم كارادة وفكرة » أو في « تدهور الغرب » لشبنجلر . لقد سمعت كاتباً معاصراً لويلز يصفه بأنه « انفجار من اللعنات ضد عالم رفض ان يتخذ منه مسيحاً » . على اننا اذا قبلنا بالمستوى الذي كتبه عليه – متفقين مع كل عبارة من عباراته – شعرنا بانبثاق المشاكل التي تلوح متداخلة مع نفسها . فلماذا كتب ذلك اذا كان يعتقد بأنه ليس هنالك من أمل في الانقاذ ؟ واذا كانت النتائج التي وصل اليها تنفي حياته الماضية والمستقبل المحتمل لكل الجنس البشري ، فأين سيبلغ بنا الامر ؟ يرى ويلز اننا لم نكن ذاهبين الى اي مكان – كنا نتبع ضلالاتنا معتقدين بأن أية حركة هي أفضل من لا شيء . بينما الحقيقة هي أن العكس ، اللاحركة ، هي الجواب النهائي ، جواب السؤال : ماذا سيصنع البشر لو رأوا الاشياء كما هي ؟

هنالك بعد شاسع بين اكتشاف المستر بولي « بدّل حياتك ان هي لم تعجبك » وبين « لا طريق هنالك الى الخارج أو الى ما حول أو الى الداخل » . لقد قادنا باربوس الى منتصف الطريق نحو الحقيقة حين قال « الحقيقة ، ترى ماذا يعنون بها » تلك العبارة التي يمكن ان تسندها عبارة « التغيير ؟ أيستطيع أن يبدل شيئاً ؟ » أما ويلز فقد سار بنا المسافة كلها وأوصلنا الى باب مشكلة الوجودي : أيجب أن ينفي الفكر الحياة ؟

هنالك نقطة أخرى من نقاط المقارنة بين باربوس وويلز يجب ان نعلق عليها قبل انتقالنا الى مظهر آخر من مظاهر اللامنتمي . ذلك ان بطل باربوس هو لا منتم حين نقابله ، بل من المحتمل انه كان لا منتمياً دائماً . اما ويلز فقد كان منتمياً طيلة حياته . لقد أنجز واجباته نحو المجتمع دون كلل ، وزوده بنصائح ممتازة ليجعل نفسه أفضل . لقد كان ويلز الروحية العلمية مجسمة ، وقد استعرض تأريخ الحياة واستخلص نتائج كثيرة ، وكان في ذلك يعتبر من

حفدة الانسايكلوبيديين الفرنسيين ، لم ينقطع ابداً عن جمع الحقائق والتخمين . كان متوقعاً من عبارة « الحقيقة ؟ ترى ماذا يعنون بها ؟ » أن تكون لديه استنتاجاً ملخصاً لمختلف الافكار التي دارت حول الحقيقة في تاريخ الحضارات السبع . انه لأمر محزن ان يصبح الانسان لا منتمياً ، محزن الى درجة أننا نجد أنفسنا مضطرين الى البحث عن سبب بدني لهذا التبدل . كان ويلز مريضاً متعباً حين كتب « العقل في منتهى حدود الاحتمال » . ألا يمكننا اذاً أن نقبل هذا كسبب رئيسي كامن وراء هذا الكراس ؟

لسوء الحظ لا ، فقد صرح ويلز بأن استنتاجاته موضوعية ، فاذا كان الامر كذلك فان قولنا بأنه كان مريضاً حين كتبها لا يعدو قولنا بأنه كان يرتدي وشاحاً. ان واجبنا هو ان نتبين ما اذا كان من الممكن ان نرى هذا العالم بالطريقة التي تجعل استنتاجات ويلز لا يمكن تجنبها ، وان نقرر ما اذا كانت مثل هذه الطريقة في النظر الى الاشياء هي أكثر صحة ، أكثر موضوعية من الطريقة التي تعودنا عليها . وحتى اذا قررنا مقدماً بأن الجواب سيكون : لا ، فاننا سنتعلم كثيراً من تمرننا على تغيير وجهة نظرنا .

يدعي اللامنتمي مثل الذي يدعيه بطل قصة ويلز « بلد العميان » ، أي أنه هو وحده الذي يستطيع أن يرى . انه يرد على من يتهمه بالمرض والنورالجيا قائلاً : « الاعور في بلاد العميان ملك » . ان حالته هي في الواقع كونه الوحيد الذي يعرف بأنه مريض في حضارة لا تعلم بأنها مريضة . ويذهب لا منتمون معينون سنبحث أمرهم في الصفحات القادمة الى أبعد من ذلك ، اذ يصرحون بأن الطبيعة الانسانية هي المريضة وان اللامنتمي هو الانسان الذي يواجه هذه الحقيقة المؤلمة . هؤلاء لا يعنوننا الآن ، لاننا في وضعية سلبية يقول اللامنتمي أنها جوهر العالم كما يراه هو ، تلك هي « الحقيقة ؟ ترى ماذا يعنون بها ؟ » و « لا طريق هنالك الى الخارج أو الى ما حول أو الى الداخل » ، والى هذا يجب ان ينصرف انتباهنا الآن .

حين جعل باربوس بطله يسأل السؤال الاول لم يكن يدرك أنه انما كان

يشرح أساس مشكلة فيلسوف دانماركي توفي في كوبنهاجن عام ١٨٥٥ . كان سورين كيركغارد قد قرر أيضاً ان البحث الفلسفي لا معنى له ، وكان يستند في ذلك الى ما استند عليه ويلز من أن : الواقع ينفي الفلسفة ، أو كما قال كيركغارد : الوجود ينفيها . فأما هجوم كيركغارد فقد كان موجهاً ضد هيغل الميتافيزيكي الالماني ، الذي كان ، مثل ويلز تقريباً ، يحاول أن يبرر علاقة الله بالانسان بالكلام عن هدف التأريخ ومكان الانسان في الفراغ والزمن . كان كيركغـــارد ذا روحية دينية عميقة ، فلاح له ذلك كله سطحياً ضحلاً فقال : « اذا اردت ان تنفيني ، ضعني ضمن نظام ؛ انني لست رمزاً حسابياً ؛ انني أنا » .

من الواضح ان لمثل هذا الرفض للمنطق والتحليل العلميين نتائج غريبة . ان علمنا مبني على الفرضية القائلة بأن لعبارة « كل الاجسام تسقط بسرعة ٣٢ قدماً في الثانية ضمن منطقة الجاذبية الارضية » معنى محدداً . فاذا رفضت صحة المنطق فانه يصبح هذراً ، واذا لم ترفضها : فانه من الصعب جداً ، اذا ظللت تتبع هذه الخطوط ، ان تلوم ويلز أو جون ستوارت مل . ولهذا فان كيركغارد يصوغ ذلك في العبارة التالية : هل من الممكن قيام نظام وجودي او بعبارة أخرى : هل يستطيع أحد أن يعيش فلسفة دون ان ينفي الحياة أو الفلسفة ؟ يقول كيركغارد مجيباً على هذا السؤال : لا ، وانما يستطيع الانسان ان يعيش ديناً دون أن يضطر الى نفي الحياة أو الدين . ولا نحتاج الى التوقف هنا للتأمل في السبب الذي قاده الى هذه النتيجة ، وانما الذي يستحق الملاحظة هنا هو أن هذا التأكيد على القيم المسيحية لم يمنعه من مهاجمة الكنيسة بعنف لانها حلت المشكلة على حساب الحياة وجعلتها تلائم المسيحية . لقد كان كيركغارد ونيتشه مفكرين قديرين ، وقد صرحا بفخر أنهما لا منتميان . ولهذا يجب علينا ان نبحث في أعمالها عن دفاع قوي عن اللامنتمي ومركزه ، وذلك ما نجده لديهما بسهولة .

قدّم نيتشه وكيركغارد فلسفة كان اللامنتمي نقطة انطلاقها . ونحن اليوم نستعمل عبارة كيركغارد في الاشارة اليها فنقول « الوجودية » . وحين طبعت أفكار كيركغارد في المانيا حوالي عام ١٩٢٠ ، اخذ الاساتذة تلك الافكار

واستبعدوا منها النتائج الدينية واستعملوا طرقه في التحليل لبناء ما يدعى بالفلسفة الوجودية . وبهذا فانهم انما حولوا تأكيده من اللامنتمي والقوة على ميتافيزيكية هيغل ثانية . تبع ذلك ان اشتهرت الوجودية في فرنسا في أعمال جان بول سارتر والبير كامو اللذين أعادا التأكيد على اللامنتمي ، ووصلا في النهاية الى نتائجهما الخاصة في بحثهما للسؤال : كيف تعاش الفلسفة ؟ وقد فعل سارتر ذلك في « مذهب التسليم » الذي سنبحثه في الفصول القادمة ، أما كامو فقد قال « ابق لا منتمياً » ، ويجب علينا أن نتفحص كلا من هذين على حدة :

يجمع سارتر بمهارة فائقة في أولى قصصه « الغثيان » كل النقاط التي تفحصناها حتى الآن في معرض حديثنا عن ويلز وباربوس : اللاحقيقة، رفض الناس للمقاييس الحضارية ، واخيراً « شاشة السينما » التي تعرض الوجود العاري والتي لا طريق فيها الى الخارج أو ما حول أو الى الداخل . ان « الغثيان » هي سجل حافل لمؤرخ يدعى روكانتان لا يملك ما يملكه ويلز من اجنحة التاريخ العلمي ، وانما هو مؤرخ ادبي يعنى بدراسة حياة سياسي بارع من الهيئة الدبلوماسية يدعى رولبون . يعيش روكانتان وحيداً في فندق من الهافر. أما حياته فهي سجل متصل من الابحاث، والاحاديث الدائرة في المكتبات، والاتصالات الجنسية مع صاحبة الكازينو : أعيش وحيداً ، وحيداً تماماً ، ولا اكلم احداً اطلاقاً ، لا آخذ شيئاً ولا اعطي شيئاً .. »

إلا أن سلسلة من الالهام تضايقه فيقف على الشاطىء ويلتقط حجراً مسطحاً ليقذفه افقياً على الماء ، وفجأة .. « رأيت شيئاً ملأني بالاشمئزاز ، ولست أدري ماذا كان ذلك ، الحجر أم البحر .. » ويلقي بالحجر ويغادر المكان . (١٣)

أما سجل روكانتان فهو محاولة لاسباغ الموضوعية على ما يحدث له . انه يبحث في ذاكرته ويتفحص ماضيه . كان قد حدث شيء ما في الهند الصينية ، دعاه أحد زملائه يوماً الى بعثة أثرية في البنغال ، وكان على وشك قبولها — « ... حين وفجأة ، استيقظت من اغفاءة ست سنوات ... ولم استطع أن افهم لماذا كنت في الهند الصينية ، وماذا كنت أفعل هناك ، ولماذا كنت أحادث

أولئك الناس ، ولماذا تميزت ملابسي بكل تلك الغرابة ؟ كان امـامي بحر رابض بكسل وخمول، بحر هائل، تافه لا طعم له .. ولم أر بوضوح ماذا كان، إلا أنه ملأني بالاشمئزاز ، حتى أنني لم أعد أستطيع النظر اليه . » (١٤)

لا شك في حدوث شيء ما وراء كل ذلك ، هنالك حياته الاعتيادية، بكافة الفروض التي تملأها ، من معنى وهدف وفائدة ، وهنالك تلك الايحاءات ، أو بعبارة أخرى تلك الدوافع المقيتة التي تقلب أعماق حياته العادية . ان السبب واضح فهو يلاحظ الاشياء بحدة وامانة أكثر مما يجب ، وهو ، كويلز ، يسأل عن كل شيء . الى أين سيقود ذلك ؟ انه لا ينفك يلاحظ الاشياء .. انه يعلق على صاحب الكازينو قائلاً : « حين يخلو الكازينو يخلو رأسه ايضاً . » ان حياة هؤلاء الناس هي مصادفات تعتمد على الحوادث ، فاذا توقفت الحوادث ، أي لم يحدث شيء فانهم يتوقفون عن الكينونة . أفظع من أولئك جميعاً هم الفنانون .. أولئك « الكلاب القذرة » الذين يرى لوحاتهم في معرض المدينة الفني ،أولئك المشهورون في المجتمع ، الواثقون من انفسهم، المتأكدون من أن الحياة ملكهم وان وجودهم ضروري لها . وهنا يعود نقد روكانتان على نفسه ، كان هو ايضاً قد قبل معاني كثيرة يجد الآن انها لم تكن كذلك . هو ايضاً يعتمد على الحوادث.

وبينما هو في كازينو مزدحم ، نراه يخشى النظر الى قدح من البيرة، « إلا انني لا أستطيع أن أوضح ما أرى .. الى كائن من كان .. انني أغوص الى اعماق الماء .. الى الخوف .. » (١٥)

وبعد ايام قلائل ، يصف الظروف التي يهاجمه فيها الغثيان وصفاً دقيقاً . ان اشمئزازه يتركز هذه المرة على حمالات بنطلون صاحب الكازينو ، وبهذا نرى أن هذا الغثيان هو تأكيد على دناءة محيط روكانتان . (يذهب سارتر الى أبعد مما ذهب اليه أي كاتب من قبل ، في التأكيد على — الظلام والقذارة — اذ لم يسبق أن أعطى جيمس جويس أو دوستويفسكي مثل هـــذا التأثير عند وصفها العقل الغارق في القذارة الجسدية .) ان ذلك يتملك مشاعر روكانتان ، ذلك الضد الروحي الذي يقابل هذا التهوع الجسدي العنيف.

« ليس الغثيان في داخلي ، انـني احس به في خارجي ، هنالك في الحائط ، في الحمالات ، في كل مكان حولي .. انه يتصل مع الكازينو ليشكلا شيئاً واحداً وانا في داخل ذلك الشيء . » (١٦)

ويصر روكانتان مثل ويلز ، على طبيعة الالهام الموضوعية ، اذ يدير احدهم اسطوانة وينبعث صوت مطربة زنجية تغني « بعض تلك الايام ». وبينما يستمع اليها يختفي الغثيان :

« شعرت حين ملأ صوتها ذلك السكون ، بأن جسدي بدأ يتصلب، وأن الغثيان بـدأ يختفي ، وفجأة أحسست بأن كوني على مثـل هذه الصلابة ، هذا الاشعاع ، أمر لا يحتمل ، كنت « في » الموسيقى ، وكانت هناك دوائر من النار تحيط بها حلقات من الدخان . » (١٧)

لا حاجة بنا الى تحليل هذه التجربة ، فانها التجربة الجمالية القديمـة المألوفة حيث يسلم الفن النظام والمنطق الى الفوضى .

« انني مأخوذ، وأحس بأن جسدي صار في مثل هدوء آلة الضبط . كانت لي مغامرات حقيقية ، غير أنني لا استطيع استعادة شيء من التفاصيل، إلا أنني أدرك تتابع الحوادث العنيف . لقد طفت بحاراً ، وتركت ورائي مدناً وتبعت مجاري الأنهار ، وتغلغلت في الغابات، شاقاً طريقي الى مدن اخرى. كانت لي نساء ، وكنت قد كافحت ضد رجـال ، إلا أنني أشعر أن محاولتي لاستعادة ذلك كله تشبه محاولة ادارة اسطوانة بالعكس . »

انه لا يتأثر بالأعمال الفنية . الفن هو الفكر ، والفكر يهب العالم بعض ملامح النظام الذي يقتنع به من كان ضعيفاً بما يكفي ليفعل ذلك . هنالك شيء واحد لا يلوح زائفاً ، الشعور المنتظم بالايقاع الفكري الذي تثيره بعض الاغاني مثلاً . على أن ذلك ايضاً يمكن أن يعتبر ملاذاً وقتياً ، اذ سرعـان ما يطيح الانهاك العصبي بمعنى النظام ، حتى في يوم من « بعض تلك الايام».

اننا نجد في هذا السجل تحطم قيم روكانتان كلها . ان الانهاك يقصره شيئاً فشيئاً على الحاضر فقط ، على الآن . يفشل لديه عمل الذاكرة ، الذاكرة التي

تهب الحوادث تتابعها وتماسكها ، ويتركه ذلك الفشل معتمداً في بحثه عن المعنى على الأشياء التي يراها ويحسها فحسب . انها شكوكية هيوم ، التي تصبح فيه فطرية ، مدمرة . على أن كل ما يراه ويلمسه لا يمكن تمييزه ، لا تعينه الذاكرة ، كصورة شيء مألوف مأخوذ من زاوية غير مألوفة . انه ينظر الى مقعده ويفشل في تمييزه ، « واتمتم متذمراً ، انه مقعد ، إلا أن الكلمة تبقى على شفتي . انها ترفض ان تنطلق وتستقر على الشيء . كأن الأشياء قد طلقت من اسمائها. انني في وسط الاشياء .. الاشياء اللامسماة . » (١٨)

وتأتيه طبيعة الالهام الكاملة حين يجلس في الحديقة العامة ممعناً النظر في جذور شجرة الكستناء :

« ولم أستطع أن أتذكر أنه كان جذراً. لقد اختفت الكلمات ، واختفت معها مدلولات الاشياء ، وطرق استعمالها ،ونقاط الاشارة الضعيفة التي يتتبعها الناس على سطوحها . كنت جالساً ... أمام هذه الكتلة المعقدة تعقيداً وحشياً تماماً ، الأمر الذي اخافني ... بل تركني مكتوم الانفاس . لم أكن أفهم معنى كلمة «الوجود» قبل الايام القليلة الماضية . كنت مثل الآخرين ، وكنت أقول مثلهم : ان المحيط أخضر وان تلك البقعة البيضاء الموجودة هنالك هي أحد طيور النورس ، إلا انني لم أكن اشعر أن ذلك الطائر كان موجودا .. وفجأة رفع الوجود البرقع عن نفسه .. لقد فقد ملامح الصنف المجرد ، وصار صبغة الأشياء ، ولاح كأن هذا الجذر مجبول بالوجود.. أشعرتني هذه الأشياء بالقلق . كنت أود لو كانت هذه الاشياء موجودة بأقل من هذه الجبرية ، بجفاف اكثر ، بتجريد أشد . » (١٩)

وهنا يصل الى نهاية الاحتقار النفسي ، فحتى الاشياء صارت تنفيه . ان تجربته مألوفة لدينا ، خاصة حين تواجه الاشخاص الآخرين . شخصية أو اعتقاد يستطيع أن يفرض نفسه بالرغم من مقاومتنا . بل ان المدينة نفسها ، بما فيها من فوضى في حركة المرور ، والكائنات البشرية ، تستطيع أن تسيطر على شخصة ضعيفة وتشعرها بلا معناها . وروكانتان يحس بهذا اللامعنى في مواجهة

الاشياء ، وبدون هذا المعنى الذي ينتظر من ارادته ان تسبغه على تلك الاشياء يصبح وجوده سخيفاً . أما العرضية – بعبع هيوم – فقد تدهورت ، ولهذا فليست هنالك مغامرات . ان سجل رولبون يمكن ان يعتبر مغامرة اخرى من الاعتقاد السيء لانها أضفت ضرورة على حياة رولبون لم تكن هنالك حقاً ، ولم تكن الحوادث لتتبع احداها الاخرى بتماسك قصصي ، بل ان يكون الانسان أعمى عن رؤية الوجود الخام العاري هو وحده الذي يستطيع ان ينتج الوهم الذي يولد ذلك الاضفاء .

ماذا هنالك اذن ؟ ان لم تكن هنالك عرضية أو معنى محتمل ؟ ان سارتر يلخص الحياة قائلاً : « الانسان هو عاطفة غير مجدية » . لا اختيار هنالك في رأي روكانتان ، وانما هنالك كينونة عدم الجدوى مع معرفة هـذه الكينونة ، وكينونة عدم الجدوى مع عدم معرفتها .

على أن روكانتان هذا كان يرى الاشياء على معناها ونظامها في السابق ، في « بعض تلك الايام » . كان هنالك معنى وسببية ونغمة تتبع أخرى بصورة لا يمكن تجنبها . ويتعجب روكانتان : لماذا لا يستطيع ان يخلق شيئاً من ذلك ؟ شيئاً ايقاعياً دفاعياً – ربما قصة يقرأها الناس فيما بعد يشعرون بأنه كانت هنالك محاولة لتنظيم الفوضى . سيترك الهافر اذن ويترك حياة رولبون ، يجب ان تكون هنالك طريقة أخرى للحياة ، طريقة مجدية . وهنا ينتهي السجل .

يعيش روكانتان مثل بطل باربوس ، فغرفته هي حدود ادراكه . الا انه يذهب الى أبعد وأعمق مما يذهب اليه رجل « ثقب الحائط » . لقد بلغ سلوكه نهاية ويلز المميتة ، « الانسان هو عاطفة غير مجدية » : ان هذه العبارة تصلح ملخصاً لعبارة « العقل في منتهى حدوده » . ذلك هو الرفض التام ، كما في كتاب اليوت « الفارغون » : « نحن الفارغون ، نحن الكلاب القذرة » ونجد روكانتان في مركز بطل « بلد العميان » ، فهو وحده المدرك للحقيقة ، ولو كان الناس جميعاً يدركونها فستكون تلك نهاية الحياة ، ذلك لان الاعور في بلد العميان ملك . على ان ملكيته هذه هي ملكية على لا شيء ، فهي لا تمنحه قوة ولا

امتيازات ، وانما تفقده الايمان ، وتنهك فيه القوة على الاداء . ان عالم هذه الملكية هو عالم بلا قيم .

هذه هي الوضعية التي يجلبنا اليها بطل باربوس ، والتي تلوح واضحة في رغبته التي أثارتها أذيال النساء المرتفعة ، ولم يكن راغباً في الاتصال الجنسي ، وانما كان يريد نوعاً من الحرية لا يمكن تعريفه ، يتمثل في النساء وفي عريهن المستور . كانت الرغبة الجنسية موجودة في ذلك كله ، الا أنها لم تكن لوحدها فقد كان هو مستاءً مملوءاً كالبالون باشمئزاز ثائر ضد ربكة باريس المسرعة ونسائها الانيقات . « الا أنني مع ذلك أريد شيئاً من التعويض » ، وبالرغم من المدنية التي فرضت عليه لا معنويته حتى تأكد لديه أنه « لا يملك شيئاً ولا يستحق شيئاً ، فانه ليشعر بأنه يملك حقاً في ..... في ماذا ؟ الحرية ؟ انها كلمة أسيء استعمالها . اننا نتفحص « الجحيم » باحثين عن تعريف له دون جدوى . لقد قرر سارتر وويلز ان الانسان ليس حراً مطلقــاً ، وانه من الحمق والسخافة بحيث لا يلاحظ ذلك . واذن ، فما هو ذلك الشيء الذي هو من حق اللامنتمي .

ينقلنا هذا السؤال الى ناحية أخرى ، الى لامنتمين توفر لديهم شيء من لا ادراك لطبيعة الحرية .

الفصل الثاني

عالم بلا قيم

يميل اللامنتمي الى التعبير عن نفسه بمصطلحات وجودية ، ولا يهمه التمييز بين الروح والجسد ، أو الانسان والطبيعة ، ذلك ان مثل هـــذه الافكار تنتج تفكيراً دينياً وفلسفة في حين انه يرفضها معاً . ان التمييز الوحيد الذي يهمه هو بين الوجود والعدم . وفي ذلك يقول بطل باربوس : « الموت ، انه اهم الافكار اطلاقاً » .

يمثل باربوس وويلز مفهومين مختلفين للمشكلة . فأما مفهوم باربوس فيمكن ان يقال عنه انه تجريبي . ذلك أن بطله ليس مفكراً ، فهو يقبل العيش ، وانما يرفض قيم هذا العيش ، أما ويلز فيبتعد أكثر في رفضه ، بل ان نتائجه لتصل الى حد النهيلستية (الاباحية العدمية) ، ونتائجه هذه مثل نتائج هيوم، استدلالية.

أما في حالة روكانتان ، فانه يصل الى نتائجه بواسطة تعاون العقل والتجربة ، الا انه يندفع الى حد النهيلستية بواسطة العنصر العقلي أيضاً . ان شعاع الامر في (انقاذ) يأتيه من مستوى تجريبي لم يؤثر عليه التفكير الاستدلالي ، انه يأتيه من امرأة زنجية تغني « بعض تلك الايام » .ان العقل يقود الى الطريق المسدود، ولكن اذا كان هنالك حل فانه يجب ان يوجد ، لا في العقل ، وانما في تفحص التجربة .

الا أننا يجب أن نحتفظ في أذهاننا بالاحتمال المنطقي القائل بأنه قد لا يكون هنالك حل . وعلى كل حال يجب علينا الآن أن نتفحص هذا المفهوم التجريبي .

ان لامنتمي ألبير كامو هو أكثر تجريبية من لامنتمي باربوس ، بل انه ليفكر أقل منه ، وليس لديه نبوغ ، ولا مشاعر غير اعتيادية ليمنحها ، بل انه لا يملك شيئاً من المشاعر .

« ماتت امي اليوم أو بالامس ، انني لست متأكداً » (١) ان هذه النغمة تتكرر في « الغريب » كما أن هذه القصة تحافظ على تقليد « الجحيم » و « الغثيان » في أن البطل يسجل يومياته . ونرى هنا أن ميرسول شاب جزائري تكشف الصفحة الاولى عن شخصيته : انه يقصد مخدومه سائلاً اياه ان يعطيه اجازة ليحضر دفن أمه ، فيقول :

« آسف يا سيدي ، غير انها ليست غلطتي كما تدري » ، «ولاح لي بعد ذلك انني لم أكن في حاجة الى أن أقول ذلك ، ... لأن عليه هو أن يعبر عن شعوره نحوي في هذا الصدد » . فلو كان ميرسول قد شعر بموت أمه ، لما اعتذر ولكنه وكما يكتشف القارىء ، لم يشعر بذلك الا قليلاً . ولا يعني ذلك انه خائب ، أو متعب من العالم . ان أمثاله من الهاذين هم أقرب الى «شبان في أصداف » للكاتب ب. ج. ودهاوس . انه يتمتع بالطعام والشراب والاستحمام الشمسي ، والذهاب الى السينما. انه يعيش في الحاضر . وهو يروي نبأ موت امه بطريقة موضوعية ،غير انه لا يحس بذلك . لقد أثر ذلك فيه حقاً، لانه اضطر الى ان يسهر الليل بكامله ، أما ما عدا ذلك ، فانه لم يتأثر بشيء . وهو يذهب في اليوم التالي للسباحة ، ويبدأ علاقة مع فتاة جديدة ، وتتطور علاقتهما بصورة سريعة وضمن نصف صفحة من القصة فقط ، اذ يشاهدان فلماً مضحكاً ، ثم يعودان الى غرفته هو ، ليناما معاً . وبعد أن ترحل في الصباح : « نمت حتى العاشرة ، ثم بقيت في فراشي حتى الظهر أدخن السكائر » (٣) .

ذلك هو الجو الذي يصوره اليوت أيضاً في « الارض القفر » : « انني أقرأ كثيراً في الليل ، وأذهب الى الجنوب في الشتاء » . وان ما يدهشنا عند المقارنة

هو عدم وجود الاستهجان الخلقي في كتاب كامو ، اذ ليس هنالك ما يوحي بأن كامو يريدنا أن نلوم ميرسول على خموله التافه ، أما الشيء غير الاعتيادي في ميرسول فهو امانته ، فان الفتاة تسأله ان يتزوجها فيوافق في الحال :

« ثم سألتني ثانية عما اذا كنت أحبها . فأجبتها بأن سؤالها يعني لا شيء أو أنه قريب من اللاشيء ، الا أنني أضفت انني لم أكن أحبها » (٤) .

تنبعث هذه الامانة من عدم الاكتراث لمسائل الشعور ؛ انه لا يعلق أهمية ما على أي شيء ، فلماذا يكذب ؟ ويصاحب ميرسول أحد السماسرة ، ثم يجد نفسه مشتركاً في ثأر قديم بين السمسار ورجل عربي . وينقضي يوم آخر على الساحل وينتهي ذلك اليوم بأن يصيب ميرسول العربي فيموت . لقد كان الأمر دفاعاً عن النفس ، غير أن العربي لم يكن مسلحاً ، كما أنه لم يكن هنالك شهود . الا أنه يجد نفسه في المحكمة بتهمة القتل . وهنا تقف كل مميزاته بوصفه لا منتمياً ضده . فان من يرتكب جريمة القتل يجب ، على الأقل ، أن تكون لديه مصلحة ما في تلك الجريمة . ويجد ميرسول ان كل ما يستطيع أن يفعله لينال البراءة هو أن يبكي ويحتج ، مظهراً ارتباكه بهذا الحادث المروع . غير ان عدم اكتراثه الذي يظهره في البداية يحيّر مستجوبيه ، فلا يملكون الا ان يعتبروا ذلك في منتهى الوحشية . ولنعد الآن الى أمه ، فلماذا لم يؤثر عليه موتها ؟ ألم يكن يحبها ؟ وهنا تقف أمانته أيضاً ضده .

«أستطيع أن أؤكد حازماً انني كنت مولعاً بها غير أن ذلك لم يكن يعني شيئاً كثيراً» .

وكان القاضي رجلاً متديناً طيباً ، مجبولاً على البحث عن أتفه سبب يدعوه الى تبرئة ميرسول لأنه « من المبهج جداً أن يتوب المرء عن خطاياه » ، ولهذا فان الدموع تنهمر من عينيه ، فيقدم الى ميرسول صليباً ويطلب منه ان يتوب . الا ان ميرسول ينظر اليه بدهشة . كل هذا لا يعني شيئاً ، بل انه بعيد عن الموضوع والا فعن أي شيء يتوب ؟

وتتم محكمة ميرسول ، وهنا يعود كامو الى اظهار السخرية بعد أن كان يخفيها ، اذ نرى ميرسول ، البريء براءة المستر بيكويك ، يستمع الى المدعي العام وهو

يقول بصوت عميق مؤثر :

« يا حضرات المحلفين ، أود أن تلاحظوا أن هذا الرجل ذهب في اليوم التالي لوفاة أمه الى بركة السباحة ، وهنالك بدأ علاقة غرامية مع احدى الفتيات وذهب معها لمشاهدة فلم هزلي .. ذلك هو كل ما أود ان أقوله » . (٥)

أجل ، كان ذلك كل ما يحتاج اليه ، لأن ميرسول يحكم عليه بالاعدام ، ويزوره القسيس في زنزانته ملحاً عليه بالتوبة . وفجأة يرى ميرسول نفسه غير قادر على تحمل كل هذا الحمق ، فيمسك بياقة القسيس ويصب عليه جام غيظه :

« لقد كان واثقاً من نفسه جداً ، كما ترى . الا ان أية حقيقة من حقائقه لم تكن لتساوي خصلة واحدة من شعر امرأة .

.... لا شيء .. لا شيء مهم أقل أهمية ، وقد عرفت جيداً لماذا .. لقد كان يهبّ علي من أفق مستقبلي المظلم نسيم مستمر بطيء .. وكان ذلك النسيم يعادل كل الافكار التي حاول الناس أن يحشروها في ذهني خلال السنوات اللاحقيقية التي عشتها .

.... كل شيء سيحكم عليه بالموت يوماً ما ، وسيأتي دوره أيضاً كالآخرين. ترى أي فرق هنالك اذا كان سيعدم بعد أن اتهم بالقتل ، لأنه لم يبك في جنازة أمه ، ما دام كل شيء سينتهي الى النهاية نفسها بعد حين من الزمن » . (١٦)

وتهديه أفكاره الأخيرة قبل نومه في ليلة اعدامه ، الى نوع من الادراك :

« لا بد أن أمي شعرت ، حين اقترب الموت منها مثل هذا الاقتراب ، بشعور من يقف على حافة الحرية مستعداً ليبدأ حياة جديدة..وأنا أيضاً شعرت باستعدادي لأبدأ الحياة من جديد . انه يلوح ان هذا الغضب المندفع قد نظفني ، وأفرغني من الأمل ، وبينما كنت أحلق في السماء المظلمة ... فتحت قلبي الى عدم الاكتراث الكوني البديع .. لقد كان شعوري بذلك كشعوري بنفسي .. جعلني أدرك أنني كنت سعيداً ، وأنني ما زلت سعيداً . كل ما بقي لي ، لكي أقلل من شعوري بالوحدة ، هو ان آمل ازدحام المكان في ساعة اعدامي بالمفتشين الذين سوف يحيونني بصرخات السباب واللعنات » (٧)

لقد كشفت الصفحات الأخيرة من القصة عن سر ميرسول ، عن سبب عدم اكتراثه . وكان ذلك السبب هو شعوره بلا حقيقيته . وقد ظل يعيش حياته كلها بنفس المعنى الذي عاش به روكانتان : كل هذا هو غير حقيقي . غير ان معنى اللاحقيقية لا يعذبه كما عذب روكانتان ولا منتمي الفصل الاول ، لأنه يقبل الحياة ، ضوء الشمس والطعام وأجساد الفتيات ، ويقبل اللاحقيقية أيضاً . انما كان الأمر الذي أوقفه « ايقافاً وحشياً مرعداً » كما يقول ويلز ، هو المحاكمة . لقد أيقظه توقع الموت ، فبث فيه ما بث الغثيان في روكانتان ، غير أن يقظته كانت ، بقدر ما يعنيه الأمر ، متأخرة جداً ، الا انها أعطته على الاقل فكرة عن معنى الحرية . الحرية هي الفكاك من اللاحقيقية . « لقد كنت سعيداً ولم أزل سعيداً » ولكن أين هي حقيقة كونه سعيداً ، اذا كانت السعادة ما تزال مختفية عن الادراك بستار كثيف من اللاحقيقية ؟ لقد وضع سارتر ادراك ميرسول في عبارة : « الحرية هي الرعب » ، وهو يلاحظ في « معاهدة الصمت» انه لم يشعر بكامل حريته وحياته الا في ايام الحرب ، حين كان يعمل في المقاومة السرية ، وهو في خوف دائم من الخيانة والموت . انه لمن الواضح ان الحرية ليست كونك تفعل ما تريد ؛ انها شدة الارادة ، وهي تظهر في اي ظرف يحدد الانسان ويبعث الحياة في ارادته .

ان القارىء ليدهشه تشابه أعمال كامو مع اعمال فرانز كافكا . ذلك ان كافكا يبرز مفهوم اللاحقيقية بالتقصد في استعمال اسلوب الحلم . يستيقظ بطل « المسخ » ذات صباح فيجد نفسه قد تحول الى خنفساء كبيرة . أما في « المحاكمة » فان البطل يقبض عليه ويعدم دون ان يعرف لماذا . ويلوح المصير مرتبطاً بهذا السؤال : اذا كنت تعتقد بأن الحياة حقيقية ، فما رأيك في هذا ؟ بل انه ليأمره : صرّح بحريتك والا ...

ان أولئك الذين يفشلون في التصريح بحرياتهم يلاقون كوارث مفاجئة ، الغثيان والمحاكمة والاعدام ، أو التحول الى شكل أحط من أشكال الحياة . غير ان « مسخ » كافكا يعتبر أمراً عادياً في رأي بوذي من التيبت .

يذكرنا كامو في « الغريب » بكاتب حديث آخر عالج مشكلة الحرية أيضاً ، هو ارنست همنغواي . ذلك ان المستوى الذي ترينا اياه « الغريب » هو نفسه ذلك الذي يتجلى في اقصوصة « وطن الجندي » ، غير ان مقارنتها الواحدة بالأخرى توضح لنا ان اعمال همنغواي كلها لها دلالتها على مشكلة اللامنتمي الوجودي . ان مساهمة همنغواي في هذا الأمر تستحق الاهتمام من هذه الزاوية .

تقص لنا « وطن الجندي » قصة جندي امريكي عاد من الحرب بعد سنة ١٩١٩ بقليل ، وكان كريبز هذا قد التحق بجامعة مقلدة قبل ان يشترك في الحرب ، أما حين عاد فانه فقد كل اتصال يربطه بعائلته وحياته السابقة . وليس هنالك من يرغب في الاستماع الى تجاربه السابقة ، في ايام الحرب ، ما عدا القصص الواقعية على أي حال .

« امتلأت اعماق كريبز بكراهية لكل ما حدث له في الحرب وكان ذلك بسبب الاكاذيب التي رواها . ان كل تلك الاوقات التي كان بامكانها ان تجعله يشعر بالوضوح الداخلي والهدوء ، حين كان يفكر بها ، كل تلك الاوقات التي كان يفعل فيها شيئاً واحداً ، الشيء الوحيد الذي يفعله الانسان بسهولة وبصورة طبيعية ، وحين كان في امكانه ان يفعل شيئاً آخر ، كل تلك الاوقات فقدت الآن رسوخها ونوعيتها الممتازة ، بل تلاشت هي نفسها » (٨)

انه يحس في بلاده بنوع من الخمول يجعله يقضي اوقاته بين القراءة والمراهنات. انه يريد فتاة ما ، غير انه لا يستطيع ان يتغلب على خموله ليزعج نفسه بالبحث عن واحدة . وتخاطبه أمه ذات صباح عندما كان يتناول طعام الافطار ، قائلة :

— « خلق الله لكل انسان عملاً ، ولهذا لا تجد يداً كسولة في مملكته » .

ان هذا الذي تقوله امه يعتبر لا معنى بالنسبة الى اللامنتمي ،ولهذا يجيبها قائلاً :

— « لست في مملكته » .

— « اننا جميعاً في مملكته » .

ويحس كريبز بالضيق والاشمئزاز ، كالعادة . وتسأله أمه :

— « ألا تحب أمك يا عزيزي ؟ »
— « كلا .. »
فتنظر اليه عبر المنضدة ، وتلمع عيناها ، ثم تبكي ، فيقول كريبز :
— « انني لا أحب أحداً . »
لم يكن ذلك مفيداً على حال ، فانه لم يستطع أن يخبرها ، لم يستطع أن يجعلها ترى الأمر. وكان من السخف أن يقول ذلك ، فيضيف كريبز :
— «لم أعن ذلك، كنت منفعلاً من شيء ما ولم أقصدأنأقول انني لا احبك.»
وتقول له امه :
— « أنا أمك ، وقد حملتك بجانب قلبي حين كنت طفلاً صغيراً جداً ... »
فيشعر كريبز بالمرض ، بالغثيان (٩) وتصر أمه على أن يركعا معاً ويصليا فيخضع ، إلا أنه لا يستطيع أن يصلي حين تسأله أن يفعل ذلك، ويقول لها بعد ذلك : انه حاول أن يجنب حياته التعقيد وان حياته ما تزال معقدة .. كان قد شعر بالأسف لأمه ، التي جعلته يكذب .. وانه سوف يذهب الى كانساس سيتي ليبحث فيها عن عمل .

ان التشابه قوي جداً بين كريبز وبين بطل كامو، ميرسول، مع فارق واحد ، هو أن حالة كريبز العقلية هي نتيجة تجارب من نوع واحد ، في حين ان حالة ميرسول العقلية هي طبيعية جداً بالنسبة اليه ، ولولا ذلك لاستطعنا أن نضع كلاً منهما في مكان الآخر . على ان هذا الفارق مهم جداً، اذ ان ميرسول بلغ حالة الوضوح الداخلي والهدوء في ليلة أعدامه ، وكان ذلك متأخراً جداً ، في حين أن كريبز وجد معنى الحرية خلال تجاربه السابقة في الحرب ، أما الآن ، وقد عاد الى بلاده ، فانه يشعر بأن هذه الكيفية من الحياة لا يمكن ان تدعى بالحرية . ان الاوقات التي فعل فيها شيئاً واحداً ، الشيء الوحيد الذي يفعله الانسان بسهولة وبصورة طبيعية ، قد أرته شيئاً من المعنى ، جزءاً من نفسه لا يقنع بالتافه ، باللابطولي . ان الحرية هي ايجاد اتجاه عملي يهبه تعبيراً عن ذلك الجزء من نفسه .

تلك هي فكرة معظم أعمال همنغواي الأولى . ونجد في قصته الأولى « الشمس تشرق ايضاً » جواً خانقاً من التفاهة واللابطولية ، فبطلها جاك بارنز يخوض غمار الحرب ويصاب بجرح خطير يجعله غير قادر على الاتصال بالنساء جنسياً. ان هذا الجرح يصبح رمزاً لكل مأساة الحرية غير المدركة . انه يحب امرأة ، إلا أنها تضطر الى الاتصال برجال آخرين لاشباع جنسيتها . أما باريس حوالي ١٩٢٠ ، فليست غير جو تافه مؤلف من الشراب والرقص ، واشخاص يشبهون أشخاص الأرض القفر «التافهين» : « انني ارى حشداً من الناس الذين يسيرون دائرين في حلقة » . ولا يعود همنغواي الى الماضي ، الى انبياء الكتب المقدسة أو الى جحيم دانتي بحثاً عن المعنى ، انه اقل من اليوت من حيث اسلحته العقلية ، وهو لا يجد في ماضيه الخاص إلا الذكريات البطولية والحرب ، والصيد والقنص في غابات مشيغن ، حيث يجد مصارع الثيران الذي يجازف بحياته كل يوم . إلا انه لا بد يتفق مع سارتر في ان الحرية « هي الرعب » ، أو في أن الحرية هي الأزمة .

يذهب جاك بارنز في رحلة صيد الى اسبانيا ، فيرى هنالك مصارعة الثيران وبالرغم من حبه الفاشل فاننا نجده قانعاً بالحياة . أما في حالة ميرسول فان الطعام والشراب ونور الشمس تؤلف في نظره أشياء كثيرة . ان جواب همنغواي على شكاوى اليوت في « الأرض القفر » هو : البحث عن البطولي . ويقول جاك بارنز في «الشمس تشرق ايضاً» : « لا يوجد احد يعيش حياته بكاملها كمصارعي الثيران.» (١٠) ان تفاصيل حياة همنغواي تكمل لنا الصورة التي تخططها أعماله، ذلك ان كل شيء يكتبه انما يشير الى تجربة من تجاربه . وتعالج قصصه الاولى طفولته في غابات مشيغن ، والأحداث التالية في ايام الحرب . اذ يذهب البطل (نك آدامز) لصيد الاسماك أو التزحلق أو ركوب الزوارق ، ويتصل بفتاة هندية على بساط من عيدان الصنوبر المدببة ، دون أن يكون هنالك أي ظل في عالمه ، وهو يقرأ موريس هيوليت وج. ك. تشيسترون ومارك توين . وهكذا فان كل شيء مرح . ان الحرب هي التي تسبب الاختلاف، ذلك ان فكرة الشر بدأت تتغلغل في ذاته منذ عودته من الحرب . تلك هي فكرة عدم

التوافق الأساسي ، التي لا يمكن تفاديها بالانهماك مع البغايا . ويرينا همنغواي في مختلف القصص الطويلة والقصيرة اشكالاً مختلفة من حدوث السقوط . كما أن من يروي القصة هو همنغواي نفسه ، مما يجعلنا مصيبين في اعتقادنا بأن كل قصة هي جزء في الاسطورة ذاتها . يصاب نك آدمز بجرح خطير ويفقد وعيه ، وبينما يسنده البعض الى حائط قريب يعلق قائلاً : « سنتا ليناردي ، لقد حققنا أنا وأنت سلامنا الخاص .. » أما بطل « قصة قصيرة جداً » اللامسمى فانه يحب ممرضة في أحد مستشفيات بادوا ثم تخونه ، ويصاب بعد ذلك بمرض السيلان من جراء اتصاله باحدى بائعات المخازن في شيكاغو . وينتهي الأمر بجاك بارنز الى أن يفقد قوته الجنسية . ونجد في « وداع للسلاح » ان فردريك هنري يحب ممرضة تشبه ممرضة « قصة قصيرة جداً » ، إلا انه يفقدها اذ تموت وهي تضع طفلاً . وبعد نشر « وداع للسلاح » في سنة ١٩٢٩ بدأت تغلب على أعمال همنغواي المسحة النهيلستية التي نجدها عند ويلز في « العقل في منتهى حدود الاحتمال » ، الشعور الفكري الخانق المنطوي على نفسه .

ويجد همنغواي نفسه بعد الحرب في الوضعية نفسها التي وجد كوربورال كريبز نفسه فيها ، الماضي الميت على يديه ، والمستقبل الذي يلوح كحياة ما بعد الموت . وتبدأ القصص الأولى بمحاولة لاعادة بناء الماضي ، في حين تعتبر جماعة نك آدمز لديه منتهى ما تصل اليه تلك الاسطورة ؛ تتبع ذلك محاولته الرئيسية من أجل هذا البناء في « وداع للسلاح » ، التي تعتبر أقوى أعماله ، لأنها تبعث الدفء وتشيع معنى من الايثار لاعادة الحياة الى قسم من الزمن الضائع . على ان الصفة الرئيسية التي وجدناها في قصصه الاولى تختفي في قصصه التالية ، فتلوح تلك القصص باردة ، بمقارنتها بالاولى . ان « وداع للسلاح » تبدأ بتحليل بارع للامعنى ، للارتباك الذي يحس به الجندي في بلد غريب عنه . ان هذا الجندي يشرب في الملاهي والحانات « حيث تدور الغرفة بك فتضطر الى تثبيت عينيك على الحائط لايقافها » ، أو ليلة في فراش وانت سكران ، حين تعلم بأن ذلك (تلك) كانت كل من معك هنالك ، والغرابة التي تحس بها عند

استيقاظك محاولاً أن تتذكر من كان معك ، بينما تجد العالم كله شيئاً لا حقيقياً غارقاً في الظلام ... » (١١) . وحين يبدأ فردريك هــنري مغامرته الغرامية مع الممرضة ، فانه لا يحتاج إلا الى عبارات ثلاث ...

« لقد قلت انك تحبني ، أليس كذلك ؟ »

أجل « كنت كاذباً » لقد أحببتك ، « لم أقل ذلك من قبل » .. (١٢)

انه يجد نفسه في مثل وضعية ميرسول وكريبز ، فالحب مستحيل حين يكون هنالك معنى متسلط من اللاحقيقية ، انه لا يدرك انه يحبها حقاً إلا حين يجد نفسه جريحاً في ميلانو ، والممرضة نفسهـا تحنو عليه ، وهنـا تتلاشى اللاحقيقية ويتبدل جو «الغريب» ليصبح جواً آخر يشبه ذلك الذي نجده في «تريستان وايزولت» التي يعتبرها همنغواي روميو وجولييت بالنسبـة اليه . ان « وداع للسلاح » قصة رائعة تفوق عند المقارنة أية قصة من نوعها ، أي قصص الرسائل في الأدب الحديث . ويتميز كل مشهد من مشاهدها بحيوية رائعة عنيفة ، كما ان همنغواي يبلغ في المشهد الذي يصور فيه موت كاترين وهي تضع طفلها تلك الروعة التي تتجلى في المشهد الأخير من « تريستان وايزولت » .

لقد قبض همنغواي بقوة على تلك التجارب التي جعلته يشعر بالبرود والوضوح الداخلي ، كما أنه يرينا في هــذه القصة قابليته على التأثير على القارىء ، ذلك التأثير الذي يقصده سارتر حين يقول على لسان بطله .. « انني مأخوذ ، وأحس بأن جسمي هادىء هدوء آلة الضبط . »

أما المراحل التالية في أعمال همنغواي فانها أقل ارضاء . كانت المشكلة لديه هي في كيفية الانطلاق من الجدية والشدة التي تخلقها الحرب الموجودة دائماً في ماضيه . وان محاولاته العديدة في الصيد الخطر ، وصيد الاسماك وسط البحار الهائجة ، واخيراً اندفاعه الى اسبانيا حال اندلاع الحرب الاهلية فيها ، تلك كلها محاولات تكشف عن فشله في حل مشكلته . ان القاعدة التي اتبعها في كتبه التالية تلوح وكأنه حصل عليها من تفكيره في العناصر التي اعتقد بأنها كانت السبب في نجاحه الفني السابق ــ الواقعية ، العنف ، والجنس ، والحرب ،

معيداً اياها بشيء من الاختلاف . وان العناصر التي تهب اعماله الأولى أجواءها الفريدة ، المؤلفة من مزيج من اليأس الديني والغموض الطبيعي البدائي ، تلك العناصر اختفت وحل محلها عناصر يمكننا أن نجدها لدى ستة آخرين من كتاب امريكا، أو في الواقع لدى الماديين التاريخيين السوفييت.

وبالرغم من ذلك فان جانباً من اعماله الاخيرة ينجح في اظهار مرحلة جديدة من مراحل مشكلة اللامنتمي ، لا نجدها عند ميرسول أو كريبز. ذلك ان معنى اللاحقيقية يتلاشى عند فردريك هنري وسط اخطار الحرب ، وحين يحس بحبه لكاترين . (ويجب ان نلاحظ هنا أن كاترين كانت تحبه منذ زمن بعيد قبل أن يدرك هو حبه لها ، كما انها أشد تماسكاً فطرياً ، وأقل تأثراً بالمجرد منه) . ان الشعور بأن الكلمة النهائية هي للسلبية ، موت كاترين ، هو ادراك انضج من الشعور بأنه ليس هنالك شيء ذو اهمية.

وتحتوي قصصه القصيرة التي كتبها بعد سنة ١٩٣٠ على عبارات يمكن أن تعتبر أمثلة لعقيدة همنغواي واسلوبه . ولنبدأ بفردريك هنري حين يرى كاترين وهي تموت :

« ستموت كاترين .. لقد كان ذلك ما فعلته انت ايضاً .. فقد مت ، ولم تكن لتعلم علام كان يدور الأمر ، لم يكن لديك الوقت الكافي لتعلم .. لقد قتلوك في النهاية ، وتستطيع أن تصدق ، ابق قريباً وسيقتلونك .. » (١٣)

أو الضابط في قصة « في بلد آخر » ، حين تموت زوجته :

« يجب على المرء ألا يتزوج .. واذ كان عليه أن يفقد كل شيء فانه يجب أن لا يضع نفسه في موقف يفقد فيه ذلك .. يجب عليه أن يجد أشياء لا يمكن أن يفقدها . » (١٤)

أو رأى المشوه القاسي القلب في « المقامر والراهبة والراديو » :

«الدين أفيون الشعوب ... أما الآن فان الاقتصاد هو أفيون الشعوب بالاضافة الى الوطنية .. فماذا عن الاتصال الجنسي ؟ أليس ذلك ايضاً أفيون الشعوب ؟ على أن الشراب هو الأفيون الحاكم ، الأفيون الرائع .. مع أن بعض الناس

يفضلون الراديو ، الذي يعتبر أفيوناً آخر للشعوب .. » (١٥)

هنالك ايضاً الندل العجوز في قصة « مكان نظيف مضيء » الذي يصلي .. « لا تجد شيئاً ، وليس فيك شيء، اذن فلا أحد معك .. »

وهنا تصبح مواجهة الموت مواجهة اللامعنى ، مواجهة اللاشيء في الحياة . ان القيمة الوحيدة الباقية هي الشجاعة ، كما يرينا اياها سانتياغو في « الشيخ والبحر » حين يقول : « من الممكن تدمير الانسان ، ولكن ليس من الممكن قهره » . على أن هذه الشجاعة مشكوك فيها ، لأن الموت ينفيها، في حين أن الأسباب التي تبعثها هي عادة أفيون الشعوب ».

هنالك قصة قصيرة كتبها همنغواي قبل عام ١٩٣٣ وهي تعبر عن فلسفته في الحياة باختصار . تلك هي التجربة الفاشلة في الاسلوب ، التي تدعى « التاريخ الطبيعي للأموات » . انه يبدأ هذه القصة بحديث منكو بارك عن القدسية التي « تضع نهاياتنا » ، فيذكر كيف أن العطش ينهكه في الصحراء، ويرى زهرة صغيرة فيتساءل : « هل يمكن لذلك الذي خلق وسقى وانضج هذا الشيء الذي يلوح عديم الأهمية ، هل يمكن له أن ينظر بلا اكتراث الى شقاء المخلوقات التي خلقها طبقاً لصورته ؟ » ويتشجع بهذا فيواصل سيره حتى يجد الماء . أما همنغواي فيتساءل : « هل يمكننا أن ندرس التاريخ الطبيعي دون أن يزداد ايماننا وحبنا وأملنا ، تلك الاشياء التي يحتاج اليها كل واحد منا في سفره خلال مصاعب الحياة ؟ دعنا نرى اذن أي الهام يمكننا أن نستوحيه من الاموات . » (١٦)

وتصبح القصة بعد ذلك وصفاً ساخراً لتجارب الحرب ، فيتذكر البغال المحطمة السيقان في « أزمير » : « التي يدفعها الجنود لتغرق في المستنقعات ... « متمنين رساماً آخر مثل كويا ليصورها ، بالرغم من انني اذا أردت أن أردد أقوالهم حرفياً ، لا أستطيع أن أدعي بأنهم تمنوا حقاً حضور رسام مثل كويا ، لأنه لم يكن هناك إلا كويا واحد ، مات منذ زمن بعيد ، ولأنه من المشكوك فيه أن هذه الحيوانات، اذا كانت قادرة على الكلام، سترغب في تمثيل تصويري لورطتها، وانما أراها على الاكثر ستدعو أحداً ليرحمها وينقذها من عذابها » (١٧)

وتعتبر كل النماذج التي يختارها همنغواي « لحقل ملاحظاته » عنيفة ودموية :

« ان أول ما تجده عن الاموات هو انهم يموتون كالحيوانات حين تصيبهم ضربة سريعة كافية . انني لا أعرف ذلك بصورة اكيدة ، إلا أنني أستطيع أن أقول أن معظم البشر يموتون كالحيوانات، لا كالبشر»(١٨)

أما في معرض الموت الطبيعي ، فانه يقول : « انني اريد أن أرى موت كل من يدعي بأنه انساني ، لارى الوجود النبيل الذي يدعي به.»

ان « التاريخ الطبيعي للأموات » تعتبر أوضح الامثلة على وجودية همنغواي، كما ان عبارة « معظم الناس يموتون كالحيوانات ، لا كالبشر » هي جوابه على ادعاء الانساني بكمال الانسان . انه لا يستطيع أن يؤمن بالرب الذي يدعو اليه الاسقف بتلر وباليه في دعواهما ، لأن هذه الفكرة تلوح نحيلة الى جانب حقائق الوجود الخشنة . ان اقرب عباراته الى المثل الأعلى الديني هي « يجب أن نجد أشياء لا يمكن أن يفقدها » ، على أنه سرعان ما يرجع عن هذا حين يقول « ليس هنالك شيء لا يمكن فقدانه » ، وهذا لا يعني ان الحياة عديمة القيمة ، بل بالعكس ، ان الحياة هي الأمر الوحيد الذي له قيمة ، في حين أن الافكار هي التي لا قيمة لها .

* *

يلوح ان مساهمة همنغواي في مشكلة اللامنتمي سلبية ، إلا ان الفحص الدقيق يرينا فيه عدة صفات ايجابية . هنالك الامانة، والحب الشديد للاشياء الطبيعية. وتلوح قصصه الاولى بصورة خاصة دراسة لماضيه ، وغالباً ما يجد القارىء نفسه فيها منطلقاً باندفاع وتأثر ، بحيث أنه يشعر بأن هـذا البحث لا بد سيقوده الى شيء ما . إلا أن هذا يتلاشى في كتاباته بعد عام ١٩٣٠ ، أي في الوقت الذي بدأ فيه نجاحه الاقتصادي حين صار شخصية عامة وشيئاً مــن اسطورة . كان ينتظر من روح الفضيلة وعدم المبالاة باللذة أو الألم التي تلوح في « وداع للسلاح » أن تقود الى شيء ، إلا انها لم تفعل ذلك ، ولم نعد نحس ، في قصص ما بعد سنة ١٩٢٩ ، بما كنا نحس به من روع في حضرة همنغواي كفنان عظيم ، كما

أن همنغواي نفسه ، المفكر الذي كان قد غربل مختلف الاشياء واختار منها عناصر اعتقاده ، يلوح وكأنه قد اختفى تماماً .

قد لا نكون مصيبين في لومنا همنغواي على تأثره بنجاحه ، فان المشكلة صعبة جداً . ولا يقول سارتر في « الوجود والعدم » الا قليلاً مما قاله همنغواي في « وداع للسلاح » ، ولهذا فان سارتر باعتبار أسلحته العقلية القوية ، فشل في ايجاد موقف ايجابي . ان فلسفته الخاصة « بالتسليم » والقائلة بأنه ما دامت الطرق كلها ستقود الى اللامكان ، فانه لا يهم أي الطرق نختار لنلقي فيه بنشاطنا وفعاليتنا . كانت هذه الفلسفة قد سبقها اكتشاف هنري بطل قصة همنغواي ، أن الشعور باللاحقيقية يختفي لديه حالما يجد نفسه غارقاً في الحرب .

على أننا اذا قارنا كامو وهمنغواي بسارتر ، لا نجدهما على ما هو عليه من فكر نافذ . ان كامو يتوسع أكثر في « أسطورة سيسيف » في الاشياء التي قالها في نهاية « الغريب »،ويستنتج ان الحرية يمكن ان تدرك بمواجهة الموت ، يستطيع ان يعرفها المنتحر أو المحكوم عليه بالاعدام ، أما بالنسبة الى الحي الفعال فانها مستحيلة . وهو يدرس في « ثورة الانسان » حالة هذه الثورة ضد المجتمع لدى أشخاص مثل دوساد وبايرون ، ثم يتفحص محاولات مختلف الفلسفات العقلية الاجتماعية التي قامت بالبحث عن المثل الاعلى للحرية الذي ينشده مثل هذا الثائر . ولهذا فانه يلوح مستحيلاً ان نقبل بعد « الغريب » و « أسطورة سيسيف » أي جواب اجتماعي لمشكلة حرية الانسان . ان كامو يواجه هذا الاستنتاج في نهاية « ثورة الانسان » ويصطدم بعنف مع سارتر الذي قادته نظريته في « التسليم » أو الارتباط الى اعتناق شيوعية محورة ، وهكذا يذهب كل منهما في طريق مختلف ، بعد ان كانا رفيقين في الوجودية .

أما همنغواي ، فانه لم يفكر في جواب اجتماعي ، أو في الحقيقة ، بأي جواب عدا ما يخص فلسفته القريبة من التمسك بالفضيلة ، وعدم الاكتراث للذة أو الألم ، وكان ذلك هو الامر الوحيد الذي شكا منه النقاد الماركسيون عند همنغواي .

لقد أوضحنا اذن كيف ان مشكلة الحرية ليست مشكلة اجتماعية . ومن الممكن أن نعتبر مشكلة لامنتمي باربوس مشكلة عدم اتفاق اجتماعي ، ومن الممكن ايضاً اعتبار كراس ويلز قضية محلل نفساني ، غير ان مشكلة « الغثيان » تقف صامدة أمام أي هجوم ، عدا الهجوم الذي يستخدم اللغة الميتافيزيكية ، في حين ان كامو وهمنغواي يميلان الى الانهيار اذا استخدمنا معهما اللغة الدينية المتطرفة . على أن هذا أمر سنتركه الى نهاية هذا الفصل ، لنعود الآن الى مواصلة بحثنا عن : الحرية واللاحقيقية .

الحرية تعني حرية الارادة ، وهذا امر واضح في الكلمة ذاتها . الا أن هذه الارادة لا تستطيع ان تعمل الا حين يكون هنالك دافع ، فاذا لم يكن هنالك دافع ، لم يكن هنالك ارادة . ثمت ان الدافع ينشأ عن الاعتقاد ، فانك لن تفعل شيئاً ما لم تعتقد بأنه ممكن وذو معنى . ويجب ان يكون هذا الاعتقاد اعتقاداً في وجود شيء ، أي أن هذا الاعتقاد يعنى بما هو حقيقي . وعليه فان الحرية تعتمد على الحقيقي . اما معنى اللاحقيقية لدى اللامنتمي فانه يبتر حريتـــه من جذورها ، فيجد ان ممارسته لهذه الحرية مستحيلة في عالم لا حقيقي ، كاستحالة القفز حين يكون المرء في حالة السقوط الى أسفل .

ولنتوسع في الحالة التي يقدمها الينا كل من كامو وهمنغواي فيما يخص الحرية الانسانية . وهنا يجب علينا أن نعود الى مسرحية ظهرت لهارلي كرانفيل باركر عام ١٩٢٠ ، هي « الحياة السرية » ، فاذا اقتبسنا الفقرة التالية من « تاريخ كامبرج الوجيز للادب الانكليزي » لجورج سامبسون ، فاننا سندرك مدى أهميتها في تلك المرحلة :

« الحياة السرية » : مسرحية محيرة مربكة من مسرحيات ما بعد الحرب ، ترينا العالم العقلي متقلصاً الى روحية نهيلستية ، ولا شيء فيها من التمركز الدراماتيكي ، وانما يذهب الاشخاص فيها ويأتون فقط ، ويلوح الحب فيها شيئاً لا دافع فيه ، شيئاً لا هبة فيه ولا منح ، اما الحوار فهو تارة مسرحي اعتيادي ، وتارة اخرى فلسفي محير ، كما لو كان المتكلمون لا يملكون دافعاً

يدفعهم الى الكلام أكثر من رغبتهم في سؤال الالغاز التي لا يمكن أن تحل . ولا نظن ان كتاباً آخر استطاع أن يوحي بالافلاس الروحي الذي سببته الحرب كهذا الكتاب » . (١٩)

تنهض هـذه المسرحية على سياسة حزب الاحرار لما بعد الحرب . ويتركز الاهتمام فيها على شخصين رئيسيين . هما ايفان ستراود ، وهو سياسي قديم ، في منتصف العمر ، وابنه أوليفر كونتليت ، الذي عاد من الحرب ناقصاً احدى ذراعيه . أما هيكل المسرحية فايضاحه سهل . فقد كان ستراود يشتغل بالسياسة قبل الحرب ، الا انه تخاصم مع رئيس الحزب واستقال ، أما الآن فان الحزب يريده ان يعود .

أما أوليفر ، فانه يعود من الحرب مشوهاً ويذهب الى المدينة بحثاً عن عمل ، ويقبض عليه بتهمة الفوضوية ، ويسره ذلك لانه يخلصه من تفاهات المدينة . ان الامر الوحيد الذي يحيره هو ايفان ستراود (ولا يعرف أوليفر في بداية المسرحية أن ستراود هو أبوه) . كان أوليفر ينتظر من عقلية ستراود الجبارة وارادته القوية أن تكون سبباً في نجاحه في حقل ما . ويريد أوليفر ان يعرف لماذا فشل ستراود .

تبدأ المسرحية بمشهد غريب في بيت ستراود ، الذي يقع على ساحل البحر ، حيث نجد ستراود وجماعة من رفاقه السابقين في المدرسة ، مجتمعين يغنون «تريستان وايسولت» على البيانو . وينتهون من الغناء ثم يتحدثون عن ذكرياتهم في ايام الصبا ، حين يبدأ سالومونز بالحديث عن عقيدته كسياسي عملي :

« سالومونز : لن تستطيع ان تنظم ماليتك اذا لم تشترك في حرب صليبية . لا تدع الفن والدين والوطنية تقنعك ولو للحظة واحدة بأنك تعني أكثر مما تفعل ، وانما قف بجانب القدس ، حين يبلغ الأمر مبلغ رمي الانبياء بالحجارة . والآن يجب أن أنصرف .

اليانور — قبل أن تحصل على جواب ؟

سالومونز — ليست الاجوبة الا أصداء » . (٢٠)

وتتكيء جوان ويستبري ، التي كان ستراود يحبها منذ زمن بعيد قبل الحرب والتي تمثل بالنسبة اليه أوضح ادراك لليقين حققه في كل حياته — تتكيء على سور الشرفة متطلعة الى القمر :

« جوان : يجب عليّ ان أصلي للقمر الآن، كما تصلي امرأة من اجل اخرى، عسى ذاك يعلمني كيف اتصرف في اموري الخاصة .. » (٢١)

كانت قد فقدت ولديها في الحرب ، وكانت النار قد التهمت بيتها من عهد قريب . انها تتكيء متطلعة الى القمر بينما يرحل الضيوف ، وتتطاير في الداخل نوتات الفصل الثاني من « تريستان » — نوتات المشهد الغرامي . وهنا تهبط الستارة على المشهد الأول .

ان حقيقة كون المسرحية خالية من التمركز المسرحي تجعلها غير قابلة للتلخيص الا ان هنالك بعض الأحاديث التي تستحق الاقتباس . هنالك ايضاً مشهد طويل بين ستراود وجوان حين تكون شقيقة ستراود في لندن ، اذ انهما يقضيان النهار بأكمله معاً ، ويجمعان خيوط غرامهما القديم ، وتعترف جوان بأنها ما تزال تحب ستراود ، غير انها تصر على انهما كانا على حق في انفصالهما بلا زواج ، لانهما لو فعلا ذلك لما بقيت على حبها له ، بل لقتلها ذلك . وتسأله بعد ذلك السؤال نفسه الذي حير اوليفر ، لماذا لم ينجح ؟ لماذا لا يتمتع الآن بالسلطة بدلاً من اولئك السياسيين المتعثرين ؟ اما جوابه على ذلك فيعتبر جوهر المسرحية .

« ستراود : دعيني من ضلال السيطرة ، لقد كانت لدي في يوم ما — وانني لاشكرك على ذلك — قوة ما في داخلي ، الا ان تلك القوة لم تستجب لاي دافع ..

جوان : حتى ولا لدافع سبب معقول ؟

ستراود : (كمن يطلق نفسه من مغريات اللاحقيقية) هنالك الكثير من الاسباب المعقولة ، التي يسهر عليها الادعياء البارزون ، الذين يغلب عليهم حب الظهور ، والذين يرقبون بعقولهم الصغيرة ماذا سيحدث ... فاذا بحثت عن قوتهم التي لا يمكن ان تستعار او يساوم عليها — وجدت انها تنبعث من

الحياة السرية .. » (٢٢)
وهنا يتوقع ان تسأله جوان عما اذا كان من الأفضل لهما لو لم يلتقيا :
« ستراود : كلا.. ان ذلك لتجديف، على الاقل لا تجاري الغوغاء الجاحدين الذين يصرخون : افعل شيئاً ، اي شيء مهما كان ، فكل شيء سيكون على ما يرام ما دامت العجلات تدور — ما دمت تفعل شيئاً ما ...
جوان (بـ .... سخرية) : ولكن فتش اولاً على مملكة الله ، لتتجرد من الرغبة في كل الاشياء الاخرى .
ستراود : (ببساطة) أنا مجرد منها ، ولست اتذمر ، ولا ادعي فضلاً في ذلك ، ولست اول من اوجد بعض المعتقدات التي لم يستطع ان يضعها في جيبه كما يضع قطع العملة الصغيرة ، ولكن ، أعليّ ان ارفضها من اجل ذلك كله ؟ »
ترينا هذه المقاطع صلة ستراود باللامنتمين الذين ذكرناهم سابقاً . فاننا نجد لديه هذه الاىماضة من القوة ، هذا الاتصال بالواقع ، والشعور بالفترة الحديثة من ادراكه ، تلك الاشياء التي حصل عليها اثناء تجربته الانفعالية الاخيرة مع جوان (كما كان الأمر مع كريبز وبطل كامو) . هنالك ايضاً البحث الدائم عن الدافع ، وتحليل قوى الاشخاص الآخرين وقوته الجبارة هو ، كما في قوله « السياسيون الذين يرقبون بعقولهم الصغيرة ... » وفي قول روكانتان « الكلاب القذرة .. » . بل ان ستراود ليتحدث في احد المقاطع بمثل ما يتحدث به ويلز :
« جوان : أطلق نفسك يا ايفان من يأس هذا الجحود ..
ستراود (بعبوس) : حين يبلغ الحمار منتهى حدود امكانياته ، ويكون قد أكل كل ما في عليقته ، يبدأ بالقفز والرقص .. أليس كذلك ؟ » (٢٣)
لقد انهار الدافع ، وادرك اللامنتمي شكلاً من اشكال الواقع اسمى مما كان يعرفه من قبل ، وهو ، كنتيجة لذلك ، يفقد ذلك الادراك .. ويجد ان عليه ان يقبل ادراكاً آخر اقل من ذلك جودة . على ان ذلك الادراك الافضل جودة موجود ، اذ نجد ان جوان تعترف بأنها انما قبلت الزواج بموظف مدني بسيط

والعيش معه وتدبير منزله في زاوية مهملة من زوايا العالم ، لأنها شعرت بأن حياة الدرجة الاولى كانت أكثر مما تستحق . أما ستراود فانه لم يتخل عن طموحه من أجل حياة الدرجة الاولى ، وانما فضل ان لا يفعل شيئاً حين لاح له أن الحصول على تلك الحياة صعب المنال .

ويلوح حين تعود اليانور في نهاية المشهد لتخبر جوان بأن زوجها قد مات اثر نوبة قلبية ، ان كل ما عناه الكاتب في هذا المشهد يتحقق الآن ، فان جوان التي رضيت بحياة الدرجة الثانية ، فقدت حتى هذه الحياة .

ويقرر ستراود في الفصل الثاني أن يعود الى الحياة السياسية ، في حين يسأله أوليفر أن يجعله سكرتيره الخاص ، فيرفض ستراود ذلك . ويعود أوليفر الى جوان ، التي تعلم الآن ان كلاً من أوليفر وستراود يعتبرها حبيبته . يلي ذلك مشهد مهم يشرح فيه أوليفر لماذا يريد ان يعمل مع ستراود ، فيقول انه يريد أن يعرف سر فشل ستراود . وتقول له جوان انه لا يستطيع ان يقول ان ستراود فشل سياسياً . غير أن أوليفر لم يكن يعني ذلك النوع من النجاح الذي فهمته جوان .

« أوليفر : لا شيء اسهل من نيل مثل هذا النجاح اذا كان يشتهيه المرء .. الا ان ايفان انطلق الى ابعد من كل الخدع المعروفة .. الى قلب الاشياء .. فهل كان ذلك القلب ميتاً كالحجارة الصلدة ؟ الا يجرؤ المرء ان يقول ذلك حين يكتشفه ؟ » (٢٤)

ويرمز اوليفر الى هذا الفراغ بقوله :

« لقد اخطأتني رصاصة خارج (البرت) ، الا انها اصابت ساعتي . كان في امكاني ان اهزها فتشتغل بضع لحظات ، الا ان النابض كان قد تحطم . وتخامرني الآن فكرة تدفعني الى الاعتقاد بأنني لن اتقدم في السن بعد الآن ، وأن موتي ، حين يأتي ، انما يلوح شيئاً قديماً ، او نكبة ماضية . » (٢٥)

ذلك هو « وجود كيتس الذي يلوح كحياة ما بعد الموت » ، كما جاء في رسالته الى براون . ان حل اوليفر للمشكلة بسيط ، انه الدمار :

« اوليفر : دعينا من ذكر هؤلاء الناس المزعجين الذين يهتفون ضد الحرب فاننا انما نحتاج الى حرب حقيقية .

جوان : وأين هو العدو ؟

اوليفر : لو كنت اعلم اين هو لما جلست هنا يائساً ، غير اننا ننخدع بسهولة . » (٢٦)

وبالرغم من ذلك فانه ما يزال يحتفظ بقيم افكار معينة : الشجاعة والنظام ، وتسأله جوان : الا قل لي كيف يكره المرء الناس ؟ فيجيبها قائلاً : لا اظن انني اعلم .

« اوليفر : انك لا تستطيعين ان تحبي الغوغاء ، أليس كذلك ؟ انك ان فعلت ذلك صرت مثلهم ، ثرثارة منافقة متمخطة معربدة — سكيرة اذا شئت ، اما انا فقد تعلمت كيف اكون جندياً الى الحد الذي يجعلني اكرههم . هنالك نظام في الفردوس .. » (٢٧)

يملأ ذهن اوليفر وستراود احتقار باسكالي للعالم ، وادراك لشقاء الانسان اذا كان بلا رب ، الا انهما مع ذلك يدركان بان الاعتراف بالله هو نوع سيء من الايمان ، ذلك لأن الوجودي يجب ان يرى ويلمس الحل ، لا ان يقبله على علاته .

وليست مشكلة ستراود دراماتيكية ، ولا يستطيع احد ان يستخلص منها شيئاً من الاثارة يجعلها تستحق الظهور على المسرح . على ان كرانفيل باركر اوضح لنا المشكلة في هذين الحديثين ايضاحاً تاماً ، ولم يعد بحاجة الى خلق مواقف جديدة ليرينا اوليفر وستراود شخصين يحملان للعالم كل الاحتقار ، وانما يرينا ستراود مشغولاً بعملية التصويت الانتخابي ، يساعده في ذلك اوليفر باعتباره سكرتيره الخاص ، بينما نرى جوان ويستبري وهي على شفا الموت في أميركا . ان هذا يضطر ستراود الى ترك لندن والانتخاب وكل شيء من اجل استعادة المعنى الرمزي الذي كان قد وجده يوماً ما . انه يترك لندن في مساء يوم الانتخاب ، غير ان جوان ويستبري تموت قبل ان يصل الى ساوثامبتون . وهنا

يجد القارىء نفسه حائراً وسط كل هذا ، ذلك لانه لا يجد نهاية سارة ، ولا ارتباطاً مسرحياً للحوادث المنفصلة .

ويعيد المشهد الأخير من المسرحية أصداء المشهد الاول ، اذ يتحدث اوليفر بعد رحيل ستراود الى المليونير اللورد كلومبرمير الذي يمكن ان يعتبر مثالاً على النجاح المادي في الحياة ، مثل سالومونز ، غير ان فلسفته ليست مادية الى هذا الحد ، فهو مثالي غامض ، خجول ، الى جانب كونه رجل اعمال ناجحاً .

« كلومبرمير : انتم تظنون انكم حماة الصدق والعدالة ، حسناً ، تعال وزر معملي الذي تُصنع فيه اقلام الحبر ، وحاول ان تجد ما اذا كان ذلك صحيحاً .

اوليفر : لو زرت معملك فلن يهمني غير الاقلام ، الاقلام وحدها ، ولا شيء غير الاقلام .

كلومبرمير : لن تفيدني بشيء اذن . اتدري اننا لو اردنا ان نصنع ريشة ذهبية ممتازة فعلنا ذلك بواسطة الدين ؟

اوليفر : هل انت شيطان اذن ، يا سيدي اللورد ، لتحول ارواح البشر الي ريشات اقلام ؟

كلومبرمير : ارجو الا يكون ذلك صحيحاً ، يا مستر كاوتليت ، على اني لو كنت كذلك ، فانني ارجوك ان تدلني الى الطريق لاخرج من مثل هذه الهوة .. » (٢٨)

ونجد بعد ذلك اوليفر وسوزان ، الفتاة الامريكية ، وهما يبحثان ما اذا كان عليهما ان يذكرا لستراود ان جوان قد ماتت .. وتخبره سوزان بان ستراود لا يعرف ماذا يريد ، فيلخص لها الأمر قائلاً :

« اوليفر : ان شر ما في طبائعنا يا سوزان هو ان الاشياء التي نريدها لا قيمة لها . اننا نريد المال ونريد السلام .. ونريد طريقة خاصة بنا .. يريد بعضنا ان يكون جميلاً ، والبعض الآخر ان يكونوا طيبين ، ويصبح كلومبرمير غنياً دون ان يعرف لماذا .. بينما نجد انفسنا ، نحن السياسيين ، نحاول ان نسلب جيبه بكل استطاعتنا . اما انت فتريدين ان تعيدي ايفان وسط كل هذا ثانية .

سوزان : هذا هو مكانه الوحيد .

اوليفر : لو عاد هو او غيره ، ودحر الأغلبية المتهافتة منا .....

سوزان : لماذا لم تتزوجه جوان ؟ لو كانت فعلت ذلك لنالا بعض السعادة على الأقل ، ولساعده ذلك كثيراً ..

اوليفر : (كمن يبذل مجهوداً اخيراً) انك تسأليني لماذا لا تحقق الحياة النهايات السارة والنماذج الجميلة .. الم تتضح لك الأمور بعد لتفهمي ؟

سوزان : لا تسخر بي ثانية يا اوليفر .

اوليفر : انني آسف .. لقد فعلت ذلك لأنني اخشاك . » (٢٩)

اما خاتمة المسرحية فانها لا تلوح خاتمة حقيقية بحال من الاحوال :

« سوزان : الا تريد ان ترتفع وسط هؤلاء الاموات ؟

اوليفر : كلا ..

سوزان : ستكون كذلك ، بطريقة ما ..

اوليفر : ايدهشك ان تعلمي انني اخشاك يا سوزان ؟ (يخرج) » (٣٠)

لا امل هنالك في بعث احد من عالم الاموات ، لأن ذلك يعني وجود دوافع جديدة وآمال جديدة .. بل ايمان جديد . لقد استعملت في بداية هذا الفصل عبارة « اللغة الدينية » ، وقد حان الوقت لشرح هذه العبارة . ان ستراود يسأل اوليفر في بداية الفصل الثالث ان يتأكد له من صحة احدى العبارات المقتبسة.

« ستراود : هلا اعطيتني الانجيل ؟ انني اريد ان انوع شيئاً .. اظن انها موجودة في ....

اوليفر : ما هي العبارة ؟

ستراود : يا إلهي ، خذ حياتي فإنني لست افضل من آبائي . أليس ذلك اقرب الى التقدمية وخيبة الأمل الحديثة من جانب إيليا ؟ ترى لماذا يفرض انه موجود ؟ » (٣١)

تلك هي المشكلة ، فان ستراود ايضاً يفرض انه موجود ، وكذلك يفعل اوليفر .. رغم انهما لا يفعلان ذلك صراحة . وهنالك رغبة عند كل اللامنتمين

في « التقدم » ، الا أن ستراود يدرك ادراكاً اكثر مما يجب أن ذلك التقدم المرغوب ليس تقدماً اجتماعياً . « ليس أفضل من آبائه » ـ أي أنه ليس احكم منهم ولا أقل تفاهة ، ما دام خاضعاً لنواحي الضعف وللحاجات نفسها ، تلك التي خضعوا لها . وما يزال الانسان عبداً لمحيطه المباشر ، تماماً كما كان آباؤه الذين عاشوا في الاكواخ البدائية . أعطه أعلى درجات الفكر وأسمى ما وصل اليه العقل فيما يخص مكان الانسان في الكون ومعنى التأريخ ، وستجد أن ذلك كله يصبح هباء لديه اذا كان جائعاً ، أو متضايقاً من صراخ أحد الاطفال في الاوتوبيس. انه مرتبط بالتفاهة. ويحس ستراود وأوليفر بهذا كله ، الا أن احساسهما هذا ليس قوياً بما يكفي ليجعلهما ميالين الى القيام بمحاولة في هذا الصدد . انه الضعف الانساني ، وحين تقول جوان لستراود في نهاية الفصل الثاني إنها لا تستطيع أن تتزوجه ، نرى ستراود يتمتم وحده : « رحمتك يا إلهي ، يا من تخلق المخلوقات لتقاسي دون ان تفهم لماذا . » (٣٢)

انه لا يصلي لله ، وانما يبدي استغرابه من الألم الذي يحس به ، ومن نقطة الضعف فيه ، الضعف الانساني . ان قصة همنغواي التي تدور على الضابط الذي تموت زوجته هي في الحقيقة تأمل طويل في هذا الضعف ، ونحن نعلم ان مثل هذا التأمل لا يقود الا الى التفكير الديني . وكذلك يفعل همنغواي حين يقول : « يجب أن يجد شيئاً لا يمكن أن يفقده » . ويقود هذا بالتالي الى تطوير نوع من الاخلاقية التي ترتكز على النظام ونبذ التوافه . انه يقود الى ادراك أن الانسان ليس كائناً ثابتاً غير متبدل .. انه شخص ما في يوم ما ، وهو شخص آخر في يوم آخر . انه ينسى بسهولة ، ويعيش في لحظته ، ونادراً ما يمارس قوة الارادة وحتى اذا فعل فانه يستسلم بسرعة ، اذ انه ينسى هدفه الاصلي ويتحول عنه الى هدف آخر . ولا عجب اذا أحس الشعراء بمثل هذا اليأس حين يلوح لهم أنهم قادرون على الشعور بحالة من الادراك أشد عمقاً ، اذ يعلمون مباشرة أنهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً للاحتفاظ بمثل هذه الحالة . وتقودنا هذه الفكرة المضمرة في أعمال سارتر وكامو وهمنغواي ، والواضحة في أعمال كتّاب مثل

ت. س. اليوت ، وألدوس هكسلي ، الى السؤال التالي : « كيف يستطيع الانسان أن يكون أقوى ؟ كيف يستطيع أن يقلل من عبوديته للظروف ؟ » «لقد ظلت أعمال هكسلي خالية من النتائج خلواً مقلقاً ، لانه يلوح أنه يعتقد بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً في هذا الصدد . »

على أننا لسنا في مركز يسمح لنا بتفحص هذا السؤال وعلينا قبل ذلك أن نعرف مفهوم الشعراء لهذه المشكلة، أي المفهوم الرومانسي، وأن نحاول أن نعرف الى أية درجة يمكن تطوير هذا المفهوم لتوسيع نطاقه. ولهذا فان بحثنا لمشكلة محاولة السيطرة انما يعتمد على الملاحظات التي ستظهر في الفصل القادم .

الفصل الثالث

اللامنتمي الرومانسي

ان محيط اللامنتمي الوجودي كريه جداً . ان هؤلاء الناس مقيتون، ضد الحياة، لانهم يجلسون في غرفهم، مجردين من الدوافع، يظنون انه ليس هنالك من سبب معقول لفعل شيء آخر . ان هذا العالم المجرد من القيم هو عالم بالغبن في اساسه . في حين أن عالم الطفل أنقى وان جوه فواح بالامل . ويلوح مخزن كبير في عيد الميلاد وكأنه عالم جديد ، الا أن اللامنتمي مريض الروح ، يرى ان هذا العالم الجديد انما يبعث على الرعب، لانه يمثل بالنسبة اليه آلية عالم الحضارة وميكانيكيته المتشعبة تشعب خطوط الاسطوانة ، والذي يلوح وكأنه يقف بينه وبين الحرية .

ان هذا الفرق بين عالم الطفل وعالم البالغ هو في الوقت نفسه أحد الفروق الرئيسية بين عالم القرن التاسع عشر وعالم القرن العشرين . وقد لاح ان الثورات الفكرية التي قام بها أساطين العصر الفيكتوري مثل ج. س. مل وهكسلي وداروِن وامرسون وسبنسر وكارليل ورسكن انما كانت نذيراً بتغيير لانهائي في الحياة الانسانية ، ونبوءة بأن الانسان سوف يتقدم الى الامام « صاعداً على أشلاء موتاه الى الأعالي » . وقبل أن نلوم أصحاب هذه النبوءة على قلة ادراكهم،

يجدر بنا ، نحن الذين عاصرنا حربين عالميتين، ونعيش في زمن القنبلة الذرية، أن نتذكر اننا كالبالغين الذين يلومون أطفالاً . ولم تكن استدلالية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عديمة الجدوى، او حالة مزعجة من حالات العقل، وانما كانت فترة تفاؤلية لا علة فيها، تفاؤلية لم تجهد نفسها كثيراً، ولم تذهب في منطقها بعيداً، لانها شعرت بالحرية شعوراً لم يتوفر لها من قبل، بل كثيراً ما شوهد حكماء العصر الفيكتوري وهم يرقصون ويهتفون في منازلهم .

ونجد ان اللامنتمي في مثل هذه الاحوال هو ذلك الشخص الذي لا يميل الى هذا الحماس . وقد يكون ذلك لانه لم يستطع ان يدرك مقدماً ان تلك الطوبائية التي كانت ستؤسس قبل نهاية القرن ستكون حقيقة واقعة . وعلى كل حال، فقد كان يعتبر طفلاً في عصره لانه كان يستمد مقوماته من الارض . انه لا يستطيع ان يكون متشائماً نهيلستياً مثل سارتر وكامو في عصر كان الفلاسفة فيه يشبهون رعاة البقر (الكاوبويز) حين يقومون بلعبة من ألعابهم . ولم يستطع أن يعتقد بأن الخطأ كامن في الطبيعة الانسانية لان البحث العقلي كان قد نفى ذلك، بالاضافة الى نفيه كل ما كان شائعاً من العقائد الخاطئة كعقيدة الخطيئة الاولى مثلاً . كان عليه اذن ان يعتقد بأن الخطأ كامن فيه هو ، وليس في الطبيعة الانسانية التي ادعت الفلسفات التي كانت غالبة على ذلك العصر بامكانية ابلاغها الكمال . تبع ذلك ان اعتُبر اللامنتمي انساناً « ليس من هذا العالم » ، فاذا مات شاباً مثل شللي او كان مريضاً مثل نوفاليس وشيلر، أو مدمناً على المخدرات مثل كولبرج، فان ذلك كله شيء من الطبيعي أن يحدث له، ولم يبق له، لكي يضفي معنى من الاحترام على حياته، الا أن يدعي بأنه مثالي أفلاطوني حالم، في حين كان البرجوازي يقره على حقه في الحياة . فكان لهذا اللامنتمي مكان في هذا المجتمع باعتباره حالماً غير عملي . ذلك هو الموقف الذي نجده في بداية القرن الماضي في أوروبا . وقد اخترع غوتيه هذا اللامنتمي الخيالي في قصته «آلام فرتر» ، حيث نرى فرتر من ذلك النوع من الشعراء الشبان المتعالين المثاليين الشاحبين، والرجال في وقت واحد معا، في حين نجد أن العاشق الذي

يذيبه الاسى كان يعتبر في القرن الثامن عشر شخصية هزلية :

« أيستطيع الوجه الشاحب أن يثير عطفها ؟

اذا فشل الوجه الممتلىء صحة في أن يفعل ذلك ؟ » (١)

الا أن فرتر الشاب لا يأتينا بوجه شاحب، وانما بقلب شاحب . وتبعت ذلك « اللصوص » و « دون كارلوس » لشيللر . ويضع نيتشه على لسان احد العسكريين القول التالي : « لو علم الله بقصة (« اللصوص ») لما خلق العالم ، أجل ان هذه القصة ترفع من القيم الانسانية وتنفي وجود المقدس الى هذا الحد » . كذلك فعل نوفاليس، العالم الرومانسي، الذي خلق هاينريخ فون أوفتر دنكن، الشاعر الذي قدر له منذ يوم مولده مستقبل عظيم في الشعر . وانتقلت الرومانسية الالمانية الى انكلترا حيث ترجم كولبرج أعمال شيللر ونشر بايرون « تشيلد هارولد » . أما « آلستور » شيللي فهو شاب يذوب شوقاً وأسى لأنه لا يستطيع أن يجد في هذه الارض فتاة تشبه تلك الفتاة التي عانقته مرة في حلم من أحلامه . ان هذا الحلم نفسه يوحي الى هاينريخ فون أوفتر دنكن بطريق مستقبله : « وعلى مبعدة لاحت صخور ضبابية زرقاء تسطع على جوانبها عروق الذهب وكان ما حوله يفيض بالضياء الهادىء الجميل، في حين كانت السماء فوقه صافية الأديم » . (٢)

ويكتب وليم موريس بعد نصف قرن من ذلك عن رؤيا طوباثيته الاجتماعية، فيعبر عنها في « حلم جون بول » قائلاً ان اللامنتمي الرومانسي « يحلم بعوالم جديدة » . انه ليس فعالاً — لا للسبب الذي وجدناه في حالة ايفان ستراود، وانما لأنه حالم بطبيعته ولأنه « المغني الحامل في يوم من أيام الفراغ » . ونستطيع أن نتتبعه بين « فرتر » لغوتيه و « تونيو كروجر » لتوماس مان — انه يعتبر أباً لبطل باربوس « رجل ثقب الحائط » ، وروكانتان وميرسول . ان القرن العشرين، اذ يقدمه الينا بطريقة جديدة، انما يشعر بالحاجة الى وضعه في محيطه الخاص به، ولهذا تصبح معالجة هذه الفكرة اكثر دقة وتحليلاً، حيث تختفي

التلال وكهوف الجبال من المشهد، لنرى بطل باربوس في غرفته في مدينة حديثة . الا أنه ما يزال رومانسياً، كما أنه ما يزال مشغولاً بفكرة أن محيطه يلوح غير قابل لاشباع رغباته . انه يخشى ألا يكون العالم مخلوقاً لمواجهة متطلبات الروحية البشرية . وهو يلوح اليوم متزعجاً مخيباً، ويخشى ان يموت وهو متزعج مخيب ، لا يملك شيئا عدا القليل من التجارب التي تشبع جزءاً قليلاً من رغباته لتحفزه على النهوض من فراشه في الصباح .

ونستطيع أن نلحظ التبدل الذي حصل في تقديم مشكلة اللامنتمي لدى كاتب مثل جيمس جويس، الذي احتفظ لنفسه بموضع قدم في قضيتي الواقعي الرومانسي والواقعي الاجتماعي ، ذلك ان « فنانه » ستيفن ديدالاوس يبدأ حياته باعتباره معداً ليكون شاعراً :

« ضايقه صراخ الاطفال وهم يلعبون ، وجعلته أصواتهم الحمقاء يشعر بأنه يختلف عن غيره من الاطفال، ولم يكن راغباً في اللعب ، وانما كان يريد أن يلتقي في هذا العالم بالصورة المعنوية التي يحتفظ بها في ذهنه دائماً، ولم يستطع أن يعرف أين يجدها أو كيف . » (٣)

ويكتب جويس قائلاً :

« لقد دفعه ذلك الاضطراب في المساء الى التجوال بين الحدائق بحثاً عن مرسيدس (بطلة قصة دوماس – الكونت دي مونت كريستو) ، وملأ نفسه عدم رضى غامض حين نظر الى أرصفة السفن والى النهر والافق ، الا أنه استمر في تجواله هنا وهنالك، يوماً بعد الآخر ، وكأنه كان يبحث حقاً عن الشيء الذي حيره .. »

يشبه هذا الاسلوب أسلوب ماريوس الابيقوري في ايقاعيته، وهو يحمل طابع التنويم المغناطيسي لان الكاتب تعمد فيه أن يوحي بما يشبـــه جو الاحلام . ونجد عكس هذا الاسلوب تماماً في صفحات « الملاحظات » :

« وصدر صوت كريه عن التلميذ السمين الذي كان يجلس على درجات السلم السفلى ، فالتفت اليه دكسون قائلاً بصوت رقيق :

— هل تكلم أحد الملائكة ؟

والتفت كرانلي أيضاً ، وقال بعنف، ولكن بدون غضب :

— كوكانس، هل تعلم أنك أقذر الشياطين الذين رأيتهم في حياتي؟ » (٤)

ان المقطعين الاول والثاني هما اسلوب « مغن خامل في يوم من أيام الفراغ » ، أما المقطع الثالث فتتمثل فيه رغبة عنيفة في « التمسك بالحقيقة بدلاً عن الخيال » ولم تكن كتابة مثل هذا الاسلوب ممكنة قبل عام ١٩٢٠ . ويمثل هذان الاسلوبان نموذجين لمفهوم اللامنتمي الواقعي الذي بحثناه في الفصلين السابقين ولمفهوم اللامنتمي الرومانسي .

ان الفرق بين هذين الاسلوبين كبير جداً ، اذ بينما يسأل الواقعي : « الحقيقة ؟ ترى ماذا يعنون بها؟» ، لا يحلم الرومانسي بمثل هذا السؤال، وانما يقول « اين أستطيع أن أجد الحقيقة ؟ » وهو لا يشك في : (كما جاء في كلمات شاعر آخر بدأ حياته لا منتمياً رومانسياً*) :

« ان ما تبحث عنه مليون شفة في هذا العالم

لا بد موجود في مكان ما .. »

ونجد هنا أنه قد حل محل السلوك الوجودي نوع آخر هو سلوك المثالي الافلاطوني ، الذي يبحث عن الفكرة (الصورة المعنوية التي تراها روحه دائماً) . ان سارتر كما نراه في «الغثيان» لا يستصوب جويس كما نراه في « صورة الفنان شاباً » مطلقاً ، كما أن دعوة ستيفن الى « أن أصنع في مصنع روحي ضمير بني جنسي اللامخلوق » لا يمكن أن تقف الى جانب الاعتقاد في أنه « لا مغامرة هنالك» . على أنه اذا كان مفهومنا صحيحاً، فان اللامنتميين: الواقعي والرومانسي يشتركان في أمر عام ، ذلك لأننا نفترض أن الانسان يصبح لا منتمياً حين تعيش في ادراكه بضعة أسئلة دعوناها (بمشاكل اللامنتمي) . ان الغرض من هذا الفصل هو معرفة مشاكل اللامنتمي كما يعبر عنها اللامنتمي الرومانسي . ولهذا فانه يكفينا أن نذكر أي واحد من الشعراء أو كتاب القصة الرومانسيين، فنجد

* هذا الشاعر هو و. ب. بيتس في (المياه الظلالية) .

من دراستنا لأعماله الفكرة التي يعتقد بأنها أساس هذه الاعمال . فاذا لجأنا الى شللي أو كولبرج وجدنا أن انحراف الاول يمكن ان يعرف بتعاريف أفلاطونية ، وأن انحراف الثاني يمكن ان يعرف بتعاريف « كانت » . ويستطيع الأدب الالماني ان يزودنا بأمثلة كثيرة، الا ان ميتافيزيكيته تجعل تصنيف هذه الامثلة أكثر صعوبة، كما هي الحال مع شللر ونوفاليس وفخته وليسنك وهولدرلن أو اذا شئنا أمثلة من عهد أقرب، مع توماس مان و ر.م. رلكه وهيرمان هيس. ونستطيع أن نجد ذلك في فرنسا أيضاً لدى مارسيل بروست ، الذي كتب « صورة الفنان » في اثني عشر مجلداً، أو لدى جيل كامل قبله يتضمن رامبو ومالارميه، بل يتسع لرسامين حرفيين مثل كوكان وبوفي دوشافان . كل واحد من هؤلاء يمكن أن يناسب بحثنا، ويعبر عن مفهوم اللامنتمي الرومانسي . على أنني سأتناول بالبحث أعمال هيرمان هيس ، لا لأنه يمثل أحسن ما لدى هذه الجماعة فيما يخص مشكلة اللامنتمي الرومانسي ، وانما لأن عظمة أعمال هيس ما تزال غير معروفة في عالم اللغة الانكليزية* لصعوبة الحصول على ترجمات أعماله .

تنقسم أعمال هيس الى قسمين، يتضمن الاول شعره وقصصه التي تدور عن المشاهير والتي نشرت بين عامي ١٩٠٢ و ١٩١٦ ، ويتضمن الثاني الفترة التي كتب خلالها قصصه الخمس الرئيسية التي تبدأ « بدميان » في عام ١٩١٩ وتنتهي « بطقوس الصلاة » في عام ١٩٤٥ . فأما الشكل القصصي الالماني الذي يدعى « بقصة التاريخ الشخصي » فانه يتضح كل الوضوح في أعمال الفترة الاولى . ان « قصة التاريخ الشخصي » تصف تطور « روح البطل » ، وهي تاريخ لحياته على شكل قصة ، وتعنى برد الفعل الذي تحدثه الافكار في البطل، أو بتطور افكار هذا البطل عن الحياة كما تدله عليها تجاربه . وتشبه «قصة التاريخ الشخصي»

* وجدت عند تأليفي هذا الكتاب أن أربع قصص من قصصه الخمس الرئيسية قد انقطعت نهائياً عن الصدور في انكلترا منذ سنوات عديدة ، في حين لم يترجم شيء من قصصه الأولى حتى الآن .

مختبراً يجرب فيه البطل تجربة حياتية ، ولهذا فانها وسط مفيد جداً للكتاب الذين يبحثون عن جواب فلسفي للسؤال العملي التالي : ماذا سنصنع بحياتنا ؟ ومن الطريف ان نلاحظ انه حالما يحس الكاتب بأنه يعالج مشكلة ما في قصة يكتبها ، تصبح قصته بصورة اوتوماتيكية نوعاً من « قصة التأريخ الشخصي » التي تعتبر شكلاً طبيعياً للفن القصصي الجدي ، مهما كانت الفترة التي يعيشها البطل قصيرة .

وتعتبر « هاملت » لشكسبير نوعاً من انواع « قصة التأريخ الشخصي » في الأدب الانكليزي القديم لانها تعالج تطور نفسية هاملت ، وادراكه بأن القتل والانتقام لا يعتبران من الحوادث البسيطة كما كانا يعتبران في زمن « السن بالسن .. » وانما هما ، وكما يشعر هو ، حل غير مرض لمشاكله الشخصية . وعليه ، وبموجب هذا التعريف ، نجد ان معظم الكتب التي عالجناها حتى الآن تعتبر من نوع « قصة التأريخ الشخصي » .

لقد دخلت قصة التأريخ الشخصي الأدب الحديث بقصة غوتيه «فلهلم ميستر» رغم ان راسيلاس ، لجونسون ، سبقتها بما يقرب من ربع قرن *

* ندين بأول مثل على شخصية اللامنتمي للدكتور جونسون الذي نشرت قصته « راسيلاس ، أمير الحبشة » في عام ١٧٥٩ . ويعيش هذا الأمير في طوبائية اجتماعية تدعى بالوادي السعيد ، حيث نجد الحياة مضبوطة منظمة ، وكل فرد مرتبطاً بدورة لا نهاية لها من اللذة ، تجرد أولئك الذين يملكون عقولا خاصة بهم من الفعالية ، وتزيل آخر عنصر من عناصر اللافائدة من كل ما هو بطبيعته عديم القيمة . ولا يستطيع الامير أن يبرر تبريراً منطقياً سبب ضيقه وانفعاله المتزايدين ، وإنما يستطيع فقط أن يشير اليه في تأملاته : « يلوح لي دائماً ان للإنسان حاسة سادسة ، أو قابلية أخرى بالاضافة إلى حواسه ، يجب أن تطمئن وتشبع قبل أن يكون سعيداً السعادة الكاملة » . لقد شرح جونسون مشكلة اللامنتمي بهذه العبارة الواحدة . ويهرب راسيلاس من الوادي السعيد مع فلكي يدعى عملاق (الذي هو في الواقع جونسون نفسه) ويذهب إلى العالم ليواجه « الحقيقة العنيدة غير المصدقة » ويصل إلى نفس النتائج التي وصل اليها سيكند بورن في (مصلح العالم لبرنارد شو ، إذ يقول : « لست أريد أن أكون سعيداً ، وإنما أريد أن أكون حياً فعالا . » (ترجمت سعاد الهاشمي هذه المسرحية ونشرتها في بغداد عام ١٩٥٧ — المترجم) .

ويقر هيس بفضل غوتيه ، وترينا قصصه عن التاريخ الشخصي ، التي تبدأ « بهيرمان لوخرز » عام ۱۹۰۲ كم كان تأثير غوتيه عظيماً عليه.أما « الطريق الوسط » التي ظهرت في عام ١٩١٦ فهي آخر ما في تلك السلسلة . وانقطع هيس بعد ذلك لمدة ثلاثة أعوام، تبدلت في خلالها نظرته الى الامور تبدلاً كبيراً ، ذلك أن الحرب والقتل الجماعي ، واندحار المانيا ، سببت كلها طوفاناً عقلياً في ذهنه دفعه الى الاعتقاد بأنه يجب أن يعيد النظر في اعماله السابقة ، فاكتشف ان كل تلك الاعمال كانت عديمة القيمة . ولسنا نملك شيئاً من التفاصيل عن هذه الفترة ، غير انه حين عاد هيس الى الظهور في العالم الادبي من جديد بقصة « دميان » اتضحت نتائج كل المحاولات التي بذلها في الاصلاح واعادة البناء ، ولاحت الدراسة النفسية في هذه القصة أشد تغلغلاً ونفوذاً ، كما لاح تفحصه للقيم أشد عمقاً مما كان عليه من قبل . وتعتبر « دميان » نموذجاً لقوة هذا الكاتب الرائعة على مصارعة الزلزال العقلي الذي عاناه ؛ مما يجعلها تستحق ان تقارن بعودة سترندبرك الهائلة بعد الفترة التي قضاها مجنوناً . وعليه فان « دميان » والقصص الأربع التي تلتها تستحق منا تحليلاً شاملاً .

ولكن ، قبل أن نبدأ بهذا التحليل ، يجب علينا أن لا نهمل عملاً آخر من أعماله كتبه قبل الحرب ، ذلك هو الكراس الصغير الذي يشبه « العقل في منتهى حدود، الاحتمال » لويلز ، في حجمه والذي يدعى « نظرة في الفوضى ».ويحتوي هذا الكراس على مقالين عن دوستويفسكي ، أولها عن الاخوة كارامازوف والثاني عن « الاحمق » . ويتنبأ هيس هنا بتدهور الايمان ، وفساد الاخلاق في أوروبا ، اللذين ذكرناهما عند بحثنا لكامو وسارتر . (انه رفض لكل خلق قويم وفضيلة أصلية من أجل بلوغ ــ دعه وشأنه) . وقد تنبأ هيس بظهور الفرد الروسي ، المخلوق الكابوسي الذي لا يعود انساناً ذاتي التفكير ، وانما هو عملاق وجودي يرفض كل الفكر ، أو ميتياً كارامازوف بدون ايفان او أليوشا ليقفا معادلين له .

« انه ينطلق وراء كل الحدود الممنوعة ، وراء الفطرة الطبيعية ، وراء

الاخلاق . انه الانسان الذي يقبض على فكرة تحرير نفسه ، ومن جانب آخر على فكرة العودة ثانية وراء القناع ، وراء الشخصية الفردية . ان انسان آل كارامازوف هذا لا يحب شيئاً ، ولكنه يحب كل شيء ، انه شيء بدائي وكيان روحي عملاقي ، وهو لا يستطيع أن يعتبر في شكله هذا انساناً يعيش ، وانما يستطيع فقط أن يقضي هذه الحياة . » (٥)

تبدأ « دميان » بمحاولة بناء نظام من القيم لا يمكن ان يكون تحت رحمة « الشخص الروسي » . ان « دميان » بعنوانها الثاني (قصة شاب) تشبه الى حد ما « صورة الفنان شاباً » . ويقول اميل سنكلير ، الذي يكتب هيس هذه القصة عن حياته ، في المقدمة ما يلي :

« ان حياة الانسان هي طريقه الى نفسه ... ولم يحصل انسان ما على الادراك النفسي حتى الآن . الا ان ذلك هو ما يريده كل انسان ، ومن الناس من يحاول تحقيق ذلك باصرار وعمل متواصلين ، ومنهم من يبذلون مجهوداً أقل ، الا ان الجميع يحملون معهم بقايا مولدهم ، اللزوجة وقشور البيض ، حتى النهاية » (٦)

يبدأ الفصل الاول بذكر حالة انقسامية ، اذ عرف اميل سنكلير في طفولته عالمين ، توفرت في أولهما الذي ضم عالم الطبقة المتوسطة ، والبيت المنظم « كل الاتجاهات المستقيمة التي قادت الى حياته المستقبلة . وقد تجلى في هذا العالم الواجب والذنب والضمير المعذب والاعتراف ، والعفو ، والاتجاهات الصالحة : الحب والعبادة والانجيل والحكمة . وعليه فان المستقبل انما ينبعث من هذا العالم ، بلوري الصفاء ، جميلاً منظماً . »

اما العالم الثاني فهو اقرب الى الخدم والعمال ؛ حيث نجد « قصص السعالى وحديث النفاق . كان هنالك طوفان من الحدوث المستمر المغري ، حدوث مفزع عملاقي محير . كان هنالك المسلخ والسجن ، السكارى والنساء المولعات بالسباب ، والابقار وهي تلد في أماكنها ، والخيول الجامحة ، والقصص الكثيرة التي تروى عن اللصوص والقتلة والمنتحرين ... كان رائعاً جداً أن يكون بيننا هادئاً منظماً مريحاً ... وأكثر روعة أن تكون هنالك أشياء أخرى ... أجل كانت هنالك

أشياء عنيفة ، وكان هنالك نحس ، الا أنني كنت اجد مهرباً من ذلك كله حين أشاء ، على صدر أمي الحنون .. » (٧)

كانت صدمة عنيفة لسنكلير أن يكتشف ان ذلك العالم المظلم قادر على الخروج عن حدوده واقتحام حدود البيت أيضاً ، حيث لا يعود في استطاعته أن يلجأ الى أمه . انه ليكذب لينال استحسان أصدقائه ، ويجد نفسه في قبضة فرانك كرومر أحد أجلاف المدينة وابن احد السكيرين . ويجد نفسه مضطراً الى ارضاء كرومر فيسرق من البيت ويخدع أهله ، وهكذا يجد نفسه بعيداً بارادته عن ذلك العالم الهادىء المنظم .

« كانت حياتي في ذلك الوقت جنوناً . كنت خجولاً ، فعشت معذباً وكأنني شبح وسط ذلك السلام المنظم في البيت » (٨)

المشكلة واضحة اذن ، فهنالك نظام تقوم ضده حالة من الفوضى . ويقدم هيس حلاً لهذه المشكلة في الفصل الثاني ، فهنالك صبي في مدرسة اميل سنكلير يدعى ماكس دميان ، يلوح عليه أنه أشد نضوجاً من بقية رفاقه . ويتحدث دميان مع سنكلير في موضوع الانجيل ، هابيل وقابيل اللذين يمثلان العالمين ، ويوحي اليه بان قصة الانجيل هذه ما هي الا مثال يضربه الدين عن الواقع ، ويقول بأنه ربما لم يكن قابيل شريراً الى هذا الحد ليقتل اخاه بدافع الحسد ، ربما كان هنالك شيء آخر في الموضوع ، كأن يكون في ملامح وجهه ما يوحي بالذكاء أو الشجاعة ، مما جعل البشر يخافونه ، ويخترعون قصة علامة قابيل ليخفوا بها جبنهم .

ويرتبك سنكلير حين يسمع بالقصة محورة هذا التحوير ، فهي بشكلها هذا انما تعني الانحدار الى العالم المظلم قد لا يكون شراً الى هذا الحد ، وانما هو علامة من علامات الشجاعة والذكاء . وقد يكون هذا الذكي الشجاع دميان نفسه الذي تقول الشائعات الدائرة حوله أن له علاقات جسدية مع كثير من الفتيات ؛ بل مع أمه ! في حين أن دميان هذا هو الذي يحرر سنكلير من ربقة فرانك كرومر الشريرة ، ويوحي اليه بأنه انما يتحدث اليه لانه أسمى من رفاقه الاشرار ولأن

أفكاره أنقى من أفكارهم القذرة . الا أن سنكلير لا يملك الشجاعة الكافية ليعشق هذه النتائج التي يقدمها اليه دميان . على انه سرعان ما يعود الى سلام البيت ونظامه بعد خلاصه من قبضة كرومر ، « ليغني أغانيه الحبيبة القديمة ، وهو ممتلىء بشعور الغبطة الذي يحس به المهتدون » . ولا يدرك سنكلير الا بعد مدة طويلة أنه يجب ان يتوجه باعترافاته الى دميان نفسه ، لا الى اهله ؛ ذلك لانه وقد عاد الي فكرته السابقة عن النظام ، لم يفعل اكثر من أن يشيح بوجهه عن الفوضى ، الا ان هذه الفوضى ما تزال موجودة .

اما بقية الكتاب ، فنجد فيها وصفاً لمراهقة سنكلير ويقظته الجسدية . الا ان ذلك السؤال ما يزال يشغل ذهنه ، انه لا يستطيع ان يتخلص من الفوضى بمجرد عدم النظر اليها . ويظهر دميان ثانية ، في حين يغرق سنكلير في هواجسه . ويقدم دميان سنكلير الى أمه ، فيجد هذا فيها جواباً على سؤاله الخاص بمشكلة العالمين . انها تمثل الطبيعة والحياة والام ، او ليليث ، التي تلتقي فيها الاضداد * وتنتهي القصة بدوامة من دوامات شللي الخيالية ، مما يخيب امل القارىء اللارومانسي الذي كانت تحليلات هيس الدقيقة قد ركزت انتباهه خلال القصة . وذلك هو النقص الذي نجده في معظم قصص هيس ، والذي ورثه ممن سبقه من الرومانسيين.

على ان نتائج « دميان » واضحة مع هذا ، فالمشكلة هي مشكلة الادراك النفسي ، ذلك لان قبول حالة النظام والعيش في ظلها لا يكفيان ، وانما هما الجبن بعينه ولا يمكن ان يؤدي مثل هذا الجبن الى الحرية . يجب ان يواجه الانسان الفوضى ويجب ان يحصل على نظامه الحقيقي بعد هذه الفوضى ، وذلك هو ما ينتهي اليه هيس . كان السقوط ضرورياً بالنسبة الى الاسلوب الديني ، وكان على الانسان ان يأكل ثمرة الخير والشر ، (وسنواجه هذه الحالة نفسها حين نبحث اعمال نيتشه وبليك ، ونرى الفكرة القائلة بأن الخير والشر ليسا ضدين ، وانما هما تعبيران

* ليليث ، أو ليليس : تقول الأساطير اليهودية انه كانت لآدم زوجة قبل حواء تدعى ليليث ولدت له شياطين الهواء والماء والأرض ، وانها ما تزال تجوب العالم ساحرة البشر . (المترجم)

عن قوة عليا تشتمل عليهما معاً) . لم يحصل سنكلير على شيء ، وانما فقد الكثير حين رفض ان يواجه الشر . وتشرح المخطوطات الدينية البوذية ذلك في العبارة الآتية : « ان اولئك الذين يرفضون ان يميزوا ليسوا الا امواتاً . »

اما قصة هيس التالية فانها توحي الى القارىء بانها تقدم حلولاً لمشاكل كبيرة ، الا ان ذلك ليس صحيحاً . وقد كتب هيس هذه القصة « سيذارثا » بعد عودته من الهند ، وهي تعتبر احسن القصص الخمس وأكثرها مثالية . (ولنتذكر هنا ان سترندبرك لم يستعد عقله الا بعد ان درس النصوص البوذية والهندوسية) . على ان هذه القصة تعاني من ذلك النقص نفسه الذي تشكو منه « دميان » . فان القارىء يشعر بأن هيس لم يكن يعرف شيئاً عن خاتمة القصة حين بدأ بكتابتها .

نرى في هذه القصة ان سيذارثا هو ابن احد البراهمة ، وانه ولد في زمن بوذا (بين ٥٦٣ – ٤٨٣ قبل المسيح) . ان حياة الراهب المتجول تعجبه جداً ، فيترك بيته شاباً ويقوم بتطبيق نظام صارم على نفسه ليكتسب سيطرة قوية على جسده وعقله . لقد ذهب سيذارثا اذن الى ابعد مما ذهب اليه بطل باربوس في مشكلته . انه ليشعر بأن هذه السيطرة التي يفرضها على نفسه ليست الادراك النفسي المنشود ، فيذهب للاستماع الى مواعظ كوتاما ساكياموني الذي يدعوه اتباعه (بوذا) ، ويعزز كوتاما النتائج القائلة بأن سيذارثا قد اتم مراحله وان التطرف في الزهد ليس ضرورياً لبلوغ الادراك النفسي ، ذلك ان هدف الادراك النفسي هو اختبار الارادة . ويدعو بوذا الى طريقة معتدلة تعتمد على تحقيق حالة من التأمل او الاتصال التام عن جميع الفعاليات البشرية . ولما كان هذا الراهب قد حقق هذا وقضى على كل ميل فيه لادراك نفسه عن طريق جسده وعواطفه ومشاعره وعقله ، فانه يعرف ان نفسه صارت الآن بعيدة عن ذلك كله ، وانه بدأ يحقق حريته « كانسان مولود من جديد » .

ويتقبل سيذارثا هذا ، الا انه يشك في ان اطاعة بوذا ستحقق له الادراك النفسي (وفي هذا يقول كوتاما دائماً : دع كل انسان يكون جزيرة في داخل نفسه) . ويبقى صديق سيذارثا تلميذاً من اتباع بوذا ، بينما ينطلق هو باحثاً من

جديد . انه يقول لنفسه : « لا يستطيع انسان ان يعلّم انساناً آخر كيف يكون بوذياً ، انما يستطيع ان يعلم نفسه فحسب » . وهنا ينبعث السؤال التالي : هل يستطيع الانسان ان يعلم نفسه بواسطة تضييق مدركاته عن الحياة حتى يبلغ حالة يكون فيها حبه للطبيعة قد تلاشى نهائياً ؟ ان هذا السؤال يدفعه الى تقرير امر جديد ، ذلك انه يترك مسوح الرهبان ، ويبحث في اول مدينة يصلها عن عشيقة له . ويجد واحدة فتخبره بأنها لا تستطيع ان تقبله عشيقاً لها ما لم يحقق نجاحاً في هذا العالم . ويندفع سيذارثا في سبيل ذلك باذلاً كل ما لديه من جهد ، فيحصل على البيت والعشيقة . وتمر سنوات عديدة عليه وهو على تلك الحال ، فيعلم انه لم يكن في يوم من الايام بعيداً عن الادراك النفسي مثله الآن. وتدفعه كآبته وشقاؤه الى محاولة الانتحار فيفشل ، غير ان محاولته هذه التي تقنعه بأنه ما يزال أميناً في مواجهته الفشل بصراحة ، تشجعه على ترك البيت والنجاح المادي ، والعودة الى حياة التشرد من جديد ، على انه لا يذهب بعيداً هذه المرة وانما يتصل بزورقي المدينة « المشغول بالتأمل » ، ويعود الى انفاق ايامه في ذلك النظام الروحي . وتموت عشيقته ، فيعلم سيذارثا انه كان اباً لطفل ، كنتيجة لليلة الأخيرة التي قضاها معها ، فيربي الطفل حتى يكبر ، ويكتشف حينئذ انه لا صلات حقيقية هنالك بين البشر ، لا صلات حتى مع احب الناس اليه ، اذ يترك ولده البيت . على ان سيذارثا يقبل هذه الخسارة ، ويعود الى التأمل في النهر . وهنا تقرب القصة من خاتمتها ويدرك القارىء ان هيس لم ينجح في احكام ما اراد ان يصوره . ان سيذارثا يترك البيت وهو طافح بالأمل ويفشل في حياة الزهد فيلجأ الى بوذا ليجد ان بوذا لا ينفعه في شيء ، فينقلب الى حياة هذا العالم ، الا انه يفشل في تحقيق غرضه في حياة هذا العالم ايضاً ، فلا يملك الا ان يصبح زورقياً متأملاً . وينتظر القارىء من هيس ان يخبره بالحل الناجح ، الا انه لا يبلغ نهاية القصة التي يدرك ان هيس لا يملك شيئاً من الحل ليقدمه اليه . ويستمر النهر على جريانه ، وسيذارثا على تأملاته فيه . ويستنتج هيس من ذلك انه ليس هنالك فشل او نجاح نهائي ، وان الحياة كالنهر حقيقتها الوحيدة هي في عدم انقطاعها عن

الاستمرارية .

قد يعترض من يدرس الاديان الشرقية على ذلك، فيقول ان الفشل الذي تتميز به القصة راجع الى عدم استطاعة هيس ان يفهم جوهر الهندوسية او البوذية ، وانه كان عليه ان يقرأ راماكريشنا او القديس التيبتي ميلاريبا ليحصل على الحقائق عن هذا الطريق ، قبل ان يشرع بكتابة قصته . قد يكون هذا صحيحاً على اننا لا نملك الآن الا ان نتقبل القصة التي في ايدينا على انها ذات خاتمة ، ونعتبرها جزءاً من محاولة هيس لتعريف مشاكله الخاصة .

لم يكن هيس نفسه قانعاً ، وذلك ما تظهره قصته التالية « ستيفن وولف » التي ظهرت في عام ١٩٢٨ ، والتي يعود فيها الى الصراع السابق مستعملاً كل ما لديه من الحقائق والتفاصيل مبتدئاً من جديد . ويمكننا ان نعتبر هذه القصة مساهمة مهمة من جانب هيس في مشكلة اللامنتمي ، بل انها اقوى دراسة ظهرت حتى الآن بصدد هذه المشكلة .

ان « ستيفن وولف » هي قصة رجل في منتصف العمر ، وهذا بعض ما يجعلها مهمة جداً ، ذلك لأن الرومانسي غالباً ما يجد نفسه في ربقة التشاؤم واليأس معادياً للحياة ، لاصراره الشديد على اهمية الشباب . (ويعتبر روبرت بروك نموذجاً على ذلك) اما ستيفن وولف فانه ادرك عدم اهمية الشباب . ويشعرنا هيس بأنه امين جداً في هذه اليوميات التي يكتبها « هاري هاللر » متخذاً في ذلك اسماً آخر هو « ستيفن وولف » .

ونرى ان ستيفن وولف هذا لا يشبه لا منتمي باربوس في ظاهره رغم انه اكثر منه ثقافة وأقل حيوانية ، فإن اذيال النساء المرتفعة لا تزعجه في الشارع ، كما انه لا يعلق اهمية كبيرة على الوقوف الى جانب الحقيقة ، وانما يسمح لخياله بأن ينطلق ، فنرى ان اليوميات عبارة عن مجموعة من الاحلام . على اننا نرى هنا الانسان المنطوي على نفسه ، الذي يعيش في غرفته ، بين الكتب والحاكي ، والذي لا يجد نفسه مضطراً الى مبارحة غرفته للعمل لانه يملك ايراداً خاصاً كافياً . وقد كان في شبابه يعتبر نفسه شاعراً مدركاً لنفسه ، اما الآن ، وهو في متوسط العمر

فانه يشبه اميل سنكلير لو كان في متوسط العمر مثله ؛ ولم تعد حالات الادراك تحدث له ، وانما صار غير قانع ، فاتر الهمة .

تبدأ اليوميات بوصف يوم نموذجي من أيامه، فنعرف انه يقرأ قليلاً ، ثم يستحم ، وبعد ذلك يتمشى في غرفته، ويأكل، ثم يتعاظم في نفسه شعوره بعدم تحقيق أي شيء، حتى اذا أطبق عليه الليل بدأ يشعر بشعور من يريد أن يحرق منزله أو يقفز من النافذة . ان أسوأ ما يضايقه هو أنه لا يستطيع أن يجد عذراً لبلادته، في الوقت الذي يعتبر فيه نفسه فناناً متأملاً ، ويحس بأن عليه ان يكون راضياً بهذه الحياة لانها تحقق المثل الاعلى في الانقطاع والوحدة . انه يحس بأن هنالك نقصاً ما، ولكن ما هو؟ ويذهب الى احد الفنادق، ويجلس متأملاً، ويشعره الطعام والشراب ببعض الراحة ، وفجأة يجد نفسه في الطبع الذي يئس من الحصول عليه سابقاً :

« انبثق في اعماقي ضحك منعش .. ضحك حلق بعيداً كفقاعة صابون .. ثم انفجر بهدوء .. تاركاً وراءه ذيولاً ذهبية وهاجة ، وتذكرت كل ما هو خالد .. تذكرت موتزارت ..... والكواكب . واستمر ذلك ساعة كاملة، كنت خلالها مكتوم الانفاس .. » (٩)

كان ذلك في نهاية يوم طويل ، الا أنه سيستيقظ في الصباح ولا يجد شيئاً من هذا الالهام والادراك . سيقرأ قليلاً، وسيستحم .... وهكذا . »

الا ان شيئاً ما يحدث في المساء ذاته، غير ان القارىء لا يستطيع التأكد من فحواه . على ان هاللر يخبرنا بأنه يرى باباً سرياً غامضاً في الحائط، عليه هذه العبارة (مسرح السحر: ليس لكل انسان) ، ورجلاً يحمل قطعة ساندويش وصينية اخرى من الشراب، يسلمه كراساً يدعى « مقالة عن ستيفن وولف » ، ونجد هذه المقالة مطبوعة في الصفحات التالية من القصة، ولهذا فاننا يجب أن نعتبرها من أعمال هاللر، الامر الذي يجعل من الصعب على القارىء ان يقرر متى يعتبر هاللر متحدثاً عن الحقيقة، ومتى يعتبر منهمكاً في تجارب يجريها لاثبات تحقيقه لرغباته، بينه وبين نفسه .

على أن هذه المقالة تعتبر قطعة مهمة من التحليل الشخصي، مهمة الى درجة اننا نستطيع أن نسميها «مقالة عن اللامنتمي». ويقرأ هاللر (أو يكتب) هذه المقالة، فتتضح نقاط هامة بخصوصه هو وبخصوص اللامنتمي. يقول هاللر أن اللامنتمي هو رجل موزع النفس، وعليه فانه ينشد التوحيد النفسي. وهو أناني بقدر أنانية من تؤلمه إحدى أسنانه طيلة حياته.

ولكي يوضح هاللر شقاءه، قسّم نفسه الى شخصين، الى انسان متحضر، والى ذئب. فاما الانسان المتحضر فانه يحب كل ما يمت بصلة الى عالم اميل سنكلير الاول، كالنظام والنظافة والشعر والموسيقى (خاصة موسيقى موتزارت)، ولا يسكن إلا في البيوت التي تحتوي على مدافيء أنيقة وأرضيات لماعة نظيفة. اما نصفه الثاني، فهو المتوحش الذي يحب العالم الثاني: عالم الظلام. انه يفضل الانطلاق والخروج على القانون، فاذا احب المرأة فانه ليشعر بأن الطريقة الوحيدة للحصول عليها هي في قتلها واغتصابها، وهو يعتبر الحضارة البورجوازية وكل خوائها نكتة كبيرة.

يعيش الانسان المتحضر والانسان الذئب على عداء دائم، وانه ليلوح ان ايام هاري هاللر مقسمة بينهما، يصارع احدهما الآخر عليها، إلا انهما يتصافيان احياناً، كما حدث في الفندق، فنتج عن ذلك حالة غريبة، ويشعر هاري بأن اتحادهما يجعله يحس وكأنه صار من الآلهة، فلا يحسد البورجوازي الذي يرى الحياة مستقيمة كل الاستقامة، ذلك لأن البورجوازي انما يمثل ما يصطرع في نفسه هو على نطاق اضيق. انه كإنسان مدرك لنفسه، تعمد تنمية هاتين الطبيعتين المتناقضتين، حتى صار اصطراعهما يهدد بتحطيمه هو وتقسيمه الى شخصين، الا انه يعلم انه اذا حقق التوافق بينهما، فانه سيعيش حياته بشدة لا يعرفها البورجوازي. ان عذابه لا يعتبر علامة على ضعته، رغم انه يجعله اقل استحقاقاً للحياة من البورجوازي، فاذا ظلت طبيعتاه متناقضتين، كان ذلك علامة على عظمته، واذا اتفقتا، اتاح ذلك له حياة «اكثر وفرة»، مما يجعل افضلية اللامنتمي على غيره من النماذج البشرية امراً اكيداً، ذلك لان اللامنتمي لا يمكن

ان يكون موحداً وسعيداً ان لم يشعر بقوته .

ويذهب هاللر الى ابعد من ذلك ايضاً، فيقول ان اللامنتمي هو مبعث وجود البورجوازي، اذ لولاه لم يكن هنالك بورجوازي ، وان حيوية اعضاء المجتمع العاديين تعتمد على لامنتمي هذا المجتمع . وقد يوحد بعض اللامنتمين انفسهم، ويدركونها باعتبارهم شعراء او قديسين بينما يبقى الآخرون موزعين توزعاً محزناً مجردين من الانتاج، رغم انهم يقدمون الى المجتمع نشاطاً روحياً يطهر الفكر ويمنع عالم البورجوازي من ان يغرق في طبيعته الميتة . ان هؤلاء اللامنتمين هم دينامو المجتمع الروحي، وعليه فان هاري هاللر يعتبر نفسه احدهم .

هنالك خطوة ابعد من خطوات هذا التحليل الشخصي ، تلك هي ان هاللر ليس منقسماً الى هذين العنصرين البسيطين، الانسان والذئب، فحسب، وانما توجد فيه مئات من « الأنا» المتصارعة . ان كل فكرة او حالة عقلية تقول « أنا » وتخفي كلمة « الشخصية » غموض هذا المفهوم، ولا تشير الى موضوع حقيقي (كالجسد) . ان البشر لا يشبهون شخوص الأدب في ثباتهم وعدم تغيرهم الذي يضفيه عليهم خالقهم، وان الجانب المرئي من الكائن البشري هو جزؤه الميت في حين ان جزءه الثاني، ارادته اللامحدودة، هو الذي يشكل وجوده . ان الارادة تسبق الجوهر، وتعتمد الحضارة البورجوازية على الشخصية التي هي قيمتنا الرئيسية . ان النجمة السينمائية تتمتع بهذه الشخصية، والبائع الذي يحاول ان يبيع اول بوليصة للتأمين ينضح بهذه الشخصية .

« ان الانسان الذي تسوقه الصدف ، يرى تغيرات كثيرة : والوهم الذي انفقت الهند آلاف السنين من اجل توضيحه، هو نفسه الوهم الذي يبذل الغرب ما يبذل من جهود جبارة من اجل ادامته وتقويته » (١٠)

وتنتهي المقالة بتقرير ما يلي :

« ليس الانسان ..... شكلاً ثابتاً غير متغير . انه ..... تجربة وانتقال. انه لا شيء اكثر من جسر ضيق خطر بين الطبيعة والروح . ان المصير الكامن فيه يدفعه الى الروح والى الله، اما حنينه الكامن فيه ايضاً فانه يعود به الى الطبيعة ...

الانسان هو اتفاق بورجوازي . » (١١)

« ليس ذلك الانسان مخلوقاً كاملاً ، وانما هو تحد للروح، انه احتمال بعيد يُخشى منه اكثر من كونه مرغوباً، لأن الطريق الموصلة اليه ليست ممهدة إلا في جزء صغير منها . انها مملؤة بالعذاب والكوارث والذهول المفزع، وان ذلك الجزء الصغير الممهد هو مشنقة ممهديه اليوم وتمثال ذكراهم غداً . » (١٢)

يعلم ستيفن وولف جيداً لماذا هو شقي متعب منزعج، انـــه يعلم ذلك لانه لن يدرك ما هو هدفه ليتبعه بكل كيانه .

« انه يقرر أن ينسى ان تمسكه اليائس بالنفي وتمسكه اليائس بالحياة يمثلان الطريقة الوحيدة الاكيدة نحو الموت الخالد » . (١٣)

ويعرف هاللر انه حتى اذا اشتهر اللامنتمي كعبقري عالمي، فان ذلك راجع « الى مقدرته العظيمة على التسليم ومعاناة العذاب، والى عدم اكتراثه للمثل البورجوازية، ولصبره على تلك الوحدة المتطرفة التي تضفي صفة الندرة على محيط العالم البورجوازي وتجعله نوعاً من الاثير البارد حول اولئك الذين يقاسون من اجل ان يصبحوا بشراً، تلك الوحدة التي تشبه وحدة المسيح معلقاً على صليبه » (١٤)

« لقد اكتشف ستيفن وولف هذا ..... انه ما يزال في بداية الطريق الطويلة نحو هذا التوافق المثالي .... كلا، ان العودة الى الطبيعة ثانية طريق مزيفة تقود الى لا مكان . انها تقود الى العذاب واليأس .. كل شيء مخلوق ، حتى ابسط الأشياء، هو في اساسه خاطيء متعدد .. ان الطريق الى البراءة، الى اللامخلوق ، الى الله ، تقود باستمرار ، لا الى الخلف ، الى الذئب او الطفل ، وانما ابعد نحو الخطيئة .. اعمق نحو الحياة الانسانية ... وبدلاً من ان تقوم بتضييق عالمك وتبسيط روحك، ستأخذ العالم كله في روحك مهما كلفك ذلك . » (١٥)

واما الفكرة الأخيرة في هذه المقالة فانها تذكرنا بفكرة رلكه عن « ملاك مرثيات دوينيس » الذي يستطيع من ارتفاعه الشاهق أن يرى ويلخص الحياة

الانسانية ككل .

« لو كان بين الخالدين – لو كان قد بلغ ذلك الهدف الذي يلوح ان هذه الطريق الطبيعية تؤدي اليه – فما أشد دهشته لو نظر الى الخلف .. الى كل ذلك الذهاب والاياب ، كل ذلك التردد والتعرج والوعورة التي تتصف بها المسالك .. أي مزيج من التشجيع واللوم ، الاسف والغبطة ، سيبدو في ابتسامته لهذا الستيفن وولف ؟ » (١٦)

انما تشير هذه المقاطع الى طريق الخلاص الذي يبحث عنه اللامنتمي . انه يقبض على هذه اللحظات بقوة ، هذه اللحظات التي يدرك فيها اتجاهه وهدفه ، ولا بد انه في مثل هذه اللحظات يقوم بوضع القواعد التي ستساعده في التقدم نحو هدفه رغم أنه يضيع الاتجاه . وليس من الضروري أن نضيف الى هذه القواعد انما تفيد البشر الآخرين أيضاً ، لأن أهدافهم لا تختلف في شيء عن هدفه .

نجد ايضاً ان هذه المقالة تلقي بعض الضوء على ما قصده هيس في قصة « سيذارثا » ، فان سيذارثا ثار ضد النظام الديني الذي « ضيق العالم وبسّط الروح » ، ولكنه حين خلع عنه مسوح الراهب ، فشل في أن « يأخذ العالم كله في روحه » ، وانما بالعكس ، ضيق روحه لتحتوي على عشيقة وبيت فحسب . ان المجهود الذي يبذل في « توسيع الروح » يجب أن يكون خاضعاً لنظام ديني ولا يمكن تحقيق شيء بالانقطاع عن الارادة . كل ذلك يعرفه ستيفن وولف الشقي جيداً ، الا أنه يفضل ان لا يعرفه .

كان من المنطق أن تكون « مقالة عن ستيفن وولف » خاتمة الكتاب ، بينما نجدها ضمن الصفحات المائة الاولى منه .. ولم يفعل هاري شيئاً اكثر من أنه نظم صعوباته تنظيماً عقلياً ، وكان عليه أن يعاني التجارب التي ستجعل تحليله واقعياً بالنسبة اليه . وعليه فلم يتحقق من « قصة التأريخ الشخصي » شيء في هذه القصة أكثر من الثلث .

وينتهي من قراءة المقالة فيحس بيأس عميق وانهاك وضيق شديدين ، في حين تنذره المقـــالة بأن ذلك هو ما يجب أن يكون . ويقرر أن تكون

هذه آخر مرة يغوص فيها الى مثل هذا العمق ، والا فانه سينتحر في المرة القادمة قبل أن يبلغ هذا الحد ، ويغتبط بهذه الفكرة ، فيسترخي قليلاً وينام .

تمثل المقالة كما يراها القارىء أقوى نواحي الكتاب التحليلية ، الا أنه ما يزال امام هيس واجب لم يتمه . عليه أن يرينا كيف سيتعلم ستيفن وولف أن يقبل الحياة ثانية ويتخلى عن فكرة قتل نفسه ، فيفعل ذلك في سلسلة من الحوادث غير محتملة الوقوع . كان الرجل الذي يحمل الساندويش قد ذكر اسم فندق ما . ويذهب هاللر الى ذلك الفندق حيث يلتقي بفتاة تدعي هيرمين تأخذه بيده وتعلمه الرقص وتجعله يستمع الى موسيقى الجاز وتقدمه الى احد العازفين ، والى بابلو الذي لوحته الشمس ، والى ماريا . الفتاة التي يتميز جمالها بالاثارة الجنسية العنيفة ، والتي يجدها في فراشه حين يعود الى بيته ذات ليلة . ويمر هاللر خلال تجارب حسية كتلك التي يمر بها سيذارثا . ويستعيد هاللر كل ماضيه وهو في الفراش مع ماريا ، فيجده حافلاً بالمعاني (الامر الذي لم يستطع أن يفعله روكانتان) :

«وكفّ قلبي عن الخفقان بضع لحظات ، وغرقت في فيض من الغبطة والحزن حين اكتشفت كم كان أفق حياتي مليئاً ، وكم كانت روح ستيفن وولف الشقية مكتظة بالكواكب العالية الخالدة . كانت حياتي قد اصبحت تعباً متصلاً ، بعد أن جابت في تلك المتاهات المحيرة التي ليس فيها الا الشقاء ، والتي لم تقد الا الى نبذ كل شيء ، بل انها قادت الى اللاشيء ، ولم تخل من مرارة الطعم الذي تفيضه عليها الاشياء الانسانية ، على انها خلقت ثروات ، ثروات يمكن أن يفخر بها . لقد كانت حياة نبيلة رغم ما كان فيها من شقاء . ولكن ما يكون من أمر ذلك الطريق الصغير الى الموت .. لقد كان لب حياتي وجوهرها نبيلاً . وقد جاءتني هذه الحياة من مصدر علوي . ولكنها لم تعتمد على السخافات والترهات ، انما اعتمدت على الكواكب .. » (١٧)

يمكننا أن نعتبر هذه التجربة جوهر الرومانسية الاصيل المجرد من المشاهد المسرحية والموسيقى العذبة الهادئة ، وقد اصبحت نوعاً من التأكيد الديني . ولا شك ، لسوء الحظ ، في أن هنالك صعوبة كبيرة في فصلها عن المشهد المسرحي .

واللغة الفخمة ، واجواء هوفمان . ويعترف هاللر في الصفحات التالية بانه جرب المخدرات ايضاً في تلك الفترة من « حياته الحسية » ، بل انه جرب شيئاً آخر اشد قذارة ، (ذلك ان بابلو اقترح عليه اتصالاً جنسياً ثلاثياً مؤلفاً من بابلو وهاللر وماريا .. في حين كانت هنالك بين ماريا وهيرمين صلات سحاقية ..)

وتصل القصة اعلى ذرواتها في حلم يراه هاري ويتخيل فيه نفسه موجوداً في حفلة راقصة خيالية الازياء ، يشعر فيها هاري بانهيار جميع الحدود التي تقوم بينه وبين الناس ، فلا يعود يحس بالوحدة .. ويقتل هاري (بتخيل انه يقتل) هيرمين ، ثم يجد نفسه اخيراً في مسرح السحر ، حيث يرى ماضيه ويعيش ثانية في احلام بريئة . ويحقق بعد هذا المشهد التأكيد الذي لم يستطع ان يحققه في بداية الكتاب .

« سأعود الى تمثيل عذابها مرة اخرى ، سأرتعد مرة اخرى حين ارى لا حسيتها ، الا انني لن اعاني من جحيم وجودي الداخلي مرة واحدة ايضاً ، وانما دائماً .. على انه سيأتي اليوم الذي افوز به .. » (١٨)

وتنتهي ستيفن وولف بذلك الضباب نفسه ، بذلك الحلم الرومانسي ، الذي عرفناه في القصتين السابقتين . الا ان وقع هذه النهاية في نفس القارىء أقل شدة من وقع النهايتين السابقتين عليه ، لأن القارىء هنا يسمح لهاللر بأن يطيل ويطيل ليقص عليه من الاكاذيب ما يشاء .. ومهما يكن الامر فان العبرة ليست في هذين المشهدين الاخيرين ، (كما يجب ان يكون الامر باعتبارهما يمثلان ذروتي القصة) ، وانما في صفحات التحليل الشخصي وحيث لا نجد شيئاً من الحوادث على الاطلاق ولا يملك هيس ما يملكه معاصره ، توماس مان ، من قابلية على بث الحياة في شخوصه ، الا ان افكاره اشد حياة من افكار مان ، وربما يكون ذلك لأن مان يقف من شخوصه موقف المراقب ، في حين ان هيس يمثل شخصاً من شخوصه دائماً ، مخفياً ذلك ما استطاع . ان هذه الحيوية التي تتميز بها افكار هيس تجعله اقرب الى دوستويفسكي ، كما ان هذه الافكار هي انفعالات يسجلها هيس مبتغياً من وراء ذلك حل مشاكله الخاصة . وهو ينجح في « ستيفن وولف » قاطعاً

شوطاً بعيداً من اجل الحل النهائي ، ونرى هاللر ، في مشهد الحل الاخير ، يمعن النظر في الكلمات التالية (تات تفام آسي) * التي تعني (أنك أنت) والتي هي احدى قواعد اليوبانيشاديين ، وتفسر بما يلي : يكتشف الانسان الطبيعة في قلب وجوده الخاص . ويعلم هاللر بذلك بداهة ، كما أن الطريق التي تقود من شقاء اللامنتمي الى هذا المركز الهادىء هي اتباع نظام معين من الزهد والوحدة التامة ، وهو يرينا ادراكه لهذا في « مقالة عن ستيفن وولف » ، الا انه يعترف بأن ذلك صعب جداً عليه . ويرينا في نهاية القصة انه يوجد بعض الشجاعة الضرورية لمواجهة ذلك .

ان «ستيفن وولف » هي آخر دراسة رئيسية يقوم بها هيس لمشكلة اللامنتمي، لأن القصتين تعتمدان على تحليل أقل تفصيلاً . وتعتبر « نارزيس وكولدماند » دراسة اخرى للطريقتين المتعارضتين ، هذا العالم والزهد . ويقول عنها بعض النقاد انها احسن قصص هيس ، ويمكننا نحن ايضاً ان نعتبرها كذلك ، لأنها تمثل نتيجة طيبة لقاص ظل يكتب القصص طيلة ربع قرن . فاما نارزيس فهو راهب شاب ينتظر منه ان يقوم بخدمة الكنيسة ويأتي كولدماند كطالب جديد الى مدرسة الدير ، فيميل نارزيس اليه ، لأنهما يمثلان أشد من في الدير توثباً وحيوية . غير ان كولدماند ليس راهباً ، فان عليه ان يتبع طريق سيذارثا وستيفن وولف : « بدلاً عن تضييق عالمك ، عليك في النهاية ان تأخذ العالم كله في روحك » . ويبدأ نارزيس سلسلة من الصيام والسهر والصلاة ، ليتم بذلك زهده في العالم ونبذه له ، في حين يترك كولدماند الدير ليذهب الى العالم « باحثاً عن نفسه » .

وتعنى ثلاثة ارباع القصة بدراسة كولدماند وحبه « للكثيرات » وتجواله ، والصعوبات التي تعترضه . ويصبح كولدماند نحاتاً يتبع طريقة ميكل انجلو في التأكيد على الحياة ، ويرى الوباء ينتشر ويحصد الناس حصداً ، ويصل تجواله الى

* عن شاندوكيا يوبانيشاد : مخطوطات هندوسية مكتوبة قبل زمن بوذا .

الذروة حين يرى صورة مرسومة على جدار كنيسة مهجورة ، تمثل رقصة الموت التي نجدها في كثير من مخطوطات القرون الوسطى ، والتي نميز فيها هياكل عظمية ترتدي مسوح الرهبان وملابس التجار والشحاذين والعشاق ، في حين يكتسحها الموت جميعاً . ويترك هذه الصورة مدركاً انه : حين نكون في وسط الحياة ، فاننا في الموت ، ويعود كولدماند الى البيت ، الى نارزيس .

أما نارزيس فهو الآن رئيس الدير ، ويتمتع بنفوذ سياسي . ويصل كولدماند الى الدير بعد مغامرة غرامية أخرى كادت تكلفه حياته ، الا أنه لا يدخل الدير راهباً وانما نزيلاً ، فيقضي فيه أيامه ناحتاً تماثيل القديسين والنقوش ليزين بها الجدران ، وتحدث حادثة فيموت كولدماند تاركاً تماثيله التي يقيض لها الاستقرار والخلود اللذين لم تتصف حياته بهما ، اذ أنه يظل محترفاً مجهولاً من محترفي القرون الوسطى ، وهكذا نجد أن كولدماند لم يجد الادراك النفسي الذي أراده ، وانما ، وبصورة عكسية يجد نارزيس ذلك له حين ينظر الى التماثيل ويعلم أن كولدماند قد اكتشف صورة الخالد الروحي ، دون أن يدرك ذلك .

أما آخر قصص هيس ، التي تظهر منذ عام ١٩٣٧ ، والتي نشرت نهائياً في عام ١٩٤٥ ، فتعتبر أبدع انجازاته ، اذ نجد فيها اختفاء عنصر الرومانسية الذي كان يتخم أعماله السابقة . وتتميز هذه القصة بأسلوب أكثر تعففاً وبشكل يعتبر جديداً من هيس .

تحدث هذه القصة « طقوس الصلاة » * في المستقبل ، حين يسند الحكومة نظام يقوم على أساس تسلسل السلطات ، نظام ارستقراطي خاص بالاذكياء ، أما هدف هذا النظام فهو الاحتفاظ بمثل العقل والروح العليا في عالم الانقلابات السياسية ورجال الدولة المتشاحنين . (ذلك العمل الذي كانت تقوم به الكنيسة في القرون الوسطى) . ان هذا النظام هو في الحقيقة حصاد المثل العليا الانسانية التي

* ترجم ميرفن سافيل هذه القصة للانكليزية تحت عنوان « ماجستر نودي » .

ظهرت في عصر النهضة ، وتستبدل فيه طقوس عبادة الله بطقوس عبادة المعرفة تدعى هذه الطقوس « بطقوس الصلاة » . ويستفاد في هذه الطقوس التي تعتبر أعلى شكل من أشكال نشاط الالهام من كل العلوم والفنون ؛ اذ توحد وتجمع فيما يشبه القداس الديني ، الا أن من يقوم بذلك هم اساتذة الجامعات .

هذه القصة هي التأريخ الشخصي لأحد اولئك القسس الذين يقومون بتلك الطقوس ، والذي يدعى جوزيف كنيشت (تعني كنيشت بالألمانية الخدمة ، لهذا يعتبر البطل تجسداً للمثل الأعلى للخدمة) . ويصبح كنيشت ، الذي يتصف بمثل طبع نارزيس ، ماجستر لودي ، ويعتبر هذا المنصب أعلى المناصب في تلك الدولة . الا أن هنالك شيئاً غير مقنع في هذا النظام ، ورغم أن هؤلاء الحاكمين الذين يتسلسلون في الدرجات يعتقدون بصورة أكيدة بأنه لا نظام آخر في الحياة يمكن أن يقدم ارضاء لأقصى احتياجات الانسان مثلما يفعل هذا النظام ؛ اما كنيشت فانه يرى بوضوح أن هذا النظام يفسح المجال للخمول العقلي والاكتفاء الذاتي والاعتداد الشخصي (تلك الوضعية نفسها التي وجدها مارتن لوثر في الكنيسة الكاثوليكية في أيامه) . ويكتب كنيشت رسالة الى الحكام يخبرهم فيها بأن هذا النظام سيموت من جراء الضعف العاطفي الذي يتميز به ، ثم يستقيل من منصبه ويذهب الى (العالم) .

ونرى في الفصل الاخير أن هذا الماجستر لودي السابق قد اصبح معلماً لغلام مثل كولدماند ، ونراه وهو يراقب الغلام حين يصلي للشمس في الصباح :

« مد ذراعيه ، ضاماً الجبال والماء والسماء الى قلبه ، وركع ، ولاح أنه يصلي الى الارض الأم والشعاع المنعكس على البحيرة ، مقدماً شبابه وحريته وغريزة الحياة الملتهبة فيه كتضحية منه لأجلها . » (١٩)

ويدرك كنيشت ، وهو يراقب الغلام ، أن تلميذه انما يكشف عن نفسه باعتباره خادماً آخر (جديداً ، غريباً ، معادلاً له تماماً) ، وهذا ما لم تعرف عنه تلك الدولة شيئاً ، وما كان ينقص حياته . ويغوص الغلام في البحيرة ، فيتبعه كنيشت وهو مملوء حماساً : الا أن المجهود والبرد يقضيان عليه فيغرق .

لم يستخلص هيس اذن ، حتى في هذه القصة ، نتيجة واضحة من تحليله . ان تيتو الصغير نفسه يلوح « نداً له » وما يزال هيس حتى النهاية غير قادر على الاختيار بين نارزيس وكولدماند ، في حين اننا نستطيع ، باستعادة تفاصيل حياتهما ، أن نعرف لماذا فشلا معاً . فاما كولدماند فقد عاش فقط ، (لقد فشل في أن يأخذ العالم كله في روحه) رغم انه استطاع بواسطة الفن ان يقترب من ذلك اكثر مما فعل سنكلير أو سيذارثا . أما كنيشت فقد فكر فقط ، وحاول أن يأخذ كل عالم المعرفة في روحه بواسطة طقوس الصلاة. كان مثله الأعلى في الخدمة صحيحاً ، الا أن هذه الخدمة كانت من أجل شيء خاطيء ، ويكتشف هو أيضاً ذلك حين يرى تيتو وهو يقوم بنوع آخر من الخدمة في الفجر .

لا يمكن ان نقارن اعمال هيس ككل ، بأعمال أي كاتب آخر في الأدب الحديث ، فانها انطلاق دائم لفكرة ما ، الفكرة الدينية الأساسية الخاصة « بكيف نعيش بوفرة اكثر » . وليس لدى هيس خيال شكسبير او تولستوي ، الا أن افكاره حية بدرجة تعوض عن ذلك الخيال تعويضاً كافياً جداً . لقد استعمل القصة باعتباره قاصاً ليكشف عن غوامض المشكلة التي يثيرها السؤال : ماذا نصنع بحياتنا ؟ ونحن نعلم ان كل ما يهمه ان يعرف كيف يجب ان يعيش دون ان يقبل الحياة على علاتها ، هو ، وبصورة اوتوماتيكية ، لامنتم . ويحل هيس شيئاً من مشكلة اللامنتمي في « ستيفن وولف » الى الحد الآتي : ان شقاءه هو نتيجة لميله الذي لا يمكنه ان يتخلص منه الى الاتفاق المذعن مع كل ما هو بورجوازي ، مفضلاً ما في ذلك من مدنية واعتدال ، اما خلاصه فهو كامن في التطرف – في الحر والبرد ، في الروح والطبيعة .

وهنا تتقدم المشكلة خطوة أخرى : أيهما ؟ فاما في « نارزيس وكولدماند » فان البطل يختار الطبيعة ، الا انه لا يستطيع ان يجد الادراك النفسي في اي مكان يذهب اليه . أما في « طقوس الصلاة » فان البطل يختار الروح ، ويموت وهو شاعر بفشله . ربما يرجع فشل هيس الى انه ليس متأكداً من المعنى الذي يقصده بعبارة « الادراك النفسي » . ولنقرأ ما يقوله ستيفن وولف عن الذهول

النفسي واللحظة اللازمنية:

« انفتح باب العالم الآخر فجأة بين قطعتين او ثلاث قطع من موسيقى البيانو ، فأسرعت الى السماء ، وهناك رأيت الله مشغولاً بأعماله ... — فثبتت لدي الاشياء كلها — وسلمت هذه الاشياء كل قلبي » (٢٠) الا ان ذلك لم يدم اكثر من ربع ساعة ، ولا يحدثنا هيس في مكان آخر عن طريقة يمكن بواسطتها ان تكون الحياة سلسلة متصلة من امثال هذه اللحظات. ولو كان مسيحياً مخلصاً لما رضي عن هذه الاشياء التي لا تلوح معقولة ، ولقنع بالعمل من اجل حياة إلهية تاركاً البقية لله. الا أن هيس باعتباره رومانسياً ، يرفض مثل هذا التدبير النصفي. لقد تغلغل فيه شعور عميق بالظلم المنصب على البشر لانهم مضطرون الى قضاء هذه الحياة على مثل هذا المستوى الفاتر من التفاهة. انه يشعر بأنه يجب ان تكون هنالك طريقة في الحياة تتميز دائماً بالشدة التي يحس بها الفنان ، حين يكون ذاهلاً ذهوله الخلاق. وقد يكون في استطاعتنا نبذ هذه الفكرة باعتبار انها مملوءة بالأماني الرومانسية ، الا انها تستحق الاعتبار لكونها واحدة من افكار اللامنتمي. وسنبحث في الفصل التالي مشاكل اشخاص لا يمكننا ان نتهمهم بالرومانسية ، الا اننا سنجد انهم بحثوا بكل جد وعزيمة عن مثل هذه الطريقة في الحياة ، بل انهم خرجوا يفتشون عنها .

ان الميزات التي عرفناها في لا منتمي الفصلين الاول والثاني تتضح أكثر اذا اعدنا النظر فيها على ضوء اعمال هيس. ان مشكلتهم هي لا حقيقية حياتهم ، وهم يدركون ذلك فعلاً حين يكون سبباً في ايلامهم ، الا انهم لا يدركون مصدر هذا الألم. ان هذا العالم الاعتيادي المألوف يفقد قيمه بالنسبة اليهم ، كما هي الحال مع شخص يتمرض لمدة طويلة جداً ، وتتسم الحياة بطابع الكابوس او بما يشبه شاشة السينما حين تكون بيضاء ، اذ يدرك هؤلاء الاشخاص فجأة ان ما كانوا يشاهدونه من آمال ورغبات لا يعدو فيلماً مصوراً على الشاشة ، فيسألون : من نحن ؟ ماذا نصنع هنا ؟ وبينما ينتهي وهم الشاشة وينقطع سيل حوادثها العرضية ومصادفاتها فجأة ، يجدون انفسهم وجهاً لوجه امام حرية مرعبة. ويعبر سارتر

عن ذلك بقوله « انهم محكوم عليهم بالحرية » . يجب عليهم ان يضعوا ملامح جديدة وان يقوموا بتحليل جديد لعالم السينما الحقيقي . لا مشكلة في هذا العالم الظلي المنعكس على الشاشة الا ولها حل ، الا ان ذلك قد لا يكون صحيحاً فيما يخص عالم السينما الحقيقي . ان الحقيقة القائلة بأن عالم الشاشة هو عالم وهمي تثير استنتاجاً آخر ، اذ لماذا لا يكون عالم السينما الحقيقي نفسه غير حقيقي ؟ ويقول نوفاليس : « حين نحلم بأننا نحلم ، فاننا نبدأ بالاستيقاظ » . وقد قال شوانج تزو مرة انه حلم بأنه كان فراشة ، الا انه لا يعرف الآن ما اذا كان انساناً وحلم بأنه رأى فراشة او فراشة حلمت بأنها رأت انساناً .

ان هذه المشاكل تتضح للامنتمي باربوس حين يستيقظ ، بل ان ظهور هذه المشاكل يدل على وجود اللامنتمي ، فاذا تقبلناها باعتبارها من مشاكل الوجود النهائية التي لا يمكن ان يوجد لها حل ما ، كان علينا ان نعتبر اللامنتمي نذير شؤم يلفت انظارنا الى مشاكل لا يمكن ان تحل . على أنه يجب علينا ، قبل ان نصل الى اية نتيجة بهذا الصدد ، ان ننظر في المحاولات الكثيرة التي بذلت من اجل اكتشاف هذه الحلول .

وقبل ان نترك اللامنتمي الرومانسي سنبحث في اعمال قصصي آخر تطرق في قصصه الى المشكلة نفسها . ويعتبر هنري جيمس قاصاً عظيماً فريداً تستحق اعماله فصولاً عديدة من هذا الكتاب لأنه بحث المشكلة بأكثر مما بحثها هيس به ، وقد اعتبرت قصصه مختبراً يتفحص فيه الحياة الانسانية. على ان مثل هذا التحليل الدقيق امر مستحيل هنا ، رغم انه في استطاعتنا ان نتبع تطورات معالجته للموضوع من قصة الى اخرى باختصار. لقد اعتبر هنري جيمس نفسه «لامنتمياً لا علاج له» بل ان احد النقاد الانكليز الكبار شبهه ببطلة تينيسون « ليدي شاللوت » التي ترى الحياة دائماً خلال مرآة سحرية . واننا لنتساءل : الا تشبه هذه المرآة السحرية ثقب الجدار في حالة بطل باربوس ؟

لقد انصرفت اعمال جيمس منذ البداية الى معالجة مشكلة : ماذا نصنع بحياتنا؟ (ان هذا السؤال هو من عبارات ه . ج . ولز) . أما أبطاله وبطلاته فهم جميعاً

من الشباب الذين يواجهون الحياة مثل ابطال هيس بالسؤال التالي : كيف يمكن ان تعاش هذه الحياة ليحصلوا منها على اعظم ادراك نفسي ؟

ان رودريك هدسن ، بطل اولى قصصه الهامة ، نحات يشعر بالضيق والانزعاج في مدينته الصغيرة ومحيط بيته . يأخذه رجل محسن الى روما ويكفيه مؤونة الانهماك في عمل مرهق في احدى الدوائر من اجل تحصيل رزقه . ويتورط رودريك في غرام تعس ، فيفقد مثاليته وموهبته . ويرينا جيمس كيف ان كل آمال رودريك في الحياة تتبخر حالما ينغمر فيها .

اما في « صورة سيدة » فيرينا فتاة شابة تواجه الحياة بذلك السؤال ايضاً . ويدفع نجاحها الكبير في المجتمع الانكليزي احد اللوردات الى طلب يدها ، الا انها ترفضه ، لأنها تشعر بأن امكانيات الحياة المثيرة اوسع من ان تستحق التضييق الى هذا الحد الآن . الا ان هذه الامكانيات تنتهي بحب فزواج فاشل يتركها شاعرة بتبخر آمال مستقبلها ، كما في حالة رودريك هدسن . ان الحياة قد تغلبت عليها هي الاخرى ، وكان سبب ذلك عدم استطاعتها ان تعيش الحياة على تلك الشدة بصورة دائمة . ويستمر جيمس على دحر ابطاله ، كلما كان الأمر مختصاً بمشاكل اللامنتمين . على انه يعود في السنوات التالية من حياته الى مشكلة الادراك النفسي ، فيضع على لسان لامبرت ستريثر ، بطل قصة «السفراء» والذي هو في منتصف العمر ، القول الآتي « عش .. عش كل ما استطعت ، فانه لمن الخطأ ان لا نفعل ذلك . » الا ان محاولة ستريثر نفسه التي يبذلها (ليأخذ العالم في روحه) تفشل فشلاً محزناً . انه يأتي الى باريس من احدى المدن الصغيرة في امير كا ليعيد شاباً عاصياً لا يريد العودة الى امير كا لأنه يحب باريس . ولا يجد ستريثر نفسه في باريس حتى يدرك كم كانت خسارته عظيمة بقضائه العمر في ذلك المحيط الضيق ، فينصح الشاب بعدم العودة لأي سبب من الأسباب ويخبره بأنه هو نفسه سيبقى في باريس . وينتهي به تيار ادراكه لنفسه الى ان يترك حياته الوطيدة السابقة التي خلفها في امير كا ويستسلم لمستقبل غير مضمون ، وهنا يتركه جيمس .

واخيراً نجد ان الفكرة التي ترتكز عليها قصة « أجنحة الحمامة » هي عن فتاة شابة « تعشق الحياة » ، الا انها تعلم انها لن تعيش اكثر من ستة شهور اخرى ، مما يجعل المشكلة اكثر تركيزاً ، ويبشر بامكانية ظهور حل ما . الا ان ما يحدث بالفعل هو ان صديق ميللي آثيل وحبيبها يخونها ويتركها لتموت شاعرة بأن الحياة والموت قد دحراها معاً . « واخيراً كرهت الموت ، وكانت على استعداد لتفعل اي شيء في سبيل ان تعيش » ، وهكذا تترك مشكلة اللامنتمي ومشكلة الادراك النفسي من غير حل . ويمكننا تلخيص مساهمة هنري جيمس في هذه المشكلة بكلمات ايلروي فليكر « ان الاموات يعرفون شيئاً واحداً فقط : هو انه من الافضل ان يكون الانسان حياً . »

الفصل الرابع

محاولة السيطرة

ان مشكلة اللامنتمي هي مشكلة حية،وتعتبر الكتابة عنها بمصطلحات الأدب تزييفاً لها . على ان تحليلات الكتاب بهذا الصدد كانت ضرورية حتى هذه المرحلة، لأن مهمة الكاتب هي التعبير عن النفس ، وقد ساعدنا هؤلاء الكتاب الى الوصول الى تعريف علمي واضح لمشاكل اللامنتمي . الا ان هؤلاء الاشخاص ، باربوس وسارتر وهمنغواي وحتى هيس لم يكونوا معنيين باللامنتمي دائماً بصورة عميقة ، ومما يدلنا على ذلك انتقالهم الى مواضيع اخرى . والكاتب يتمتع بفطرة تفرض عليه اختيار ابدع ما يمكن تسجيله ، فاذا فشل في ذلك أو أحس بأنه بلغ مرحلة لا يستطيع ان يتقدم بعدها خطوة واحدة ، فانه يختار مفهوماً جديداً . ويمكننا ملاحظة ذلك بتتبع التطورات التي حدثت لدى أي واحد من الكتاب الذين بحثناهم في الفصول السابقة ، فقد انتقل سارتر من روكانتان الى الشيوعية ، بينما انتقل همنغواي من كوربورال كريبز الى ابطال كتبه الاخيرة ذوي القبضات الفولاذية والفكوك العريضة ، أما باربوس فقد انتقل من « الجحيم » الى « النار » ومنها الى الشيوعية أيضاً . فاذا لم يكن لدى الكاتب شيء من الاخلاص والصبر غير

الاعتياديين ، فان هذا هو مصيره المحتوم (وأستطيع ان اعتبر اليوت الكاتب الوحيد في أدبنا الحديث الذي احتفظ بتطور افكاره متفقاً مع التطورات السابقة ؛ سائراً على خط واحد لا يحيد عنه ولا يميل) . أما السبب فهو واضح وبسيط ، ذلك أن مشاكل اللامنتمي يمكن أن تبحث بحثاً فكرياً الى حد معين ؛ فاذا تعدى البحث هذا الحد ، وجب على الباحث ان يعيش هذه المشاكل . ولا يوجد الا كتاب قليلون (من أمثال اليوت) ممن يعتبرون الكتابة وسيلة للعيش ، لا هدفاً بحد ذاتها .

وليس المقصود بهذه الاستنتاجات ان تكون نقداً لأولئك الكتّاب الذين تحدثنا عنهم ، فان ضمير الكاتب يتجلى في عمله ، وعلينا أن نقبل ما يعطينا ونشكره على ذلك . الا أن هذه الاستنتاجات تعني أنه لكي نتتبع مشاكل اللامنتمي بأكثر مما فعلنا يجب علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار أشخاصاً كانوا معنيين بالحياة أكثر من عنايتهم بالكتابة .

وتميز الرجال الثلاثة الذين سنبحثهم هنا ميزة واحدة هي أنهم اعتقدوا ، كما فعل بطل باربوس ، بأنهم « لا يملكون شيئاً ولا يستحقون شيئاً . » ان هذا الاعتقاد ، لسوء الحظ ، لا يتيح للانسان مركزاً ممتازاً في صراعه مع مشكلة حية ولهذا فقد كانت نهايات الرجال الثلاثة مفجعة جداً ، أي أنهم ضيعوا أنفسهم وضيعوا كل ما كان يحتمل أن يحصلوا عليه من تطور الى الافضل . واذا نظرنا الي هؤلاء الاشخاص ، الى لوحة من لوحات فان كوخ ، أو رسالة من رسائل ت . ي . لورنس الخطية ، أو « أمسية الحيوان الخرافي » لنجنسكي والتي نجدها في المتحف البريطاني ، لشعرنا بالألم لهم ، لأن هؤلاء الاشخاص لم يفهموا أنفسهم ولهذا فقد ضيعوا مواهبهم . ولو كانوا عرفوا انفسهم كما نعرفهم نحن لما انتهوا الى مثل هذه النهايات المفجعة . ان اول ما يجب ان ينصرف اليه اللامنتمي هو معرفة النفس .

لا يمكننا ان ندرس ت. ي. لورنس دراسة دقيقة لعدم وجود مصادر صحيحة غير محرّفة عن حياته. فأما لويل توماس وليدل هارت فانهما يقولان

أنه كان جندياً ، في حين نجد آلدنكتون يقف منه موقف المهاجم في كتابه الذي لا يمكننا أن نعتمد على ما فيه من تحريفات هستيرية عدا اعتمادنا على نفيه المزاعم التي ترفع لورنس الى ما للسر كالاهاد من شهرة أسطورية ؛ والى أن تصدر دراسة تأريخية صحيحة عن حياته ، وعلى ما كتب من رسائل . أما تفاصيل حياته ، فهي :

ولد لورنس في عائلة متوسطة الحال ، وكان أحد أشقاء عديدين ، أما في المدرسة فقد كان لامعاً في الدروس التي كان يميل اليها فقط ، أي التأريخ والأدب ، أما الدروس الاخرى فلم يكن لديه وقت لها . وأولع في شبابه الباكر بالحركات الداعية الى العودة الى تقاليد القرون الوسطى ، فقرأ مالوري وموريس ، ودار حول اوكسفورد شاير جامعاً أوراقاً يستنسخ عليها نقوش الكنائس . وكان لورنس قوي العضل ، رغم أنه لم يمارس أية رياضة أو يشترك في أية منافسة رياضية. وطاف في فرنسا متطلعاً الى القلاع والكاتدرائيات ، ولم يكترث للطوافين الذين أخبروه باستحالة السفر الى البلاد العربية ، وانما سافر اليها مشياً على الاقدام لوحده جامعاً ما يلقاه في طريقه من حقائق عن الحروب الصليبية ليبني عليها دراسته التي كان ينوي تقديمها الى جامعة اوكسفورد . وفي العام التالي رافق ليونارد وولي وبعثة المتحف البريطاني الأثرية الى مصر ، حيث تعلم اللغة العربية وكثيراً من الحقائق والدراسات الأثرية ، ولم يتخل خلال ذلك عن قراءته لمالوري وموريس . كان لورنس يحلم بشراء طاحونة مهجورة في انكلترا ، اذا عاد اليها ليدير بواسطتها ماكنة للطباعة تطبع الكتب على ورق يدوي الصنع ، وكان يحلم بتجليد هذه الكتب بجلود البقر وتلوينها بألوان خاصة تستورد من مدينة صور .

واشتعلت نيران الحرب العالمية الاولى ، فعين لورنس برتبة رئيس في شعبة الخرائط التابعة الى دائرة الاستخبارات السرية في مصر . الا أنه لم يحتمل ذلك العمل ، وواتته الفرصة حين سمع بنيّة الملك حسين على الثورة ضد الاتراك في مكة ، فسافر الى الجزيرة العربية ، دون أن يخبر رؤساءه بذلك . وسرعان ما صار

عنصراً لا يستغنى عنه في تلك الثورة : ذلك لأنه صار مستشاراً لفيصل بن الحسين فتعاونا معاً على انجاح تلك الثورة في أقل من عامين ، ويعتبر كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » سجلاً حافلاً بأنباء تلك الفترة .

كانت الحرب قد وسعت ادراكاته فعاد منها أكثر حكمة ، وأقل سعادة وقد سبق لنا أن تفحصنا في الصفحات السابقة التسرب والضياع اللذين تعاني منهما ينابيع الدافع الانساني ، بسبب الافراط في التجارب التي يغرق في طوفانها الاشخاص شديدو الحساسية ، ولهذا السبب فاننا لن نعتبر سلوكه في السنوات السبع عشرة التالية جزءاً من « معضلة لورنس » ، لأن سلوكه خلالها كان طبقاً لما ينتظر من لا منتم . وقضى لورنس ثلاث سنوات أخرى في الحرب التي استمرت من أجل تحرير البلاد العربية من الاتراك ، ثم التحق بفرقة المدرعات كجندي ، وانضم بعد ذلك الى سلاح الطيران . ولم يعد الى دراساته الأثرية قط ورفض كثيراً من العروض التي تقدم بها البعض لمساعدته ، وكان من بين تلك العروض منصب حاكمية مصر ، وسكرتيرية بنك انكلترا . لقد لاح أن لورنس فقد ايمانه بنفسه بصورة كاملة ، رغم أنه لم يتعد ذلك الى فقدان الايمان بالانسانية كلها ، (كما فعل ايفان ستراود) ، وكان يبدي احتراماً كبيراً لكتاب وفنانين معينين ما نظنهم يملكون ربع ما كان يملكه هو من قوة روحية .

وأخيراً اشترى لورنس كوخاً في « كلاودزهل » في مقاطعة دورست ، وبعض الكتب وعدداً من الاسطوانات ، وصار يقضي معظم أوقاته هناك على انه لم يقم بعمل خلاق آخر بعد تأليفه « أعمدة الحكمة السبعة » ، اذ لا يمكننا أن نعتبر « المصدر » أكثر من يوميات عادية . وحلت النهاية في حادث مؤلم وقع له باصطدام دراجته البخارية في عام ١٩٣٥ ، وظل حتى النهاية ، بجمجمته وأضلاعه المهشمة التي لا يرجى لها شفاء ، فياضاً بالحيوية ، مما أتاح له أن يحيا ثلاثة أيام أخرى ، في حين ، لو كان المدهوس غيره ، لمات في ساعته .

ان الفترة الثانية من حياته تملأ من يحاول دراستها بالألم والحزن ، لأنه من

السهل اكتشاف الاسباب التي أدت الى ضياع قوته الدافعة، واكتشاف ان ادراكه لهذه الاسباب دفعه الى استخدام قوة ارادته استخداماً مرهقاً من اجل الفعاليات المثمرة . ان تفحص هذه الفترة يشبه تفحص آلة ضخمة اصبحت بلا جدوى بسبب عطل صغير جداً في احدى آلاتها . ولنتفحص الآن كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » واعراض مشاكل اللامنتمي التي تلوح في لورنس نفسه .

هنا يجب ان نلجأ الى رسالة كتبها لورنس الى ادوارد كارنيت في ٢٣ تشرين الاول ١٩٢٢ وقال فيها :

« لقد بحثت في الشعر الذي قرأته عن شيء من الشعور بالقناعة ، الا انني لم اجد شيئاً من ذلك ، ووجدت بدلاً عنه انني انما حولت تلك المجموعة من الحلويات الى نوع من الشكولاتة الروحية ، في حين انني كنت أبحث عن وجبة طعام . ولما تبينت فشلي في الحصول عليها في الشعر ، بحثت في النثر ، ووجدت في كل مكان شيئاً قليلاً من الغذاء ، اما ما عدا ذلك فلم يكن هنالك الا القليلون الذين التزموا الامانة لغرض واحد هو ان يكونوا اسمى من الجنس البشري ، ولم يملأ معدتي منهم الا مصارعاتهم ومجاذباتهم .

انني لا استطيع ان اكتب الشعر ، وعليه فقد بدأت اكتب النثر لاحاول ان اعد وجبة من الطعام لي ولكل من يبحث عنها مثلي .. »

ان خلو لورنس من غرور العبقري هو من الاسباب الاساسية التي ادت الى مأساة ضياعه . ونستطيع ، قبل ان ننتقل الى نقطة اخرى ، ان نلجأ الى كتاب « ت . ي . لورنس بأقلام اصدقائه » ، ويعتبر وصف ايريك كيننتون له احسن ما في هذا الكتاب . وهو يخبرنا في احدى صفحاته كيف ان لورنس اطلع استاذاً عجوزاً ذكياً (١) على نسخة من كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » فكان ان علق الاستاذ عليه قائلاً :

« لقد جعلتني قراءتي لهذا الكتاب اعاني الأمرين ، فان مؤلفه هو اعظم رجل عرفته ، الا انه مع ذلك مخطيء خطأ كبيراً . انه ليس نفسه . لقد وجد

« أنا » الا انها ليست « انا » حقيقية، ولهذا فانني لأرتجف من مجرد التفكير فيما سوف يحدث. ان مؤلف هذا الكتاب ليس حياً فيما يفعل، اذ ليس هناك تبادل ما، وانما اراه يشبه أنبوباً تتسرب منه الحياة، وانه لأنبوب ممتاز، الا انه لكي يعيش الانسان حقاً، يجب عليه ان يكون اكثر من هذا. »

ان هذا التعليق لا يتغلغل الى اعماق لورنس فحسب، وانما هو وصف صادق دقيق لكل لا منتم، « انه ليس حياً فيما يفعل »، وهذا هو ميرسول او كريبز، و « انه ليس نفسه » تدلنا على اشياء اكثر، لانها توحي بان واجب اللامنتمي هو ان يجد الاتجاه الذي يؤدي فيه اعماله ويشعر فيه بانه نفسه على اشد ما يكون، أي يحقق فيه أعلى ما يمكن من التعبير النفسي (فرض الذات).

ان كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » هو اهم الكتب التي نحتاج اليهـا لتعيين مشاكل اللامنتمي. وتلوح منذ بداية الكتاب رغبة لورنس في نظام الزهد الديني واضحة كل الوضوح. وهو يخبرنا في فصل سابق بشيء عن الاديان السامية:

« قال العرب انه كان هنالك اربعون الف نبي.. ولدوا في الاماكن المكتظة بالناس، الا أن حنيناً عنيفاً غامضاً دفعهم الى الصحراء، فعاشوا فيها وقتاً طويلاً أو قصيراً، متأملين محرومي الأجساد، ثم عادوا برسالة متخيلة، واضحة كل الوضوح، ليبشروا بها بين رفاقهم القدامى، الذين صاروا يشكّون فيهم الآن. ولقد حقق مؤسسو العقائد الثلاث هذا كله، وصارت حياة كل واحد منهم، باتفاقها مع تفاصيل حياة الآخر، قانوناً لحياة كل واحد من الآلاف الباقية، من اولئك الذين خانهم الحظ ففشلوا، اولئك الذين يجدر بنا أن لا نعتبر دعاواهم أقل صدقاً، اولئك الذين لم يكرّم الزمن ولا الخيبة أرواحاً جافة مجدبة لتحترق من أجلهم. ولم يستطع مفكرو المدن أن يقاوموا إغراء الصحراء؛ وليس ذلك لأنهم وجدوا الله فيها، وانما لأنهم استطاعوا في تلك الوحدة التي وجدوها هنالك ان يسمعوا سماعاً اكيداً الكلمة الحية التي جلبوها معهم... ان رد الفعل الذي شعروا به ضد المادة قادهم الى التبشير بالحرمان، بالتخلي عن كل شيء،

بالفاقة » (٢) .

ويتضح تعاطف لورنس مع هؤلاء الانبياء في كتابه هذا أشد الوضوح، اذ تصبح الصحراء لديه رمزاً للنقاء ، رمزاً للهرب من كل ما هو بشري ..

« ان بدوي الصحراء، الذي يولد وينمو فيها، قد احتضن هذا العراء بكل روحه، هذا العراء الذي لا يحتمله حتى المتطوعون انفسهم، أما السبب في ذلك فمدرك اكثر منه واضحاً، ذلك انه يجد نفسه في الصحراء حراً حرية لا شك فيها . ان هذه العقيدة الصحراوية مستحيلة في المدن، وانها في وقت واحد أشد غرابة وبساطة واستجابة للحواس من ان يؤمن بها كائن من كان » (٣).

وينتهي الفصل الخاص بالدين بتأكيد هام على قواعد «دين» لورنس:

« كانوا قوم نجوم، المجرد أقوى دوافعهم الى الشجاعة اللامتناهية والتنوع، أما النهاية ، فهي اللاشيء. لقد كانوا كالماء تغيراً ، وكما ستكون الغلبة للماء ، فانها قد تكون لهم . وكثيراً ما انطلق ، يرتطمون بساحل الوجود الجسدي ، منذ فجر الحياة ، وبموجات متتابعة .. وقد تحطمت كل موجة من موجاتهم على ذلك الساحل ، كما هي الحال مع أمواج البحر ، مؤثرة تأثيراً بسيطاً في صخوره التي تتهاوى عليها .. على أنه سيأتي يوم ، بعد عصور طويلة ، حين ينطلقون لا يمنعهم شيء إلى ذلك المكان ، حيث كان العلم المادي موجوداً يوماً ما . اذ ذاك سيتنقل الله على سطح الماء.. لقد رفعت موجة واحدة من هذه الأمواج (لا آخر موجة) وأطلقها أمام أنفاس فكرة ما ، حتى بلغت ذروتها فلما تهاوت ، كان سقوطها على دمشق ! » (٤) .

وهنالك مشاهد في الكتاب يصف فيها لونس العنف والدماء ، ويلوح وكأنه يخلص الى نتائج همنغواي نفسها ، أن البشر يموتون كالحيوانات، لا كالبشر. بل هنالك مقاطع تلوح فيها عزلته الخالية من أي لون من ألوان العاطفة ، نوعاً من القسوة، نوعاً مبرقعاً من اللذة السادية، وذلك ما لا يمكن التوفيق بينه وبين الصورة التي يرسمها له أصدقاؤه . ان هذه المقاطع هي التي تزودنا بأوضح الأدلة على سلوك لورنس . إن عزلته هذه تشبه عزلة همنغواي، لأنها تعبر عن رغبة في

«البحث عن الحقيقة» ، الا ان هنالك عنصراً في لورنس لا نجده في همنغواي ، ذلك هو ما لديه من عقيدة دينية توجه طريقته في رؤية الأشياء . ان قسوة الصحراء وعنفها ، واحتقارها للجسد يتعادلان معاً في كفتين متضادتين ، أما العقيدة التي توفق بينهما فانها الاعتقاد بأن هدف الحياة هو غلبة الروح على المادة . ان العرب يملكون بساطة الأضداد العنيفة : « اذا كانوا بلا عقيدة ، سهل أخذهم الى أركان الأرض الاربعة ، رغم انهم يعلمون انك لست تأخذهم الى الجنة ، وذلك باراءتهم ثروات الارض وملاذها ، ولكنهم ما يكادون يرون في الطريق نبياً يحمل فكرة ما ، لا يملك بيتاً ينام فيه ولا طعام الا ما يقدمه اليه الكرام والطيور ، حتى يتركوا كل ثرواتهم وملاذهم من اجل وحيه .. » (٥) .

ان ما يلوح بصورة واضحة جداً في « أعمدة الحكمة السبعة » هو أن لورنس لا يعتبر نفسه جندياً . لقد رفع الموجة كما لو كان نبياً يدعو الى فكرة ما ، أما قوته فهي قوة الانسان الذي يمكن ان تتملكه فكرة ما ، ليقوم بايصالها الى الآخرين . انه يعيد دائماً قوله إن حرب العربي كانت حرب تبشير ، لا حرب معارك ، أما الفترات التي عانى فيها الشقاء والخذلان ، فانها راجعة الى حقيقة بسيطة : هي أنه لا يستطيع أن يؤمن بالفكرة التي يدعو اليها .

« لو كنت مخلصاً في مشورتي للعرب ، لكنت نصحتهم بالعودة الى بيوتهم ، والتخلي عن المجازفة بحياتهم من اجل مثل هذا ... »

على أنه بالرغم من هذا الاعتقاد ، فان روح القيادة والتبشير أوحت للورنس بما كان يحتاج اليه من تعبير نفسي . انه يعترف في مكان آخر قائلاً :

« كان كل ما طمحت اليه طيلة حياتي هو ان تكون لي القوة على التعبير النفسي على شكل خيالي » .

وتهبه هذه الحرب ادراكاً لنفسه ، كما كان الامر مع كريبز ، في الاوقات التي « فعل فيها أمراً واحداً ، الامر الوحيد » وقد أتاح له ذلك ان يرى ما هو ليس بالتافه واللابطولي . اما قوته على التحليل النفسي فهي جد عميقة . انه لا يستطيع ان يرى نفسه وعقله ككل ، الا انه يستطيع ان يؤلف صورة مكونة من

مختلف الاجزاء، ولا نظن ان كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » ينقص أحد هذه الاجزاء . أما أهم ميزاته فهي عدم استطاعته ان يتوقف عن التفكير ، فالفكر يسجنه ، وانه لشقاء لا نهاية له، لانه يعرف معنى الحرية، من تجربة كهذه:

« بدأنا في الفجر المتألق الذي يوقظ الحواس مع الشمس، في حين يظل العقل، الذي أتعبه تفكير الليل ، نائماً . وتنقضي ساعة أو ساعتان في مثل هذا الصباح ، تصافح فيها الأصوات والعطور والألوان الانسان واحدة واحـــدة ، وبصورة مباشرة ، لا يعيقها الفكر ولا ينمذجها . لقد لاحت لي تلك الاشياء وكأنها تتمتع بوجود يكفي ليجعلها قائمة بذاتها .. ولم يعد نقص العناية في الخليقة يبدو مقلقاً بالمرة .. » (٦)

ويقول لونس حين يسأله فيصل أن يكون مستشاراً له :

«قلت انني أكره المسؤولية،وانني في حياتي كلها كنت أرى السعادة في الأشياء أكثر مما أراها في الأشخاص ، وفي الأفكار أكثر مما في الاشياء .. » (٧)

ويؤكد كل من عرفه على هذا أيضاً ، فيقول ي . م . فورستر :

« رغم أنني كنت صريحاً معه ، فانني لم أجده صريحاً معي قط ، الا انني لم أحمل عليه رفضه أن يكون كذلك . ان هذا يفسر لنا لماذا كانقائداً عظيماً للرجال. كان يستطيـع أن يرفض الود ، دون أن يقطع أسباب المحبة . » (٨)

على أن لورنس لم يكن في جوهره مولعاً بالبشر :

« لقد تجنب المخلوقـــات العادية ؛ لانها تمثل فشلنا في الحصول على العقلية الحقيقية ، فإذا فرضوا أنفسهم عليّ كرهتهم . ان وضع يدي على شيء حيّ يعتبر تشويهاً له .. ولهذا فانهم يجعلونني ارتعد إذا لمسوني أو أبدوا اعجاباً أكثر من الـــلازم بي .. ولقد كنت أميل إلى عكس ذلك لولا عنادي .. ولم أنح على نفسي يوماً كما كنت أفعل إذا رأيت جندياً مع فتاة ، أو رجلاً يداعب كلباً .. لقدوددت أن أكون سطحياً .. كاملاً ، في حين كان يعيدني سجاني دائماً..» (٩)

ويتحدث عن العرب فيقول :

« أمامي سلسلة من المسؤوليات والأوامر التي تثير الاشمئزاز في طبيعتي التي

تحيرها أفكاري . لقد شعرت بالضعة ، حين وجدت أن عليّ أن أحل محل رجل عملي ، ذلك لان مقاييس قيمي كانت رد فعل ارادي لمقاييسهم ، وقد احتقرت سعادتهم . يا طالما جاعت روحي لاقل مما تملك ، ذلك لان حواسي الحاملة التي لا تشبه حواس معظم البشر ، في حاجة الى الاتصال المباشر لتحقق التحسس. » (١٠)

انه اما ينقل الى العرب ميزاته ، واصفاً اياهم بحب الخواء مثله ؛ أو أنه يعمم ذلك حتى يشمل نفسه :

« نحن غريبو هذا العصر المعقد ، الرهبان في زنزانات اجسادنا .. » (١١)

الا ان لورنس وحده كان « راهباً في زنزانة جسده » وكان الانسان الذي لم يستطع أن يحقق المباشرة في التحسس لانه لم يستطع أن يتوقف عن التفكير . لقد كان « أنبوباً تتسرب منه الحياة » .

« لقد كان واجباً صعباً عليّ أن أفرق بين الشعور والعمل » .

ان العالم ، بالنسبة لهذا الشخص ، مكان لا لون له بدرجة لا تصدق ، لا شيء فيه من الاحساس بالرؤى او المتذوقات التي تستطيع ان تحول انتباهه عن البشر وخوائهم . أما نتيجة ذلك فهي جهد عقلي لا نهاية له :

« لم يمنعني الا الضعف عن الانتحار العقلي – الذي يتمثل في واجب بطيء يخنق هذه الكاوية الملتهبة في ذهني : لقد كونت افكاراً عن الاشخاص الآخرين ، الا انني لم اخلق شيئاً خاصاً بي ، ربما لانني لا استطيع ان استصوب خلق الأشياء .. » (١٢)

هذا الشعور الذي يبديه لورنس ضد الخلق يشبه في طبيعته شعور اوليفر كاونتليت : « الجاهلون والمخدوعون والسطحيون هم السعداء وحدهم بيننا» ، أي انهم الخلاقون بينهم ، وانه لكره للجنس البشري ، « للغوغاء الثرثارين المتمخطين المتشائمين » (١٣)

وهنا نرى ان لورنس يجمع بين المزيتين الرئيسيتين في روكانتان ولامنتمي باربوس . كان روكانتان قد قال : « كنت مثل الآخرين ، وكنت اقول مثلهم ان المحيط أخضر ، وان تلك البقعة البيضاء الموجودة هنالك هي أحد طيور

النورس ، الا انني لم اكن اشعر ان ذلك الطائر كان موجوداً . » ان عدم تمكن لورنس من الهرب من « طبيعته التي تحبرها افكاره » يحدث فيه ذلك التأثير نفسه ، فكل شيء هو غير حقيقي . وانه مثل لامنتمي باربوس ، لا يستطيع ان يكون سعيداً في المجتمع لأنه « يرى اكثر وأعمق مما يجب » . وقد اتاحت حرب الصحراء للورنس منفذاً يرى منه العذاب الانساني ، كالثقب الذي كان يتلصص منه بطل باربوس في غرفته في الفندق . وكانت تلك التجارب ضرورية له ، كما كانت ضرورية للامنتمي باربوس ، لان العنف الذي تجلى في تلك التجارب التي خاضها في الحرب لم يدع مجالاً في ذهنه لتفـاهات الحضارة التي ترتكز على التسليم والاتفاق الاجتماعي . لقد بدد العنف تلك اللاحقيقية ، على انه مهما كان الامر ، فانه لم يكن ليصل الى اتفاق مع التسليم الاجتماعي . انه يصف اقناعه لاحدى القبائل التي رفضت ان تشترك مع البقية مع احدى الحملات العسكرية :

« أوضحنا لهم ... كيف أن الحياة بين الجماعة هي حياة حسية فقط ، تعاش وتحب وهي على منتهى ما تكون عليه ، ولا يمكن ان تكون هنالك اماكن راحة للثوار ، ولا نصيب من الغبطة يوزع عليهم . ان روح الثورة متنامية ، وعلى الثائر ان يحتمل الى آخر ما تستطيع حواسه الاحتمال ، وان يستخدم كل خطوة يخطوها في هذا السبيل أساساً لمغامرة جديدة ؛ عاطفة مندحرة لحرمان أعمق ، لألم اشد .. ان الحس لا يتقدم ولا يتأخر ، وما العاطفة المحسوسة الا عاطفة مندحرة ، وتجربة ميتة دفناها بالتعبير عنها .

ان يكون الانسان من الصحراء يعني ، كما كانوا يعلمون ، أن يرتبط بحرب لا نهاية لها مع عدو ليس من هذا العالم ، ليس من هذه الحياة ، ولا من اي شيء آخر .. انه الأمل نفسه ، وما الفشل الا الحرية التي يقدمها الله الى البشر . وقد نمارس هذه الحرية بمجرد رفضنا أن نفعل ما في استطاعتنا فعله ، واذ ذاك نحس بأن الحياة تخصنا ، واننا دحرناها لاننا جردناها من قيمتها .. أما الموت فانه أحسن أعمالنا ، وآخر اخلاص حر يمكننا ان نقوم به ، في انعتاقنا الاخير ، فعلينا ، حين نرى هذين القطبين ، الموت والحياة ، او الانعتاق والانهماك

الحياتي ، أن نشيح بوجهنا عن هذا الانهماك (اساس الحياة) في كل شيء عدا أضعف درجاته ، وان التمسك بالانعتاق ، وهكذا نزيد من لا انجازنا . وقد يكون هنالك البعض من الذين لا يتوفر فيهم شيء من الطبيعة الخلاقة ، الذين يتصف انعتاقهم بالجفاف والجدب ، الا أن فعاليات امثال هؤلاء ستكون مادية فحسب في حين اننا ، لكي نبدع الاشياء اللامادية ، الاشياء المساهمة في الروح لا في الجسد ، يجب علينا ان نكون غيورين على وقتنا ، وان لا ننهمك في متطلبات الجسد ، ما دامت الروح تعمر ، في معظم البشر ، أطول مما تفعل الاجساد ، وما دام الانسان لم يربح شيئاً من عبوديته للجسد (١٤)

لا يمكننا ان نبالغ في اهمية هذه العبارات ، الا انها ترينا لورنس متطرفاً في كراهيته الأسيوية للعالم ، للروح الغربية الحديثة . ونلاحظ مثل ذلك لدى ستيفن وولف ايضاً ، اذ انه بلغ باحتقاره للمثل البورجوازي الأعلى حد اللاإنسانية في نفي العالم .

ويعزز لورنس نتائج ستيفن وولف هذه ، أي اكتشاف هاللر بأنه لا يملك نوعين من الانا فحسب ، وانما لديه مئات من الانا المتضاربة :

« انني اجد نفسي الآن منقسماً الى اجزاء .. فاما جسدي المنهوك فانه يبذل جهوداً جبارة دون تحفظ ، لأن انفسي العديدة تقول انه ليس هنالك ما لا يمكنني التفكير فيه بكل برود ... كانت تلك الأنفس اجزائي الطبيعية .. وقد بلغ « تيليسيوس » هذا ومر بمثل هذه التجربة فجزأ الروح ايضاً .. ولو كان بلغ في ذلك منتهى الانهماك .. لرأى فرقاً كاملة من افكاره واعماله ومشاعره تصطف حوله وكأنها مخلوقات منفصلة ناظرة كالغربان الى الشيء الذي اعطاها الحياة وهو يمر بينها . » (١٥)

ان هذه المقدرة التي يتحلى بها لورنس في احتمال الألم الجسدي تعتبر الاساس الذي يجب ان نفهمه بموجبه .. ان عقليته الصافية لم تستطع ان تدرك معنى للحرية الاخلاقية ان لم تصاحبها الحرية الجسدية ايضاً .اما الألم فهو العنصر الذي لا يقدر بثمن والذي يقرر مدى الحرية الاخلاقية . الا ان نهيلستيته اتضحت اكثر حين

وجد انه غير قادر على تحمل التطرف في الألم الجسدي ، وكان في ذلك حين ضربه الجنود الاتراك ضرباً مبرحاً ، اذ قرر ان لا يصرخ مطلقاً ، الا ان الالم تغلب على ارادته. غير ان النتائج التي يصل اليها تشير الى الحرية الاخلاقية النهائية:

« غالباً ما كنا نرى — خلال ثورتنا — افراداً يلقون بأنفسهم او ينجرفون الى اقسى نهايات الاحتمال ؛ الا اننا لم نلحظ لديهم ما يدل على الانهيار الجسدي . ان الانهيار انما ينجم من ضعف اخلاقي ينخر الجسد ، هذا الجسد الذي اذا ترك وحده دون ان تخونه عناصر من الداخل ، فانه لا يستطيع ان يسيطر على الارادة .

كنا ونحن ممتطون صهوات جيادنا ، لا نحس باجسادنا ومشاعرنا .. فاذا تلاشى هذا الانفعال في اثناء الفترات ، ورأينا اجسادنا ، كانت رؤيتنا لها تتصف بالعداء ، بمعنى احتقاري ، لأنها بلغت أعلى أهدافها ، لا كآلات تسيرها الروح ، وانما لانها بتفسخها وانحلالها لا تفعل اكثر من بث الخصوبة في ارض ساحة المعركة . » (١٦)

الارادة مطلقة ، الا انها في نظر شوبنهاور لا تستطيع ان تمارس حريتها النهائية الا بالنفي . غير ان الاعتقاد باهميتها الجوهرية يعطينا مفتاح حياة لورنس ، فانه لم ينقطع عن تجربة قوة ارادته .

« ان مثل هذا التحرر — الصيام عن الطعام والنوم — هو نتيجة سنوات من السيطرة — قد يعتبر الاستخدام المهين درساً للرجولة — وقد جعل مني شخصاً مناسباً بصورة غريبة للعمل الذي تقوم به ، الا انني اكتسب هذا التحرر بالتمرين والمحاولة .. وقد بذلت في ذلك جهداً ، بعكس العرب ، وكان ما حصلت عليه كتعويض لذلك هو هذه الطاقة الدافعة الموجودة في اعماقي . ان ارادتهم تنهار قبل انهيار ارادتي ، وهذا ما يجعلني ، بمقارنتي بهم ، الوح قوياً فعالاً . » (١٧)

ويلوح لنا شيء من التعارض بين المقتطفين السابقين ، فان عبارة « قد يعتبر الاستخدام المهين درساً للرجولة » التي يقتطفها لورنس من امرسون ، تتبع بصورة منطقية عبارته الاولى التي يقول فيها « ان حواسه بحاجة الى الاتصال المباشر لتحقق التحسس » . أما زهده فهو محاولة ، كما يقول بليك « لتنظيف أبواب التحسس » على أن هذا لا يتطابق مع المقتطف الاول الذي ينكر الجسد انكاراً تاماً ، فان الفكرة

الاولى تقود الى مفهوم يقول بأن الجسد يصل الى أعلى أهدافه بتحقيق أكسل آنية في التحسس ، اي الى مفهوم صوفية بوهمه وبليك ، أما الفكرة الثانية فانها تقود الى الاحتقار التام ، الى تنظيف للحواس يؤدي الى نبذ الحواس أيضاً .

من الواضح أن ميتافيزيكية لورنس لا تؤلف أسلوباً نفسياً كاملاً ، ويلوح فيها التضاد لانه لم يكلف نفسه مؤونة التحليل النفسي ، بل ان هذا التضاد شيء فطري من الصوفية ، ذلك ان التضاد بين القديس الذي يرى الوجود كله مقدساً ، والقديس الذي ينسحب بصورة تامة من الوجود ، ولو كان لورنس قد حل ذلك التضاد حلاً تجريبياً، لسهل علينا فهم السنوات الخمس عشرة الاخيرة من حياته . وكان من الممكن أن يتخلى عن انتحاره العقلي ، اذ انضم الى سلاح الطيران ، لو كانت توفرت له صوفية أقل صعوبة ، الا أن لورنس تعمد أن يعقد مشكلة الادراك النفسي برفضه الاعتقاد بأنه يملك نفساً ليدركها ، وقال « الحقيقة انني لم أحب هذه الـ « نفسي » التي أستطيع أن أراها وأسمعها » (١٨) غير أنه لم تكن لديه فكرة ما عن ، كيفية اكتشاف النفس التي لم يكرهها ، النفس التي أدركها يوماً حين « بدأنا في الفجر المتألق الذي يوقظ الحواس مع الشمس ، في حين يظل العقل .... نائماً » . كان لورنس يملك كل القوى التي تؤهله لبذل محاولات جبارة في تحقيق الارادة ، وقد فشل لأنه لم يكن لديه هدف يوجه ارادته نحوه ، وكان فشله يرجع أيضاً الى عدم استطاعته تحليل الدوافع الغامضة التي كانت تثور في أعماقه ، وتسليط ضوء الادراك عليها .

انه لمن الغريب أن يكون كرانفيل باركر قد أرسل الى لورنس نسخة من مسرحيته « الحياة السرية » التي قال لورنس في رسالته المؤرخة ٧ شباط ١٩٢٤ انه قرأها كلها . الا أننا لا نملك دليلاً على أن لورنس رأى انعكاساً لحالته الروحية في ايفان ستراود أو أوليفر كاونتليت .

نحن نعلم فقط أنه مدح المسرحية وقال انها أحسن ما كتب في وصف السياسيين وهذا هو أشد ما يقلق في حالة لورنس ، لانه يلوح وكأنه قد تخلى عن الكفاح هو نفسه . أما انكاره لارادته في السنوات التي قضاها في سلاح الطيران فانه يلوح

مشابهاً بصور مفجعة لشلل الدافع الذي أصاب نجنسكي ونيتشه في جنونهما . وقد قال ستيفن وولف : « لا طريق الى الخلف ... وانما الى الامام ، أبعد في الخطيئة ، أعمق في الحياة الانسانية » ، إلا أن اللامنتمي غالباً ما يصل الى مرحلة من الجهد لا يستطيع أن يتعداها ، مرحلة تكون فيها التعقيدات أكثر من اللازم وهنا لا يعود اللامنتمي يطلب شيئاً غير الراحة . وقد وصل لورنس الى هذه المرحلة ، بل ان تهديد ستيفن وولف بالانتحار ليلوح محتملاً في حالة لورنس أكثر من انتحاره العقلي بانضمامه الى سلاح الطيران ، لولا أن لورنس ظل يملك بعض الاشياء التي كان باستطاعتها أن تثير اثارة مباشرة ، بالرغم من طبيعته التي حيرتها أفكاره ، وكانت السرعة احدى تلك الاشياء ، بل ان هذه السرعة هي التي قتلته حين ادار مقبض دراجته البخارية ليتفادى دهس غلامين كانا على قمة التل ، فاصطدم باحد الحواجز بسرعة ٧٠ ميلاً في الساعة .

لقد زودنا كتاب لورنس بمفاهيم جديدة عن مشاكل اللامنتمي ، ويمكننا رؤية هذه المفاهيم بوضوح باستعراض الصفحات السابقة ثانية . وتميز لورنس الميزات التي تلوح في اللامنتمين الذين بحثناهم سابقاً ، كما أننا نستطيع أن نجد لديه المراحل التي رأينا بعض أولئك اللامنتمين في طريقهم اليها .

نستطيع أن نرى ، في حالة باربوس ، أن مشكلة اللامنتمي هي مشكلة انكار التعبير الذاتي ، وهذا يثير السؤال التالي : هل ان مشكلة اللامنتمي مشكلة اجتماعية ؟ أما ويلز فقد قادنا في كراسه الذي يقدم لنا فيه مظهراً لا اجتماعياً ، الى روكانتان ، حيث رأينا أن المشكلة في الواقع هي مشكلة ميتافيزيكية . أما كامو وهمنغواي فقد أكدا على طبيعة المشكلة العملية . انها مشكلة حية ، مشكلة الهدف أو الاسلوب الذي يجب أن تعاش به الحياة . ان اللامنتمي هنا هو ذلك الشخص الذي لا يستطيع أن يقبل الحياة كما هي ، والذي لا يستطيع أن يعتبر وجوده أو وجود أي فرد آخر ضرورياً . انه يرى أعمق وأكثر مما يجب ، وهكذا فالمشكلة ما تزال مشكلة تعبير ذاتي .

ونرى في « الحياة السرية » أن اللامنتمي منفصل عن الآخرين بذكائه الذي

يحطم قيم الآخرين بلا رحمة ، ويمنعه عن التعبير الذاتي (فرض نفسه) لعدم استطاعته استبدال تلك القيم بقيم جديدة ، فمشكلته اذن هي مشكلة ايكليزياستس * : لا شيء يستحق بذل اي مجهود .

أما اللامنتمي الرومانسي فقد وسع المفهوم باظهاره انه ليس من الضروري أن تكون المشكلة مشكلة أفراد خائبين ، فاننا نجد الرومانسي ، على مستوى آخر ، يعيش محاولاً تسليم الجسد الى المثل الاعلى الرومانسي . وكانت نتائج هيس : تحليلاً نفسياً أكثر ، كمحاولة للمرور « عبر جحيم الكيان الداخلي . » ويجب أن يعرف اللامنتمي نفسه أكثر ، وهذا يتضمن طريقة روكانتان وطريقة ميرسول ، طريقة التحليل الميتافيزيكي ، وطريقة قبول الحياة المادية . الا أن الفشل الذريع الذي مني به كولدماند وماجستر لودي ، طريق الجسد وطريق الروح ، يتركنا بمواجهة عبارة ستراود : لا شيء يستحق بذل اي مجهود ، ولا طريقة افضل من الاخرى .

ان لورنس هو الذي يشير الى الطريق للخروج من هذا الزقاق المسدود ، في حين ان الآخرين تقبلوا الأمر كمشكلة لها وجه واحد ، ذلك هو أنه يجب التفتيش عن « طريق » . اما السؤال : « طريق لمن ؟ » فيجيب عليه روكانتان أو ستراود : « طريق لي طبعاً » . وقد خطا لورنس بالمشكلة خطوة عظيمة الى الامام في « انك لست كما تظن » ، فبدلاً من ان تقول : « لا شيء يستحق بذل اي مجهود » ؛ يجب ان تقول « انا لا استحق ان افعل اي شيء » . اما سؤال اوليفر كاونتليت : « اين هو العدو ؟ » فان لورنس يجيب عنه بما يلي : « انك تظن انه انت » ، ذلك لأن حرب اوليفر الحقيقية هي ضد نفسه ، وقد لاحظ لورنس ذلك في عبارة واحدة : « حقاً انني لم احب الـ « نفسي » التي اراها

---

* اكليزياستس : ومعناها (الواعظ) : كتاب من كتب العهد القديم خلاصته انه إذا كانت التجارب الإنسانية كلها تتصف بالتفاهة و اللاجدوى فليس ذلك ايضاً إلى خطأ في الأشياء أو النظام الطبيعي ، وانما إلى حماقة الإنسان . (المترجم)

وأسمعها » ، وقد قال الاستاذ العجوز سابقاً : « انه ليس نفسه » ولم يقسم لورنس نفسه الى قسمين كما يفعل هاللر ، ثم يقول « يكره الانسان الذئب » ، وانما كره لورنس تعقيداً كاملاً من الجسد والعقل والانفعالات ، وكانت افكاره عن نفسه بمثابة الغطاء الخانق لحالاته العقلية ودوافعه الحيوية .

وليس هذا المركز غريباً على القديسين والمتصوفة ، وكان من سوء حظ لورنس ان لا يجد مؤرخاً لحياته ليعالج تضاده الروحي . وبلغت الشائعات التي دارت عن شهرة لورنس أوجهاً في المحاولات التي بذلها ألدنكتون للتعريف بلورنس على ضوء « علم نفس » فرويد الذي لا يكفي في هذا الصدد . الا أن «معضلة لورنس» يوضحها لورنس نفسه في «أعمدة الحكمةالسبعة» ، فليس الانسان واحداً وانما هو متعدد ، ولكن ، لكي يفعل شيئاً يستحق المجهود ، يجب عليه ان يكون واحداً ، ويجب ان تتوحد مملكته المقسمة . اما «الشخصية» ، ذلك الوهم الذي تمجده حضارتنا الغربيةوتسبغ عليه كثيراً من الاهمية ، فانه انما يزيد من التقسيم الداخلي ، مما جعل لورنس يعتبر الشخصية « ألد » اعدائه . وعليه فان حربه ضد « الشخصية » هي حرب ضد الحضارة الغربية .

وتأخذنا انجازات لورنس الى ابعد من هذا ، فان هذه الحرب لا يقوم بها العقل وحده ، لأن الشخصية انما ترتكز على هذا العقل ، وانما تقوم بذلك قوة الارادة التي تكون اعظم كلما كان يسندها الهدف الاخلاقي . اما واجب العقل فهو ان يثبت هذا الهدف الاخلاقي بواسطة التحليل النفسي ، فاذا استطعنا بهذا ان نعرف العدو ، استطاعت الارادة ان تعمل ، لا يحدها الا ما يحد الهدف الاخلاقي الذي يسندها من حدود .

فاذا كان هذا الاستدلال صحيحاً ، فان مشكلة اللامنتمي ليست جديدة ذلك لأن لورنس يلفت نظرنا الى ان تأريخ الانبياء يتبع نموذجاً معيناً ، فيولد النبي وسط الحضارة ، ويرفض مقاييسها عن الوجود المادي الممتاز ، ويعود الى الصحراء . ثم يعود ليبشر بنبذ العالم ، بالشدة الروحية ضد الطمأنينة الجسدية . شقاء اللامنتمي اذن هو شقاء الانبياء ، انه ينسحب من غرفته كالعنكبوت في الزوايا المظلمة ،

ويعيش وحيداً ، راغباً عن الناس . (وكان الحنين الذي يحس به مفكرو المدينة دائماً الى الصحراء حنيناً لا يقاوم) ، انه يفكر ويحلل « ويهبط الى نفسه » ، « لا لأنهم قد يجدون الله هنالك ، وانما لأنهم يستطيعون في تلك الوحدة أن يسمعوا الكلمة الحية التي جلبوها معهم وهم متأكدون منها . » وتظهر رسالة النبي شيئاً فشيئاً ، وهي لا تحتاج الى ان تكون رسالة ايجابية ، لماذا ؟ ما دام الدافع اليها سلبياً ؟ — الاشمئزاز .

ان النبي شخص يتوفر فيه من الاستقامة الروحية أكثر مما يتوفر في الآخرين . ان استرخاءهم يثيره، فيشعر بأنه مضطر الى اخبارهم بذلك ، على انه وهو في بداية الأمر ، كاللامنتمي ، لا يعرف نفسه جيداً ، ليفهم القوة الدافعة وراء مشاعره . ولهذا نجده معنياً بالتفكير ، لا بالعمل . وسنراقب في اللامنتمين الذين سنبحثهم في بقية هذا الكتاب ، ظهور العنصر النبوي بوضوح في اللامنتمي .

لقد دلنا البحث في أعمال همنغواي على انشغال اللامنتمي بالألم والموت، وتعتبر الصفحات التي يقص لنا فيها المعركة الأخيرة التي يخوضها ايل سوردو في « لمن تقرع الأجراس » من أبدع تلك المشاهد التي تحفل بها القصة، اذ نشاهد الجمهوريين يقودهم ايل سوردو،وهم يراقبون اقتراب الطائرات التي ستقصفهم ، بينما يعيد الصبي اكناشيو بعض التعابير التي سمعها من بطلة القصة الشيوعية باسيوناريا ، ثم يكف عن ذلك ليصلي : حييت ايتها العذراء .. الفياضة بالرحمة .. في حين تزمجر الطائرات فوق رأسه ، ولا يتذكر في تلك اللحظة إلا هذه العبارات : الآن .. وفي ساعة موتنا .. آمين : ولا تنقضي بضع لحظات حتى يكون كل فرد على التل ميتاً ..

ان الطريقة التي يصف لنا بها همنغواي موتهم المفاجىء الحيواني مقنعة جداً بل ان وصفه لهذه الحادثة يفوق من الوجهة الدراماتيكية نهاية «وداع للسلاح» بمراحل . وتجد هنا ان النهايتين المتطرفتين تتلاشيان معاً ، الدين الذي هو أعمق جذوراً في النفس الانسانية من أية عقيدة سياسية،والموت، ويلوح الموت صاحب الكلمة الأخيرة .

تعتبر هذه المشكلة عند بعض اللامنتمين المشكلة الحقيقية الوحيدة . وهي من حيث الأساس تشبه مشكلة غثيان روكانتان ، إلا أنها لا تعبر عن « الانسانية ضد الوجود العــاري » ، وانما عن « طموح للحياة ضد الموت » . على ان تأثير هذين التعبيرين واحد ، فهو نفي لارادة الحياة . ولسنا نحتاج هنا الى تكرار أن الحل الوسط لا يجدي ، وكذلك لا يجدي الاعتقاد بنظرية انفصال الروح ، أو بحياة ما بعد الموت ، أو بفكرة العودة الى الحياة ثانية ، وانما الذي يجدي هو الحل الوحيد ، دون أن يتضمن شيئاً من مبدأ « يجب أن نؤمن ثم نفهم».

غير اننا سبق أن قلنا انه لا شيء من التفكير يمكن أن يقود الى الحل النهائي ، وانه ليلوح اننا وصلنا الى زقاق مسدود آخر ، إلا أننا اذا تتبعنا هذا النقاش عائدين الى البداية اكتشفنا أن هذا الزقاق المسدود يبرز حين يظهر مفهوما «الفهم» و «العقل» . ان مبــدأ «يجب أن نؤمن لكي نفهم » لا يمنع اللامنتمي من استخدام عقله، إلا أنه يتطلب استخدام وسائل أخرى الى جانب العقل. وعليه فإننا سنوضح هذه المشكلة فيما يتبقى من هذا الفصل، باحثين في حياة رجلين لم يكونا من الفلاسفة بأي حال من الأحوال ، وانما كانا رساماً وراقصاً .

ولد فنسنت فان كوخ في هولندا عام ١٨٥٣ لقس بروتستانتي . وبدأ يرسم حين بلغ التاسعة والعشرين . ولم تمر تسع سنوات عــلى ذلك حتى أطلق على معدته رصاصة من مسدسه ومات في أوفير ، في مقاطعة بروفانس في آب ١٨٨٩ . وكان قد عاش حياته كلها معانياً من نوبات عصبيــة متصلة ، انتهت به في بعض فترات العامين الأخيرين من حياته الى الجنون المطبق .

يُعتبر فان كوخ أعظم كتاب الرسائل بين الرسامين ، وما نظننا مبالغين إذا قلنا إنه يدين بشهرته لرسائله ولتاريخ حياته الذي بناه المؤرخون على تلك الرسائل أكثر مما يكون ذلك للوحاته نفسها . على ان قيمة هذه الرسائل بالنسبة الينا ، وكوسيلة نعرف بواسطتها خفايا نفسه ، لا تزيد على قيمة الوثائق والكتب التي اعتمدنا عليها في بحثنا السابق . لقد كان رساماً، ولهذا فإن الكلمات لم تسعفه بالانطلاق الحقيقي . وان ما يغرينا فيه هو ما نعرفه من

تفاصيل حياته وما نراه في لوحاته ، بالاضافة الى كونه اللامنتمي الأول من نوعه في هذا الكتاب ، لأنه لم يكن كاتباً ولا مفكراً محللاً .

لم يكن سهلاً أن يحيا المرء مع فان كوخ ، لأن نوباته العصبية جعلت حالته مشكوكاً فيها دائماً . لقد ترك البيت وهو في السادسة عشرة للعمل في معرض للرسم في لاهاي ، ثم جاء الى لندن بعد أربع سنوات للعمل فيها ، وفي لندن ضاعف حبه الفاشل لاحدى الفتيات من ميله الى التأمل، وعاد الى بيت أبيه،الا ان جو البيت سرعان ما تسمم وصار مشحوناً بالتوتر فلم ينقض عام آخر حتى عاد الى لندن ليقنع تلك الفتاة ثانية بالزواج منه، الا أنه فشل أيضاً . ولم يكن فان كوخ بالرجل الذي يتقبل مشاكل الحياة بهدوء ، وانما خلفت تلك الخيبة وذلك الشقاء أعمق الجروح في نفسه .

أما في العام التالي فنراه في باريس،تلازمه أزمات صوفية،إذ انه كان قد قرأ الانجيل،وبدأ يعلق عليه . ولم يدعه عدم قناعته يعيش في سلام ، فتخلى عن عمله وعاد الى لندن حيث عاش في الأحياء القذرة حياة أثارت الشفقة عليه . وكان الحماس الديني يشغل أذهان الناس في تلك الايام ، مما جعله يقرر أن يكون قساً مثل أبيه . ويمر عام آخر، ونشاهد فنسنت بين عمال المناجم في بوريناج في بلجيكا،واعظاً اياهم، موزعاً رواتبه عليهم ، معطياً اياهم ملابسه ، حتى لقد أصبح أشد منهم فقراً . الا انه فشل في ما كان يهدف اليه بهذا أيضاً ، لأنه كان من الخطأ أن يظن أن فقر هؤلاء العمال لا بد سيدفعهم الى التعاطف معه باعتباره قديساً يعاني الحرمان والفقر من أجلهم.وهكذا ظل غريباً بينهم ، كما كان بين أقربائه البورجوازيين في هولندا . وأخيراً أرسل أحدهم رسالة الى رؤسائه يخبرهم فيها بشذوذ فنسنت، فاستدعي من منصبه .

هنالك لوحة رسمها في السنة الأخيرة من حياته، دعاها «ذكريات الشمال» تصور سماء شتائية حمراء غارقة خلف طيات سحاب أخضر — رمادي ، ومملوءة بقطع الغيوم القذرة الملتفة التي يلوح عليها شيء من أشعة الشمس. أما في مقدمة اللوحة فهنالك بعض البيوت الكالحة ، والأغصان والأشجار

التي نجد فيها ما وجدناه في قطع الغيوم من التفاف واضطراب وخطوط حمراء ، وينعكس على اللوحة كلها ضياء كبريتي . اننا نرى في هـذه اللوحة « الشمال » مـا رآه فان كوخ في بعثته الدينية .

قرر فان كوخ أن يدرس الرسم،وأشعره هذا بشيء من القناعة لفترة من الزمن، إلا انه تورط في حب فاشل آخر في العام التالي ، وكان فشله هذه المرة من القسوة بحيث أنه فكر في الانتحار . وبدأت حياته بعد هذا تتخذ مظهر الرجل الوحشي الذي يثير الشك والانفعال في نفوس أولئك الذين يعيش معهم. وزار فان كوخ أقرباء الفتـاة التي أحبها — وكانت ابنة عمه — ليقنعهم بتزويجها منه ، فأخبروه بأنها لم تكن في البيت ، إلا انه استطاع أن يرى من ترتيب المائدة انها كانت هنالك ، وانما غادرت مكانها حالما أعلن قدومه،فد فنسنت يده الى شمعة قريبة وقال : «دعوني أراها طيلة المدة التي أستطيع خلالها أن أحتمل هذا الألم وهذه النار » واختطف أحدهم الشمعة ، ثم سمحوا له برؤية الفتاة، إلا أنه لم يحصل على نتيجة مرضية من ذلك،وكانت تلك آخرمرة رآها فيها .

ومر عام آخر،وفان كوخ منهمك في الرسم ، والتقط امرأة حاملاً من الشارع،بعد أن تخلى عنه جميع أصدقائه،باعتباره شخصاً مجنوناً ، إلا أنه لم ينجح في حياته مع هذه المرأة أيضاً . وبدأ الرسم يخفف شيئاً من توتراته العصبية،فكان كلما تغلب على نوبة من نوباته،يزيد قوة في تعبيره وأصالته . وتأثر بالانطباعيين في باريس فأصبحت لوحاته أكثر اشراقاً . وكان أخوه ثيو يساعده بالمال ليعيش به وينصرف الى الرسم،إلا أن ثيو نفسه حليفه الدائم الوحيد، لم يستطع أن يحتمل العيش مع هذا « الرجل المتوحش » ، وأخيراً بلغ من تأثير النوبات العصبية المستمرة عليه انها دهورت صحته الى حد كبير ، فترك باريس واتجه نحو الجنوب في عام ١٨٨٨،حيث التقى هناك بكوكان، الذي لم يستطع العيش معه أيضاً،فافترقا،بعد أن هاجمه فان كوخ بموسى الحلاقة. وكان أن بتر فان كوخ احدى أذنيه بتلك الموسى ووضعهـا في علبة من علب الثقاب الفارغة وأهداها الى احدى فتيات المبغى العام . وتبعت ذلك

فترات من الجنون المطبق ، فنقل الى المستشفى ، حيث لم ينقطع عن الرسم .

كان أسلوبه في الرسم قد تطور وتجلى خلال السنتين الأخيرتين ، ولم تعد لوحاته تمثل مناظر طبيعية واقعية ، أو مناظر داخلية يلوح فيها تأثير ميلليه والمدرسة الهولندية ، وإنما صارت ألوانه أقوى ، بل انه ليبدو في بعض لوحاته نوع غريب من الفوضى التي تجعل الأشجار وحقول الحنطة والبيوت تلوح وكأنها تحترق وتنبعث منها ألسنة اللهيب . على انه لديه لوحات أخرى هي ، على عكس هذه اللوحات ، التي تمثل عواصفه الذهنية ، هادئة فياضة بالنور والسكون . وقد رسم عدة صور للأشخاص حين كان في الجنوب ، بل انه رسم صورة لكل من رضي بالجلوس له ، بالاضافة الى بعض صور الحياة الساكنة (الأثاث وغيره) ويلوح في بعض صور الأشخاص التي رسمها شيء من التزويق الذي يذكر الناظر اليها بالنقوش اليابانية ، في حين أن صور الحياة الساكنة تتميز ، على عكس صور الأشخاص ، بنوعية ديناميكية كتلك التي نجدها لدى ميكل انجلو ، ومن تلك الصور «الكرسي الأصفر » التي قال عنها كوكان بغبطة : لم يرسم أحد كرسياً كهذا قبلك.

وانتقل فنسنت من المستشفى في آرل الى مصحة الدكتور كاشيه ، واستمر ثيو على إرسال المال اليه ، إلا أن مسؤوليات ثيو ازدادت الآن ، لأنه تزوج ، وكانت زوجته تنتظر طفلاً ، وكان بالإضافة الى ذلك ، كثيراً ما يحتدم الجدل بينه وبين أصحاب معرضه الفني الذين لم يعجبهم ميل ثيو الى « الرسامين الشبان » . وبدأ فان كوخ الآن يشعر بأن حياته صارت عبئاً ثقيلاً على العالم ، بالاضافة الى خوفه من أن يصاب بالجنون التام. وكانت آخر لوحاته هي «حقل حنطة وغربان» ، ونرى فيها سماء زرقاء يشوبها السواد ، تهدد بعاصفة شديدة ، وطريقاً يبدأ على يسار اللوحة ويتغلغل فيها حتى يتلاشى في وسط الحقل وكأنه نهر سريع الجريان .. بينما يبدو في اللوحة كلها جو من التشاؤم والقلق . ولم تمض أيام معدودة على ذلك ، حتى عاد الى هذه البقعة نفسها وأطلق النار على نفسه إلا أنه أخطأ المرمى ولم يصب القلب ، فأحكم أزرار سترته على الجرح وعاد

الى غرفتــه ، حيث مات فيها بعد يومين ، وكانت آخر كلماته لثيو قوله : « لن ينتهي الشقاء » . وجاء في رسالته الأخيرة لثيو ما يلي : « أما بالنسبة لأعمالي الفنية ، فقد ضحيت بحياتي من أجلها ، ومن أجلها فقدت نصف عقلي ..»

ان حياة فان كوخ تذكرنا بكلمات هيس في « دميان » اذ يقول : « ان حياة الانسان هي طريقه الى نفسه ، الى الادراك النفسي .. » أما في حالة فان كوخ فإن الادراك النفسي يعني التعبير النفسي . وهو بالنسبة الينا ، كرسام ، فنان حقاً ، الا أننا يجب أن نتذكر أنه عاش أربعين عاماً ، ولم يدرك أنه رسام إلا في السنوات الثماني الأخيرة منها ، وانهـــا لفترة طويلة أن يعيش الانسان ثلاثين عاماً بدون أي اتجاه ، لأن معظم النـاس قادرون على تكوين فكرة عن أنفسهم وعن الاتجاه الذي ينتسبون اليه قبل أن يبلغوا العشرين. وقد شعر فان كوخ بدينامو الفعالية الكامن فيه وبقوة ارادته قبل أن يبلغ السابعــة عشرة ، إلا أنه لم تكن لديه أية فكرة عن الاتجاه الذي يجب أن يوجه هذه الفعاليـة نحوه . انه يذكرنا بجورج فوكس الذي يعذبه شعوره بأن لديه هدفاً ، الا أنـه لا يعرف ما هو هذا الهدف . « كنت فرداً فياضاً بالأحزان في تلك الأيام» . ــ وسنتفحص لا انتمائية جورج فوكس في الفصل الثامن من هذا الكتاب.

على أننا واثقون من أمر واحد في فان كوخ حين كان شاباً ، ذلك هو شعوره الديني الشديد ، ولست بذلك أعني شدة انصرافه وتكريس نفسه للدين ، وانمـــا أقصد بذلك ما يوحي اليه بشيء من الهدف. ولا يختلف هذا عما أحس به لورنس، حين اعتقد بأنه كان واعظاً أكثر من كونه جندياً . ويمكننا ، بتحليل ذلك بعناية ، أن نفهم منه ان هنالك قوة أعلى من الانسان في هذا الكون ، وان الانسان يبلغ أسمى أهدافه بخدمـــة تلك القوة . إلا انه من الضروري أن نتـــذكر في الوقت نفسه مفهوم هيس الذي يقول بأنه ليس هنالك انسان ، (الانسان هو اتفاق بورجوازي مذعن) أي أن الفكرة الدينية البدائية عن علاقـــة الانسان بخالقه تتهاوى أمام نقد اللامنتمي ، وهكذا يرجع اللامنتمي الى عدم استطاعته أن يجد ايماناً جديداً ، ولأنه يميل الى اعتبار جحوده وإنكاره كنتيجة لخطيئة ما ..

هذا هو جوهر فان كوخ،لا كفنان ، وانما كلامنتم يعتبر الحياة سؤالاً مؤلماً قاطعاً يتطلب منه أن يجد جواباً له قبل ان يعيش تلك الحياة . وقد علمته تجاربه الأولى أن الحياة هي أبداً مع الانسان وضده ، إلا ان حسيته المفرطة جعلته شاعراً بصورة غير اعتيادية بضدية الحياة وحدها ، بشقائه وشقاء العالم،فانصرف بكل قواه باحثاً عن وفاق أصيل مطاق مع الحياة . وهو ، كفنان ، يجد بعض تلك اللحظات التي يكون فيها على وفاق مع الكون ومع نفسه ، حين يشعر،مثل ميرسول ، بأن الكون ونفسه هما من طبيعة واحدة ، اذاك تلوح حياته هادفة ، بل يلوح شقاؤه أيضاً هادفاً . أما بقية أوقاته فهي كفاح من أجل استعادة أمثال تلك اللحظات التي يدرك فيها ذلك . فلو كان هنالك نظام في الكون ، ولو استطاع أن يفهم هذا النظام أحياناً ويحس بأن نفسه على وفاق تام معه ، فانه سيكون قادراً على رؤيته ولمسه ، مما يجعل تلك اللحظات ممكنة الاستعادة باتباع أسلوب ما .

إلا انه مما يؤسف له ان تتعقد المشاكل أكثر لدخول عناصر جديدة تتألف من حاجات الانسان التافهة التي تسيطر على انتباهه،كالرغبة في مرافقة الناس وفهمهم وللشعور بالمشاركة في الحياة الانسانيـــة الاجتماعية ، بالاضافة الى الحاجات الضرورية طبعاً،كالمأوى والطعام والشراب. ويحاول الفنان ان يصرف انتباهه الى هذه الأشياء، إلا أن ذلك صعب أيضاً ، لوجود عدد جم من الأشياء الأخرى الهامة التي يجب أن يفكر فيها أيضاً، ويزيد الطين بلة ما يبديه الناس من عداوة تجعل الانسان يسأل نفسه دائماً : هل أنا مخطيء؟ ويؤدي هذا بالفنان اللامنتمي أحياناً الى التفكير بالانتحار، الا أنه قبل ان يصل الى هذه النقطة يحس بأن الكون صار يعني شيئاً من جديد، ويدرك شيئاً من الهدف . زد على ذلك أن هذا الشعور بالوفاق لا يشبه ما يلوح على الطفل النائم من دعة وانسجام،وانما هو اشتعال لكل الحواس،وشعور بحالة من الادراك لا يعرفها البورجوازي العادي. انه يشعر بأن هذه الحالة هي الأمر الوحيد الذي أهمله حين جلس يحاسب نفسه عن موقف الحياة منه،

كم هي مضادة وكم هي مؤاتية ؟ وقد يدعو المسيحي هذه الحالة « بالشعور بابوة الله » وقد يدعوها الهندوسي « بالشعور بأمومة الله » ، الأمر الذي يفضله الفنان الذي يفهم تلك الحالة على انها شعور يشبه اطمئنان الطفل الى أمه . ومهما تعددت التعاريف فانها جميعاً تصف هذه الحالة نفسها التي لا يعرف عنها البشر شيئاً، مما يجعلهم عاجزين عن التعبير عن هذه الحالة حين يشعرون بها.

فاذا عدنا الى لوحات فان كوخ: وجدنا هذا المعنى معبراً عنه بلغة الرسم بدلاً من لغة الكلمات. وقد يسخر الكتاب الصوفيون، من مثل هذه المحاولات باعتبارها غير كافية لتصوير المعنى المطلوب، الا انهم لا يلاحظون ان هذه المحاولات، على ضعفها، تفوق كل ما يعرفونه عن الواقع، وتعبر عن حالات قد لا يحس بها كثير من الناس إلا مرة واحدة في حياتهم . ولو تطلعنا الى لوحات فان كوخ بتسليم وقبول لا انتقاديين ، كشعورنا مثلاً حين نسمع برموز الرياضيات العالية ، فاننا سنرى فيها أكثر مما نراه لو تطلعنا مسلحين بسلاح النقد والهجوم العقلي . اننا ، حين نرى لوحاته على هذا الأساس، نشعر بأنه قد « طرد طبيعته التي يحيّرها فكره » من لوحاتـه ؛ وأبرز فيها بدلاً عن ذلك ما حن اليه لورنس دائماً « المباشرة في الادراك الحسي » ، بالاضافة الى شعورنا بأن « استجابة الحياة ومعاكستها » قد اختفتا في هذه اللوحات، لأنه ما دامت الحواس قد استيقظت فانه لمن غـير المجدي التحدث عن الشقاء الانساني . هنالك شقاء حقاً ، إلا انه لا يهم، وانما المهم هو هذه الحالة فحسب ، هذه الحالة التي يحاول فان كوخ أن يعبر عنها في لوحاته بالشكل والضياء ، بحقول الحنطة التي تغرق في شلال الضيـاء الذي يكاد يؤلم العين بسطوعه ، بالليلة التي تبزغ فيها النجوم والتي يلوح في سمائهـا ما يشبه التقاء الأنهر المتدفقة ، تلك السماء التي لا تعود نجومها نقاطاً بحجم رأس الدبوس ، وانما حلقات ودوائر من الضياء ، وبأشجار السرو التي تشبه اللهب الأخضر ... بل ان فان كوخ يصور المناظر الداخلية ، كرسياً وحذاء عتيقاً، وكومة من البصل، بالسطوع الذي يصور به ايل غريكو العذراء.

إلا أن فان كوخ لم يكسب المعركة بصورة نهائية. اذ انه في اليوم التالي لرسمه كرسياً « بطريقة لم يرسمه بها أحد من قبل » تشاجر مع كوكان وكتب رسالة عاصفة الى ثيو ، في حين كان فنه يلوح في أوقات أخرى ميئوساً منه ، سيئاً ، لا أمل فيه اطلاقاً . ان آخر كلماته لثيو هي كلمات انسان يشعر بأن الانحدار لا مفر منه،وان الحياة عبارة عن مصيدة تحتوي على نزر من الطعم ، انسان ينتحر ليهرب من ضرورة الوقوع في هـذا الفخ ثانية.ولا تصور آخر لوحاته منظراً طبيعياً مصطبغاً بطبيعته المتخاذلة المنهوكة فحسب،وانما تعتبر ملخصاً لحياته كما عرفها هو،ولنفيه لهذه الحياة .

إلا انه يرينا في لوحات أخرى تأكيداً على الحياة لم يأت بمثله فنـان آخر (باستثناء ايل غريكو)، وتعبيراً عن الروح لا يمكن أن يعبر عنها بالكلمات : « التصوف الطبيعي » قط . لقد كان وردزروث متصوفاً طبيعياً وقد تميز عند تعبيره عن هذا النوع من التصوف بعقلية قانعة « مر بجيهوفا* وقوم السماء الآخرين ، دون أن يثير ذلك في نفسه شيئاً من الانفعال » ، أما الطبيعة ، الطبيعة التي تبعث على الغبطة .. الخ (كان وليم بليك أيضاً صوفياً طبيعياً ولكن بمعنى أعمق ، وقد علق على هذه المقاطع في حواشي نسخته من — النزهة — بتعليقات عنيفة جداً). ونحن نعرف ان المتصوف الطبيعي الأصيل انما يتمثل في يعقوب بوهمه ، وتوماس تراهيرن ، اللذين اهتما « بالله في الروح » كاهتمامهما « بالله في الطبيعة »،ولهذا لم يشر أحد اليهما باعتبارهما متصوفين طبيعيين،وينطبق هذا القول على فان كوخ أيضاً .

إن الطبيعة تعكس ما يراه في داخله ، فاذا لم ير شيئاً ، فان لوحاته ستكون صوراً طبيعية تشبه الصور الفوتوغرافية ، أما اذا رأى شيئـاً في أعماقه ، فان هذه اللوحات تعبر عن رؤيا لا يمكن التعبير عنها بالكلمات، لأنها تسير باتجاه معاكس .. فبينما تسير الكلمات في اتجاه أفقي .. تأخذ هذه التعابير اتجاهاً عمودياً ، أما نقطة تقاطعها فيمكن أن تدعى باليكونية (هذه

* جيهوفا : اسم الله في المخطوطات العبرية القديمة ؛ ومعناه الموجود بذاته . (المترجم)

الكلمة هي الترجمة المطابقة لاحدى كلمات ايكهارت) ، واذا قارنا لوحة فان كوخ « ساحة السجن » بالأصل الذي نقلها عنه والذي رسمه «دوريه». فاننا نرى ان فان كوخ كان أكثر رؤية فيها . فهنالك المزيد من الضوء، بالاضافة الى انها في الوقت نفسه أكثر واقعية من لوحة دوريه . ان « كرسي » فان كوخ أكثر من غيره من الكراسي ، وأزهاره الشمسية أكثر من غيرها ، أما كلمات روكانتان : « كنت كالآخرين .. إلا انني لم أكن أشعر بأن ذلك الطائر كان موجوداً .. » فانها غريبة على فان كوخ، ولا يمكن أن تنطبق عليه بحال من الأحوال . كان فان كوخ اذا رأى شجرة مورقة ، شعر بوجودها بصورة شديدة ، الى درجة انه اذا أراد رسمها ، لم يستطع أن يرسمها شجرة (كما ينتظر من كونستابل مثلاً أن يفعل) ، بل لم يستطع حتى أن يهبها المسحة العامة التي تتميز بها كل شجرة باستخدام الألوان (كما فعل مانيه والانطباعيون) ، وانما يرسمها متفجرة بالحياة ، تلوح وكأنها مشتعلة بلهب البنغال . وليست طريقته في ذلك بسيطة ، بحيث يستطيع أي مغفل أن يفعل ذلك ، وانما هي طريقة في الابصار،طريقة جبل عليها ادراكه. طريقة يمكننا أن نتأكد من اخلاصها وأصالتها بملاحظتنا التطورات التي عانتها رؤيته لهذه الشجرة في أثناء رسمه لها.

بل نستطيع ان نقارن لوحته « منظر طبيعي قرب أوفر » بأية لوحة من لوحات سيزان التي رسمها لهذه البقعة ذاتها ، إذ نرى ان الفارق بينهما ليس فارقاً في الطريقة الفنية،وانما هو فارق في طريقة الرؤيا ، فقد ترجم سيزان ما رآه الى ضربات قصيرة لا حد لها من الفرشاة، باذلاً في ذلك جهداً كبيراً ، كما فعل هنري جيمس حين كتب صوره الوصفية عن المجتمع الأوروبي ، وتميزت نتيجة ذلك بظهور نوع من النظام المنبثق عن اتباع سيزان لأسلوب معين . ويمكننا أن نفهم من لوحات سيزان كثيراً من التفاصيل عن سطح الشيء المرسوم وبعده عن العين ، وعن ارادة الرجل الذي قرر أن يظهر هذا الشيء بصورة كاملة، إلا اننا لا نفهم فيها شيئاً عن أحاسيس سيزان، في حين

نستطيع أن نلاحظ ذلك في لوحات فان كوخ ، ونستطيع أن نرى هـذه الأحاسيس والانفعالات الخطيرة التي لا تقتصر على مـا تثيره الطبيعة في الانسان من مشاعر فحسب،وإنما هي أحاسيس تتعلق بإدراك ملحوظ لطبيعة الحياة نفسها . ان رسم سيزان هو رسم فحسب ، وانه لرسم عظيم القيمة ، إلا أن رسم فان كوخ يتميز بميزات اللانهائية ، انه رفض اختياري، يقوم به رجل اعتبر حياته الخاصة تجربة في الحياة ، انه رسم يسجل بأمانة كل حالات مزاجه وتطورات رؤاه بطريقة تشبه طريقة « قصة التأريخ الشخصي» .

وقد تلوح طريقتنا في تحليل لوحات فان كوخ للنقاد الفنيين طريقـة أبعد ما تكون عن دراسته كفنان ، وذلك صحيح ، لأن أهداف هـذه الدراسة لا يهمها فان كوخ كرسام وإنما كلامنتم اختار الرسم للتعبير عن نفسه.

فإذا انتهينا من اعتباره لا منتمياً ، وجدنا التعريف الذي نحصل عليـه من فان كوخ لمشكلة اللامنتمي تعريفاً مهماً جداً . انه يشبه لورنس في أنه هو أيضاً كان حائراً في اتجاه إدراكه .. أين يجب أن يوجه قواه؟ وغالباً ما نراه يقلل من قيمة نفسه ويرفع من قيم الآخرين،وهذا ما كان يخلف اصداء قوية في لوحاته كلما اتصل بالناس . أما غوتيه فقد بنى حول نفسه، حين تقدم به العمر ، جداراً عقلياً ، لم يستطع الآخرون أن ينفذوا منه سواء كانوا مادحين أو قادحين . ولو فعل لورنس وفان كوخ ما فعله غوتيـه ، لأخذت الحياة بالنسبة اليهما طريقاً آخر الى اتجاه مختلف عن الاتجاه الذي انتهيا اليه.

تلك هي الناحية السلبية من مساهمة فان كوخ في المشكلة ، أما ناحيتها الايجابية فإنما توحي باتجـاه فكري هام ، ذلك أنه هو ولورنس قامـا بإدخال عنصر جديد على مشكلة اللامنتمي ، وهـذا العنصر هـو مفهوم النظام ، إلا أن هذا النظام لم يعد عقلياً بالنسبة الى فان كـوخ ، وانمـا تطورت قوة إرادتـه في اتجاه الانفعالات . وتواجهنا الآن حقيقـة أن لورنس وفان كوخ فشلا معاً . وقد سبق لنا أن تطرقنـا إلى بحث فشل المعرفة الذاتية الذي يسبب نوعاً من مركب النقص ؛ إلا أن مصادر هذا

الفشل تختلف في الرجلين ، ونستطيع أن نعبر عن هذا الاختلاف بقولنا ان فان كوخ أحس بأكثر مما يجب ، تماماً كما فكر لورنس بأكثر مما يجب، فالأول أحس بدون أن يفكر ، في حين فكر الثاني بدون ان يحس.

وقبل ان نتفحص مضامين هذه النتائج ، وعلاقتها باللامنتمي بصورة عامة ، علينا أن نتفحص عنصراً ثالثاً .. ذلك لأن هذين الرجلين بـــدءا بنوع واحـــد من النظام الجسدي ، والمشاق والجوع .. الخ ، وكانت جهودهما الأولى في هذا النظام محاولات لتحقيق السيطرة على جسديهما .

ان كل محاولة سنبذلها لاستنتاج شيء ما من «محاولة اللامنتمي لكسب السيطرة» لن تكون مقنعة كل الاقناع ان لم نسندها بدراسة لامنتم كان معنياً بصورة رئيسية بالسيطرة على الجسد ، ولذا يجب علينا أن ننصرف الآن الى مثل هـــذا اللامنتمي قبل أن نذهب أبعد في تعميم حالتي لورنس وفان كوخ على الآخرين . ولدينـــا كثير من القديسين والنساك الذين يصلحون كنماذج لهذا الغرض ، إلا أن هؤلاء لا يتفقون مع الشروط التي لاحظناها، والتي تفترض ان اللامنتمي يجب أن يبدأ بشيء من الشك بقدر ما يعني الأمر الدين، إلا أنه يجب أن لا يبدأ بالدين ، وإنما بأساس يمكنه ان يقبله ويفهمه ، بالعالم والحياة الانسانية . وهـذا مما يصغر مدى المشكلة التي نبحثها الآن ، لأننا ولحسن الحظ نملك مثل هذا النموذج . انه فازلاف نجنسكي ، راقص الباليه ، الـذي ألفت عنه كتب كثيرة ، وكان أهمها تاريخ حياتـــه الذي كتبته زوجته ، وكتاب اناتول بورمان « مأساة نجنسكي » الذي لا يمكننا أن نعتمد عليـــه كل الاعتماد ، تلك المصادر التي تزودنا بالشيء الكثير عن تفاصيل حياته ، الا أننا نملك ما هو أهم من هذا كله ، اننا نملك « مذكرات نجنسكي » التي نشرت في عام ١٩٣٧ ، والتي تتيح لنا النفوذ الى حالته العقلية مباشرة قبل أن يصاب بالجنـون . ويمكننا ان نعتبر هذه المصادر كلها أكثر مما نحتاج اليه لغرض هذه الدراسة.

يلوح ان عنصر المأساة موجود في حياة نجنسكي منذ بدايتها ، فقـــد كانت عائلته بائسة دائماً ، وكان أبوه راقصاً ، سافر الى جميع أنحـــاء

روسيا ، ثم ألقى بمسؤولية العائلة على أكتاف زوجته .

ولد فازلاف نجنسكي في كييف عام ١٨٩٠ ، وكان قد حدث قبل مولده بعام واحد ان داهمت بعض العصابات الخان الذي كانت تنزل فيه أمه مما سبب لها اضطراباً عصبياً شديداً بسبب العنف والقسوة اللذين رأتهما في تلك الحادثة ، بل انها فقدت القابلية على النطق لمدة ثلاثة أيام.

كان فازلاف طفلاً نحيفاً حساساً ، متعلقاً بأمه كل التعلق . وحدث في شبابه المبكر أن أخاه ستانيزلاف سقط من شباك في الطابق الثالث الى الأرض ، مما تركه مجنوناً بقية عمره . أما والد فازلاف فقد هجر زوجته بعد هذه الحادثة تاركاً إياها لتعيل أطفالها الثلاثة دون أية مساعدة .

وبلغ فازلاف التاسعة من عمره ، فقبل في المدرسة الامبراطورية للرقص في بترسبرك ، وكان هذا يعني أنه صار تحت حماية القيصر ، وأنه سيدرس الرقص على أيدي أمهر راقصي عصره . وانتهى تدريبه حين بلغ الثامنة عشرة ، فأصبح بصورة أوتوماتيكية عضواً في مسرح المارينسكي ، وبلغ من مهارته في الرقص أنه حصل مباشرة على مركز مراقص الفتاة الأولى، الذي يضعه في مكان القيادة من مجموعة الراقصين . ولم يبلغ العشرين إلا وكان أشهر من نار على علم في بترسبرك .

وفي ذلك الوقت التقى فازلاف بسيرجي دياكيليف ، وكانت تلك المقابلة نقطة تحول كبير في حياته . كان دياكيليف هاوياً غنياً من هواة الرقص . وكانت فعالياته وقابليته التنظيفية من القوة بحيث أنه لم يكن قانعاً بمساعدة الراقصين والتطلع الى رقصهم ، وإنما كان يشعر بأنه يجب أن يؤلف فرقة من راقصي الباليه، مستقلة بفرقتها الموسيقية ومصممي أزيائها وراقصيها ورساميها . وقد أفلح دياكيليف ، دون أن تكون لديه موهبة فنية ، في ربط اسمه بأسماء اللامعين في عالم الفن في أوروبا بين عامي ١٩٠٧ و ١٩٣٠ . بل ان دفتر صكوكه كان الدافع الكامن وراء كثير من أعمال سترافنسكي وبينوا وباكست وبافلوفا وكارسافينا وفوكين ودوبيسي ورافيل وبيكاسو وشيريكو وماسين ودوفاللا وكوكتو ..

وغيرهم . أما دياكيليف شخصياً فلم تكن لديه أية ميزة جذابة ، وانما كان رجل أعمال بين كل أولئك الفنانين ، وقد جعله هذا يلوح متحجراً ، أما اعتقاده بأنه مبعوث لانقاذ الفنانين فقدميزه بتركيز ذاتي شديد، وهكذا توفرت له كل الصفات التي نجدها في مرضى الشذوذ الجنسي : الشهوانية ، والغرور ، والخمول العقلي.

كان أول ما دفعه الى الإعجاب بنجنسكي هو شذوذه الجنسي . وفي هذا يحدثنا نجنسكي في مذكراته قائلاً : « لقد كرهته لأن صوته كان قوياً معتداً ، الا انني تبعته — الى غرفة دياكيليف في الفندق — لأنني كنت أنشد المستقبل .. وبدأ ... فسمحت له مباشرة بـ... وكنت أكره ذلك ، الا أنني تظاهرت بأنني كنت أميل اليه، لأنني كنت أعرف أني وأمي سنموت من الجوع ان أنا لم أفعل ذلك ... » (١٩) وقد تلوح العبارة الأخيرة مبالغة من فازلاف ، الا أنه كان مؤكداً انه شعر بالحاجة الى المساهمة في مساعدة عائلته، لأن نفقات الأسرة تضاعفت حين أصبح عضواً في المارينسكي ، وحين انتقلت العائلة الى شقة غالية ، بحيث ان مكاسبهم لم تعد تكفي هذه النفقات كلها. زد على ذلك أن جنون شقيقه صار من نوع الجنون الخطر العنيف ، فتطلب الأمر نقله الى أحد المستشفيات والاستمرار على دفع المصاريف من أجله . وقد عرف دياكيليف ان الأجر الذي كان نجنسكي يتقاضاه من المارينسكي لم يكن ليكفي عائلته ، فضمه الى فرقة الباليه التي كان قد شكلها حديثاً ، فطلب نجنسكي من المارينسكي السماح له بالسفر مع الفرقة، وكان ان اشترك في أول حفلة للباليه الروسية في باريس في ربيع عام ١٩١٠ .

وما انتهى ذلك الموسم الا وكانت شهرة نجنسكي ودياكيليف قد طبقت الآفاق ، ولقب النقاد نجنسكي بـ « إله الرقص » وقالوا عنه إنه أحسن راقص عرفه العالم . واستمرت الفرقة الروسية تقيم حفلاتها في مختلف العواصم الأوروبية ، ثم عاد نجنسكي الى بترسبرك ؛ متفقاً مع دياكيليف على فسخ عقد المارينسكي.وفي عامي ١٩١٢ و ١٩١٣ قدم نجنسكي رقصات على موسيقى دوبيسي « أمسية الحيوان الخرافي » ، وموسيقى سترافنسكي

« تحية الربيع » ، وكان الفضل في الأولى لرقصه ، وفي الثانية لموسيقى سترافنسكي ، الا أن الباليه الروسية انتفعت بهما انتفاعاً مالياً كبيراً .

ولم يستطع نجنسكي الاستمرار على احتمال الحالة التي كان يعيش فيها، إذ أن دياكيليف كان يعتبره « زوجه » وكان نجنسكي في الوقت نفسه يحمل في قلبه شعوراً دينياً عميقاً ، مما جعله يضيق ذرعاً بجو المسرح الذي لا تنتهي مشاكله ، وبجو الشهوانية مع دياكيليف ، وتشاجر معه مرتين ، وكان سترافنسكي في كل مرة يقف الى جانب نجنسكي . لقد ضاق نجنسكي ذرعاً بشعوره بأنه طفل موهوب لا عقل له ، في حين كان دياكيليف يمثل الناقد الفني والفنان الذي يشار اليه بالبنان .

وسافر نجنسكي في عام ١٩١٣ ، في رحلة بحرية ليتزوج بعيداً عن دياكيليف ، وخطب فتاة شابة تعمل راقصة أيضاً ، ومن الواضح أنها أحبته ، وتم زواجها في بوينس آيرس ؛ فما سمع دياكيليف بهذا حتى أرسل اليه برقية يخبره فيها بفصله من فرقة الباليه الروسية .

وامتلأت السنوات الخمس التالية بالفوضى والارتباك ، كانت زوجته هنغارية،وكانت هنغاريا في تلك الأيام في حرب مع روسيا!وذهب نجنسكي مع زوجته ليعيشا في بودابست باعتبارها مدينة زوجته،إلا أن العام الذي قضياه فيها كان مليئاً بالشغب والمكائد التي كان يدبرها له أهل زوجته ، إذ كانوا يحرضونها على الطلاق منه . وبدأ نجنسكي في السنوات التالية لزواجه يشعر بأكبر مشاكل اللامنتمي : التفاهة الذاتية . وسافر الى أميركا وقدم في نيويورك حفلات باليه معتمداً في ذلك على فرقته الخاصة ، ولم يتركه سيل المصاعب والمشاق في تلك السفرة،لأنه لم يكن يملك قابليات الرجل العملي ، وانما كان منطوياً متأملاً « وقد لاحظ الكثيرون ان وجهه كان يشبه وجه اللاما التيبتي ، أو بوذا في أحد تأملاته ، أو أحد التماثيل الفرعونية » . وكانت متطلبات العالم الخارجي بالنسبة اليه شيئاً لا يحتمل،لا طاقة له به ، وزادت الحرب الطين بلة،فصار يرى رؤى مفزعة تصور له الجنود القتلى ومشاهد الحرب المفزعة.

وانتقلت العائلة الى سنت موريتز في كانون الأول من عام ١٩١٧ ، وكانت مؤلفة من نجنسكي وزوجته وطفلتها ، فبدأت بذلك المرحلة الأخيرة ، وبدأ نجنسكي يعمل في تصاميم حفلة باليه جديدة،ويقرأ كثيراً،ويخرج هو وزوجته للتمشي ،وركوب الزحافات،والتزحلق على الجليد ، إلا ان الخمول بدأ يؤثر فيه ، وكان في أشد الحاجة الى أن يفعل شيئاً جدياً فانهمك في كتابة مذكراته . ولم تكن هذه المذكرات إلا آراء عامة عن مختلف الأشياء، واستطاع أن يبرع خلال ذلك في رسم المنحنيات والأقواس،ونشأت أواصر صداقة بينه وبين أحد المعجبين بتولستوي،وبدأ في تلك الأيام يتحدث الى زوجته عن رغبته في ترك الرقص والعيش في زاوية ما في روسيا، في حقل أو ربما في دير . ولم تستطع زوجته الصبر على ما بدأ يشغل بال زوجها من أفكار ، إلا أن نجنسكي لم يتخل عن التفكير في ذلك ، وأضاف عليه تفكيره في تولستوي ودوستويفسكي ونيتشه . وفي أحد أيام الآحاد،أقبل خادم شاب على زوجته يقول لها إن نجنسكي كان جالساً وسط شارع المدينة ، لابساً الصليب خارج ردائه ، وهو يسأل المارة عما اذا كانوا قد ذهبوا الى الكنيسة في حياتهم . وكان ذلك الخادم قد سمع بنيتشه في طفولته . فأضاف قائلاً : « لقد اعتاد نيتشه أيضاً أن يجلس في الشارع ، قبل أن يأخذوه . » واستشارت زوجته أحد المحللين النفسانيين ، واكتشفت في غرفة مكتبه رسوماً ومخططات ملونة ببقع حمراء وسوداء (تشبه الأغطية التي تلقى على جثث القتلى في مشارح الجثث)، وعندما سألته عنها قال لها : « انها وجوه الجنود القتلى .. انها الحرب .»

ولم يبد نجنسكي عنفاً مع زوجته إلا مرتين،وانما « لاح لها وكأنه غريب » ، وأخيراً حدثت حادثة « الزواج بالله ! » ، ثم طلب اليه أن يرقص أمام جمع غفير من الناس فوقف وحملق لمدة نصف ساعة ، وتقول زوجته في هذا « إن الجمهور لاح وكأنه واقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي» ،وأخير قال للناس: «سأرقص لكم رقصة الحرب .. بشقائها وموتها .. الحرب التي لم تفعلوا شيئاً لمنعها ، والتي أنتم مسؤولون عنها ، » (وكانت حركاته في تلك الرقصة تمثيلية ، وكان الناس

يلوحون وكأنهم تحولوا الى صخر .) لقد رقص لهم رقصة عبر فيها عما صوره بيكاسو في « كيرنيكا » (٢٠) .

ولم يطل الأمر بالنهاية ، اذ أخبرها أحد المحللين النفسيين في زوريخ، بعد أسابيع قليلة ، قـائلاً : « يجب أن تكوني شجاعة .. ان زوجك مجنون جنوناً لا يرجى شفاؤه . » وفي اليوم نفسه جاء أقاربها الى زوريخ ولما سمعوا باعتبار نجنسكي مجنوناً بصورة نهائية ، انتظروا حـتى غادرت زوجته الفندق ، وطلبوا من الشرطة أن ينقلوا الرجل المجنـون . وأدت معاملتهم القاسية له إلى أصابته بنوبة عنيفة لم ينج من نتائجها أبداً. وتراجع نجنسكي الى عالم خاص به ، عالم لم تفلح أية محاولة بذلت لاخراجه منه . وكان في مختلف المصحات التي أرسل اليها يحملق طويلاً ولا يجيب على الأسئلة ، ولا يكترث لما يحدث حوله . كان قبـل ان يجب ، يرغب رغبة شديدة في الانفراد بنفسه ، في الهدوء والتأمل ، ولم يحصل على ذلك قط،أما الآن فقد أتيح ذلك له باستمرار،وقد تجرد من جميع المسؤوليات. وأخيراً مات نجنسكي في يوم الجمعة العظيمة من عام ١٩٥٠ ، في أحـد مستشفيات لندن ، دون أن ينقص من جنونه شيء .

ان مذكراته التي طبعت في عام ١٩٣٧ تتيح لنا أن نعرف مـاذا كان يجري في أيامه الأخيرة كفرد عاقل في سنت موريتز . وإنها لمذكرات غريبة ، نموذجية في غموضها واقتضابها ، مذكرات رجل كان يقترب من الجنون . ويمكننا أن نجد فيها كثيراً من الأوهام والضلالات ، خاصة في العبارات الأولى:

« سيقول الناس أن نجنسكي يتظاهر بالجنون لأن الأعمال التي قام بها سيئة . ان الأعمال السيئة مفزعة حقاً ، ولهذا فأنني لا أريد أن أرتكب شيئاً منها . لقد ارتكبت بعض الأخطاء في الماضي لأنني لم أكن أفهم الله ..»(٢١)

وإنه ليصعب علينا أن نعرف ما هي الأعمال السيئة التي تستولي عـلى ذهن نجنسكي ، وما هي الأخطاء التي ارتكبها ، كما أننا لا نعرف شيئاً عن سلوك شرير معين قام به في مراهقته ، بل بالعكس ، يلوح أنـه

كان مخلصاً ، هادئاً ، يحيطه ما كان يحيط الأمير مشكين من بساطـة . انه يقول لنا في صفحات أخرى : « أحس بنظرة نافذة خلفي » ، أما زوجته فتقول عن هذا إنه كان احدى أخيلته البصرية .. (٢٢) ويقص نجنسكي علينا قصة فيقول : « دعوت بعض الأصدقاء لنزهة بالزحافات الى مالوجا..» إلا أنه ينسى ما كان يقصه علينا ، وينتقل الى موضوع آخر . وقد يدعو هذا التفكك في الاسلوب ، ورائحة الجنون التي تفوح من تلك العبارات القارىء الى إهمال المذكرات بعد قراءة صفحة أو صفحتين منها، إلا أن من يواظب على قراءتها يكتشف نوعاً من العقل ، غريباً ، مختفياً تحت هذه اللاهدفية :

« لا أريد موت الحواس . أريد أن يفهم الناس . انـني لا أستطيع أن أذرف الدموع فيما أكتب ، وانما أبكي في أعماقي . » (٢٣)

« سأقول الحقيقة كاملة ، وسيكمل الآخرون ما بدأته . انني مثـــل زولا ، الا أنني أريد أن أتحدث ، بدلاً عن رواية القصص . ان القصص تمنع الانسان من فهم المشاعر » (٢٤)

« إنني في غيبوبة ، غيبوبة الحب . أريد أن أقول أشياء كثـيرة إلا أنني لا أجد الكلمات . انني أكتب في غيبوبة، وهذه الغيبوبة تدعى بالحكمة. كل انسان هو كائن عاقل ، وأنا لا أحب الكائنات غير العاقلة ، ولهذا فإنني أود أن يكون الجميع في غيبوبة عن المشاعر » (٢٥)

« ان كل حياة زوجتي و كل حياة الجنس البشري هي الموت ..» (٢٦)

أريد أن أشفي زوجتي ، في حين أنني لا أستطيع شفاء نفسي ، انني لا أريد أن أشفى ، ولست أخاف شيئاً ما عدا موت الحكمة . انني اريد الموت العقلي . ولن تجن زوجتي لو قتلت عقلها . العقل هــو الحمق ، أما الحكمة فهي الله .» (٢٧)

لقد اقتطفت هذه المقاطع بلا اختيار من صفحات الكتاب الأولى ، الا أننا نستطيع أن نميز شيئاً من العقل فيها ، ينتقل من عبارة إلى أخرى . ولنجنسكي مصطلحاته الخاصة ، فهنالك الشعور والحكمة والله ، ونستطيع

أن نقول إنها مترادفات بالنسبة اليه ، وهنالك العقل والمـــوت والحمق وان العبارة التي تجعلنا نفهم طريقة نجنسكي في رؤيـة البشر هي عبارة : « ان كل حياة زوجتي وكل حياة الجنس البشري هي الموت » . ويمر بأحد الفنادق بعد أن يقضي وقتاً طويلاً متمشياً فيقول :

« شعرت بالدموع تجول في عيني ،حين فهمت ان الحياة في مثل هذه الأماكن هي الموت . البشر يمرحون ،والله حزين ،انها ليست غلطة البشر . » (٢٨)

هذا الانسان الذي نشاهده هنا هو اللامنتمي ببصيرته العميقة الشديدة، وبشعوره باشمئزاز جانسني* من البشر الفارغين ، الذين يفكرون دون أن يشعروا بالحاجة الى التراجع الى أعماق نفوسهم ، ولهـذا فانهم لا يقدمون أفكاراً خاصة بذواتهم ، أو خاصة بما يحتمل أن يكونوا عليه من :

« انني الله في جسد. وكل انسان يحس بهذا الاحساس ، إلا أن أحداً لا يستخدمه » . (٢٩)

وفي صفحات أخرى : « الله هو نار في الرأس » . (٣٠)

وانه لما يثير الأسى في نجنسكي دائماً أن تكون زوجته التي يحبها كل هذا الحب ، من ذلك النوع الفارغ ، فراشة على سطح الحياة . ويضيف نجنسكي بعد قوله ان حياة زوجته هي الموت ، قائلاً : « لقـد شعرت بصدمة وقلت لنفسي : كم سيكون الأمر جميلاً لو استمعت زوجتي إليّ . » على انه لا أحد يريد أن يستمع اليه، تماماً كما كان الأمر معه في السنوات السابقة، في فرقة الباليه الروسية : حين كان يعامله دياكيليف وسترافنسكي باعتباره طفلاً لا عقل له . وهذا ما يشغل ذهن نجنسكي دائمـاً ، فهو متأمل طبيعي ، معتاد على التراجع الى أعماق ذاته، جامعاً فعالياته في ملف محكم ، ليعود بعد ذلك ويطلقها من عقالها في تعبير ذاتي . إلا أن هؤلاء الناس – لا يعرفون شيئاً عن التعبير الذاتي، وعما هو موجود في أعماقهم . أما نجنسكي فانه يعلم بأنه : « أنا الله في جسد » وهو يعرف ذلك لأن

* نسبة إلى كورنيليوس جانسن : أحد رجال الدين الهولنديين الخارجين على البابا .

ادراكه بهذا واتاه عدة مرات حين كان يرقص،محققاً ذلك التفوق الذاتي، شعور اللامنتمي « بالقوة التي في أعماقه » . لقد رأى تلك القوة ، وهو يعرف انه : « أنا الله .. أنا الله .. أنا الله .. »

ان الرقص هو تعبيره الذاتي الطبيعي ، أما اذا لم يكن يرقص ، فانه يجابه كل مشاكل اللامنتمي الاعتيادي .. انه مثل بطل باربوس الذي تسكع في شوارع باريس محملقاً في النساء المارات،ولكنه حين التقط احدى البغايا، و « علمته كل شيء »،تأكد لديه أنه لم يكن في حاجة الى هذا بالذات: « لقد كنت مصدوماً ، وقلت لها انه مما يدعو الى الأسف أن نفعل أشياء مثل هذه ... فأخبرتني بأنها ان لم تفعل هذه الأشياء ماتت من الجوع .. » (٣١)

هنالك دائماً ذلك الأسف الممزق المدمر ، وتلك هي أفظع مشاكل نجنسكي . انه يحب زوجته ، وهو يأسف لأنها ليست سعيدة ، إلا انه يعلم ان حياتها هي الموت . ان الشقاء والموت ممزوجان بمادة العالم ، وقد عرفها حين كان طفلاً،وكانت العائلة تعاني الجوع . وعرفها في مدرسة الرقص أيضاً ، لأنه كان موجوداً في بترسبرك خلال ثورة عام ١٩٠٥ ، حين مزق الجنودُ المدنيين العزل بسيوفهم وسحقوا جماجمهم بالبلطات . وبعد أن مرت فترة الرعب ، خرج نجنسكي مع رفاقه الطلاب في صف طويل باحثين بين أكداس الجثث المتراصة عن جثة شقيقة بابتينج ، الفتاة الجميلة التي كانت في السابعة عشرة من عمرها ، والتي كان يحبها كل واحد منهم سراً ، إلا انهم لم يعثروا عليها . أما شقيق نجنسكي فقد قتل في ثورة عام ١٩١٧ ، حين فتح البلاشفة أبواب مستشفيات المجانين . أما رفاق نجنسكي في المدرسة ، فقد قتل أحدهم في مبارزة ، وأصيب الثاني برصاصة أطلقها عليه زوج غيور ، بينما انتحر الثالث .. موت .. موت .. وشقاء .. وحرمان .. كل تلك كانت عناصر الحياة العادية ، وقد عرف نجنسكي مثل فان كوخ انه « لن ينتهي الشقاء . »

لقد أثقل شقاء العالم احدى الكفتين الهائلتين في عقلية نجنسكي ، فماذا

عن الثانية ؟ هنالك أولاً الرقص ، تلك الفعاليات العنيفة الايقاعية ، فلو كان نجنسكي يرقص في كـل يوم بانتظــام محتفظاً بالصلة بين ذاته وبين أجزائه الحيوية، لما جن . ان الجنون يكون في عملية الخلق . هنالك أيضاً الشعور الديني العميق ، وقد تربى نجنسكي تربية كاثوليكية رومانية ، وكان الشعور بابوة الله الكونية شيئاً جوهريـاً فيه يدعوه الى ذلك الخلق والابداع . ولعل ما يلفت النظر أكثر من غيره في المذكرات هو استعماله لكلمة « الله » ، فاننا نجد هذه الكلمة مكررة خمس مرات في الصفحة الأولى ، ويستمر التكـرار عـلى هذا المعدل في كل صفحة من صفحات المذكرات تقريبـاً . وقد يكون هذا التكرار في صفحــات معينة مبرراً للاستنتاج القائل بأنه كان مأخوذاً بفكرة كونه « الله » ، إلا اننا نستطيع أيضاً أن نقول انه كان مأخوذاً بفكرة كونه « المسيح » ، فإنه يقول :

« انني ألوح مثله ، انما يمتاز هو بنظـرة هادئة ، في حين تنتقــل نظراتي فيما حولي .. انني رجل انفعالات لا رجل هدوء .. » (٣٢)

هذا هو أساس المشكلة ، فهو يريد أن ينكر هذه الانفعالات ، فيبدأ التوتر . ان الشخصية الخامدة المتعادلة سجن :

« أريد أن أكون الله ، ولهذا فانني أحاول أن أغير نفسي . أريد أن أرقص ، أن أرسم ، أن أعـزف عـلى البيانو ، أن أكتب الشعر ، أن أحب الجميع ، فهذا هو هدف حياتي . » (٣٣)

ويصل انكاره للتعبير الذاتي في المذكـرات الى حد ينجم عنه جو من الخنق الجسدي :

« احب كل أحدب ، وأحب كل مشوه آخر . انني أنا نفسي مشوه يتمتع بالشعور والحسية ، وأستطيع أن أرقص كالأحدب . انني فنان يحب كل الأشكال وكل الجمال .. » (٣٤)

ان انكار التعبير الذاتي هو موت للروح، وبدون ذلك الابداع يتلاشى التعادل ، وهكذا ترجح الكفة التي يستقر عليها الشقاء والعذاب :

« أعتقد انني عانيت أكثر مما عاناه المسيح . انني أحب الحياة وأريد أن أعيش وأبكي ، إلا انني لا أستطيع – أحس بألم في روحي – بألم يفزعني . ان روحي مريضة ، روحي ، لا عقلي . ان الأطباء لا يفهمون مرضي .. كل من يقرأ هذه السطور سيعاني .. ان جسدي ليس مريضاً، وانما هي روحي المريضة .. » (٣٥)

لقد عرف نجنسكي نفسه بما يكفي ليعرف ما يحتاج اليه ليظل عاقلاً ، إلا أن الأمر الذي لم يعرفه كان ، كم من العذاب والألم يمكن ان يحتمله عقله ؟ ولقد أرعبه الألم ، وتعتبر عبارته « انني رجل انفعالات لا رجل هدوء » مفتاحاً لفهم انهيـــاره ، وفي الوقت نفسه مفتاحنا لفهم علاقته بفان كوخ ولورنس. ولا يسعنا ان نقول عن اي واحد من هذين الرجلين انه كان « رجل انفعالات » ،لأن عقليتيهما تطورتا باتجاه الهدوء والتأمل . لقد علم نجنسكي بأن هذا لا يمكن ان يكون طريقه ؛ وهو يحلل دوافعه الخلاقة تحليلاً بارعاً نافذاً حين يقول : « انني احس بواسطة الجسد ، لا بواسطة العقل».

انه يحس دائماً بوجوده المادي ، ولنقارن هذا بفان كوخ ولورنس .

فأما مشكلة لورنس فهي انه « ليس حياً فيما يفعل » ، وانه لا يشعر بما يفكر به . إلا انه يستطيع ان يقول : « انا ادراك بواسطة العقل ، لا بواسطة الشعور » . وأما فان كوخ فهو يستطيع ان يقول « انا ادراك بواسطة الشعور ، لا بواسطة العقل » ، في حين يقول نجنسكي : « انا ادراك بواسطة الجسد ، لا بواسطة العقل او الشعور » .

انني اعرف ان هذه العبارات تعوزها الدقة ، فأمـا القوة العقلية فانها قادرة على بعث حرارة بيضاء من الشعور، تماماً كالجسم او الانفعالات .. ويمكننا ان نتغلب عــلى هذا الغموض ، اذا احتفظنا في اذهاننـا بهــذه الايضاحات : ما يخص القوى العقلية هو فهـم رأي من آراء نيوتن او آينشتاين في احدى المشاكل الرياضية . وما يخص الانفعال هو الشدة التي تتجلى في موسيقى فاغنر لمسرحية « تريستان وايسولت » ،وما يخص الجسد

هو الذهول والنشوة اللذان كانا يحدثان في حفلة من حفلات الاغريق القدماء التي كانوا يقيمونها لديونيسيوس ، إله الخمر ، أو في حفلة من حفلات المصريـين القدماء لإله النسل مينو ، حيث تسبب الخمر والرقص ذوبان الشخصية الذاتية الموقت لكل فرد من اولئك القائمين بتلك العبادة في ذاتية الإله . فاذا احتفظنا بالحالة الأخيرة في أذهاننا ، سهل علينا فهم عبارات المذكرات ، من أمثال : « أنا الله .. أنا الله .. أنا الله » (٣٦) دون ان نخطىء كما اخطأت احدى الصحف المحلية حين ذكرت : « ان جنون نجنسكي أخذ شكل وهم جعله يعتقد بأنه الله » . لقد أطاع جسد نجنسكي دوافعه الخلاقة كما أطاعت ريشة فان كوخ وقلم لورنس تلك الدوافـع . ويمكن ان يسكر الجسد بنشاطه ذاته اكثر كثيراً مما تستطيـع العقلية او الانفعال ان يسكرا بنشاطيهما . وكثيراً ما جرب البشر مثل هذا الشعور « أنا الله » في لحظات النشوة الجنسية ، بينما جربه القليلون بالاستماع الى الموسيقى ، او النظر الى اللوحات الفنية ، في حين ان الذين جربوه عن طريق الفعالية العقلية كانوا جد قلائل .

لقد لاحظ وليم جيمس ان « قوة الكحول على البشر راجعة بلا شك الى قدرته على اثارة القابليات الصوفية في الطبيعة البشرية ، تلك القابليات التي تربطها بالأرض حقائق ونقدات أوقات الصحو » . ان « القابليات الصوفية » تشير هنا الى ذلك المد من الطوفان الـذي ينبثق من الدفء الداخلي والنشاط الحي اللذين تعتبرهما الكائنات البشرية أجمل حالات الحياة . أما ساعات الصحو فانها تحمل هذا النشاط بكثير من المتطلبات ، والانطباعات الذاتية ، والأفكار ، والأمور المشكوك فيها ، ممتصة القوى الحيوية لحظة لحظة .. اما الكحول فيلوح انه يشل هذه الديدان الماصة للحيوية ، تاركاً الحرارة الحيوية لتتجمع وتشكل نوعاً من الخزان الداخلي . هذا التركيز في الطاقـات هو بلا شك أهـم شروط الحالات التي يدعوها القديسون « بالذاتية الداخلية » التي يحققها القديس بالتحكم المقصود في طاقاته الحيوية .

انه يميز هـذه الانفعالات التي لا تفيده في تحقيق الذاتية الداخليـــة وتبدد الطاقة ، ويبدأ بقلعها من جذورها في نفسه . وهو بانتقاله الى موضوعيته يزيد من قواه الادراكية الخاصة بالمستقبل والماضي،أي الاحساس بالأماكن الأخرى والأوقات الأخـرى ، وعند ذلك يحصل على انطلاق الجسد من اسار السجن الزمني ، وازدياد في دفء الطاقة الحياتية اللذين يقول الكتاب المقدس عنهما « ان تكون لك الحياة بوفرة أكثر » .

كان لكل من نجنسكي ولورنس وفان كوخ نظامه الخاص من أجـل بلوغ هذه النتيجة،فكأن كلاً منهم اكتشف في لحظة من لحظات الادراك مصدراً انبعثت منه « حياة أكثر وفرة » فركز كل واحـد منهم جهوده على النظام الذي ظن أنه سيحصل بواسطته على ذلك المصدر . فأما لورنس فإنه المفكر الذي وجد نوعاً متخيلاً من الانتعاش في دراسته للماضي. وأما طبع فان كوخ الديني فكان في حاجة الى تجميع الانطباعات الحسية، وكان كفاحه من أجل الشعور بالآخرية قد أخذ شكل ذاكرة تصور الأوقـات الأخرى والأماكن الأخرى ، ذاكرة كانت ، بالإضافة الى ذلك،ناقصة ، لأنه لم يستطع أن يحتفظ في لوحاته برائحة شجرة اللوز ، أو ريح تموز الحارة ، أو بالتوتر الذي كانت تحدثه في الجو تلك العاصفة المقتربـــة . أما مملكة نجنسكي فقد كانت الجسد . وقد شهد الناس الذين رأوه وهو يرقص بقابليته الفذة على أن يكون الشيء الذي يريد تمثيله ، سواء أكان ذلك العبد في « شهرزاد » أو التمثال في « بتروشكا » أو الأمـــير في « جيزيل » . وقد وهبه نظامه القوة على نبذ ذاتيته متى « أراد » ، أو توسيع بعض الأجزاء ، وتقليص الأخرى ، ليحقق وهم الشخصية الجديدة بصورة كاملة . وكانت هذه القوى قد أصبحت ، في بعض الأوقات ، شدة صوفية من الانكار والتضحية الذاتيين في رقصاته ، مما وهبه بـــين الحين والحين تلك الرؤى المدركة عن ذهول القديسين .

وهنا يكمن السر في انهياره ، فإن مثل هذا الانسان هو أعلى روحياً

وفنياً من المستوى الذي نجد عليه حسية الانسان العادي ، بل أعلى حتى من انسان كان لديه من هذه الحسية أكثر مما كان لدى الانسان العادي، أي أعلى من دياكيليف. ولو حدث ان كان نجنسكي غير قادر على التعبير الذاتي بلغة الألفاظ التي يملكها الجميع ، والتأكيد الذاتي الذي يحصل عليه معظم الناس من أمورهم « الحياتية » ، فإن مركزه بين الناس الآخرين سيكون زائفاً تماماً . لم يكن لدى نجنسكي أي سبب يدعوه الى الاعتقاد بأنه كان يملك نضجاً روحياً غير عادي ، ولم يكن لديه أيضاً، بصورة أقل هذه المرة ، ما يدفعه الى الاعتقاد بأن لدى الآخرين مثل هذا النضوج ، حين يفرض عليه تأكيدهم الذاتي نقصه هو فيما يخص الذكاء أو المنطق. ولو كان شاباً غير مجرب (كان نجنسكي في التاسعة والعشرين من عمره فقط حين جن).. فإن ذلك لن يتيح له بصورة عملية أية نقطة يستند عليها في مضادته للعالم.

لم تكن حماية دياكيليف سهلة الاحتمال ، وهذا ما لا يدهشنا . إلا أن زواجه ، لسوء الحظ ، لم يجعله أفضل مما كان عليه . كان بالنسبة الى زوجته مزيجاً من الإله والطفل ، إلا أنها أدركت منه جانب الطفل ادراكاً أكثر مما يجب ، في حين لم تدرك شيئاً من جانب الإله فيه ، وحدث هذا له مع رفاقه أيضاً . لقد كان « إله الرقص » حقاً ، الا انه لم يكن بالنسبة لكثير من النقاد إلا راقصاً غير متقن ، تتحدى الباليه التي يقدمها الانجاز الفني أو تترك الجمهور مذهولاً . الا أن الرقصات التي أداها في « طقوس الربيع » تحتوي على أجزاء معقدة قال جميع راقصي عصره عنها أنها لا يمكن أن تؤدى ، تماماً كما قال عازفو الكمان في أيام بيتهوفن عن بعض رباعياته الموسيقية انها غير قابلة للعزف . وكان قد أخذ معزوفات دوبيسي في « أمسية الحيوان الخرافي » ووضع لتلك الموسيقى الشهوانية الجسدية الناعسة حركات راقصة شديدة الصعوبة ، تعتمد على الزوايا ، فلاحت الباليه كأنها سلسلة من المشاهد تشبه تصاميم الاغريق القدماء في تنسيق مزهرياتهم وفقدت الموسيقى على يد نجنسكي كل ما رآه دياكيليف فيها

من دفء وانسانية وحسية ، مستبدلاً ذلك كله بالصعوبة والثقل والزوايا والعنف .
ويمكن القول بأن وصف هولمه للفن البيزنطي ينطبق عليها كل الانطباق:

« ليس الانفعال الذي يحصل عليه منه التذاذاً برؤية الطبيعة أو الحياة الانسانية ممثلة فيه ، إنما كان الاشمئزاز الذي تثيره التفاهات والميزات العرضية التي تتميز بها الأشكال الحية ، والميل الى العبوس ، والكمال والصرامة اللذان لا يتجليان في تلك الأشياء الحية ، كل ذلك كان قد قاد الى استخدام أشكال يمكننا أن نقول انها هندسية ». (٣٧)

ويستمر هولمه مستنتجاً من هذه الأشكال والزوايا ما يلي :

« ان الانسان خاضع لبعض القيم المطلقة ، ولا متعة هنالك في الشكل الانساني تقود الى تمثيله كما هو بطبيعته ، وإنما هو دائماً مشوه ليناسب أشكالاً أكثر تجريداً ، توحي بانفعال ديني شديد . » (٣٨)

وترينا مذكرات نجنسكي قدرته على الانفعال الديني الشديد، ونعلم الآن ان أسلوب مثل هذا الانفعال يتميز بالزوايا والصعوبة ، ولهذا فإن مفهومه للباليه كان أكثر من محاولة لاتباع نظرية جاك دالكروز القائلة بأن كل نغمة موسيقية يجب أن تصاحبها حركة متفقة معها من الراقص.ان اللامنتمي هو الذي يريد أن يبذل جهده من أجل ايجاد تعبير عن الانفعالات التي تريد الظهور وكأنها الرصاص المنطلق من المدفع الرشاش . وقد بلغ توتر اللامنتمي ، في حالة نجنسكي ، حد الانطلاق ، فغاص عقله في الظلمات .

وتصل مذكرات فازلاف نجنسكي حداً من الأمانة لم تبلغه أية وثيقة أو كتاب بحثناه حتى الآن . وهنالك أعمال حديثة أخرى تعبر عن نفس الاحساس بأن الحياة المتحضرة هي نوع من الموت الحي . ويمكننا أن نعتبر شعر ت. س. اليوت وقصص فرانز كافكا أمثلة على ذلك،إلا أن هنالك عنصراً من النبذ النبوي لدى كل من هذين الكاتبين ، اي سلوك البشر الأصحاء الذين يوبخون جيرانهم المرضى . وليس لدينا سجل آخر لمشاكل اللامنتمي كتبه رجل كان قريباً من الاندحار والانسحاق النهائي تحت

وطأة هذه المشاكل ، غير مذكرات نجنسكي . ولهذا فإن هذه المذكرات هي أشد تكديراً من كل المصادر التي سنشير اليها في هذا الكتاب .

لقد تفحصنا في هذا الفصل ثلاثة نماذج من اللامنتمي ، وثلاثة أنواع من النظم التي استخدمها هؤلاء لينافس كل منهم الآخر في لا انتمائيته ، الأول نظام مفروض على العقلية ، والثاني نظام مفروض على المشاعر ، والثالث نظام مفروض على الجسد . وقد رأينا كيف أنه لم يكن واحد من هذه النظم كافياً بحد ذاته ، لأن الأمر انتهى بفان كوخ ونجنسكي الى الجنون ، في حين لم يقل انتحار لورنس العقلي عن جنون نجنسكي ، إذ تخلى كل منهما عن الكفاح وأدارا وجهيهما عن المشاكل ، ولم يقل جنون نجنسكي طوعية عن التحاق لورنس بسلاح الطيران .

على أن أشد ملاحظاتنا عن هؤلاء الثلاثة امتاعاً هي التي تقوم على مقارنتهم الواحد بالآخر لمعرفة درجة ضياع كل واحد منهم . فأما نجنسكي فقد كان قريباً من فطرته الى درجة انه كان في حاجة الى تعقيد وربكة كبيرين لاطلاقه ثانية من قيود الأشياء التي كان متأكداً منها في أعماقه ، وجعله يناقش مدى تأكده منها نقاشاً دقيقاً ، وأما لورنس ، فقد كان على عكس نجنسكي مواظباً على المناقشة طول الوقت ، ولم يعرف أسس فطرته كما فعل نجنسكي . وهنا تتجلى نقطة هامة ، فقد كان باستطاعة لورنس اذا بذل جهداً كبيراً أن يفهم حالة نجنسكي العقلية ، وقد كان باستطاعته — اذا شئت — ان يصبح نجنسكي آخر بكل مميزاته الأساسية ، في حين لم يكن باستطاعة نجنسكي أن يصبح لورنس آخر ، لأن الجهد الذي سيبذله لتنمية القوى الجدلية فيه سيفصله عن بديهياته الفطرية قبل أن يكون قادراً على تأليف كتاب مثل « أعمدة الحكمة السبعة » بوقت طويل جداً . وبعبارة أخرى فان لورنس كان أشد الثلاثة ضياعاً ، وأشد الثلاثة دماراً بالشك الذاتي ، إلا أنه مع ذلك كان أقلهم ضياعاً أيضاً ! أما نجنسكي فقد كان أقلهم ضياعاً لأن بديهياته كانت بالنسبة اليه مقياساً أفضل

من عقلية لورنس ، الا أنه كان أكثرهم ضياعاً أيضاً بالنسبة الى امكانيته التطورية المحدودة . فلو تصورنا في خيالنا المزيج المثالي الذي سيحدث من تركيب الثلاثة في واحد بأخذ عقلية لورنس الجبارة ، وحب فان كوخ الصوفي للطبيعة، وإدراك نجنسكي لطاقاته الجسدية ، فانه من الأفضل لنا ان نبدأ بلورنس ونضيف اليه الاثنين الباقيين ، بدلاً من ان نبدأ بنجنسكي او فان كوخ ونحاول تطويرهما ليصلا الى مستوى لورنس . وهذا لا يعني ان لورنس كان فناناً أفضل منهما ، لأنني لست معنياً بهم كفنانين، وانما كلامنتمين . وبقدر ما يعني الأمر اللامنتمي فان كون عقليته قوية هو أهم بكثير من كون قابليته على « الشعور » نامية واسعة .

على أن أهم فرضية يتضمنها هذا الفصل هي الفرضية القائلة بأن رغبة اللامنتمي الرئيسية هي في ان يكف عن كونه لامنتمياً . وهو لا يستطيع أن يكف عن كونه لا منتمياً ليصبح بورجوازياً عادياً ، فان هذا انما يعيده الى الوراء بمراحل ، « الى الذئب أو الطفل » ، وقد علمنا من هاري هاللر ان هذا الطريق ليس عملياً ، وليس حلاً لمشاكل اللامنتمي . ان مشكلته اذن هي في : كيف يخطو الى الأمام ؟ وقد عاد لورنس ونجنسكي وفان كوخ الى الوراء ، واندحر الثلاثة ، ودلنا فحصنا لهم على جانب من أسباب اندحارهم ، أما في الفصل القادم ، فإن علينا ان نتتبع بعض الاشارات المقتطفة من هؤلاء الأشخاص ، لنرى الى أي حد نجح اللامنتمون الآخرون حيث فشل هؤلاء الثلاثة . ونستطيع ان نرى الآن أن علينا ان نختبر بعناية شديدة كل المحاولات التي بذلت من أجل إيجاد حل ، لأنها قد لا تكون حلولاً بالفعل ، وهنالك طريق الى الأمام وطريق الى الخلف ، ويمكن لأي الطريقين ان يحل مشكلة اللامنتمي ، ويستطيع اللامنتمي أن يتبع الطريقين في وقت واحد ، فيذهب قسم منه الى الأمام متبعاً نظاماً معيناً ليصل به الى نتائجه ، بينما يقبل القسم الآخر إذعاناً مثل انتحار لورنس العقلي . وفي كلتا الحالتين يستطيع هذا الانسان

أن يدعي أنه اكتشف حلاً لمشاكل اللامنتمي ، الا أننا ، حين نقوم بتفحص حله ، سنفعل ذلك بتطبيق الظواهر التي حققناها في هذا الفصل ـ النظم الثلاثة ـ لنعرف ما إذا كان حله سيناسب اللامنتمي الذي هو من نوع نجنسكي أو فان كوخ أو لورنس ، وإذا اكتشفنا في أثناء ذلك شيئاً من الحقيقة في ادعاء هيس بأنه « لم يحصل أي انسان على الادراك النفسي قط » فإن ذلك يعني أننا سنكون مجبولين على الاعتقاد مقدماً بأن مشاكل اللامنتمي لا يمكن أن تحل حلاً كاملاً أبداً .

على أننا متأكدون من أمر ، هو أن مشاكل اللامنتمي بدأت تحل نفسها بمصطلحات الـ « نعم » النهائية والـ « لا » النهائية . فاما اللامنتمي العقلي فعليه أن يجيب على الشكل الوجودي : الوجود أم العدم ؟ وأما اللامنتمي الانفعالي فعليه أن يجيب عن : الحب الخالد أم اللااكتراث الخالد ؟ وأما اللامنتمي من نوع نجنسكي ، رجل الحركة،اللامنتمي الجسدي، فان السؤال الخاص به هو : الموت أم الحياة ؟ اندحار الجسد النهائي أم الانتصار ؟ ما هي الحقيقة النهائية ، أنا الله،أم البشاعة اللانهائية من التفسخ الجسدي ؟

ان كلمات نجنسكي الأخيرة في مذكراته تعتبر إثباتاً :

« ان ابنتي الصغيرة تغني : آه ، آه ، آه ، آه ، آه ..

ولست أفهم معناها ، إلا انني أشعر بما تريد أن تقوله . انها تريد أن تقول : ان كل شيء ..... ليس رعباً ، بل غبطة . » **(٣٩)**

ان مشكلة اللامنتمي هي في مقارنة هذه العبارات مع كلمات فان كوخ الأخيرة : « لن ينتهي الشقاء » ، وانه لسؤال لا علاقة له بالفلسفة بعد الآن .. انه سؤال خاص بالدين !

الفصل الخامس

فاصل الألم

ان عنوان هذا الفصل مأخوذ من كتاب ولـيم جيمس « أنواع من التجارب الدينية » ، وهو يعرّفه بما يلي :

« المقصود بفاصل ادراك الانسان بصورة عامة في علم النفس الحديث المقدار المطلوب حدوثه من الصوت أو الضغط ، أو المؤثرات الأخرى لتتم اثارة الانتباه . وقد يحتاج الفرد الذي يكون لديه هذا الفاصل عالياً ، إلى مقدار كبير من الضجيج ليستيقظ،في حين يكفي أقل من ذلك المقدار فرداً آخر بفاصل واطىء ليستيقظ حالاً يقظة كاملة. وعلى هذا الأساس سنستعمل كلمة «فاصل» مع أشياء أخرى غير الادراك،فنقول «فاصل الألم» ، و«فاصل الخوف» ،و« فاصل الشقاء» ،وسنجد هذه الفواصل واطئة عند بعض الناس بحيث يمكن لادراكاتهم أن تجتازها بسرعة ، في حين نجدها عند الآخرين عالية جداً الى درجة ان ادراكاتهم نفسها لا تستطيع أن تقتحمها. ويعيش أصحاب العقول الصحيحة في الناحية المشرقة من فاصل الشقاء فيهم ، في حين يعيش المكتئبون والسوداويون وراءه،أي في الظلام والخوف . » (١)

ويستمر جيمس قائلاً :

« ألا يلوح ان من عاش دائماً في ناحية واحـــدة من ناحيتّي فاصل الألم قد يحتاج الى نوع من الدين يختلف عن ذلك الـــذي يحتاج اليه من عاش دائماً في الناحية الأخرى من الفاصل ؟ »

هذه هي المشكلة التي قادتنا اليها أبحاثنا في اللامنتمي ، وكلما أوغلنا في البحث ، تأكد لدينا أن اللامنتمي ليس مجنوناً ، وانما هو أكثر حساسية من صحيح العقل . فأما ستيفن وولف فانه لا يتردد في قبول ذلك ، إلا انه يصرح بأنه من نوع أعـــلى من الانسان ، فاذا كان المقصود بالدين « طريقة في الحياة » تحل توترات الانسان الروحية ، فان اللامنتمي يرفض ان يقر بأن صحيح العقل يملك ديناً ما . ويقول اللامنتمي انه اذا لم يكن الانسان يعيش على ايمان ما فان حياته لن تكون بالنسبة اليه أكثر ماديـة مما اذا كان يعتقد بأن قمة افرست أو قمة مروهي الأعلى . ويبدأ اللامنتمي بتوترات داخلية معينة ، وقد واجهنا خـلال بحثنا السؤال التالي : كيف يمكن أن تحل هذه التوترات ؟ واكتشفنا ان جواب صحيح العقل النهائي على هذا السؤال هو : « ارسله الى المحلل النفسي »،إلا ان هذا الجواب لا يمكن أن يلائم الحالة على الاطلاق . أما الخطوة الثانية فهي ان نقول: « حسناً ، دعنا اذن نعالجها كمشكلة رياضية . » وبعبارة أخرى : دعنا نسأل صحيح العقل : « اذا كان فاصل الألم لديك واطئاً الى هذا الحد، فكيف ستحل هذه التوترات ؟ » وسيساعدنا اللامنتمي الـذي سنبحثه في هذا الفصل في توضيح مفهوم موضوعي نهائي لهذا السؤال ، إلا اننا قبل ان نبحث في أمره،يجب أن نتوسع في هذه التوترات أكثر،أو في المشاكل الباعثة عليها،وبهذا ستتاح لنا فكرة أوسع عما يعنيه اللامنتمي بـ «لا»النهائية.

ومن الواضح اننا عائدون الآن الى التشاؤم ، فدعنا اذن نبدأ بالنوع الشكسبيري :

« نحن بالنسبة الى الآلهة كالذباب بالنسبة الى الصبية العابثين .
يقتلوننا للتسلية ... »

انها مشكلة الشك في أمر الحياة ، مشكلة : « كيف يستطيع الانسان ان يهدف الى شيء أو يؤمن به ، في حين انه ليس واثقاً من انه سيطلق زفير الهواء الذي يتنفسه الآن . » ان هذه الأبيات التي يضعها شكسبير على لسان كلوسستر معروفة للجميع ، في حين ان الأبيات التالية ، من كلام الدوق في « كتاب سخرية الموت » لبيدوس تعتبر أقل شهرة :

« ان ملامح هذا العالم كاذبة ، لأنها تمثل وجهاً يغطي
على القبور والأعماق الملتهبة ، ولا شيء حقيقي
إلا كل ما هو مرعب . ولو استطاع الانسان أن يرى
المخاطر والأمراض التي تحيط به
في المسافة التي يقطعها كل يوم ، محاولة الانقضاض عليه ،
أو متهاوية خلفه ، بعد أن تسلب منه شيئاً عند مروره بها ،
لو رآها ، لعلم ان الحياة تشبه حاجاً وحيداً أعزل
محارب ضد ألف جندي ... » (٢)

ويجب أن نذكر هنا ان نفي بيدوس هذا انتهى، كما هي الحال مع فان كوخ، بانتحاره . أما مسرحياته فانها فياضة بنوع من عبادة الموت،ومن المحتمل أن يرجع ذلك الى تأثير نوفاليس وتيك عليه ويذكرنا ذلك بأبيات كيتس:

« لم يلح لي من قبل كما يلوح الآن مليئاً بالعذوبة ، أن أموت
أن أكف عن الحياة ، عند منتصف الليل ، بدون أي ألم .. » (٣)

وقد يكون من الواجب علينا أيضاً أن نذكر في هذا الصدد كثيراً من كتاب القرن التاسع عشر وخاصة في السنوات الثلاثين الأخيرة من ذلك القرن ، كالشعراء الذين دعاهم ييتس « جيل المأساة »،مثل : ليونيل جونسن ، وداوسن ، وفيرلين، وكوربييه ، الذين يمثلون نهاية رومانسية القرن التاسع عشر ، ومن سبقهم مباشرة،مثل بودلير ، ومالارميه ، ولوتريمون ، والايطالي ليوباردي . وتستحق « مدينة الليلة المفزعة » لجيمس تومسن أكثر مما نستطيع أن نخصصه لها في هذا الكتاب ، لأنها تمثل تمهيداً ظهر في القرن التاسع عشر « للارض القفر »

التي طلع علينا بها ت . س . اليوت في هذا القرن ، بتأكيدها على طبيعة العالم الوهمية :

« لان الحياة ليست غير حلم ، تعود بعض صوره
في أغلب الأحيان ، وبعضها نادراً ما تعود ، في حين تعود بعضها ليلا
...... وندرك
في الوقت الذي يتغير فيه بعضها ، ويختفي البعض الآخر
بتكرر حدوثه مع التغيرات متكررة الحدوث ،
ندرك نوعاً من النظام الحقيقي ، وعند ذلك ..
نعتبر الأشياء حقيقية ، وكذلك الأمر مع الذاكرة » . (٤)

ويدعونا هذ إلى مقارنته بما يلي :

« مدينة لا حقيقية
تحت ضباب داكن ينثره فجر شتائي ... » (٥)

وترجع قصة دو ليل آدم « آكسيل » إلى هذه الفترة نفسها ، بل أن بطلها ليمثل اللامنتمي تماماً كما يمثله بطل قصة باربوس ، رجل ثقب الحائط . ونرى في هذه القصة أن الكونت الشاب آكسيل يعيش في قصره المنعزل على نهر الراين ، ويدرس القبالة اليهودية والفلسفة ، في غرفة مكتبه التي تزينها ألواح خشب البلوط ، ويثور على ابن عمه « القائد » المتعلق بسفاسف هذه الحياة ، فيخترق صدره بسيفه . ونرى آكسيل في المشهد الأخير محتضناً سارة ، الراهبة الهاربة ، في قبو القصر ، وهما يتعاهدان على الانتحار ليتجنبا تفاهة هذه الحياة ، وليجنبا حبها ما تتطلبه منها الحياة من تعبير عنه : « أما العيش في هذه الحياة فسيؤدي خدمنا ذلك لنا . »

ويتبعان حيرة ستراود وجوان إلى النهاية المنطقية ، إذ ينتحران . ولا يختلف ستراود وجوان عن آكسيل وسارة في شيء ، وانما هما أقل شعوراً بالعذاب الذي يسببه « عدم وجود نموذج أو هدف في الطبيعة » ، ولهذا فانهما ينتحران انتحاراً عقلياً مثل لورنس .

إلا أن معظم شعراء نهاية القرن التاسع عشر « كانوا نصف ميالين إلى الموت

المريح » ، أما النصف الثاني من ميولهم فقد تعلق بالحياة تعلقاً شديداً ، وشكا من تفاهتها . ولا يذهب أحدهم (حتى ولا تومسون) إلى أبعد مما ذهب اليــه ويلز في «العقل في منتهى حدود الاحتمال » ، وانمــا هم يتبعون تشاؤمهم أكثر ، محاولين جهد الامكان أن يكونوا مخلصين في ذلك ، فتكون النتيجة نهيلستية منكرة للحياة انكاراً تاماً ، بل انها خطرة على الحياة . فإذا جمعنا بين عبارة فان كوخ « لن ينتهي الشقاء » وعبارة ستراود « لا شيء يستحق بذل أي مجهود » فان النتيجة ستكون نوعاً من السفلس الروحي لا يمكن أن يرجى بسببه خلاص من الموت أو الجنون . وتعالج قصة كونراد «قلب الظلام» رجلاً قاد نفسه إلى هذه النتيجة ، إذ نراه يموت وهو يتمتم « الرعب... الرعب » ، في حين يعلق الرجل الذي يقص لنا القصة على ذلك قائلاً : « ... لم أكن أجادل مجنوناً قط ... لقد كان ذكاؤه واضحاً كل الوضوح، مركزاً .. على نفسه بشدة مفزعة ، غير أنها واضحة ... إلا أن روحه كانت مجنونة .. لقد تركزت نظرات روحه في أعماق ذاتها حين كان وحيداً في القفار و .. جنت ، وقال هو عن ذلك — الرعب . لقد كان رجلاً خلاباً حقاً .. » (٦)

كان الرعب الفكرة الغالبة على قصص الكاتب الروسي ليونيــد أندرييف أيضاً ، فقصته « لازاروس » تؤكد على جوهرية الرعب في الحياة تأكيداً لا نجده لدى أي كاتب آخر . ويمكننا أن نعتبر « ايثان براند » لهاوثورن قصة تدور على الموضوع نفسه،ولعلها انبعثت من تجربة هاوثورن نفسه للشك الديني . ان لا منتمي هاوثورن يلقي بنفسه في النار ليتخلص من رؤى تفاهته .

« ان هذا الموضوع لا يسر الباحث فيه ، ونظن أن المضي في تعداد المحاولات المبذولة لمعالجة هذه الفكرة لن يخــدم غرضنا هنا . وعليه فاننا نخلص في بحثنــا — لانكار الحياة — إلى اقتطاف المثال التالي نقلاً عن كتاب جيمس « أنواع من التجارب الدينية » . ونرى أن جيمس انما يكتب صادراً عن تجربة قام بهــا هو للانهيار العصبي ، رغم انه لا يذكر ذلك في كتابه : »

* هذه الفقرات مقتطفة من كتاب « هنري جيمس – مظهره الرئيسي » للبروفسور ف . و . ماثيزين ، الذي لا يذكر أي مصدر للمعلومات التي يحشدها فيه ، وإنما يشير إلى التجارب باعتبارها تجارب جيمس الخاصة ، فحسب .

– وبينما كنت في حالة من التشاؤم الفلسفي ، كئيباً مشغول الذهن بمآل آمالي، دخلت في احدى الامسيات الى غرفة الملابس ... ففوجئت، بدون أي انذار سابق، بخوف مفزع من وجودي، كأنما انبعث من الظلام، وفي الوقت نفسه، ملأت ذهني صورة مريض من مرضى الصرع كنت رأيته في مستشفى العزل، وكان شاباً اسود الشعر اخضر الجلد، غبياً تماماً، اعتاد أن يجلس طيلة النهار .... لا يحرك شيئاً من جسمه غير عينيه السوداوين، دون ان يلوح فيه انه يمت الى الانسانية بصلة . وامتزج خوفي بهذه الصورة فكونا شكلاً واحداً .. ترى هل كنت انا ذلك الشكل ؟ لقد احسست بذلك بقوة . لا شيء املكه يمكن ان يحميني من هذا المصير لو دنت ساعتي كما دنت ساعته . لقد تملكني رعب شديد منه، ولاح لي انني انما اختلف عنه الآن فقط، الامر الذي احسست معه وكأن شيئاً كان راسخاً في صدري، قد انهار الآن، تاركاً اياي مرتعداً من شدة الخوف . وتغير الكون بالنسبة لي بعد ذلك، وصرت استيقظ كل صباح شاعراً برعب مخيف يستقر فوق معدتي، وبعدم اطمئنان لم اعرفه من قبل » (٧)

ومن الطريف ان نذكر أيضاً أن السر هنري جيمس، والد وليم والكاتب القصصي هنري، كان قد شعر بمثل هذه التجربة أيضاً ، فهو يحدثنا في كتابه « المجتمع، الشكل الانساني المتحرر » بما يلي : (٨)

« وفي يوم من الأيام الأخيرة من مايس ، بقيت جالساً في مكاني ، بعد أن تناولت وجبة غداء شهية مع أفراد العائلة الذين تبعثروا مباشرة . وكنت أحملق في نار الموقـــد بكسل وتراخ ، وفجأة – وكالبرق الخاطف – غمرني الخوف وصارت الرعدة تهز عظامي هزاً . لقد كان رعباً جنونياً تعساً،لانه لم يكن صادراً عن سبب معين معقول ، وانما كان هنالك شيء لعين ... يا لخيالي المضطرب .. شيء غير منظور يتربع في الغرفة . ويبعث من ذاته المتعفنة بتأثيرات قاتلة للحياة .. ولم تمض عشر ثوان على هذا ، حتى شعرت بانني صرت شقياً ، ولم أعد ذلك الرجل القوي المغتبط الراسخ ، وإنما صرت طفلاً ضعيفاً.. وشعرت بالحاجة إلى

الصراخ ودعوة زوجتي لانقاذي .. إلا انني بذلت مجهوداً كبيراً في سبيل السيطرة على تلك الدوافع المستشاطة في ذاتي ، وقررت أن لا أقوم بأية حركة .. حتى استعدت احساسي بذاتي .. إلا انني صرت أحس ، كلما أردت أن أستمتع بساعة طيبة سعيدة ، بذلك كله يتلاشى أمام عاصفةمتنامية من الشك والقلق واليأس ...»

ان التشابه الموجود بين الأب والابن يلفت النظر ، إذ أن هذا الخوف المروع هاجم كلاً منهما بدون سابق انذار . وشعر كل منهما بانه صار بعيداً عن أية مساعدة قد تأتيه من البشر الآخرين . ويدعو السر هنري تجربته بـ « التشتت » — وتوحي هذه الكلمة بفجائية وعدم توقع الرؤيا — إلا أن القارىء سيدرك أن معظم اللامنتمين يحسون بهذا أيضاً بهذا الشكل أو بغيره . أما الفارق الذي يجب أن يلاحظ بين تجربة الأب وتجربة الابن فهو ان الأب يتكلم عن الشعور بالانهيار ، بينما استطاع الابن أن يعين ذلك الشعور في شيء معين ، في الغبي ذي الشعر الأسود . وهكذا عبر عن ذلك بصورة موضوعية . ويمكننا أن نلاحظ في وصف وليم جيمس واقعية وأصالة هذا « التشتت » كما أن عبارة « ذلك الشكل هو أنا حقا» ، صحيحة من الناحية الموضوعية .. ويحدثنا جيمس في مكان آخر عن « أنواع من التجارب الدينية » عن أسد يقفز من الغابة ويختطف انساناً « في غمضة عين » ، كما يحدثنا عن حالات أخرى مختلفة ، وهو يفعل ذلك ليؤكد على رأيه في أن الشر والألم الجسدي والموت أشياء لا يمكن أن يتخلص منها الافلاطونيون الجدد، وفي هذا يقول : « كل شيء هو للافضل ، في هذا العالم الذي يعتبر أفضل العوالم المحتمل وجودها » ، إلا أنه لا يقل عن أي متشائم مغرق في تشاؤمه في امكانية تعرضه للدهس مثلاً .أن هذه اللا أهمية لاعتقاد الانسان بالقدر الذي يمكن أن يصيبه تعتبر الأساس الأول للوجودية ،وهي تعني أيضاً أن الاعتقاد بنوع من العناية الالهية أو المصير يجب أن يكون الأساس الاول أيضاً لكل دين وفلسفة. ولو كان وليم جيمس قد عاش ليشهد الحربين الأولى والثانية ، لاحتاج إلى أمثلة أخرى أشد ليوضح لنا أن الحياة « تشبه حاجاً وحيداً أعزل ... الخ » ، ولا شيء في فصل « الروح المريضة» من كتابه «أنواع من التجارب الدينية » يمكن أن يضارع في الرعب الذي يثيره وصف جون هيرسي لتأثير القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما ، أو

وصف فتاة أرمينية شابة للحرب العظمى الأولى : « ... ان الرعب القاتل الذى يحس به السوداوي هو رد الفعل الوحيد المناسب لمثل هذا الموقف .. »

أما الحقيقة التي تستحق الانتباه ، والتي يمكن ان تتضح من كل هذا فهي ان الشعور بهذه التجارب المكدرة غالباً ما يقود الي نوع من الحل الديني للسؤال الذي تثيره تلك التجارب . وتخبرنا احدى أساطير البوذيين كيف ان كوتاماساكياموني الشاب رأى العلامات الثلاث — العجوز والمريض والميت — وكيف ان رد الفعل الذي أحدثه هذا في نفسه لم يكن ليختلف في شيء عن ذلك الذي شعر به جيمس : « ذلك الشكل هو أنا حقاً » ؛ وذلك البحث العنيف الذي قام به من أجل طريق إلى الخارج والذى قاده إلى نفي كل شيء . ان مفهوم الدين الجوهري هو الحرية ، كما ان هذه اللحظات المرعبة التي يصفها جيمس هي الشعور بأنه « لست أملك أية حرية » . ان كلمة « عبودية » في المخطوطات الهندوسية تعني ما تعنيه كلمة « خطيئة » في الدين المسيحي ، أو أن العبودية تعتبر على الاقل نتيجة مطلقة لا يمكن تجنبها للخطيئة . وان أساس الدين الضروري هو الاعتقاد بان الحرية يمكن أن تنال ، أما رؤيا جيمس ، بكل ما فيها من عبودية مطلقة نهائية لا يمكن نقضها فانها يمكن ان تدعى جوهر الشر .

لا تعترضنا أية صعوبة في اكتشاف ان اللامنتمي والحرية هما اصطلاحان مترابطان دائماً . . ان مشكلة اللامنتمي هي مشكلة الحرية ، كما ان تفكيره منذ البداية في الـ « لا » النهائية والـ « نعم » النهائية هو في الحقيقة تفكير في العبودية المطلقةوالحريةالمطلقة . وإذا القينا نظرة على لا منتميالفصول السابقة مثل روكانتان وستيفن وولف وفان كوخ لوجدنا ان الانسان يصبح لا منتمياً حين يبدأ بالتذمر تحت وطأة شعوره بأنه ليس حراً . أما في حالة بطل كامو « ميرسول » ، فانه الانسان العادي المولود مرة واحدة ، والذي ليس حراً ، ولكنه لا يدرك ذلك . ولا يعني ذلك ان جهله بهذا لا يهم ، بل انه يهم ويسبب اختلافاً كامناً في ان حياة ميرسول هي غير حقيقية ، وانه مدرك ذلك دائماً ادراكاً غامضاً ، باطنياً ، الا انه حين لمح قبساً من الحقيقة بمواجهة الموت علم بوضوح ان حياته الماضية لم تكن

حقيقية .

ان المدلولات التي يشير اليها هذا التسلسل التفكيري كثيرة الى درجة إننا يجب ان نتوقف قليلاً لتوضيحها قبل ان نستمر في بحثنا للنزعة التشاؤمية في الأدب ، لقد قررنا في نهاية الفصل السابق ان اللامنتمي يهدف دائماً إلى الكف عن كونه لا منتمياً ، وعددنا ثلاثة أنواع متميزة من الانظمة التي تؤدي الى تلك النتيجة . أما السؤال الذي ينهض من ذلك فهو : « الى أية نتيجة ؟ » فاذا لم يكن يريد أن يستمر على كونه لا منتمياً ، واذا لم يكن يريد ان يصبح كائناً اجتماعياً عادياً منسجماً ، فماذا يريد ان يكون اذن بحق الشيطان ؟

لقد عقدنا السؤال قليلاً بتحليلنا للحرية . يريد اللامنتمي ان يكون حراً ، فما الذي يميز عبودية هذا الانسان المولود مرة واحدة ؟ يقول اللامنتمي ان ما يميز تلك العبودية هو اللا حقيقية، وعليه فاننا نستطيع ان نقول أخيراً ، بصرف النظر عما يريد اللامنتمي ان يكون ، ان شرط هذه الكينونة هو مفهوم الحقيقيـــة . الحقيقية ؟ ترى ماذا يستطيع اللامنتمي ان يخبرنا عن الحقيقية ؟ ذلك أمر صعب حقاً . الا اننا نملك نوعين من الاجوبة ، دعنا الآن نفرض هذا السؤال على لامنتمين مختلفين لنقارن أجوبتهم بعد ذلك . ان سؤالنا هو : ما هي الحقيقية ؟

باربوس : معرفة أعماق الطبيعة الانسانية .

ويلز : شاشة السينما ، لا شيئية الانسان التامة .

روكانتان : الوجود العاري المجرد الذي يشل العقل البشري وينفيه .

ميرسول : العظمة ، لا اكتراث الكون العظيم ، وبصرف النظر عما يفعله هؤلاء الحمقى انصاف الحقيقيين من البشر ، فان الحقيقية رصينة غير متبدلة .

ان جواب ميرسول هو اكمل الاجوبة ، ولهذا دعنا نسأل ميرسول : وماذا عن الروح الانسانية ؟

ميرسول : ان أساسها وأساس الكون واحد . يتهرب الانسان من تفاهتـــه بالتزامه لا اكتراثاً جوهرياً للحياة اليومية .

ويستطيع همنغواي ايضاً ان يعطينا هذا الجواب نفسه لو سألناه ، ما هي

الحقيقة ؟

كريبز : هي اللحظة التي تفعل فيها « شيئاً واحداً ، الشيء الوحيد » ، والتي تعلم فيها انك لست بيدقاً تافهاً سطحياً في رقعة الشطرنج الاجتماعية .

ستراود : لا يمكن وصفها ، لا يمكن ان تعاش ، ومن يراها يزيد تعلقه بالحياة اليومية . ولنسأل الآن اللامنتمين العمليين :

ت ي . لورنس : لا يمكن معرفتها . لم تسبب لي رؤاي لها الا المتاعب ، لانها دحرتني بتفاهة الحياة اليومية دون ان تقول لي اين استطيع ان أجد طريقة أخرى للعيش ، فاصبحت حياتي بعد ذلك نكتة لا معنى لها .

فان كوخ : شقاء برومثيوس * ، لقد كان برومثيوس اول لا منتم .

نجنسكي : الله في طرف ، والشقاء في الطرف الآخر ، أما الكون فهو توتر أبدي متصل بين الله والشقاء .

يتضح اذن انه لدينا نوعان من الاجوبة ، نهايتان من الـ « نعم » والـ « لا » ، تمثل الاولى وجود روكانتان الذي ينفي الانسان ؛ وتمثل الثانية وجود نجنسكي الذي يؤكد على الانسان .

ولنعد الى جواب روكانتان أيضاً لنجد انه رد فعل « للكلاب القذرة » . والكلب القذر هو ذلك الذي يظن ان وجوده ضروري . فماذا عن فان كوخ ونجنسكي ولورنس ؟ أما في حالة فان كوخ « فلا » ، لأنه ارتكب الانتحار العقلي ، الا انه « نعم » ما دام قد اقتنع بفكرة البعثة الأثرية . أما في حالة نجنسكي فان الجواب موجود في المذكرات : « انا الله » ، ولهذا فالجواب هو « نعم » . وعليه فقد كان هؤلاء الرجال الثلاثة كلاباً قذرة في أسمى لحظاتهم . كلا ، هذا استنتاج

---

* برومثيوس : اسم يعني الفكر التقدمي ، تقول الاسطورة انه تقدم بشجاعة ليحمي ويمثل الجنس البشري فعاقبته الآلهة بحرمان البشر من الشمس إلا أنه ذهب وأعادها اليهم.. وتطول القصة والمهم هنا هو أن برومثيوس ثار ضد طغيان جوبيتر والآلهة . (المترجم)

قاس . علينا ان نفكر بنجنسكي ولورنس وفان كوخ بقدر ما يتعلق الامر بمحسني المدينة الموجودين في معرض الصور في الهافر ، لنعلم من ذلك ان هذه الفكرة تعتبر هراء . هنالك خطأ ما ، وليس علينا ان نذهب بعيداً لاكتشافه. اننا نعلم انه يوجد نوعان من الطرق لحل مشاكل اللامنتمي ، طريق الى الامام وطريق الى الخلف ، فاذا اعتقدت ان وجودك ضروري ، لو كنت واحداً من هؤلاء الناس الموجودين في المعرض ، فذلك تجديف منك ، أما اذا اعتقدت بانه ضروري ، بعد مجهود روحي جبار كمجهود لورنس أو فان كوخ ، فان ذلك أمر بديهي . وهنا يعترض الوجودي قائلاً : هذه سفسطة . ان فان كوخ أعظم من متصرف مدينة الهافر السابق في الدرجة فحسب ، لا في النوع ، ولنطلق القول فنقول ان وجوده ليس أكثر ضرورية .

انه سؤال صعب ، فيا ترى هل خلق فان كوخ تلك اللوحات الرائعة حين كان يعتقد بأن وجوده ضروري ، ثم اطلق النار على نفسه حين لم يعد يعتقد بذلك ؟

ان نجنسكي هو الذي يقدم الينا الجواب ، فهل كان باستطاعة نجنسكي أن يقع تحت تأثير غثيان روكنتان ؟ كلا ؛ ان هذا بعيداً عنه كل البعد ، لانه عاش قريباً جداً من فطراته بحيث أنه لن يتيه في مثل هذه الحيرة الفكرية . ولم يظن بأن وجوده كان ضرورياً ، كما يظن ذلك أحد المحسنين مثلاً ، الذي يفعل ذلك صادراً فيه عن غبطة عميقة مدركة ، وانما شعر نجنسكي بهذه الضرورة ولم يشعر بها في بعض الأحيان كشعور القديس الداخلي بها ، وينطبق هذا على فان كوخ أيضا . اما لورنس ، الذي لا يختلف بحثه في التاريخ عن دراسة روكانتان التاريخية أيضاً ، فانه فكر بنفسه عن طريق عدم ايمانه بالقوة الروحية التي دفعته ، بينما لم يكن نجنسكي على مثل هذا الحمق ليفعل هذا .

وهنا ينبعث أمر غريب آخر . لقد عارضنا بين اعتقاد نجنسكي بنفسه ، ذلك الاعتقاد الفطري وبين فخفخة أعضاء مجلس المدينة مثلاً ، الواثقين من أنفسهم ، وان ذلك ليذكرنا بشيء آخر مشابه نجده لدى الكتاب المسيحيين ، كبنيان ، على

سبيل المثال ، الذي كتب عن حياة عضو مجلس المدينة ، المواطن الصالح .. الخ ، واصفاً اياه باسم « المستر بادمان » الذي يعني « الشرير » . ويصطدم مسيحي بنيان فجأة ، مثل روكانتان ، بادراك أن وجوده غير ضروري ، « فماذا أفعل لاخلص ؟ » وقد قال سارتر عن كامو انه ليس وجودياً بالفعل وانما هو أحد حفدة اولئك الاخلاقيين الذين رآهم القرن الثامن عشر ، غير أن ما استنتجناه الآن يجعل سارتر نفسه أحد حفدة اولئك الاخلاقيين ايضاً ، ولعل سارتر يتفق معنا في ان شيئاً من هذا الغثيان لا بد موجود في أعماق مسيحي بنيان : « ماذا استطيع أن افعل لاخلص؟» ولعله سيقول ان الامانة العقلية تمنعه وتمنع روكانتان من قبول دم المخلص (المسيح) كوسيلة لتقييم تفاهته .

ذلك كله يواجهنا بأسئلة اخرى : لو كان محتملاً ان بنيان وسارتر يستندان على اساس عام ، فلماذا تختلف الطرق التي يتبعانها للوصول الى حل ؟ هل يمكننا ان نظن ان بعض القديسين المسيحيين كانوا معنيين بالمشاكل الميتافيزيكية نفسها التي اظهرها لنا سارتر تماماً كما يظهر الحاوي ارنباً ، باعتبارها آخر التطورات الفكرية في القرن العشرين ؟ هذا ما سنتركه الآن ، لكي نستمر في بحثنا ، وسنعود اليه بعد ذلك .

كنا ، قبل ان ننتقل الى بحث مفاهيم اللامنتمي المختلفة عن الحقيقة ، نبحث أمر ميرسول ، بطل كامو الذي لم يكن حراً ، ولكنه لم يكن يعلم بذلك . يريد اللامنتمي الحرية ، وهو لا يعتبر الانسان العادي المولود مرة واحدة حراً ، ويبقى اللامنتمي متميزاً بالندرة بين البشر ، مما يضعه في مركز الجندي الذي يدعي بأنه الذي يضبط توافق خطاه مع بقية الصف . ماذا عن الرجال والنساء الذين تحفل بهم مدننا الحديثة ؟ هل هم كما يقول اللامنتمي تافهون غير حقيقيين ، ضائعون دون ان يعلموا بذلك ؟ لقد سأل جيمس نفسه هذا السؤال : مولود مرة واحدة أم مرتين ؟ صحيح العقل أم لامنتم ؟

« ماذا سنقول عن هذه المعضلة باعتبارنا متفرجين غير متحاملين ؟ انه ليلوح في اننا مضطرون الى القول بأن اعتلال العقل يشمل التجربة بمعناها الواسع ، وان مقياسه هو الانسان الذي يتعدى حدوده . ان الطريقة التي يتبعها الانسان لصرف

انتباهه عن الشر والعيش في ضوء كل ما هو خير طريقة رائعة اذا كانت مجدية حقاً .. الا انها تفشل حالما تعترضها السوداوية ، وحتى اذا لم يكن الانسان سوداوياً ، فلا شك في ان صحة العقل لا يمكن ان تكون كافية كعقيدة فلسفية ... » (٩)

ليست كافية حقاً ، الا ان جيمس لا يعني انها مغلوطة . اما اللامنتمي فانه أشد هجوماً عليها ، وهو يقول عنها بلا تردد : ضحالة وغباوة وقصر نظر ، ولقد رأينا كيف ان اقوال اللامنتمين الذين واجهناهم في الصفحات السابقة كانت اكثر وضوحاً من جميع التصورات التي رآها معتلو العقول الذين اختارهم جيمس ، كما ان هؤلاء اللامنتمين بلغوا وضعيتهم الحالية ببراعة جدلية ملحوظة . الا ان هذه الوضعية غير كاملة ، وهذا ما يقرره اللامنتمي نفسه . لقد بين اللامنتمون اسباباً كافية لتبرير كرههم للبورجوازي المولود مرة واحدة ،ولاثبات ان هذا المخلوق لا يمكن ان يكون اسمى من اللامنتمي بأي حال من الاحوال . الا ان لهذا البورجوازي كل الحق في ان يسأل بسخرية : ماذا حقق هذا اللامنتمي من نجاح في الحياة ؟ انهم يقدمون الينا فوضى من الفاسدين المنحطين مرضى العقول (مع احترامنا لفان كوخ) محاولين اثبات انهم انواع من « الانسان السامي » . ترى الا يشبه هذا محاولتهم حملنا على سكب الماء العكر قبل ان نحصل على اي ماء نقي ؟

هذا ما لا يمكن ان يناقش الآن ، اذ يجب على اللامنتمي ان يجعل وضعيته أكثر ايجابية ، قبل ان نبحث في ادعائه بأنه افضل من رجل الشارع . اما في الوقت الحاضر فان وضعيته يمكن ان تكون اي شيء الا كونها ايجابية ، وماذا لدينا يا ترى ؟ تأكيدات ابداها بعض الافراد على ان الشر امر كوني ، يجب ان يواجه . حسناً ، اننا لن نكترث لذلك ، لان اميل سنكلير بطل هيس جعل هذا الامر واضحاً . اما الآن فلدينا عدد من الكتاب الذين يخبروننا بأن الشر هو من الكونية ومن الاهمية في سبيل الوصول الى شكل اسمى من اشكال الخير ، بحيث ان مواجهته بامانة لا تسوق الا الي الجنون . فماذا سنقول في هذا ؟ ماذا لو

كان انقضاض صاعقة الانقطاع والتوقف يحمل في طياته وجوب الاختيار بين الامانة او الجنون ؟ وماذا ستفيد الامانة والصراحة عقلاً مجنوناً ؟ من منا لن يختار الخيانة والغش في مثل هذا الموقف ؟

فاذا اخترنا الغش ، ترى ماذا سيكون من امر رغبة فلاسفتنا في الوصول الى الحقيقة ؟

هذا سؤال صعب ، ولا نجد افضل من تركه بين يدي لامنتم قاده عقله المجرب الى مواجهة تلك المشكلة : ذلك هو الفيلسوف الوجودي الوثني فردريك نيتشه .

الا اننا قبل ان نبحث امر نيتشه ، يجب ان نبحث في تعبيرين حديثين عن التشاؤم في الأدب : لانهما قد يوسعان من فهمنا للموضوع . وكنا قد اشرنا الى هذين في الصفحات السابقة . انهما فرانز كافكا وت. س. اليوت . اما قصة كافكا « الصائم المحترف » فانها تعتبر ذروة اعماله (١٠) ، وأبلغ تعاريفه لوضعية اللامنتمي : وهي تعالج امر الزاهد المحترف ، ذلك الذي يجيع نفسه في المعارض والمهراجانات من اجل المال . وبينما يكون في وسط الناس ، بين كل هذه المظاهر ، نراه يرغب في الاستمرار على الصيام ، الا ان الناس يضطرونه الى الافطار ، رغم انه لم يصل بعد الى غاية ما يستطيع الوصول اليه من احتمال ، وتنتهي الضجة ، ويبقى الناسك في قفصه الخشن ، بين القش ، مهملاً منسيا ، فيستمر في صيامه . وينسى امره الآخرون الى درجة ان احدهم يلاحظ قفصه بعد وقت طويل ، ويسأل لماذا يتركون هذا القفص المقيد خالياً ؟ الا انهم يأتون اليه فيجدون الناسك في آخر رمق ؛ يموت من الجوع ، جلداً على عظم . وبينما يتجرع الناسك غصص الموت يهمس في اذن احدهم قائلاً له : انه لم يصم عن الطعام لانه يملك ارادة هائلة قوية ، وانما ، وبكل بساطة ، لأنه لا يوجد طعام يحبه .

لدينا هنا ايضاً رمز كامل آخر يشير الى اللامنتمي . ان مشكلته هي انه لا يشتهي الحياة . وما دامت كل الفعاليات الانسانية الاخرى تتصل بتلك التفاهة

نفسها ، فلماذا لا يجلس على القش ويموت ؟

وأدى التطور الملموس في اعمال ت. س. اليوت به الى قيامه بايضاح هذه النقطة ذاتها ، وكانت اقوى ابياته التي رمز فيها الى التفاهة هي تلك التي تضمنها كتابه الاول « بروفروك » الذي ظهر عام ١٩١٧ :

« انني اعد ايام حياتي بملاعق القهوة » .

و « جيرونشن » ، عام ١٩٢٠ :

المكوك الخالي

ينسج الريح ، لا مبدأ لدي في الحياة

انا عجوز في بيت شقي

تحت حلقة عاصفة .. »

و « الارض القفر » ، عام ١٩٢٢ :

« أرى حشوداً من الناس تدور حول حلقه » و :

« على رمال ملوكيت ، استطيع ان اربط

اللاشيء باللاشيء

الاظافر المحطمة للايدي القذرة . »

حتى يقول في « الفارغين » ، اشياء تشبه بما فيها من انكار نهائي ما في تشتت وليم جيمس من يأس تام: انكار نهائي للحرية، انكار حتى لاحتمال وجود الحرية:

« هكذا ينتهي العالم

هكذا ينتهي العالم

هكذا ينتهي العالم

لا برجة عنيفة ، وانما بنواح خافت .. »

ويجدر بنا ان نلاحظ التطور الذي حدث في اسلوب ت. س. اليوت واوصله الى هذه المرحلة ، وسيساعدنا في ذلك كونه لم يترك مرحلة واحدة من المراحل التي مر بها اتجاهه الديني بدون تسجيل في قصائده ، ولهذا فاننا سنتبع هذه المراحل مرحلة مرحلة مبتدئين « باربعاء الرماد » ، عام ١٩٣٣ التي تبدأ بتكرار لوضعية

« الفارغين » ذاتها :

« لانني لا آمل في العودة ثانية
لانني لا آمل
لانني لا آمل في العودة .. »

ثم يتبع ذلك تقرير للحالة التي وصلنا اليها في بحثنا ، اليأس الذي يصيب متوسطي العمر وفقدان الايمان ، وعدم القدرة على الكف عن التفكير :

« انني اصلي ، لعلي انسى
تلك الاشياء التي ابحثها بيني وبين نفسي بإلحاح
التي اوضحها بأكثر مما يجب .. »

لقد بلغ التفكير اللاهادف ، اللانهائي ، بالشاعر الى ان يقول :

« علمنا ان نكترث ولا نكترث
علمنا ان نجلس ساكنين .. »

الا ان الاساس الميتافيزيكي الذي يستند عليه ت. س. اليوت في انسحابه من الزقاق المسدود موجود في القصيدة الرابعة :

« هل تصلي الاخت التي ترتدي القناع
للاطفال الذين يقفون بالباب
لا يستطيعون ان يذهبوا ولا ان يصلوا
هل تصلي الاخت المقنعة التي تسير بين
اشجار السرو الغضة الرقيقة لاولئك الذين يضايقونها
اولئك الخائفين الذين لا يستطيعون التسليم .. »

ذلك هو تطرف اللامنتمي . انه يفضل ان لا يؤمن ، ولا يريد ان يشعر بتلك التفاهة تتحكم في الكون . ان طبيعته الانسانية تريد ان تجد شيئاً تتفق معه كل الموافقة ، الا ان امانته تمنعه من قبول حل لا يبحثه عقلياً . اما سؤاله التالي فهو بالطبع : على فرض انه يوجد حل ما في مكان ما ، لا يمكنني ان احلم به ، لا يمكنني ان افهمه ، فهل استطيع ان آمل في ان يفرض نفسه عليّ يوماً بدون ان

اسلم نفسي مقدماً الى ايمان اولي « وذلك ما لا استطيع ان اقدم عليه » ؟

يجد الشاعر انه يستطيع ان يجيب على هذا السؤال بـ « نعم » ، ومن الممكن فهم حالته هذه ، فانه يبدأ بالعقل ، الذي يلوح انه يزوده بالاكتفاء الذاتي (كما في حالة كتاب العصر الفيكتوري) ، ويخضع كل شيء لاختبار العقل . ويقول له عقله نهائياً : « لست مكتفياً بذلك ، انت تافه ، عائم في الخواء » ، فماذا سيقول ؟ ماذا سيفعل ؟ أينتحر « ما دمت تافهاً فان عقلي تافه ايضاً ، وفي هذه الحالة ، فان استنتاجاته ما هي الا اكاذيب على أي حال » . هذا كثير ، ويجب عليه ان يستسلم الى الفكرة : فقد يكون هنالك شيء ليس تافهاً ، الا انه بعيد عني تماماً ، غير مفهوم بالنسبة لي . وماذا لو لم يكن هنالك شيء « وراء .. » كلا ، انه لا يستطيع ان يقول « أؤمن » ولهذا فانه يتساءل :

« هل ستصلي الاخت المقنعة التي تسير بين
اشجار السرو الغضة الرقيقة لاولئك الذين يضايقونها
اولئك الخائفين الذين لا يستطيعون التسليم ؟ »

ان اليوت يرتفع بهذه الابيات عن اسلوبه ، ويخرج من حالة اللامنتمي . ولم يتطلب الامر منه مرحلة طويلة ليدرك ان هذه التجربة وهذا الرعب على حافة اللاشيء لم يكن غريباً على القديسين والمسيحيين وغيرهم ، وانه على ذلك فلا ضرورة تدعو الى اعتبار الدين مرادفاً للايمان بقصة من القصص الخرافية . على ان الطريق ما يزال بعيداً بين هذه الحالة وحالة الالتحاق بالكنيسة بالفعل ، لاننا يجب ان نقر ان بعض مذاهب الكنيسة قد تلوح معقولة منطقية لانسان ما ، الا ان ذلك لا يعني ان هذا الانسان سيتفق اتفاقاً تاماً مع محاولات الكنيسة الكثيرة من اجل جعل الدين وسطاً يمكن ان يعيش فيه ملايين المنتمين براحة واطمئنان ، بالاضافة الى اولئك اللامنتمين العرضيين .

كنت ، في اثناء بحثي للتطورات التي عاناها اسلوب اليوت ، قد ذكرت نقطة لا علاقة لها ببحثنا هذا ، خاصة حين تطرقت الى بعض ابيات « اربعاء الرماد » ، الا انني فعلت ذلك لانني لم أرد أن أغفل ناحية من نواحي هذا التطور

ويستطيع القراء الذين ما يزالون على شك من النواحي التي ذكرتها في الصفحة السابقة ان يهملوا الالتفات اليها ، لاننا سنستمر في البحث عائدين الى موضوعنا الاصلي ، على ان نرجع الى هذه النقطة لنبحثها من زاوية مختلفة لا علاقة لها ببحثنا الحالي . اما الآن فنحن معنيون بالسؤال : « نعم » النهائية أم « لا » النهائية ؟ ويجب ان نقر هنا بأن بحثنا السابق قادنا الى تقرير « لا » النهائية . وهنا قد يعترض فازلاف نجنسكي قائلاً ان ذلك كان بسبب اعتبارنا العقل قادراً على بلوغ الحل الصحيح بنفسه ، ان هذا الاعتراض يخص الفلاسفة ، ولكن ، هل ان عدم اعتقاد الفيلسوف بهذا ، يجرده من صفة « الفيلسوف » ؟ وهل يستطيع مثل هذا الشخص ان يساعدنا في مشكلة اللامنتمي ؟ هذا ما يجب ان نحتفظ به في اذهاننا اذ نقوم الآن ببحث اعمال فردريك نيتشه .

ولد نيتشه في رويكن في مقاطعة ساكسوني عام ١٨٤٤ وكان والده قساً بروتستانتياً ، مثل والد فان كوخ . وترينا الوثائق التي طبعت في الايام الاخيرة ان نيتشه كان في طفولته متديناً جداً ، وانه فكر في اثناء فترة مراهقة في ان يدخل الدير (١١) . وسنحاول الآن ان نبين ان كل ما قام به في حياته — لتجريد كل القيم من قيمها — انما كان بسبب الدوافع الدينية التي دفعته الى ذلك . كما ان هجومه الاخير على المسيحية انبعث من شعوره بان المسيحية ليست متدينة بما يكفي ، الا انه لم يكن مثل كيركغارد الذي فعل الشيء ذاته ، ذلك لانه لم يدافع عن فكرة المسيحية . لقد ذهب نيتشه في كرهه لها الى حد انه فضح اخطاءها وقال ان هذه الاخطاء جوهرية فيها ، ولذلك فانها ، اي المسيحية ، تستحق النبذ شكلاً ومضموناً . غير ان نيتشه بشر بآرائه هذه بحماس النبي ، ولا يمكن ان يكون النبي انساناً غير متدين . لقد صرح نيتشه ان المسيحيين عموماً غشاشون من الناحية العقلية ، منحطون من الناحية الخلقية ، وان ذلك راجع الى ما يعتقده الفرد المسيحي . ويقدم نيتشه نظاماً آخر في الايمان ، وعلينا ان نختبر هذا النظام عندما يحين الوقت . الا ان الشيء المهم الآن هو انه بدأ مسيحياً شديد الحماسة ، ذلك لانه كتب حين كان في الحادية والعشرين من عمره ، منكراً

وجود الله انكاراً شديداً ، كتب الى صديقه فون كيرزدورف يقول :

« اذا كانت المسيحية تعني الاعتقاد بشخص أو حادثة تاريخيين ، فانها لا تفيدني بشيء ، أما اذا كانت تعني بالحاجة الى الخلاص ، فانني استطيع ان اثق بها .. »

هذا هو السبب الذي يجعلنا واثقين من ان نيتشه كان متديناً ، لقد كان ، قبل اي شيء آخر ، مدركاً للحاجة لما دعاه « بالخلاص » . وقد لا نتفق معه ، بل قد نقول عنه ما قاله احد رجال الدين الجزويت عنه من ان هرطقته سامة وكريهة ، الا اننا لا نستطيع ان نشك في اخلاصه الذي يتجلى في حاجته الى « الخلاص » .

كان نيتشه رومانسياً ، من جماعة شيللر ونوفاليس وهوفمان . وكان في خلال صباه ومراهقته قد قرأ الكثير وتمشى وحده ونظم الشعر ، وفكر في نفسه وفي مصيره المحتمل ، وقد كتب في الثلاثين من عمره تاريخاً لحياته حافلاً بالنقد والدراسة الذاتيين . ولم يمر عام على ذلك حتى اعلن انه سيكرس حياته لخدمة الله. وكان رفاقه يطلقون عليه اسم « القس الصغير » ، الا ان مفهومه للدين كان مطاطياً دائماً ، ويروى عنه انه بنى هو وشقيقته في احد الايام مذبحاً على بقعة كان قد بني عليها في زمن ما مذبح وثني للتضحيات ، ثم طفق يدور هو وشقيقته حول المذبح مرددين : « اصغ الينا يا اودين » وسط الدخان المتصاعد .

وفي الرابعة عشرة من عمره ارسل نيتشه الى مدرسة فورتا الشهيرة التي تخرج منها نوفاليس وفيخته « جماعة شليغل » ، وهناك مثل دور البطل الرومانسي . لقد قيل بعد ذلك ان « كل الرجال العظام انما يمثلون مثلهم العليا » * ، أما نيتشه فقد كان مثله الأعلى مزيجاً من « مانفرد » بايرن « ولصوص » شيللر و « هايرنيخ » نوفاليس . وتعلم من نوفاليس ان كل انسان قوي وبطل الا ان القصور الذاتي « الاستمرارية الذاتية » هو الذي يجعله متوسطاً معتدلاً ، وقد أثر ذلك في نفسه

---

* في « وراء الخير والشر » ، الجزء الرابع ، ص ٩٧ .

أشد التأثير ، وما ان قرأ مقالات امرسون حتى أحس بالغبطة والجذل يعمران قلبه لأنه وجد بديهياته وبديهيات نوفاليس مؤكداً عليها في تلك المقالات بالألفاظ : «الاعتماد على النفس» ،و « روح الله الشاملة للكون » ،وتعلم من أن أمرسون أيضاً شيئاً من الضبط الذاتي وعدم الاكتراث للذة والألم اللذين لم يفارقاه حتى النهاية ، وقد حدث مرة أن بعض رفاقه كانوا يتناقشون بشأن مرسيوس سكايفولا * ، وإذا بنيتشه يضع على راحة يده كومة من عيدان الثقاب المشتعلة ليثبت للمتناقشين ان ذلك شيء يمكن أن يفعله الانسان . وبينما كانت تعاليم لوثر تحشى في ذهنه ، كانت تأثيرات جديدة أخرى تأخذ طريقها إلى أعماقه .. واشترى نيتشه نسخة من موسيقى فاغنر « لتريستان وايسولت » وحفظها عن ظهر قلب ، وشارك في تأسيس جمعية من المفكرين دعيت « جرمانيا » وكتب مقالات عديدة لمجلة هذه الجمعية ، ومن بينها مقالة « القدر والتاريخ » التي قال فيها : « ستحدث اضطرابات واسعة في المستقبل ، حالما يدرك الناس ان المسيحية لا تستند الا على الفرضيات .. لقد حاولت ان أنكر كل شيء ... »

وفي هذه الفترة تحولت النزعة الدينية الموجودة في أعماقه « كما يقول هو » إلى : « رغبة في الحقيقة مهما كلف الأمر ، وجنون كذلك الذي يبديه الشباب في حبهم للحق والصدق » . ونستطيع ان نفهم من أقواله هذه انه وجد نفسه قريباً جداً من حالة وليم جيمس التي تتصف بالرعب الخلقي ، والنفي التام ، والشعور بما يشبه شعور من ينظر إلى أعماق هوة سحيقة . وهنا نحتاج إلى اقتطاف بعض العبارات التي نقلها جيمس عن الفيلسوف الفرنسي جوفري لتدلنا دلالة كبيرة على ما كان يجري في ذهن نيتشه في تلك المرحلة ، ونجد أن جوفري يوضح هنا الطريقة التي يستطيع العقل الباحث بواسطتها ان يستأصل كل الذكريات

---

* في الأساطير الرومانية ، رجل حكم عليه بالحرق إلا أنه أشعل إحدى يديه ليظهر عدم اكتراثه للحكم ، فعفي عنه من أجل شجاعته ، وقد دعي بهذا الاسم الذي يعني « الأيسر » نسبة لفقدانه يده اليمنى في تلك الحادثة . (المترجم)

والانفعالات التي تلوح عديمة الاساس حتى يصبح فراغاً هائلاً يفزع الروح الانسانية . يقول جوفروي : (١٢)

« لن انسى ما حييت تلك الليلة من ليالي ايلول التي تمزق فيها القناع الذي كان يفصل بيني وبين عدم ثقتي . انني ما زلت اسمع خطواتي في تلك الغرفة الضيقة العارية التي كنت معتاداً على التمشي فيها بعد ان يكون الناس قد ناموا .. لقد تتبعت افكاري بلهفة وهي تهبط طبقة طبقة لتوطد ادراكي مبددة كل الضلالات التي كانت قبل ذلك تمنعني من رؤيتها ، وموضحة نفسها شيئاً فشيئاً .

لقد تعلقت بتلك المعتقدات بلا جدوى تعلق الملاح بحطام سفينته الغارقة ، وكنت خائفاً من الفراغ المجهول الذي كنت احس بأنني سأطفو فيه بين لحظة واخرى . لقد رجعت بتلك المشاعر الى طفولتي ، وعائلتي ، وبلادي : وكل تلك الاشياء عزيزة علي ، الا ان تيار الفكر كان اقوى منها جميعاً فاضطرني الى تركها كلها ثم بدأ يزداد صعوبة كلما اقتربنا من النهاية التي لم يتوقف ذلك التيار الا وقد أوصلني اليها . وعلمت بعد انه لم يبق في اعماق ذهني شيء قط ، وكانت تلك اللحظة مخيفة مفزعة ، ولما القيت بجسمي المتعب على فراشي في الفجر ، شعرت بحياتي السابقة الباسمة المليئة تلتهب فجأة ، وبحياتي الجديدة تبدأ ، كئيبة لا بشر فيها ، فلم يبق لي الا ان اعيش وحيداً في المستقبل ، وحيداً مع فكري القاتل الذي نفاني اليها ، هذا الفكر الذي اميل الآن الى صب اللعنات عليه ، وكانت الايام الاولى التي تبعت ذلك أشد أيامي كآبة . »

ليست مثل هذه التجربة غريبة على المفكرين ، ويضرب لنا جيمس مثلاً على ذلك حالة جون ستوارت مل ، التي تشبه هذه الحالة كثيراً ، وسنبحث في الفصل التالي بعض تجارب تولستوي الاولى وتقاربها مع هذه ايضاً . لقد جرب نيتشه هذه الحالة ايضاً ، وتدلنا بعض كتبه على ذلك دلالة غامضة ، وسنبحث هذه الكتب في وقتها ، على ان هنالك صفحة في « الحكمة الممتعة » يتحدث فيها عن « الألم ... الذي يضطرنا نحن الفلاسفة الى الهبوط الى اعماقنا مجردين انفسنا من كل تلك الطبيعة الخيرة التي كنا من قبل قد اسلمناها انسانيتنا . انني اشك في ان

مثل هذا الالم يستطيع ان يوصلنا الى أحسن مما نحن عليه الآن ، الا انني مع ذلك احس بأنه يزيدنا عمقاً . » (١٣) وقد اعتاد نيتشه على الوحدة واعتبرها جزءاً من مصير العبقري ، وقد اقنعه بذلك بطله شوبنهاور حين كان في العشرين ، وبالرغم من انه ثار على شوبنهاور في النهاية الا انه لم يثر ضد مصير الوحدة هذا .

قرأ نيتشه اعمال شوبنهاور في جامعة لايبزك في عام ١٨٦٥ ، وكان شوبنهاور قد قال لاحد اصدقائه وهو لم يبلغ العشرين بعد : « الحياة محزنة جداً ، ولهذا قررت ان أنفقها بالتأمل فيها . » ولدينا وصف لحالة نيتشه حين قرأ أعمال هذا « الفيلسوف الكئيب » لاول مرة ، ويمكن ان يقودنا هذا الوصف الى معرفة شيء عن « الفنان شاباً » :

« ان الامزجة المريضة والمضايقات ذات الطابع الشخصي تتصف بميزة عامة لدى الشباب الذين يتوفر فيهم شيء من السوداوية . كنت في ذلك الوقت شديد القلق كئيباً بسبب بعض التجارب المؤلمة ، خائباً تعساً ، لا امل لدي ولا معتقدات جوهرية ، وكنت اشعر بشيء من الراحة حين ألجأ الى غرفتي وأغلق عليّ بابها . وفي ذات يوم مررت بدكان رون للكتب المستعملة فوجدت هذا الكتاب معروضاً بين الكتب ، فالتقطته وقلبت صفحاته ، وشعرت بقوة خفية تهمس لي : خذ هذا الكتاب معك ، ففعلت ، وعدت الى البيت واستلقيت على المقعد الطويل وتركت تلك العبقرية الغلابة الكئيبة تأخذ طريقها اليّ . لقد وجدت هنا ، في هذا الانكار والنفي والتقاعس التي يحفل بها كل سطر ، مرآة رأيت فيها العالم والحياة وروحي أنا غارقة في عظمة مخيفة ، وشعرت بأن عين الفن المفتوحة الثابتة تحملق في ، ووجدت هنا أيضاً المرض والشقاء ، والنبذ والاستقرار ، والفردوس والجحيم . لقد شعرت بالحاجة الى ان اعرف نفسي ، الى ان أقضم نفسي قضماً ، تلح عليّ الحاحاً شديداً .. تبقى بعد ذلك صفحات مذكراتي التي كتبتها في تلك الايام ، تلك الصفحات السوداوية القلقة المتطلعة الى الاعالي بيأس شديد ، طامحة الى اعادة بناء جوهر الانسان في شكل جديد ، ولم يقتصر الامر على روحي وانما كان جسدي أيضاً يعاني مما فرضه عليّ ذلك ، اذ انني قررت أن اذهب الى الفراش

في الثانية بعد منتصف الليل ، وانهض في السادسة صباحاً ، واستمر ذلك أربعة عشر يوماً أحسست فيها بانهاك عصبي كبير . » (١٤)

لقد رأينا اذن ، كما رأينا في حالة لورنس ايضاً ، ان اليقظة الذهنية تكون دائماً مصحوبة بالالم الجسدي . الا ان تغير طريقة نيتشه في النظر الى نفسه تعتبر أهم من حالة لورنس بمراحل . لقد كان شقياً مكتئباً يشعر بشعور السجين ، السجين في ذهنه وجسده ، ولذلك فان حماسة الاول في دراسة الفلسفة الاغريقية لم يتح له المرآة التي يرى فيها وجهه هو ، الامر الذي فعلته قراءته لفلسفة شوبنهاور ، لانها أكدت على ما كان يشعر به نحو طبيعة العالم ومكانه فيه . لقد وهبه شوبنهاور انفصاله عن نفسه ، ذلك الانفصال الذي يعتبر الخطوة الاولى نحو المعرفة الذاتية .

هنالك تجربتان في حياة نيتشه تعتبران مفتاح شخصيته كما تعتبر الفترة التي مد فيها فان كوخ يده الى لهب الشمعة مفتاحاً لشخصيته خلالها ، وسنلجأ في ذلك الى اقتطاف شيء عن هاتين التجربتين بالرغم من وجود سنوات عديدة بينهما . أما الاولى فتخبرنا بها رسالته الى فون كيرزدورف في عام ١٨٦٥ :

« بالأمس كانت هنالك عاصفة عنيفة تهدد بالهبوب ، فأسرعت الى تل قريب يدعى لوتش ، وجدت في اعلاه كوخاً صغيراً ، ورجلاً يذبح عنزتين صغيرتين ، في حين كان ابنه يتفرج على ما كان يجري ، وفي تلك الاثناء انقضّت العاصفة علينا بالرعد والمطر ، فشعرت بشعور لا يوصف من القوة والحيوية .... ان البرق والعصف عالمان مختلفان ، قوى حرة ، لا خلق يقيدها ، الارادة النقية التي لا تربكها الاضطرابات الذهنية ـ يا للسعادة ، يا للحرية » (١٥)

تلوح هذه التجربة بسيطة جداً ، الا ان تأثيرها على افكاره كان بعيداً جداً ، كان متوقعاً ان يكدره منظر الدم ، اما الآن فقد امتزجت غبطته بسبب العاصفة مع رائحة الدم ووميض السكين ، والصبي المأخوذ المتطلع ، وكانت النتيجة ادراكه البدهي للارادة الحرة من معاضل عقله وخبرته . كانت تلك البداهة

اطلاقاً له من قيد « طبيعته التي يحيرها فكره » التي كانت مصدر المتاعب بالنسبة له .

أما التجربة الثانية فقد حدثت بعد مضي سنوات عديدة على التجربة الاولى ، وكان ذلك خلال الحرب الفرنسية ـ البروسية ، حين كان نيتشه جندياً صحياً في احدى فرق الاسعاف ، وقد روى ذلك لشقيقته حين سألته يوماً عن اصل فكرة ارادة القوة .

كان نيتشه قد قضى اسابيع طويلة معالجاً الجرحى في ساحات المعارك حتى جعلت مناظر الدم والاعضاء المتعفنة رعبه يصل الى حد تخدر الاحساس به ، وفي ذات يوم دخل نيتشه احدى المدن الصغيرة قرب ستراسبورك بعد نهار حافل قضاه بين الجرحى وكان يسير على قدميه وحيداً بلا رفيق . وفي تلك الاثناء سمع وقع حوافر جياد ، فابتعد عن الطريق ووقف قرب الجدار منتظراً مرور الفرقة . ومرت الفرقة بفرسانها ومشاتها ، وكانت فرقته القديمة . وبينما كان يراقب الجنود وهم يمرون امامه في طريقهم الى ساحة المعركة وربما الى الموت باغتته الفكرة واقتنع بأن « اقوى وأسمى ارادة في الحياة لا تتمثل في الكفاح التافه من اجل الحياة ، وانما في ارادة الحرب ، ارادة السيطرة ... »

علينا ان نتفحص هاتين التجربتين بعناية وبلا تحامل ، واننا لنجد فيهما شيئاً من « ميزات التصوف » ، وقد كان نيتشه سجين « طبيعته التي تحيرها أفكاره » ، في حين تشير هاتان التجربتان الى غبطة بالحياة ، ونجد ذلك لدى بليك في قوله : الحيوية هي الغبطة الخالدة . ان العبارات « قوى حرة لا خلق يقيدها » و « الارادة الحرة » يمكن ان تعتبر أساس فلسفة نيتشه ، وهي ليست غير ذكريات تلميذ معتل الصحة رأى رؤيا تمثل الصحة الكاملة ، فتحرر من حدوده الجسدية ومن سخافة الشخصية والفكر . كانت تلك أعمق معارف نيتشه ، وقد بينها في الصفحات الاولى من كتبه « مولد المأساة » الذي كتبه حين كان استاذاً شاباً في جامعة بازل .

« الذهول السعيد الذي ينبثق من اعماق الانسان ، أي من أعماق الطبيعة ، في

لحظة ذوبان الشخصية الفردية وانحلالها؛ والذي يجعلنا نحصل على شيء من الادراك الديونيسي الذي يمكننا ان نفهمه جيداً بتحليلنا لحالة السكر . ويمكن خلق مثل هذا الذهول باستخدام العقاقير المخدرة التي تحدثنا عنها اناشيد وتسابيح البشر الاوائل البدائيين ، او عندما يحل الربيع مغلغلاً الغبطة في الطبيعة كلها ، فاذا استيقظت هذه الاحاسيس الديونيسية ذابت الذات واصبحت نسياً منسياً ..» (١٦)

لقد عرف نيتشه هذا الاحساس واستخدمه مقياساً يحكم بواسطته على الاشياء . ويقول نيتشه ان سقراط لم يعرفه ، ويضيف « مزلزلاً بعد ذلك عالم الاكاديمية » ان سقراط انما يمثل تدهور الحضارة الاغريقية ، في حين كانت ذروتها تتمثل في عبادة باخوس ، اله الحيوية الفياضة الخام. وطبق نيتشه ذلك على معظم الفلاسفة والمفكرين في عصره أيضاً ، فلم ينج منهم الا شوبنهاور « وسيأتي اليوم الذي يقذف فيه بشوبنهاور ايضاً ليلحق بالبقية » . وهكذا لم يكن نيتشه ليتعدى الثامنة والعشرين حين وقف وحيداً ، ما عدا اثنين ظل يحترمها وهما شوبنهاور وفاغنر ، فكانوا ثلاثة رجال ضد العالم كله ... ولكن أيّ رجال !

كان نيتشه قد عرف فاغنر شخصياً منذ عام ١٨٦٨ ، اذ قابله بعد تعيينه استاذاً في جامعة بازل ، وكان ذلك في مدينة لايبزك ، يوم كان فاغنر في التاسعة والخمسين ونيتشه في الرابعة والعشرين . واستطاع نيتشه في اثناء وجوده في بازل أن يجعل من تعارفه ذاك مع فاغنر صداقة حارة . اما فاغنر فكان يعيش في تريبشن على بحيرة لوسيرن ، وكان منهمكاً في انهاء مؤلفته « الخاتم » ، ترافقه كوسيما فون بيلاو التي كانت قد هجرت زوجها لتعيش مع فاغنر ، وكوسيما هذه هي ابنة فرانز ليست . ووجد نيتشه في منزلها اللاشرعي الراحة المنشودة ؛ فصار يقضي الليالي مع فاغنر ، متحدثين حتى الفجر . وأطلع فاغنر نيتشه على مقالته « عن الحكومة والدين » ، التي تستند على فكرة أن الدين والوطنية ضروريان جداً باعتبارهما « افيون الشعوب » ، في حين ان الملك وحده هو الذي يسمو على ذلك متمتعاً بالشجاعة التي تؤهله للمعاناة ، ولرفض الضلالات الشائعة التي يروجها « الفن الذي يجعل الحياة تلوح وكأنها

لعبة ويجنبنا مصيرنا المعروف » . (وبعد عشر سنوات فقط ، طلع دوستويفسكي على الناس بهذه الفكرة ذاتها في « الاخوة كارامازوف » مستبدلاً الملك بالمفتش العام) .

كان نيتشه يعتبر فاغنر أخاه الروحي ، في حين كان فاغنر يعتبره تلميذه الشاب اللامع . على انهما مخطئان معاً ، اذ سيحين قريباً اليوم الذي سيكتب فيه نيتشه كراساً يثبت فيه أن بيزيه أعظم من فاغنر ، ويكتب فيه فاغنر كراساً آخر يثبت فيه ان نيتشه كان يهودياً . وان من يقرأ نيتشه كما قرأته ، ويستمع الى فاغنر كما فعلت كلما حانت لي فرصة لذلك ، ليدهش اشد الدهشة متسائلاً : لماذا يسف هذان الرجلان هذا الاسفاف فينكر أحدهما الآخر ؟ أما الجواب فهو ان نيتشه كان شاعراً فيلسوفاً لم ين ولم يضعف طموحه يوماً ، في حين كان فاغنر في عام ١٨٦٨ موسيقياً ناجحاً جداً ، وكان مقتنعاً كل الاقتناع بحالته تلك . وعليه فان الطموح الذي يسبق نفسه لا يمكن ان يحتمل القانع الراضي بما هو عليه ، وهكذا استمع يوماً الى « سيد المغنين » فنسي كل شيء ما عدا اقتناعه الذاتي بموسيقى الكمان والابواق الفرنسية ، ولم يعد أمام فاغنر الا أن يأسف على انقلاب تلميذه ضده .

الا أنهما كانا في عام ١٨٦٨ على اتم ما يكون من الوفاق ، وكانت قابليتها المتحمسة تغطي كل شعور النفور ، وقد أضاف نيتشه فصلاً الى « مولد المأساة » يمجد فيه فاغنر ويعتبره مسيح الفن ، وكافأه فاغنر على ذلك باعلانه أن هذا الكتاب كان واحداً من أروع الكتب التي قرأها .

أما رفاق نيتشه من أساتذة الجامعات فقد كانوا أقل مدحاً لهمن فاغنر . اذ توقعوا من نيتشه ان يكتب كأستاذ ، الا انه كتب كنبي ، فأطلقوا عليه لقب « الناشيء المغرور » . كان نيتشه سيء الحظ ، ولم تكن تلك السمعة التي اشتهرت عنه لتزول الا بعد عشر سنوات اخرى يستعيد خلالها منزلته كاستاذ ، الا انه لم يكن متوقعاً منه ان يدرك ذلك في حمى عبقريته وشبابه . وانه لما يدعو الى الاسف أنه لم يدرك ذلك ، لان فشله في السيطرة على الموقف كلفه عقله . لقد بدأ الآن الاضطهاد الذي لم ينته الا بموته ، واصبح مسوقاً الى التأكيد على نفسه والادعاء بقابلياته ، وذلك بوقوفه ضد المحافظين الذين اعتبروه نصف عاقل . حتى لقد

بلغ فيه الأمر ان يبدأ فصول كتابه الاخير بالعبارات : « لماذا انا ذكي الى هذه الدرجة ؟ » ، « لماذا أنا حكيم الى هذا الحد ؟ » ، « لماذا اكتب مثل هذه الكتب الممتازة ؟ »

اما بقية حياة نيتشه فيمكن تقسيمها الى ثلاث فترات . لقد رفع كتابه « مولد المأساة » الحياة فوق الفكر : يسقط الفكر ، تعيش الحياة . أما الكتب التي ظهرت في السنوات العشر التالية فقد جاءت بالنقيض : تسقط الحياة ، يعيش الفكر ، ورفعت من شأن سقراط ثانية وجعلت الحقيقة الهدف الاول . واخيراً ، في الوقت الذي اضطره فيه اعتلال صحته الى ترك الواجبات الجامعية ، ظهر تبدل آخر تمثل في « الحكمة الممتعة » ، و « هكذا تكلم زرادشت » ، وأصبحت الحيوية الغبطة الخالدة من جديد . وكانت تلك النهاية .

حلت النهاية في عام ١٨٨٩ (السنة التي انهار فيها فان كوخ) وبدأ نيتشه يكتب رسائل غريبة شاذة موقعاً اياها « بالقيصر » أو « ملك نابولي » ، وبالاخص « المضحى به » ، وكانت آخر رسالة الى كوسيما فاغنر كما يلي : « أرديان ، أحبك : ديونيسيوس . » لقد كان ذلك انهياراً عقلياً كاملاً ، وظل نيتشه مجنوناً حتى وفاته بعد عشر سنوات من ذلك .

ليس من الممكن ان توفى افكار نيتشه حقها في هذه الصفحات القليلة ، لانه لم يكتب كتاباً واحداً رئيسياً يمكن ان يعتبر محتوياً « لكل ما يخص نيتشه » ، وهنالك ما يوحي بأجواء الملاكمة في كتبه ، الى درجة أنه هو نفسه أدرك ذلك فبدل عنوان أحد كتبه وجعله « كيف تتفلسف بمطرقة » . اما كتبه فلا يمكن ان تعتبر اجزاء متصلة في نظام معين ، وانما هي اجزاء متلاحقة من الاعترافات الشخصية التي كتبها نيتشه كرجل . ولكي نفهم نيتشه جيداً علينا أن ندرس ستة كتب على الاقل من كتبه ، بما فيها « هكذا تكلم زرادشت » ولنقل انها « مولد المأساة » و « الناس انسانيون اكثر مما يجب » ، و « وراء الخير والشر » و « أصل الاخلاق » و « التاريخ الشخصي » و « ارادة القوة » ، والكتاب الاخير ليس الا مجموعة من الملاحظات جمعتها شقيقته بعد موته . ولن

أحاول أن ألخص هذه الكتب جميعاً في هذا الفصل ، فذلك أمر صعب حتى لو لم أكن محدداً بهذه الصفحات القليلة ، بالاضافة الى كونه قليل الاهمية بالنسبة لاغراض هذا الكتاب . ان السؤال الذي يعنينا هو : الى أي حد أوضح نيتشه مشكلته كلامنتم ؟ والى أي حد استطاع أن يحل مشاكله ؟ أما السؤال الاول فبامكاننا ان نجيب عليه حالاً ، فانه اوضح مشاكل اللامنتمي بأكثر مما فعل اولئك الذين بحثنا أعمالهم حتى الآن ، أما السؤال الثاني فان الاجابة عليه تتطلب منا فحصاً دقيقاً لحياة نيتشه .

لقد انقسم الاطباء والنقاد بشأن سبب جنون نيتشه . وتدل الابحاث الاخيرة على أن مرضه كان نتيجة مرض جنسي أصيب به يوم كان تلميذاً، بسبب اتصاله باحدى البغايا . (بنى توماس مان على هذه القصة قصته — دكتور فاوست) . والواقع أن مثل هذا المرض كاف لاصابة الانسان بالجنون ، تماماً كما كانت توترات نجنسكي العصبية الموروثة سبباً في جنونه ، وكما كانت شدة حساسية فان كوخ سبباً في ذلك ايضاً ، الا أننا يجب أن نبحث عن سبب آخر أعمق في المشاكل التي جابهها نيتشه .

لقد كان وحيداً دائماً ، ولم يتزوج ، ولم تكن لديه عشيقة ، ولم تكن لديه « على ما نظن » أية صلة جنسية مع أية امرأة ما عدا احدى البغايا * ولم يمل اليه ويقف بجانبه الا نفر قليل ، في حين لم يتعد المعجبون به في حياته كلها عدد أصابع اليد ، وحتى هؤلاء كانوا يتقلبون ضده في كثير من الاحيان . كانت هنالك أيضاً صحته المعتلة « التي ورثها من سنوات الحرب » ، وبالاضافة الى ان انكبابه على القراءة والكتابة سببا له سلسلة طويلة من أمراض الصداع وسوء الهضم والانهاك العقلي والجسدي ، فكان يبلغ به الامر انه لا يستطيع ان يفهم شيئاً او يدرك أمراً مهما تفه في بعض الاحيان . وكانت تلك الامور تعرقل طبيعته الخلاقة ،

---

* بالرغم من ان الكتاب الذي اكتشف بعد موته والمعنون « انا وشقيقتي » ، الذي نشر في أميركا عام ١٩٥٠ ، لا يدل على شيء من هذا ، الا ان اصالة هذا الكتاب لم تثبت بعد .

لان ذهنه ارتفع الى مستويات عالية من التفكير حين كان يتمتع بصحة جيدة .
كان مثل فان كوخ في أن الامور التافهة ضيقت عليه الخناق في اللحظة الحرجة التي بدأ فيها الانهيار ، ولم تنج ثقته بنفسه من هذا ايضاً ، اذ ارسل احد اصدقائه ليخطب له احدى الفتيات ، فرفضت ذلك وتزوجت الصديق (وكانت تلك الفتاة لو سالومي التي أصبحت بعد ذلك أقرب صديقات الشاعر النيتشي العظيم الآخر راينر رلكه) . أما أشد كتبه تعقلاً وبحثاً فقد أثارت مثقفي المانيا وجعلتهم يتهمونه بالاسراف في حب الذات وبالجنون ، أما أفكاره التي لاحت له عملاقة ، جديرة بأن تهز العالم هزاً ، فقد استقبلها الناس بفتور .
الا ان الروح التفاؤلية التي تسود رسائله دائماً تبعث على الدهشة :

« أيها الصديق العزيز ، ان شمس آب تسطع علينا الآن ، في حين تقترب السنة من نهايتها .. الهدوء والسلام ينتشران في الجبال والغابات ، في حين تلوح في أفق ذهني أفكار لم أعهدها فيه من قبل . يجب ان اعيش سنوات اخرى . انني أشعر بما يوحي الي بأنني أحيا حياة متناهية في الخطورة ، ذلك لانني أشبه آلة من هذه الآلات التي تنفجر احياناً . أما شدة مشاعري واحساسي فانها تجعلني أرتعد وانفجر ضاحكاً . ولم يكن باستطاعتي عدة مرات أن أغادر غرفتي لسبب تافه هو أن عيني متورمتان ، ولكن لماذا ؟ هه ، ذلك لانني كنت ، في كل مرة ، قد بكيت كثيراً في اليوم السابق حين كنت اتمشى ــ ولم تكن دموعي دموع انفعال ، وانما كانت دموعاً حقيقية سببها غبطتي الشديدة . كنت أغني وأهتف بكلمات حمقاء ، وكانت تؤاتيني رؤى ارى فيها الناس قبل أن اقابلهم في عالم الواقع . » (١٧)

يذكرنا هذا بعبارة فان كوخ : « أما بالنسبة الى اعمالي الفنية ، فقد ضحيت من اجلها بحياتي ، ومن اجلها فقدت نصف عقلي » ، الا ان القسم الاخير منه يذكرنا برجل آخر عميق في تدينه ، ذلك ان باسكال استعمل عبارة « دموع الغبطة » في وصيته العجيبة التي وجدت في بطانة سترته بعد موته ، وكان يصف فيها الرؤيا التي رآها بعد مرضه وعذابه الطويلين :

« النار
اله ابراهيم واله يعقوب واله اسحق
لا اله الفلاسفة والعلماء ... »

« الارادة المطلقة .. الحرة من حيرات العقل .. »

لقد عرف نيتشه بعد ان عانى من العذاب ما عانى ايضاً ، وانه ليتحدث عن « الحكمة الممتعة » قائلاً :

« يلوح انها مكتوبة بلغة العواصف .... والشكر يتدفق باستمرار ، كأنما قد حدث شيء لم يكن حدوثه متوقعاً بالمرة — شكر من شفي من مرضه — تواً — أما هذا الشيء الذي لم يكن متوقع الحدوث فهو الشفاء . وليس هذا الكتاب الا مأدبة طويلة بعد حرمان شديد ووحدة وضعف طويلين ، انه تأجج الحيوية المستعادة ، ويقظة جديدة للايمان بغدٍ بعد غد ... » (١٨)

كانت فترة الوحدة والضعف الطويلة هيَ التي كتب نيتشه خلالها كتبه السقراطية « أفكار ليست في وقتها » و « فجر النهار » و « الناس انسانيون أكثر مما يجب » . ثم بدأ يظهر شيئاً من الشك ، شك المفكر الذي يكتشف أنه كان قد نبذ الجسد والمشاعر :

« الاخفاء اللامدرك للمتطلبات الجسدية تحت قناع الموضوعي والمثالي والروحي المطلق .... لقد سألت نفسي مراراً ؛ ألم تكن الفلسفة الى حد الآن تفسيراً للجسد ، وعدم فهم له ؟ » (١٩)

وهو يتحـــدث عن ذلك التفحص الذي يشمل كل شيء (والذي اقتطفت عبارات جوفري لايضاحه) :

« ... يلوح الانسان ، بعد هذه التجارب الخطرة في السيطرة على النفس ، وكأنه صار انساناً جديداً ... ميالاً الى التفحص والاختبار أكثر من قبل .. اما الثقة بالحياة فقد تلاشت ، بل ان الحياة نفسها صارت مشكلة.وليس من الضروري ان يصبح الانسان دائم الاعتلال والكآبة بسبب هذا . بل انه يستطيع ان يحب أيضاً ، الا ان حبه مختلف ، انه حب امرأة يشك هو فيها .. » (٢٠)

هذا هو مفهوم نيتشه للانسان المولود مرتين ، ويستمر في التعبير عن خيبة أمله في الروحية السقراطية ، فيقول :

« .... علينا ، كفنانين ، ان نتعلم كيف ننسى وكيف نعرف ... على انه ليس من المحتمل أن نقتفي أثر المصريين الشبان الذين يقبعون في المعابد ليلاً ، معانقين التماثيل ، مدعين بأنهم انما يكشفون الغطاء عن كل شيء كان مخفياً لانه من الخير ان يختفي . كلا ، لقد بدأنا نشمئز من هذا الذوق التافه ، هذه الرغبة في الحقيقة ، (الحقيقة مهما كلف الامر) ، وهذا هو الجنون الذي يتميز به الشباب في حبهم للحقيقة ، ونحن الآن مجربون الى درجة اننا لن نلجأ الى هذا ، لاننا لم نعد نعتقد بان الحقيقة تبقى حقيقة اذا تجردت من الشر . » (٢١)

ويلخص نيتشه في الموعظة الاولى من الكتاب الرابع «سانكتوس يانيواريوس» :

« ما زلت أعيش ، وما زلت افكر ، ويجب ان أظل حياً ، لأنني يجب ان استمر على التفكير . اود ان لا أقول من الآن فصاعداً غير نعم » .

هذا هو مفتاح فلسفة نيتشه منذ الآن الى النهاية ، اذ انه بدأ يسأل بلا انقطاع ويتفحص ويختبر كل شيء ، وقد نبذ كل الفلاسفة الغربيين السابقين قائلاً انهم حمقى اغبياء تفضح فلسفاتهم كل ما يقيدهم من افراط في الانسانية ومن ضعف ويتخذ من اخلاقية «كانط» الاستبدالية ، ومن «هيغل» اهدافاً خاصة لهجومه ، لأن هؤلاء عظموا شأن الفكر وكأنه من الممكن فصله عن الحياة ووضعه في درجة أعلى ، وبهذا فانهم انما جردوا الحياة من قيمتها وفشلوا في ادراك أن الفكر ليس الا وسيلة يجب أن تساعدنا للوصول الى «حياة أكثر وفرة» . يجب على الانسان أن يؤكد على الاشياء ويثبتها وأن يقول « نعم » دائماً ، وأن يشكر دائماً . أما هؤلاء المفكرون فلم يكونوا غير سجناء ، قللوا من شأن الحياة (او كما دعاهم كيركغارد) : «يدعون بما يعانيه الآخرون» . ان أعظم ما يستطيع الانسان أن يفعله هو أن « يشكر رغم كل شيء » ، وأن يكون مدركاً لاسوأ ما في الـ « لا » النهائية ، فاهماً لكل ما يترتب عليها ، وأن يظل في الوقت نفسه على ايجابيته بالنسبة للحياة .

تعلم نيتشه أن يقول « نعم » شيئاً فشيئاً ، وكانت تلك هي المشكلة التي شغلت

باله في أثناء خروجه للتمشي : « لا » النهائية ، أم « نعم » النهائية ؟ وقد ترك جامعة بازل مريضاً ، ضجراً من الحياة ، ضجراً من الحمقى ، ومن العداء الذي جوبه به ، وجمع قوته من جديد ليفقدها ثانية ، فصار ضجراً من فردريك نيتشه نفسه ومن أحلامه التي لا تتفق مع الكون ، ضجراً من البندول الذي لا ينى يتحرك متنقلاً من « لا » الى « نعم » ومن « نعم » الى « لا » ، ومن السعادة التي جعلت الشقاء يلوح عديم الاهمية ، ومن الشقاء الذي جعل السعادة تلوح وهماً . كان يريد أن يحصل على المعرفة الاكيدة ، فنظر الى نفسه ، الا أنه وجد أنه لا يستطيع أن يقول « نعم » أو « لا » وسأل نفسه : أهذا من طبيعة الحياة حقاً ؟ هل يمكن أن يوجد ذلك الانسان الذي يتقبل كل شيء ؟ وانطلق خياله ليتصور ذلك الانسان الذي تبلغ به العظمة حد اثبات الاشياء . ولم يكن يبحث عن البطل — فلا بطل يستطيع أن يفوز باعجاب الفيلسوف الكامل ، وانما كان يبحث عن النبي أو القديس أو العبقري أو الفرد العملي ، أو ربما الفرد الذي يجتمع فيه اربعتهم .

وولد في ذهنه مفهومان ، الانسان السامي «السوبرمان» ، وتكرر الحدوث الخالد. أما قول «نعم» فيعتمد على ارادة الحياة ، الا ان ارادة الحياة تعتمد على الانسان نفسه ، ويمكن ان تزداد ارادة الحياة عمقاً وسعة بالتأمل ، والكفاح الذهني المستمر ، والايمان الذي يرتكز على اثبات الحياة مهما كلف الامر . أما التجربة فانها العدو ، ولا يمكن التغلب عليها بالهرب منها أو تحويل الوجه عنها (كما قال آكسيل : أما العيش في هذه الحياة ، فسيؤدي ذلك خدمنا لنا) ، وانما يمكن ذلك بتشربها والاشتراك بها . وهكذا ، فعندما تكون التجربة هي العدو ، يكون السؤال آنذاك : سيد أم عبد؟ سيد التجربة أم عبدها ؟ كما ان التجربة هي من السعة بحيث أننا لا نستطيع أن نتصور انساناً يتشربها كلها دون أن يكون منطاداً كبيراً .. أي انه لا يبقى انساناً . على ان فكرة النبي السامي أو البطل السامي لم تسكر نيتشه الى الدرجة التي يعتبرها فيها قاعدة راسخة وأساساً متيناً ، لانه احتفظ بقدميه على الارض مثقلاً اياهما بفكرة « تكرر الحدوث الخالد » ، وهكذا حمى نفسه من المثالية ، وتحصن ضدها ،

خاصة مثالية هيغل وليبنتز التي لا وزن لها ، تلك المثالية التي ربطت الكون بنظام معين وصرحت : كل شيء هو للاحسن في هذا العالم الذي يعتبر أحسن العوالم المحتمل وجودها . ان تكرر الحدوث الخالد يجعل الوجودية مطلقة (أو اذا كان هذا غامضاً) انه عمل الايمان النهائي . ولا يتعارض مفهوم تكرر الحدوث الخالد مع مفهوم الانسان السامي « السوبرمان » ، وانما بالعكس ، نجدهما مترابطين بحيث اننا لا نستطيع ان نفصل احدهما عن الآخر . ان تكرر الحدوث الخالد هو الذي يهب السوبرمان المفهوم الوجودي ، لان السوبرمان مفهوم وجودي وليس مثالياً * . (وهذا ، بالطبع ، هو الحاجز الذي تحطمت عليه سيقان المثات من

* لقد اعتبرت في هذا الفصل انني أفهم فلسفة نيتشه فهماً يمكن للقارئ أن يجده في أية مقدمة كتبت لكتابه « هكذا تكلم زرادشت » . إلا أن القراء الذين يجدون صعوبة في فهم « تكرر الحدوث الخالد » الذي يرد كثيراً في أفكار نيتشه يستطيعون أن يفهموه من خلال قراءتهم للمقتطفات التالية التي تحمل نفس هذا المفهوم إلى الأذهان ، إذ يقول برنارد شو في الفصل الثالث من مسرحية « الإنسان والإنسان السامي السوبرمان » على لسان دون جوان ما يلي : « ... أسلم بأن مصدر قوة الحياة العظيم يشبه بندول الساعة ، وهو يستخدم الأرض في انتقاله وحركته ، ومن المسلم به أيضاً أن تأريخ كل حركة من حركات هذا البندول هو تأريخ الحركة السابقة نفسها ، رغم أنه يلوح لنا نحن المثلين ، رائعاً عظيماً ، أما الشمس فهي تقذف بالأرض وتمسكها من جديد تماماً كما يفعل البهلوان بالكرة ، في مدى لا نهائي من الزمن ، في حين ان فتراتنا التي نحسبها بالاجيال والقرون ليست إلا لحظات بين القذف والمسك ، فيا ترى أما لهذه الميكانيكية الرائعة من غرض ؟

أما من حيث طبيعة « لحظة الرؤيا » التي أدرك نيتشه فيها تكرر الحدوث الخالد فلا يمكننا إلا أن نخمن تخميناً لنفهم عنها شيئاً . لعلها كانت انفصالا مطلقاً ، أو ايحاء وجودياً بلا ارتباط الطبيعة الخارجية بالذات الداخلية : كالايحاء الكامن وراء « العقل في منتهى حدود الاحتمال » لو يلز مثلا .

« إن الطريقة التي ينظر بها « الاي شنج » إلى الواقع تلوح غير منسجمة مع أعمالنا السببية . وتلوح اللحظة بملاحظتها ملاحظة فعلية أقرب إلى الصدفة بالنسبة لوجهة النظر الصينية القديمة منها إلى النتيجة الواضحة المتكررة الحدوث المعتمدة على سلسلة من الحدوث السببي . أما الأشياء التي تحظى باهتمامنا فما هي إلا امتزاج الحوادث العرضية بلحظة الملاحظة ، وليست الاسباب الأساسية التي تلوح وكأنها تسبب ترابط الحدوث . »

ويمكن فهم الفقرة الأخيرة إذا قرأها القارئ في مكانها من النص الاصلي « مقدمة يانك لترجمة فلهلم » « للاي شنج » ، وستتضح له أيضاً طريقة فصل الطبيعة الذاتية عن الطبيعة الموضوعية (وهي طريقة وجودية يتميز بها الفكر الصيني القديم) وتعتبر هذه الطريقة مفتاح فكرة نيتشه عن تكرر الحدوث الخالد .

نقاد نيتشه ، بما فيهم أحد اتباع نيتشه الكبار ، نيكولاس بيرديف .) وقد قال منسيوس مرة : « أولئك الذين يتبعون ذلك الجانب العظيم من أنفسهم هم عظام، واولئك الذين يتبعون ذلك الجانب التافه من أنفسهم هم تافهون » ، وهذا هو المفهوم الديني لا الانساني ، ومن هذا المفهوم ينبعث السوبرمان .

قبل ان أبحث كتاب « هكذا تكلم زرادشت » ، عليّ أن أوضح بعض الاخطاء الشائعة بشأن فهم « فكرة السوبرمان » . لقد تشكى البعض من ان مفهوم تكرر الحدوث الخالد هو مفهوم سلبي تماماً،في حين ان السوبرمان عملاق بشري . ويكتب بيرديف مثلاً : « ينظر العباقرة ... الى نفوسهم باعتبارهم من نوع السوبرمان الذي يعتبر كل الاشياء صحيحة مبررة ... بل بالعكس ، لانهم يقدمون الى العالم أشياء عظيمة بواسطة وضع أنفسهم في الدرجة الثانية بعد ذلك الذي يعتبرونه فوق البشر .... وقد ارانا دوستويفسكي سخافة الادعاء بالسوبرمانية حين اعتبرها فكرة خادعة تقود الانسان الى الموت . » ان كل من يستطيع ان يفهم ان فكرة نرفانا البوذية ليست سلبية وان بوذا نفسه (الذي ينظر الى الاسفل ليرى الانسان المعذب ، كما ينظر رجل الجبال الى رجل السهول ، أو كالسوبرمان بعبارة اخرى) ليس عملاقاً كافراً ، يستطيع من يفهم هذا ان يكتشف كم تخطىء هذه النظرة و كم تبتعد عن جوهر الفكرة. لم يكن نيتشه كافراً، أو أنه لم يكن أكثر كفراً من بوذا * ، وان من يقرأ اغنية الليل وأغنية الرقصة في « هكذا تكلم زرادشت » ليلاحظ انهما انما تصدران عما صدرت عنه التسابيح الفيدية أو الغاتية أو مزامير داود . ان فكرة السوبرمان ما هي الا صدى للحاجة الى الخلاص بالطريقة نفسها التي كانت بها البوذية صدى للعلامات الثلاث . اما نقد بيرديف، (شأنه شأن النقاد الآخرين) فانه يفترض ان السوبرمان شيء شخصي ، مثل « سودي يا بريطانيا » وألمانيا فوق الجميع ، أي انه أفيون

---

* لقد بحث البروفسور ر ادا كريشنان هذه النقطة بمهارة في طبعته « لليوبانيشاد الرئيسية » . ويمكن ملاحظة الملحق المرفق بها أيضاً والذي كتبه رابندرانات طاغور .

الشعوب .

ان الفرق بين المفهوم الديني والخرافة (الافيون) هو ان أولها له صلة بالواقع السيكولوجي ، في حين ليس لثانيها شيء من هذا ، واعني بالواقع السيكولوجي واقع اللامنتمي . ان مشاكل اللامنتمي (وأرجو ان يكون الجميع متفقين معي الآن) مشاكل حقيقية وليست ضلالات نورالجية (خاصة بالاضطرابات العصبية) ، كما أنها ليست بالمشاكل التي تجابه في كل يوم، اذ قد لا يجابهها العامل او البائع مثلاً اكثر من مرة واحدة في حياته، بالاضافة الى ان هذا البائع يتفق معنا في ان السؤال «متى ينتهي الكون..؟ » ليس سؤالاً تافهاً مهما كان رجلاً عملياً ، وأن من يسبغ عليه أهمية لا يشترط فيه ان يكون مجنوناً ضالاً . اما اذا اجاب الانسان على سؤاله فقال : « يرتكز الكون على ظهر ثور ، وهذا الثور يرتكز على ظهر فيل .. الخ » فقد يكون لذلك البائع الحق في الحكم على مثل هذا الرأي بأنه مخالف للمعقول ، واذا فعل ذلك فانه انما يتفق مع اللامنتمي في ان الميتافيزيكية (كجواب كامل على اسئلة اللامنتمي) لا يمكن ان تعتبر أكثر من فكرة عامة أسبغنا عليها التعظيم ، تماماً كما نجد الرياضيات العالية حساباً أسبغنا عليه التعظيم فحسب ، وسيورط نفسه بقبول الفكرة القائلة بأنه اذا اردنا ان نحقق هذا التعظيم المسبغ على هذه الفكرة العامة المعقولة وجب علينا ان ننمي فينا الحساسية المعظمة أيضاً ، تلك التي تؤدي الى ادراك للمشاكل التي ندعوها بمشاكل اللامنتمي . ان التعاليم الدينية بأجمعها ليست الا عذراً ووسيلة للحصول على مثل هذا النمو والتطور في الحساسية .

لكي نفهم نيتشه ، يجب علينا اولاً ان نفهم الطريقة التي عالج بها مشاكل اللامنتمي . يجب علينا ايضاً ان نضع أنفسنا في داخله لنرى ما كان يراه هو . ولن نحتاج هنا الى « هكذا تكلم زرادشت » وأحد المؤلفات التي كتبت عن تأريخ حياة نيتشه (وجميعها لا يمكن ان يعتمد عليها القارىء لتحريفها او لتحاملها ، بما فيها كتاب دانييل هاليفي) وانما نحتاج الى معرفة كاملة للامنتمي كنوع خاص ، لان هذه المعرفة هي المفتاح الحقيقي الى نيتشه .

سنجد ان بحثنا لبليك في فصل سابق سيساعدنا كثيراً في فهمنا لنيتشه. ان بليك لامنتم ديني ، وسنحتاج الى دوستويفسكي أيضاً لنتوسع في الحل الذي يصل اليه اللامنتمي الديني قبل أن نبحث أمراً لبراعة السيكولوجية الرائعة التي يتناول بها بليك الموضوع. ويمكننا أن نقول هنا ان بليك ، ومتصوفاً انكليزياً آخر هو تراهيرن ، حققا رؤاهما الايجابية ، « أي قول نعم » ، الأمر الذي يذكرنا بلوحات فان كوخ الملتهبة . وقد عبر بليك عن هذه الرؤى بالعبارات « الحيوية هي الغبطة الخالدة »، « كل ما يعيش فهو مقدس » ، « تغتبط الحياة بالحياة » . أما نيتشه فإنه كتب في تاريخ حياته « انني أحد أتباع ديونيسيوس ، وانني لأفضل أن أكون رجلاً شهوانياً جداً على ان أكون قديساً » . واذا تذكرنا ما كتبه نيتشه بصدد ديونيسيوس في « مولد المأساة » ، وما عنته تجربتاه في « الارادة المطلقة ، الحرة من قيود العقل » بالنسبة اليه ، لعرفنا كم تشبه رؤيا نيتشه رؤيا بليك من حيث جوهرها . ان النقاهة التي بدأت بكتاب « الحكمة الممتعة » أعادت نيتشه الى التمسك ببداهاته الأولى عن « ارادة القوة » . ولما خامرته فكرة تكرر الحدوث الخالد بينما كان يتمشى بالقرب من بحيرة سلفا بلانا ، كتب على وريقة صغيرة قائلاً : « ستة آلاف قدم أعلى من البشر والزمن »، وهذا أمر له أهميته، فإنه في أمثال هذه اللحظات كان يشعر، وحده دون البشر أجمعين، بانفصاله عن دورة الأيام وعجلة الفعالية . وهاجمته في الطريق (وهذه هي عبارته) الى راباللو فكرة زرادشت ، واستولت عليه فجأة طبيعة خلاقة عنيفة، ذلك لأن زرادشت كان أقرب ما يكون الى الفنان النقي البسيط . ان ما كرهه نيتشه في القديسين المسيحيين تمثل في عبارة أحد قسس القرون الوسطى الذي قال : « يجب أن لا يدهشنا شيء في الطبيعة ما خلا موت المسيح المخلص » ، في حين أن قديس نيتشه تتملكه الدهشة من كل شيء في الطبيعة، وهو يعيش دائماً في ذهول مستمر يعبر به عن شكره وامتنانه لكونه حياً*.

* هاجم نيتشه الزهد في المقالة الثالثة من كتابه « أصل الاخلاق » هجوماً عنيفاً وذلك بدراسته

نجد في الكتاب الأول من « هكذا تكلم زرادشت » أن الناسك العجوز يحييه قائلاً : « أجل انني أعرف انك زرادشت ، فان عينـــه صافية ، أما فمه فليس عليه شيء قذر . ألا يسير في طريقه كالراقص ؟ » . هذا هو زرادشت ، النبي ، قوي الصحة ، الذي بدأ بعثته التبشيرية كما بدأها أنبياء الصحراء الذين تحدث عنهم لورنس، تاركاً المجتمع ، منزوياً لوحده طيلة عشر سنوات . ويعود زرادشت كأنبياء الكتب المقدسة ليدعو ضد الوثنية . ويجد وثنين يعبدهما الناس، أولهما هو النظام المثالي ويعبده الأساتذة، والانسان العملاق الذي أضفت عليه الكنيسة صفات الإله . وقد اختار بليك وكيركغارد هاتين النقطتين أيضاً في هجومهما ، فكتب بليك في « فالا » :

« ثم هبط الانسان منتحبا الى روائع قصره

وانعكس فوقه خيال من عقليته المتعبة المنهوكة ..

وارتمى الانسان على وجهه أمام الخيال المائي

قائلاً : يا إلهي، منذ متى هذا التغيير؟ انك تعلم أنني لا شي..» (٢٢)

يلوح هذا من الوهلة الأولى من مبادىء الانسانية ، وكان بليك يقول « اخترع الانسان فكرة الله » . الا أن ذلك ليس صحيحاً . لقد اخترع الانسان هذا الإله فقط — المساوم على اتباع الحق ، صانع اللعب . بينما يصرح زرادشت ، نبي الطبيعة ، المتصوف الطبيعي ، قائلاً : « ... انني أعلم الناس هذا ، فلا يعودون يدفنون رؤوسهم في رمال الأشياء السماوية، وانما يحملون هذه الرؤوس حرة، رؤوساً من الأرض، تهب الأرض معنى . »

هذه هي فلسفة نيتشه الايجابية ، وتصلح هذه البداية أن تكون نقطة انطلاق لكل فلسفة مادية أخرى ، كالمادية الماركسية والاستدلالية السبنسرية

دراسة تحليلية ، إلا أن هذا يمكن أن يقارن بعبارة سابقة قالها نيتشه في معرض التعليق على كتاب دوهرنك « قيمة الحياة » . قال دوهرنك : « ليس الزهد صحيحاً كما انه ليس الا نتيجة خطأ قام به الإنسان . » فأجاب نيتشه : « كلا ، فالزهد أمر فطري شعر به أنبل الناس وأقواهم ، انه حقيقة يجب أن يحسب حسابها إذا أردنا أن نقيم لقيم الحياة اعتباراً » . وكان سلوك نيتشه متفقاً مع هـذا دائماً ، فلم يهاجم يوماً قبل أن يدرس ما له وما عليه .

« الفاحصة » . إلا أن بداهات نيتشه الدينية حملته الى أبعد من أية مادية استدلالية فاحصة . لقد بدأت فكرة زرادشت كرد فعل على مرض نيتشه الروحي ، وصار الآن يحاول أن يصور فكرته عن الصحة الكاملة مجسمة في زرادشت . ولم يكن زرادشت من نوع السوبرمان ، وانما كان الرجل الذي استطاع أن يتخلص من الأمراض التي تصيب الآخرين جميعاً فحسب. ويرى نيتشه البشر ، مثل هيس ، مرضى فاسدين مخطئين، فيبشر بالدعوة الى اكتشاف هذه الأمراض للتخلص منها . —

« ما الانسان إلا جدول فسد ماؤه وتعفن ، ولا يمكن أن يستلم هذا الماء أحد ولا يصيبه شيء من فساده وعفونته ما لم يكن محيطاً بذاته .

اني اعلمك عن السوبرمان ، فالسوبرمان هو المحيط ، وفيه يتلاشى احتقارك ويضيع .

ما هو أعظم شيء يمكنك أن تجربه ؟ ان الساعة التي تعاني فيها من أعظم الاحتقار الساعة التي تبدو حتى سعادتك كريهة بالنسبة اليك فيها ، كذلك عقلك وكذلك فضيلتك .

الساعة التي تقول فيها : ما هي قيمة سعادتي ؟ انها الحرمان والدنس والراحة الحقيرة . إلا أن سعادتي يجب أن تبرر نفسها ...

ليست خطيئتك وانما اكتفاؤك هو الذي يدعو السماء ، وحتى لو كنت مخطئاً فإن جشعك هو الذي يدعو السماء .. » (٢٣)

ان أبحاثنا السابقة لا تترك لنا مجالاً للشك في ما يقوله زرادشت ، فانه انما يصف تدهور القيم لدى اللامنتمي ، واحتقاره لنفسه ، وهو يطلب من الجميع أن يكونوا لامنتمين .

انه يحصل على الطريق الوسط ، طريق البورجوازي ، ويشير الى انه من الأفضل أن يكون الانسان خاطئاً عظيماً من أن يكون بورجوازياً ، ذلك لأن زرادشت يعظ بالتطرف .

ولكن ما الذي يقدمه الينا زرادشت؟ما هي سماء دينه ؟ والجواب على

ذلك ، كما رأينا : هو السوبرمان . —

« أين هو البرق الذي يجب أن تمتد اليك ألسنته ؟ أين هي حمى الحياة التي يجب أن تصاب بعدواها ؟

أنظر، انني أعلمك السوبرمان، انه هو البرق، وهو حمى الحياة ..» (٢٤)

ونجد هنا ان نيتشه يعود الى التفكير عن طريق تشتيته « البرق والعاصفة عالمان مختلفان ، قوتان حرتان لا تضبطها أخلاق ... » ، الارادة المطلقة، التي لا تربكها مضايقات العقل ... » وهو لا يعتبر السوبرمان إلهاً طويلاً نحاسي الملامح، وانما يبدأ برؤياه السامية محتفظاً بذلك في ذهنه . انه لا يريد أن يخلق وثناً آخر « ويدلنا أدب الجماعة التي اتخذت من مذهبه في قوة الحياة وثناً ظلت تعبده طيلة العشرين عاماً الأولى من هذا القرن أن نيتشه كان محقاً في خوفه من أن يخلق وثناً آخر » ، وهو يحدثنا في « هوذا الانسان » عن هذا بصراحة :

« ان آخر ما أعد بانجازه هو اصلاح البشر ... لينبذوا الأصنام (وأعني بالأصنام المثل العليا) . وكما عبدوا المثل العليا الخادعة فانهم جردوا الواقع من قيمته ومعناه وحقيقته ... ولم تكن كذبة المثل الأعلى حتى الآن إلا لعنة الواقعية ، وبواسطتها أصبح حتى مصدر الفطرة الانسانية خادعاً مزيفاً، وأصبحت الأفكار المعبودة مضادة تماماً لتلك التي تؤكد على خير الانسان ومستقبله وحقه العظيم في المستقبل ... » (٢٥)

هذا هو جوهر وجودية نيتشه ، ومنه يلوح لنا أن الوجودية صارت انجيل الارادة . انه لا ينفي المثل الأعلى ، على شرط أن يأتي المثل الأعلى في المحل الثاني بعد الارادة ، فاذا تعارضا ، أي اذا أصبحت ارادة الحياة أكثر وفرة عبداً خاضعاً للمثل الأعلى « أو زالت ولم تعد موجودة، كما هو الأمر مع معظم الأساتذة والفلاسفة المحترفين » . فان نيتشه يلقي بالمثل الأعلى الى الحضيض مع كل المثل الأخرى التي تسنده ...

ولكن زرادشت يكتشف انه لا يمكن تعليم الناس الانجيل اللامنتمي :

« ولما تكلم زرادشت بهذا، صاح أحد الناس : لقد سمعنا الكفاية عن

هذا الانسان الذي يمشي كالبهلوان منتصب القامة « السوبرمان » ، فدعنا نراه . وضحك الناس جميعاً من زرادشت ... » (٢٦)

ويستمر نيتشه على توضيح ما يريد . اذ كان زرادشت قد وصف الانسان بأنه حبل متصل بين القرد وبين السوبرمان (ومن هنا نشأت فكرة هيس عن أن الانسان ليس إلا اتفاقاً بورجوازياً) . ويراقب أهل القرية مـا يحدث ؛ في حين يخرج البهلوان من البرج ويبدأ بالسير على حبل ممدود فوق سوق القرية ، وفجأة يخرج من البرج أحد المهرجين ويسير عـلى الحبل ويقفز على البهلوان ، فيفقد توازنه ويسقط من عل.وينحني زرادشت عليه ويهديء مخاوفه من الجحيم،بعد الموت ، ويقول له : لا شيطان هنالك ولا جحيم ، وستموت روحك مع جسدك . ثم يحمل زرادشت الجثة ليدفنها.

ولم يكن حادثاً عرضياً أن يتحدث زرادشت الى الناس عن « الانسان الأخير » قبل سقوط البهلوان وموته :

« يا للعنة ، سيأتي اليوم الذي لا يعود فيه أشد الناس حقـارة قادراً على لوم نفسه ..

واذاك سيصغر حجم الأرض ، وسيظهر عليها الانسان الأخـير الذي سيجعل كل الأشياء صغيرة . ان نوعه باق لا يمكن استئصاله،كالحشرات. وسيعيش الانسان الأخير طويلاً جداً .. » (٢٧)

كان المهرج قد قفز « كالحشرة » فوق البهلوان . ولنتذكر أن اللامنتمي يتدهور ويتذمر بسبب الشعور بالتفاهة الانسانية،بالحمق والحقارة الانسانين. وهكذا نتذكر فان كوخ ونجنسكي من جديد : ويستمر ذرادشت متأملاً ،

« ان الحياة التي يعيشها أمر غريب ، كما أنهـا مملوءة باللامعقول ، اذ قد يسبب مهرج موت هذا الانسان . »

وكان مقدراً لنيتشه أيضاً أن يسقط من مثل هذا الارتفاع ، الا أن ذلك حدث بعد سبع سنوات من تأليفه « هكذا تكلم زرادشت » . ويمكننا بدراسة هذا الكتاب ان نعرف أسباب انهيار نيتشه . لقد عرف نيتشه جيداً

ماذا كان يعني بقاؤه وحيداً ، وشعوره بأنه الانسان الوحيد الذي يتمتع بالصحة الكاملة في عالم زاخر بالمرضى ، وانه موجه من قوة علينا أسمى منه ليقف شاهداً على هذا ، بل ليموت وحيداً اذا تطلب الأمر ذلك .
ونجد لدى رلكه في « مالته لاوردز بريكه » ما يدلنا على لامنتمي نيتشه، إذ أن الشاعر الشاب يجلس في غرفته وحيداً في مدينة غريبة،ويسأل نفسه:—

« من المحتمل أنه لم يسمع أحد أو ير أو يقل شيئاً مهماً أو واقعياً حتى الآن . ومن المحتمل ان الانسان لاحظ وفكر وسجل طيلة آلاف السنين ، سامحاً لهذه الآلاف أن تنقضي ، تماماً كما تنقضي الفترات القصيرة بين الدروس بأكل قطعة من السندويش وتفاحة ..

أجل ان ذلك محتمل ..

هل من المحتمل أنه بالرغم من اكتشافاتنا وتقدمنا فإننا ما نزال على سطح الحياة ؟

أجل ان ذلك محتمل ..

هل من المحتمل ان تاريخ العالم كله قد أخطيء فهمه ؟.

أجل ان ذلك محتمل ..

هل من المحتمل ان يعرف هؤلاء الناس معرفة جيدة ماضياً لم يكن موجوداً ؟ هل من المحتمل ان كل الواقع لا شيء بالنسبة اليهم،وان حياتهم مستمرة دون أن يربطها شيء بأي شيء آخر،كأنها ساعة في غرفة خالية؟

أجل ان ذلك محتمل ..

ولكن إذا كان ذلك كله محتملاً ، أو كان فيه قبس ضئيل من الاحتمال — فإنه لمن المؤكد ... ان شيئاً يجب أن يحدث ... ان الآتي الأول يجب أن يفعل شيئاً من الأشياء المهملة ... وليس لدينا غيره الآن.» (٢٨)

ويعبر زرادشت عن لاانتمائية نيتشه في « طريقة الخالق » :

« قد يضل من يفتش ، والوحدة هي خطيئة .. هذا ما يقوله القطيع وقد كنت أنت منذ زمن بعيد من هذا القطيع .

ما يزال صوت القطيع فيك ، أما اذا قلت : لن يكون لي ضمير عام يجمعني بهم ، فان ذلك سيسبب لك ألماً وحزناً كبيرين .

أتدعو نفسك حراً ؟ انني أصغي الى سيدك الفكر ، لا الى نجاتك من القيد.

ولكن هل أنت الانسان الذي ينجو من القيد ؟ لقد خسر الكثيرون قيمهم حين تخلوا عن خدماتهم وعبوديتهم ..

حر من ماذا ؟ وكيف يعني هذا الأمر زرادشت ؟ دع عينك تقول لي بصراحة ، حر – من أجل – ماذا ؟ » (٢٩)

« ... سيأتي اليوم الذي تجد نفسك فيه ضجراً من الوحدة، حين ينكمش فخرك وكبرياؤك ، وتصر شجاعتك على أسنانها ، إذ ذاك ستصرخ : أنا وحيد .

سيأتي اليوم الذي لا ترى فيه أشياءك السامية ، وانما تجد حولك كل الأشياء التافهة ، وحينذاك ستخاف من غبطتك الذاهلة ، وتراها شبحاً مخيفاً ، وستصرخ : كل شيء زائف .

هنالك أحاسيس تقتل الوحيد، فاذا فشلت في ذلك قتلت نفسها . هل في استطاعتك أن تكون قاتلاً ؟ » (٣٠)

وكان نيتشه قد كتب ما يلي ، قبل أن يكتب ذلك بسنة واحدة ، في « سانكتوس بانيواريوس » :

« أود أن أقول – نعم – دائماً . » ، ونجد في «زرادشت» كل الصعوبات التي تعترض الانسان المجبول على الشكر :

« وهكذا قال لي نقائي في احدى الساعات الطيبة – ستكون كل الكائنات مقدسة بالنسبة لي .

ثم جئت أنت مع الأشباح القذرة، يا للعنة، ترى أين ذهبت الساعة الطيبة؟

لقد قررت مرة أن أنبذ كل اشمئزاز ، فجئت أنت وبدلت كل ما حولي الى تقيحات سرطانية .. فماذا حدث لقراري النبيل ؟ » (٣١)

ونستطيع أن نقول، ونحن عادلون في قولنا هذا ، إن نيتشه نفسه كانت تنقصه خصائص السوبرمان ، أو بعبارة أخرى ، انه كانت تنقصه القوة الأساسية

والقابلية الأولى على ضبط النفس للتغلب على الأحاسيس التي يثيرها الحمق والتفاهة الانسانيان ، تماماً كما كانت تنقص هذه الأمور كلاً من فان كوخ ولورنس ونجنسكي وأبطال سارتر وباربوس وكامو . أما أبطال همنغواي فقد نجوا من هذه التفاهة بالاشتراك في تجارب عنيفة : مثل الصيد الخطر ومصارعة الثيران والحرب . إلا ان هذا لم يحل أية مشكلة ، وانما « كما يقول برنارد شو : عادت كلها الى شهوة الفعالية المنتجة والنوعية العالية في الحالية . » ان المشكلة هي تلك التي بيناها في الفصل الثاني «عالم بلا قيم». ان هذا العالم الذي يولد فيه اللامنتمي هو دائماً عالم بلا قيم. ان هذا العالم، بالنسبة الى الأهداف والشهوات التي يتصورها اللامنتمي، لا يمكن أن يسمى حياة، انه تيار فحسب. وهذا هو سر شقاء اللامنتمي، لأن في البشر جميعاً شيئاً من فطرة القطيع ، التي تقودهم الى الاعتقاد بأن ما يفعله معظمهم يجب أن يكون صحيحاً . فاذا لم يستطع اللامنتمي أن يخلق قيماً جديدة تتمشى مع الشدة التي تتميز بها أهدافه، فانه من الأفضل له أن يلقي بنفسه تحت عجلات الأوتوبيس، لأنه سيكون متبوذاً دائماً، ولن يناسب المجتمع قط .

ولكنه اذا استطاع أن يجد الهدف ، استطاع أن يتغلب على نصف الصعوبات . فلندع اللامنتمي يتقبل ما يلي بلا أدنى تردد : « انني مختلف عن الآخرين ، لأنني مدفوع الى شيء أعظم . » ولندعه يعتبر نفسه كالانسان المعد ليكون شاعراً أو نبياً أو مصلحاً اجتماعياً ، إذ انه بذلك سيحل نصف مشاكله . إلا ان اللامنتمي يقول الآن : « توجد في معظم البشر أخوة فطرية تدفعهم الى الارتباط بغيرهم من البشر، وتلك هي فطرة القطيع . أما أنا ، فانني أحس بفطره أخرى، برابطة تؤآخيني بشيء أعظم، بدلاً عن البشر، وتتطلب مني شيئاً من السمو والرفعة . » أما حين يحتاك اللامنتمي بالآخرين ويعطف عليهم ، فانه يجد ان كل ما يميزه عنهم يتهاوى ويتلاشى، فهو لا يستطيع أن يقول: أنا شاعر ، وهم ليسوا كذلك، لأنه يدرك حالاً انه لا يوجد رجل أعمال كامل ، تماماً كما في حته ، لا يوجد شاعر كامل، فلا يستطيع إلا أن يقول : ان الهدف الذي يجعل

مني شاعراً هو أقوى لدي مما هو لديهم . ان ابرته المغناطيسية تشير الى القطب لأنه اتجاه الجاذبية، أما ابرهم فانها تدور في كل الأنحاء ، ولا تشير الى القطب إلا اذا اقتربت منه جداً ، أي حين يقعون تحت تأثير «الوطنية» أو «الخمر» أو «العواطف» . ولست أقلل من شأن هذه العوامل الثلاثة الأخيرة ، فان كل أشكال الدافع الانساني الذي يثير فيه العمل الهادف صحيحة وجيدة، واذا استمرت لمدة طويلة كافية، فبامكانها أن تجعل من الانسان لامنتمياً . وقد كتب بليك يقول : « اذا استمر الأحمق على حمقه فإنه يصبح حكيماً .. »

تلوح هذه الاستنتاجات واضحة بعد دراستنا لنيتشه. لأنه حقق خطوات كثيرة بامكانها أن تلقي كثيراً من الضوء على الطريق الغامض الذي يريد اتباعه من أجل الخلاص . ولنبدأ بالاستنتاجات التي وصل اليها نيتشه ، كما فعلنا نحن في الفصل الرابع : إن النظام العقلي ليس كافياً بحد ذاته . وليس زرادشت إلا فعالية عقلية كخالقه ، وهو أيضاً شاعر ومتصوف طبيعي مثل فان كوخ ، وعاشق للجسد مثل نجنسكي ، لأنه لا يكف عن الادعاء بأنه راقص ، والرقص هو أبلغ أنواع التعبير الذاتي . ونستطيع أن نجد فيه رد الفعل نفسه الذي نجده لدى بليك ووالت وتمان ضد الذهنية الباهتة؛ لأن زرادشت دائم التغني بكهربائية الجسد : « أنا الجسد دائماً ، ولا شيء غير الجسد » ، « ليست الروح إلا اسماً لشيء من الجسد » ، في حين يكتب بليك : « ليس للانسان جسد متميز عن الروح ، لأن ما يدعى بالجسد هو في الحقيقة جزء من الروح تميزه الحواس الخمس » ونجد ان عبارتيهما تتعارضان ، إلا انهما تعتبران معاً رجعاً لمفهوم واحد ، هو أن الجسد حيوي وخير .

إلا ان نيتشه اعتبر مفهومه هذا متعارضاً مع المفهوم المسيحي : « ان الجسد ليس غير هيكل هش لا أهمية له يحتوي على الروح . » ان مذهب التمركز الذاتي الذي يختفي وراء المسيحية المتنسكة في القرون الوسطى (والذي يتحكم حتى الآن في كثير من أديار الرهبان) يعتبر الانسان حراً في بدايته ، الا أن سقوطه جعله عبداً للأشياء الخارجية ، ولهذا فان خلاصه

يكمن في عودته الى أعماقه ، بعيداً عن الأشياء الخارجية ، وكان متعلقاً بالمسيح أكثر من تعلقه بالمسيحيـة التاريخية ، ولما لم يجد شيئاً من احتقار الجسد لدى المسيح ، فانه استطاع أن يصرح بأنه مسيحي لا ينقص ايمانه شيء ، أما نيتشه فقد كان مهتماً بلوثر أكثر من اهتمامه بالمسيح ، ولما كان لوثر يحتقر الجسد ، فقد دعا نيتشه نفسه مضاداً للمسيحية ، في حين كان يعني انه مضاد للوثر . ويقل نيتشه عن بليك تكريساً وذهنية ، رغم وجود تشابه جوهري بينهما ، على انـه من الأفضل أن ندعو نيتشه باسم المسيحي من نوع بليك ، بدلاً من اعتباره وثنياً كافراً ، على شرط اننا نفهم ماذا نعني بالمسيحي من نوع بليك (وانه ليؤسفنا أن نقرر أن دراسة مسيحية بليك ليست من اهتمامات هذا الكتاب .)

لقد فهم نيتشه اللامنتمي أكثر مما فعل ذلك أي واحد من أولئك الذين بحثناهم . لقد كان لورنس وفان كوخ رجلين يعمـلان في الظلام ، في حين لم يكن نيتشه كذلك :

« ليس الارتفاع مخيفاً ، وانما السقطة هي المخيفة .

تلك الوهدة التي تهبط اليها النظرة ، في حين تتلمس اليد حولها باحثة عن طريق الى الأعلى ...

تتعلق ارادتي بالانسان ، وأربط نفسي بقيود تشدني الى الانسان ، لأنني مرفوع الى الأعلى .. الى السوبرمان ، حيث تنطلق ارادتي الأخرى . » (٣٢)

لقد خطا نيتشه الخطوة التاليـــة ، وتخلص من عالم ستراود الخالي من أي هدف ، قابضاً بكلتا يديه عـلى مصيره كنبي ، بالرغم من ان ذلك يعني بقاءه وحيداً تماماً . وكان في البداية يعتبر ذلك « رغبة في الحقيقة مهما كلف الأمر » ويظن ان هذا هو الدافع الـذي يكمن فيه ، إلا انه اكتشف أعماق هذا الدافع فيما بعد ، فلم يجده رغبة في الحقيقـــة فحسب وانما وجده رغبة في الحياة والادراك وذوبان الروح في المادة الميتة .

ولم يكن هذا آخر ما في المشكلة ، وقد يكون كذلك لو عادت حضارتنا

ألفي سنة الى الوراء . ان ما أراده نيتشه هو أن يبدأ ديناً جديداً،وقد شعر، كما فعل « مالته » بطل رلكه ، بأنه الوحيد الذي أدرك ضرورة ذلك ، وبأنه ، لذلك ، الوحيد الذي يجب ان يحمل أعباء هذا العمل الخطير على عاتقه . الا انه لم يكن يعلم كيف يبدأ ، وكان كل ما درسه يؤهله ليكون عالماً لغوياً فحسب ، وقد كان أفضل له لو درس كيف يكون قاصاً أو قسيساً. كان نيومان مثلاً يشبه نيتشه من حيث الجوهر ، وكان محفوظاً لأنه آمن بأنه يجب أن يفتش عن طريقته داخل المسيحية ، فقد كان ذلك الأمر الوحيد المعقول الذي كان باستطاعته أن يفعله،ما دام الانعزال في الصحراء لا يتفق مع الأوروبي الحديث ولا يناسبه . إلا أن تأثير نيتشه كان أعظم من تأثير نيومان، لأن نيومان اختار ان يعبر عن نفسه داخل الكنيسة ، في حين ان البطولة التي أبداها نيتشه أعظم بمراحل،وكذلك العذاب الذي عاناه ، كما ان مأساته تؤثر فينا أكثر مما تفعل ذلك مأساة نيومان المغمورة في طيات النسيان .

الا ان العنصر المفزع في حياة نيتشه هو الضياع . ولو كانت ظروفه مؤاتية لتوفرت لديه القوة على استعادة الانتعاش الروحي ، إلا أنه بدلاً عن ذلك مات مجنوناً ، وكان في موته يشبه مدفعاً كبيراً يتسبب خلل بسيط في انفجاره وقتل المحيطين به جميعاً . لقد انفجر نيتشه بالرغم من القوى التي كانت في يديه ، والادراك السيكولوجي لنفسه الذي يلوح لورنس نفسه إلى جانبه هاوياً متواضعاً . ترى كيف كان في امكانه ان يتجنب ذلك ؟ لقد كان شيء ما مغلوطاً ، ولم يولد الدين الجديد قط ، وقد أسيء فهم نيتشه ، ولم يسيء فهمه أعداؤه بقدر ما فعل ذلك مرضى النورالجيا الذين ادعوا بأنهم من أتباعه . وانها لمشكلة كبيرة ، فمنذ موت نيتشه عاد اثنان من أنبياء أفكار نيتشه لمهاجمته ثانية ؛ وهما برنارد شو وغوردييف (وسأتناول مساهمتها في مشاكل اللامنتمي في الفصل الأخير من هذا الكتاب) . ولا يمكن أن يقال عن أي واحد منهما انه حل المشاكل ، وانما نقلاها الى ساحة جديدة . وتوصلا الى نتائج ذهنية مثيرة .

أما اليوت فقد حلها لنفسه بالعودة الى التقاليد. وسنواجه مثل هذا الموقف حين نبحث ت. ى. هولمه في الفصل الأخير .

أما الآن فيمكننا أن نلخص مساهمة نيتشه في الموضوع . لقد حل نيتشه مشكلة الجمع بين الجسد والشعور والعقلية وبلغ النتائج ذاتها التي توصلنا اليها في الفصل الرابع . وأرانا انه يعتبر اللامنتمي نبياً مستتراً — حتى عن نفسه — وان هذا النبي يجد خلاصه في اكتشافه أعمق اهدافه والقاء نفسه فيها بعد ذلك . وهو لا يميل قط الى ما يدعو اليه سارتر من استسلام — اي الاعتقاد بأن أي هدف هو معقول ما دام فيه شيء من الخير للآخرين— فإذا أردنا ألا نوضح هدف النبي هذا بأبسط ما يمكن لوجدنا انه الرغبة في صياح : « استيقظ » في كل اذن . ولكن لماذا هذه اليقظة ؟ ومم هذه اليقظة ؟ وهل ان البشر نائمون جميعاً ؟

ان ما نحتاج اليه هو دراسة سيكولوجية نافذة للوضعية الانسانية ، فان هذا كله محدود المعنى بالنسبة الينا ، حتى نستطيع أن نقول : الانسان هو هذا ، وهذا هو ما يتقرر أن يفعله .

لم أحاول في هذا الفصل أن استعرض استعراضاً كاملاً جواب نيتشه الذي حاول أن يفسر به مشاكل اللامنتمي . بل انني لم أقتبس شيئاً من الكتب التي عالج فيها هذه المشاكل،مثل « وراء الخير والشر » و « أصل الاخلاق» و «ارادة القوة » . الا ان الفصلين القادمين سيوضحان ذلك أشد التوضيح ، أضف الى ذلك أن المشكلة ليست مشكلة فيلسوف ، كما أن نيتشه نفسه اكتشف: ان الذهن ليس كافياً . الا انه ظل فيلسوفاً وظل يهاجم المشكلة بأسلحة فلسفية ، بلغة النقد ، وتنظيم الأفكار في مقاطع وفصول . إلا أن زرادشت أوضح لنا أين يكمن الجواب،انه كامن باتجاه السيكولوجي الفنان،والمفكر الذاتي . ولا يوجد في آداب العالم إلا القليلون من أمثال هذا المفكر، فان الفنان العظيم ليس مفكراً،في حين ان المفكر العظيم ليس فناناً . الا أننا نستطيع ان نجد ذلك في الأدب الروسي ، حيث نجد كاتبين عظيمين جمعا بين هاتين الميزتين . وعلينا الآن أن نبحث في الطريقة التي عالجا بها مشاكل اللامنتمي .

الفصل السادس

مسألة الذاتية

لا يعرف اللامنتمي من هو ، « فقد وجد (أنا) الا انها ليست (أنا) حقيقية » ، أما هدفه الرئيسي فهو أن يجد طريقاً للعودة الى نفسه .

ليس هذا سهلاً ، ولم نتطرق الى هذه المشكلة بعد في الحقيقة، وانما حللنا ضياع اللامنتمي فحسب . أما محاولة السيطرة ، فليست إلا فشلاً لم ينجم عنه غير ادراك أكثر لهذا اللامنتمي المعقد تعقيد الساعة . وليس قولنا « بأنه يريد أن يجد طريقاً للعودة الى نفسه » الا تعريفاً مؤقتاً لهدفه ، الا ان ذلك ليس بسيطاً كما يصوره لنا بعض الروائيين الناجحين في هذا العصر « الذين يبيعون أكبر عدد ممكن من الكتب عن حياة فان كوخ وكوكان .. الخ أولئك الذين بسطوا الأمر في معالجتهم ، التي تعتمد على الخيال ، لموضوع اللامنتمي . ان المشكلة تحتاج الى تحليل سيكولوجي مفصل،والى لغة محكمة لم يسبق لها مثيل في عالم الأدب » اذا قبلنا على هذا الأساس شعر اليوت خاصة « القطع الموسيقية الأربع » ، وبعض الصفحات من — يوليسيس — لجيمس جويس » . على انه موضوع لا يخلو من المزالق والمهاوي التي تعرقل الفهم وتضلله ، كما أن الكتابة فيه تفضح كون لغتنا أصبحت عاجزة على أيدي الصحفيين والكتاب الذين لا يجدون ما يقولونه ..

على أن اللغة هي الوسط الطبيعي للتعبير عن الذات ، ولهذا فان فكرة « العودة الى النفس » لا يمكن أن تتحقق أو يعبر عنها إلا عن طريق

اللغة . وهنا سيجد القارىء اننا بحثنا فيما يفهمه اللامنتمي من « نفسه» دون أن نشير الى طريقه الى ذلك. ويجب علي هنا أن أشير الى أن هذا «الطريق» لا يدخل ضمن نطاق الكلمات بقدر علاقته بالحركة . ان اللامنتمي يسأل في مرحلة معينة سؤال «بنيان» : ماذا يتعين على أن أفعل لكي أخلص ؟ فاذا كان جوابه هو جواب ايفان ستراود : « لا شيء يستحق بذل أي مجهود » ، فلا طريق له اذن ، ومن الأفضل له أن يقتل نفسه أو ينتحر عقلياً . على انه من حسن الحظ أن لا يكون جواب ستراود نهائياً، ذلك اننا نستطيع ان نهاجم السؤال من ناحية أخرى فنسأل بدورنا : الخلاص من ماذا ؟ وهذا مما يقلل من شأن المشكلة شيئاً ويحصرها بـ « لا » أو «نعم» النهائيتين . ويجلبنا سؤالنا « الخلاص من ماذا ؟ » الى سؤال آخر مباشر : ما هو أسوأ ما تريد ان تخلص منه ؟ أو ما هو أسوأ شكل من أشكال « لا » النهائية ؟ وقد ذكرنا بعض الأمثلة المرعبة : هيروشيما والمذبحة الأرمنية – وهنالك صفحات في « أعمدة الحكمة السبعة » تكفي قراءتها ليمتنع المرء عن الطعام ، إلا ان هذه الأشياء ليست اشكالاً نهائية الشر ، كما انها اشياء قديمة مألوفة في التاريخ . ويستطيع القارىء أن يجد كثيراً من هذه الأمثلة في الجناح الاشوري في المتحف البريطاني مثلاً ، كيف أن آشور ناصر بال الثاني « أحرق شبانهم وشاباتهم بالنار ، » وارتكب جرائم أقسى لا يمكننا ذكرها هنا . ويمكننا أيضاً أن نقارن هذا ببيلسن وبوخنوالد بعد ثلاثة آلاف سنة من الحضارة .. أجل ان هذه الأشياء شرور ظالمة قاسية ، إلا انها لا تقف بوجهنا دون أن يكون في استطاعتنا تجنبها.

اننا نأتي الى فكرة الشر الحقيقي حين نبحث امر تشتتات جيمس وأبيه، ذلك لأن هذا الشر يهاجم العقل لا الجسد . لقد كان آشور ناصر بال معوضاً لهذا الخوف نفسه لو كان في محل اولائك الذين قتلهم،وكان هتلر معرضاً له ايضاً لو كان هو في محل أولئك الذين عذبوا وقتلوا في المعتقلات ، أو في محل يهود وارسو.ان مثل هذا الرعب لا يدع فرصة للبشر ليستمروا

على وجودهم الحقيقي وإنما يجعلهم لا حقيقيين :

« فكر بنا ، لا كأرواح ضائعة قاسية ،
وانما كبشر فارغين ، كبشر منخورين .
فاذا حانت ساعتي كما حانت ساعته ،
فان كل ما أملكه لا يستطيع أن ينقذني ... »

هذا استنتاج رهيب نتهيب من قبوله باعتبارنا بشراً ، ولهذا علينا أن نعيد السؤال : هل من طريق الى الخارج ؟

يجب ان لا نغير شيئاً من طريقتنا السابقة في بحث هذه المشكلة ، أي أننا يجب ان نلجأ الى الأمثلة الحقيقية أيضاً ، ويمكننا ان نعود الى وليم جيمس بحثاً عن اتجاه نسير فيه . وسننبذ الحالات الدينية جميعاً: وهذا مما يقلل من حريتنا في اختيار « الأرواح المريضة » ، إلا ان جيمس يشير الى « اعتراف » تولستوي ، وهذا ما يمكن اعتباره نقطة انطلاق بالنسبة الينا ، لأن تولستوي بدأ كمفكر حر على الأقل تابعاً في ذلك تقليد العقد الرابع من القرن الماضي . وبالاضافة الى ذلك فان تولستوي يشبه نيتشه وكيركغارد في أنه وصل الى استنتاجات دينية في الوقت الذي كان يجد فيه تأييده للكنيسة المتطرفة الاورثوذكسية مستحيلاً ، وهذا أمر مألوف من اللامنتمي.

يدلنا اعتراف من اعترافاته على أنه بدأ في الخمسين من عمره (حين كان مشهوراً بقصتيه الحرب والسلم ، وأنا كارنينا) يسأل الأسئلة التالية : ما هي الحياة ؟ لماذا يجب علي أن أعيش ؟ لماذا يجب علي ان أفعل أي شيء ؟ هل هنالك أي معنى في الحياة في امكانه أن يقهر الموت الذي لا يمكن تجنبه؟

ومن الطريف أن نلاحظ أن تولستوي يقول ، ويعتقد طبعاً، بأن هذه الأسئلة لم تزعجه من قبل بصورة جدية ، إلا أننا مع ذلك نجده يضع على لسان بيتر بيزوكوف قبل خمسة عشر عاماً في « الحرب والسلم » العبارات : ما هو الشر ؟ ما هو الخير ؟ ... لماذا يعيش الانسان ؟ ماذا أنا ؟ ما هي الحياة وما هو الموت ؟.. الخ . (١) وهنالك طبعاً درجات في تفهم مشاكل اللامنتمي، وقد

دفعت قوة المرحلة التالية تولستوي الى ترك المرحلة الأولى . إلا أننا يجب أن نلاحظ أيضاً انه كلما اشتدت هذه المشاكل ازداد عجز الانسان امامها . ويمكن اعتبار تولستوي مثالاً على الأمر الذي ذكرته في الفصل الرابع،حالة محاولة الوصول الى حل مع الاحتفاظ بالأشياء القديمة ، أي حالة البقاء على المولد الواحد . ونرى في مشهد القصف في « الحرب والسلم » كيف أن بيتر يلاحظ ان الجنود لا يدركون طبيعة ما يقومون بعمله .. (٢) ان مشكلة الموت ، ومعنى الحياة مفصولة تماماً عن القسوة الانسانية ، ولا انسانية الانسان نحو أخيه الانسان. ولا يفكر آشور ناصر بال ولا هتلر بهذا،في حين يلاحظ فلوريان ، بطل قصة والتر بيتر « طفل في البيت » أن جميع الكائنات الحية مشتركة في شرك واسع من القسوة،على رغم لطفها ومدنيتها،ذلك لأن الشر هو في الخارج.

لقد بدأت تجارب تولستوي تماماً كما بدأت عند روكانتان: « منذ خمسة أعوام ، بدأ يحدث لي شيء غريب ، تألف في البداية من لحظات من القلق والضيق بالحياة ، وكأنني لم أكن أعرف كيف أعيش وماذا أصنع ... ثم صارت تلك اللحظات تتكرر دائماً ..» (٣)

وأخيراً بدأت نوبات « الغثيان » . « شعرت بأن ما كنت أقف عليه قد انهار ، وأنه لم يبق تحت قدمي شيء ، ولم يعد ما كنت أعيش من أجله موجوداً ، ولم يبق لي شيء أعيش له .. » (٤)

« ليست هنالك مغامرة ما » : لا حاجة لي الى الاستمرار على ما كان يحدث . ويحدثنا تولستوي بشيء يوحي بسلوك اللامنتمي الكامل نحو البشر ، فيقص علينا خرافة شرقية تدور على رجل يتعلق بغصن يتدلى الى هوة عميقة ؛ لينجو من وحش مفترس في الأعلى ، ومن وحش آخر في الأسفل ، بينما يقرض الغصن جُرَذان ، وبينما هو معلق هكذا ينتظر الموت ، يلاحظ بعض قطرات من العسل على أوراق الغصن ، فيمد لسانه اليها ويلعقها ، (٥) وهذا هو الانسان، الذي يتعلق بين احتمالي الموت العرضي العنيف ، والموت الطبيعي الذي لا يمكن تجنبه ، أما الأمراض « الجرذان » فانها تسرع بالنهاية،الا أن هذا الانسان ما

يزال يأكل ، ويضحك من الممثلين الهزليين في السينما .. هذا هو الانسان الذي يقول ان اللامنتمي عليل ، لأنه لا يشتهي العسل !

وهنا يجب أن نعود الى أقصوصة تولستوي « مذكرات مجنون » التي كتب فيها عن هذه الأزمة أيضاً ، لأنها تجعل هذه النقطة أشد وضوحاً . ان بطل هذه الأقصوصة يشرح لنا كيف ان المجلس فحصه تواً ولم يقرر جنونه لأنه كان مجنوناً،وانما لأنه كبت نفسه ولم يستسلم،ويستمر في حديثه فيخبرنا كيف صار مجنوناً،وفي هذا يقول انه كان طفلاً حين تلقى النوبة الأولى،وكان ذلك حين سمع بقصة « صلب المسيح » : اذ أثرت عليه تلك القسوة أبلغ الأثر : « فبكيت وبكيت وأخذت أضرب رأسي على الجدار . »

ثم يستمر في وصف نضوجه ، وفترة شبابه ، والعادة السرية « وقد شغلت هذه المشكلة بال تولستوي ، الأمر الذي يجده نيتشه وكيركغارد مضحكاً » ، ويصبح بعد ذلك موظفاً مدنياً ويتزوج ويدير مقاطعاته ، وأخيراً يصبح قاضياً للصلح ، بعد أن يبلغ منتصف العمر .

وبينما هو في طريقه يوماً لشراء مقاطعة بعيدة ، يستيقظ من العربة « شاعراً بوجود شيء مرعب » ، الأمر الذي يذكرنا بحالة السر هنري جيمس،اذ يصيبه مثل هذا وهو في وسط رضائه وصحته الجيدة وراحته .. أما تأثير هذا الشعور فانه يشبه حالة روكانتان ، اذ يصيبه الغثيان حين يرى دمامل صاحب الفندق ، وزوايا الغرفة البيضاء .

ويعاوده الرعب ليلاً ، فيفكر : « لماذا جئت هنا ؟ الى أين أنا ذاهب ؟ انني هارب من شيء مرعب لا أستطيع ان أنجو منه . انني مع نفسي دائماً . وانني أنا الذي اعذب نفسي . لا مقاطعة بنزا ولا أي شيء آخر أملكه يمكن أن يضيف إليّ أو يسلبني شيئاً . انني ضجر من نفسي وأجدها عذاباً لا يمكن احتماله . أريد أن أنام وأنسى نفسي إلا انني لا أستطيع أن أفعل ذلك . لا أستطيع أن أهرب من نفسي .. »(٦)

اننا نجد هنا أصداء من ت. ي. لورنس : « ... انني لا أحب

الـ «النفس» التي أراها وأسمعها » وأصداء أخرى من روكانتان ونجنسكي ووليم جيمس : « لا شيء أملكه يستطيع أن ينقذني .. »

ويحدثنا تولستوي في هذه الأقصوصة عن كثـــير من هذه النوبات ، ويرينا كيف أن فكرة الموت تقلقه ، ولا معنى الحياة يعذبه :

« لماذا هذه الحياة ؟ أللموت ؟ ألأنتحر حالاً ؟ كلا، انني خائف . ألأنتظر الموت حتى يحين ؟ بل انني أخاف ذلك أكثر . اذن يجب أن أعيش . ولكن لماذا؟ ألكي أموت ؟ ولم أستطع أن أنجو من تلك الحلقة المفرغة . وأخذت كتاباً وقرأت ، ونسيت نفسي للحظة، الا انني عدت مباشرة الى الرعب والسؤال السابقين. واضطجعت وأغلقت عيني ، ولم يقلّ الأمر سوءاً . » (٧)

ويحاول أن يصلي، صلاة بالمعنى المملوء بالشكوك، كما في « أربعاء الرماد » : « لو كنت موجوداً فاخبرني من أنا ولماذا أنا موجود ، » ولا نتيجة .

أما نهاية الأقصوصة فانها محيرة ، فانه يخرج الى الصيد ، ويتيه في الغابة ، ويعاوده الرعب فيها ، الا انه يجد نفسه قريباً من طريق فطري للخروج ، ويعود الى البيت فيصلي مستغفراً عن خطاياه . وتباع مقاطعته بعد ايام ، بشروط تفيد المشتري وتضر بالفلاحين، فيدرك ان البشر أبناء أب واحد ، ويقرر عدم شرائها ، ويذهب الى الكنيسة ويعطي كل أمواله الى الشحاذين ويعود مع الفلاحين الى بيته وهم يتحدثون عن الدين . (النتيجـة نفسها مع نجنسكي أيضاً) .

ونظن ان أقرباءه هم الذين يطلبون أن يحكم المجلس بجنونه . والى هنا ، نجد أن تتبعنا لقصة «المجنون» يمكن أن يقارن بتتبعنا السابق للامنتمين الآخرين ، ما عدا الصلاة ودراسة الانجيل . لقد كتب تولستوي هذه الأقصوصة حين كان في السبعين، الا اننا نجد انه توصل الى نتائج أبعد من هذه حين كتب قصة « الحرب والسلم »، يوم كان في الخامسة والثلاثين فقط . اذ نجد ان بيتر بيزوكوف يصل الى حل نهائي ، وذلك بالاشتراك في الماسونية الحرة ، اذ انه يتبنى فكرة ان البشر جميعاً هم أشقاء . على ان تولستوي لم يكن أحمق ، ولا بد ان هنالك شيئاً في استنتاجاته الأخيرة، شيئاً منبثقاً عن مشاكل اللامنتمي .

الا أننا سنلجأ ، قبل أن نبحث ذلك ، الى ناحية أخرى عالج فيهـا تولستوي الفكرة نفسها ، لأنها ستساعدنا كثيراً في الاستمرار على اتجاهنا.
انه يتحدث في بداية « الاعتراف » عن النوبات المتزايدة المستمرة :

« وحدث ما يحدث لكل من يعذبه مرض داخلي مميت ، ولم يتعد الأمر في البداية بعض علامات المرض التي تتكرر بعد ذلك حتى تصبح سلسلة طويلة متصلة من العـذاب . ويشتد العذاب ، وما يكاد المريض يرفع رأسه لينظر ما حوله حتى يموت ! » (٨)

ولا تشذ قصة « موت ايفان ايليتش » عن هذا أيضاً ، اذ ترينا ايفـان ايليتش موظفاً عادياً مولوداً مرة واحدة فحسب ، يسعى ليكون قاضياً للصلح ، « ويكرر تولستوي دائماً العبارة التاليـة : «لا تحكم لئلا يحكم عليك» ، ويتمتع ايفان بالبيت والأطفال والنادي والرفاق المعجبين به الخ ثم « تبدأ الوعكة الخفيفة » ، ويستمر السرطان يأكل وجوده ، حتى إذا شعر بأن الموت يهدد كيانه بدأ يسأل نفسه : ترى الا يمكن أن تكون حياتي كلها خطأ ؟ ذلك الشعور الذي يشبه شعور روكانتان ، الشعور بلا معنى الحياة، حياته وحياة الناس الآخرين . ولكن كيف كان يتعين عليه أن يعيش الحياة إذن ؟ ولكنه لا يستطيع أن يجد جواباً . كانت هنالك لحظات ، إلا أنها كانت كالبرق الخاطف ، حدثت ثم تلاشت ، ولم يعد يذكرها ، أما زوجته وأطفاله فإنهم لا يكترثون اليه . الواقع،وحتى لو اكترثوا اليه فليس ذلك أمراً مهماً . لقد عاش حياته كلها مع النـاس الآخرين ، الا انه يموت الآن وحيداً . وفجأة يشعر بشيء من الحنان نحو زوجته التي كان قد كرهها لعدم اخلاصها ولضحالتها ، ويضيء هذا الحنان ظلماته ويبعث فيه شيئاً من الايثار ، واذا بخوفه من الموت يتلاشى :

« كان هنالك نور بدلاً من الموت ...
« لقد انتهى الأمر » ، تلك كانت الكلمات التي رددها أحد الحاضرين.
وسمع الكلمات ورددها في روحه :
« لقد انتهى الموت » . (٩)

اما الكلمات التي أطلقته من شقائه فكانت : « سامحيني » .

لدينا الآن أربعة أشكال من اليقظة الدينية التي يعبر عنها تولستوي ، تبدأ كلها بأن يصبح الشخص لا منتمياً . ويمكن تقسيمها الى نوعين : بيتر بيزوكوف المجنون وتولستوي نفسه ، وقد قاسيا معاً من نوبات تشبه تلك التي قاساها روكانتان . أما إيفان ايليتش فقد عاش حياة لا حقيقية ولم يدرك ذلك إلا حين أحس باقتراب الموت ، تماماً مثل ميرسول . وكان العرض الرئيسي في كل الحالات الشعور بكراهية الذات ، ومحاولة التهرب من النفس . ويتم هذا التهرب عن طريق اعتبار « الايثار » جوهر المسيحية والتعلق به . ان الهدف هو الخلاص من النفس ، أما الناس الآخرون فهم الوسيلة التي يتحقق بها هذا الهدف . على أن الهدف ما يزال الرغبة في التخلص من النفس ، فإذا تم هذا بحب الآخرين والشعور بالحنان تجاههم فان ذلك لا يعني إلا شكلاً جديداً من أشكال حب النفس.

لا يوجد كبير اختلاف بين هذا وبين تعاليم نيتشه في « زرادشت » . لقد قال زرادشت « ما هو أعظم شيء يمكن أن يجربه الانسان ؟ انه احتقار النفس » . ان الوسيلة التي يتبعها نيتشه مختلفة، إلا أن النتيجة واحدة .

لا يستطيع تولستوي أن يقدمنا أكثر مما نحن عليه بخصوص مشاكل اللامنتمي ، انه يستطيع أن يأخذنا أبعد فيما لو لم يكن غرضنا استبعاد المقاصد الدينية ، ولهذا فيجب علينا أن نختصر بحثنا عن تولستوي . على أنه مقصد ديني مبني على الدراسة العقلية ، لأنه يبحث عن جوهر المسيح في حياته وتعاليمه لا في « موته المخلّص» ، الا أنه يذهب في ذلك إلى حدود لا تمكنها أن تلقي أي ضوء على الدراسة.ا نه يقول مثلاً ان عالم الروح هو خير ومن الله ، وأن عالم المادة هو شر وهو من الشيطان ، وقد ذهب أولئك الذين كانوا يدينون بهذا الرأي في القرون الوسطى إلى منتهى ما يتوصل اليه الاستنتاج المنطقي منه، فقالوا بأن العملية الجنسية والتسبب في مولد بشر آخرين هما بحد ذاتهما شر (ويزيد تولستوي ذلك أيضاً) ، وكانوا يهرعون الى مساعدة المحتضرين فيحثونهم على تجويع أنفسهم ،

قائلين لهم انهم مقدمون على ترك الشر وراءهم مع الجسد . الا ان تولستوي لا يتطرف هكذا ، بـــل تقوده معتقداته فيما هو خير أو شر الى الايحاء بدين تلمودي القوانين وعقيدة لا يمكن ان يصلها وجوديو الفصل الأول .

من أنا ؟ ــ هذه هي مشكلة اللامنتمي النهائية . حسناً ، من هو بالضبط ؟ ان الانسان « هو اتفاق بورجوازي » ، أي انه موضع في منتصف الطريق ، ولكن في منتصف الطريق الى ماذا ؟ ألِلى السوبرمان ؟ لقد رأينا ان السوبرمان ليس قطعة عملاقية من الغرائب النيتشية ، وانما هو مفهوم شعري كامـل تطور عن الدوافع ذاتها التي تطور عنها القديس أو المصلح الروحي . إلا ان « الرجل العظيم هو في الحقيقة الممثل الأول لمثله العليـا الخاصة » ، ولن يستطيع المرء أن يمثل دوره جيداً ما لم تكن لديه فكرة واضحة عن هذا الدور ، ولهذا فحين يستيقظ مجنون تولستوي في عربته اثر كابوس مرعب ، وعلى السؤال : ما هو أنا ؟ فان الطريق الى السوبرمان ، او القديس أو الفنان العبقري يغلق مؤقتاً . اما مسألة المعرفة الذاتيـة فهي كامنة عبره .

تلك نقطة تستحق الاهتمام ، فيا ترى ما هي المعرفة الذاتية؟ ان اولئك الذين يذهبون الى المدينة في الصباح ، وكل منهم منهمك بمطالعة جريدته او بالتطلـــع الى الاعلانات ، لا يخامرهم أدنى شك في « ماذا هم » . انك اذا وضعت أبيات اليوت التالية :

« نحن الفارغون
نحن المنخورون المختنقون
يتكيء أحدنا على الآخر .. »

في محل الكلمات المكتوبة على احد تلك الاعلانات ، فانهـم سيقرأونها بذلك الاهتمام الهادىء نفسه الذي يقرأون به الأبيات التي تدعو الى اقتناء نوع معين من شفرات الحلاقة ، متسائلين : ماذا سيكتب أصحاب المصانع في اعلاناتهم في المرات القادمة ؟

وقد يحمل بعضهـم بطاقات هوية ــ لا لشيء إلا لأنهم اعتادوا عـلى

ذلك – وبامكان هذه البطاقات ان تخبرك من هم واين يعيشون . ولدى هؤلاء الناس أهداف ، بعضها بعيد ، كشراء سيارة خلال ثلاث سنوات، أو بيت جميل في ظرف خمس سنوات ، الا ان كلاً من الأهداف لا يمكن ان يعتبر مثلاً أعلى ، كما ان هؤلاء الناس ليسوا ممثلين . انهم يغيرون قمصانهم يومياً،إلا انهم لا يغيرون من مفهوم أنفسهم بالنسبة اليهم شيئاً . لقد اعترف نيومان بأنه « حين نظر الى العالم ، لم يستطع ان يجد أي دليل على وجود الله » (١٠) ، أما نحن ، الذين يحتمل ان تكون بداهات نجنسكي الفطرية قد واتتنا يوماً ، حين نستمع الى الموسيقى مثلاً ، فاننا نستطيع ان نفهم ان فكرة الله تتصل « بتلاطم الروح الديناميكي على سواحل المادة » ،وان نفهم ان نيومان انما عنى هذا البحر من الشخصية المدرحية* .

يقول اللامنتمي ان هؤلاء الناس مسجونون ، وانهم قانعون بسجنهم – كالحيوانات المحبوسة في أقفاصها والتي لم تذق طعم الحرية يوماً ، إلا ان تلك الأقفاص تعتبر سجوناً مع ذلك . أما اللامنتمي فهو مسجون أيضاً . وقد أخبرنا كل لامنتم بحثناه في هذا الكتاب بهذا ، باللغة التي تلائمه . أما رغبته فهي في الهرب ، إلا ان تحطيم السجن ليس عملاً سهلاً ، فيجب عليه أن يعرف كل ما في سجنه،والا فقد ينفق السنوات الطوال في حفر الأنفاق كالراهب في قصة « الكونت دي مونت كريستو » ، ليجد نفسه بعد ذلك كله في زنزانة أخرى .

ويؤاتيه الوحي الأخير حين يتطلع الى هؤلاء الناس الذاهبين الى المدينة ، فيدرك ان عملية الهرب معقدة جداً بالنسبة اليهم ، لأنهم يعتقدون انهم السجن . ويا له من موقف مدهش . تصور قلعة ضخمة على جزيرة منعزلة ، تحتوي على زنزانات لا يمكن الهرب منها ، بالاضافة الى ان السجان قد استعمل كل وسيلة ممكنة لمنع المساجين من الهرب ، بل انه استخدم نهائياً التنويم المغناطيسي ، فنومهم ثم أوحى اليهم بأنهم والسجن أمر واحد . فاذا استيقظ أحدهم على رغبة تعتمل

* استخدم جورج حنا هذه الكلمة في كتابه « ضجة في صف الفلسفة » بمعنى المادية الروحية . (المترجم)

في نفسه من أجل الحرية ، وأخبر أصحابه بذلك ، فإنهم سينظرون اليه دهشين ويقولون : الحرية من ماذا ؟ اننا نحن السجن ..» فيا له من موقف.

هذا هو نفسه ما يحدث للامنتمي . هنالك حل واحد فقط ، اذ يجب عليه أن يتفحص القلعة شخصياً ، وان يدرس نقاط الضعف في استنتاجاته ، ويضع خطة ليهرب وحـــده . ان عملية تفحص القلعة هي نفسها عمليــة « معرفة الذات » التي أشرنا اليها في بداية الفصل الرابع .

ان أول سؤال يخطر عـــلى بال السجين الذي يحس بتلك اليقظة من نومه المغناطيسي هو : من أنا ؟

لقد عرفنا في الفصلين الثالث والرابع الكثير عن لامنتمين يستيقظون على حقيقة أنهم لم يعودوا على الحالة التي كانوا يحسبون أنفسهم عليها ، ذلك لأنهم شعروا بشيء يفتح الطريق أمامهم لاحتمالات جديدة ، وتصلح مثالاً على ذلك لحظات كريبز في الحرب حـــين فعل « شيئاً واحداً ، الشيء الوحيد » ، واحساس سترأود بالقوة الداخلية ، ورؤيا ستيفن وولف حين كان يستمع الى موسيقى موتزارت . ولكي يستعيد هؤلاء تلك الرؤى ثانيـة تعين عليهم أن يجدوا طريقاً يقودهم الى المكان واللحظة اللذين رأوا تلك الرؤى فيها . ولا ينفع الفكر لايجاد ذلك ، لأن الفكر هو الذي كان مقيداً بالتنويم المغناطيسي ، أي بالعادات والكسل والوسائل التي تتيح للانسان أن يرى نفسه .. الخ . ان ما يجدي هنا هو العمل ، اذ يستطيع الانسان أن يغير مـن عاداته بتغيير طريقة حياته ، وبإمكان عمل واحد أن يغير وجهة النظر الفكرية كلها. ويستطيع الفاجر أن يكون رجلاً متزوجاً صالحاً اذا كرر عبارة « أنا أريد » على شرط أن يحس بمعنى هذه العبارة إحساساً عميقاً . والأمر الرئيسي المطلوب هنا هو أن يحس الانسان بأن أي عمل من أعمال ارادته يجب أن يكون ثابتاً لا يمكن نقضه . ان هذه التعاريف التي ظهرت من البحث الذي قمنا به في الفصل الأخـــير تضعنا في بقعة غريبة نصف مضيئة ، حيث نجد اللامنتمي مختفياً نصف اختفاء في سجن غير ملموس من الملائكة والأشباح . أما هدفه فإنه واضح بالنسبة الى نفسه ــ

ان يجد طريقاً إلى النهار حيث يستطيع ان نجد ارادة غير منقسمة: « ارادة نيتشه النقية التي لا تقيدها الفعاليات العقلية » . أما خطوته الأولى الى ذلك فهي أن ينبذ نهار البورجوازي ، المولود مرة واحدة، الخادع. اما خطوته التالية فهي أن يجد عملاً ارادياً ، عملاً يهبه القوة على مواجهة شكوكه وفحوصه الذاتية .

وهنا يمكننا أن نضع الأمر بين يدي كاتب روسي آخر، ليقودنا مراحل أخرى .

لقد حدثت حوادث كثيرة وتجارب عنيفة مفاجئة في حياة دوستويفسكي كان لها أثر كبير في عقليته ، مما وضعه في عداد اللامنتمين ، لأنه مر بما يمرون به من يقظة وإحساس بأنهم ليسوا هم . ان ذلك يجعله شديد الأهمية بالنسبة الى هذه الدراسة لأنه يتمتع بمزايا فان كوخ وهيرمان هيس، أي بمزايا النوع الذي يعبر عن مشاكله والنوع الذي يعيشها .

قتل الفلاحون والد دوستويفسكي ، مستخدمين في ذلك الطريقة القديمة المألوفة ، سحق الخصيتين . وقد نجحوا في إخفاء جريمتهم ، لأن التحقيق لم يجد أي جرح أو رض في جسده . وسمع دوستويفسكي بموت والده حين كان يدرس الهندسة في بطرسبورغ .

بدأت شهرة دوستويفسكي حين كان في الرابعة والعشرين ، بقصته « الفقراء» التي قال النقاد عنها في روسيا انها أعظم قصة بعد « الأرواح الميتة » . وهكذا صار تلميذ الهندسة المغمور كاتباً شهيراً . وألقي القبض عليه بعد سنوات ثلاث بتهمة الفوضوية . ويعرف الجميع قصة تنفيذ الاعدام الوهمي ، التي قصها دوستويفسكي على لسان الأمير مشكين في « الأحمق » . وفي اللحظة التي صدر فيها الأمر بالعفو ، في الدقيقة التي عينت لتنفيذ حكم الاعدام بحق دوستويفسكي والآخرين، جن أحد رفاق دوستويفسكي ، ولم يشف من جنونه قط . وقضى دوستويفسكي السنوات العشر التالية في منفاه في سيبريا .

وامتلأت حياته التالية بالنجاحات المفاجئة، الى جانب الكوارث المفاجئة . وكان يلوح مع النساء ضعيفاً أحمق ، إلا أنه في كتاباته كان الانسان

الذي يتمتع بقوة روحية هائلة . وترينا كتبــه « الاخوة كارامازوف » و « الشياطين » و « الأحمق » كثيراً من التفكك في الأسلوب، الا انها مع ذلك اروع ما كتب من القصص .

وتتجلى فكرة اللامنتمي في كل كتاب ألفه دوستويفسكي ، بــل ان رواياته الخمس الكبرى لتمثل بحثاً معقداً كاملاً عن مشاكل اللامنتمي . وما دمنا نملك حوالى خمسة عشر كتاباً من كتبه مترجمة الى لغتنا ، فعلينا ان نختار منها الكتب التي تعنى بالمشكلة أشد العناية ، والا تعين علينا ان نخصص لدوستويفسكي من الصفحات اكثر مما خصصناه لغيره . وهذا يعني اننا سنهمل كثيراً من كتبه التي لا تقل أهمية عن الكتب التي سنختارها، سنهمل مثلاً : « بيت الموتى » و « المقامرون » وغيرها ..

أما الروايات التي ستحظى باهتمام هذا الفصل فهي « ملاحظات من تحت الأرض » ، و « الجريمة والعقاب » ، و « الاخوة كارامازوف » .

فأما « ملاحظات من تحت الأرض » ، فهي اول رواية رئيسية من رواياته التي يعالج فيها مشكلة اللامنتمي ، واولها في الأدب الحديث أيضاً. ان هذه الرواية ، بالاضافة الى « ستيفن وولف » التي بحثناها ، لهيس، تعتبر اكبر عرض لمشاكل اللامنتمي التي سنعالجها في هذا الكتاب . وهي تقف نموذجاً للفكر الوجودي رغم انها كتبت قبل قصة هيس بست واربعين سنة وقبل قصة باربوس بأربع وستين سنة .

ان عنوانها الحرفي باللغة الروسية هو « ملاحظات من تحت سطح الأرض » ، ويوحي الينا هذا العنوان بأن البطل ليس انساناً وانما هو صرصار . وهذا فعلاً هو ما نجده في بدايتها ، فانه يقول : « انني مريض ... مملوء بالقيح والنتن .. »

ويرينا التحليل الشخصي التـالي لماذا يعتـبر نفسه صرصاراً . لقد كان كذلك لمدة عشرين عاماً ، كما يقول ، وقد عاش في غرفته وحيـداً ، نادراً ما يغادرها ، يشكو من عسر الهضم والمزاج الحاد ، ويفكر ويفكر... ويستمر على شرح أفكاره فيستغرق ذلك خمسين صفحة . انه مصاب بالحساسية

النوراجية الشديدة ، وهو يقول في ذلك : « لا أحدب ، ولا قزم يمكن ان يكون اكثر اشمئزازاً وضجراً مني ... »

على ان هذا كله لا يشفي فضولنا ، فنضجر من القراءة ، ونكاد ننبذ متابعة هذا الانسان الصرصار وأفكاره المكرورة ، حين ندرك فجأة ، انه بصرف النظر عن الاطناب والاطالة ، فانه انما يحاول ان يخبرنا بشيء هام معين . انه يوضح لنا توضيحاً خيالياً « حالته الذهنية المعقدة » ، واليك نموذجاً مختصراً من ذلك :

« يدهشني اولئك الذين يستطيعون ان ينتقموا ممن يهاجمهم ، وان يدافعوا عن أنفسهم . ترى كيف يفعلون ذلك ؟ ما أظنهم الا وقد تملكتهم رغبة الانتقام تملكاً بحيث لم يبق فيهم اي دافع آخر . ان الرجل منهم ليندفع الى هدفه كاندفاع الثور المقاتل .. ولا اظن ان انساناً من هذا النوع يمكن ان يعتبر نموذجاً مألوفاً للانسان كما تريده الطبيعة ان يكون .. الا انني مع ذلك احسد مثل هذا الانسان بكل قواي .. » (١١)

ويذكرنا هذا بحسد ت. ي. لورنس للجندي الذي يعابث الفتاة ، والرجل الذي يداعب الكلب .. أجل اننا نعلم الكثير عن هذا الانسان الصرصار . انه يفكر أكثر من اللازم،وقد أنضب هذا التفكير دمه فلم يعد في استطاعته ان يستمتع بالأشياء استمتاعاً طوعياً . انه يحسد الناس البسطاء الحمقى ، لأنهم ليسوا منقسمين مثله ، وليس هذا جديداً علينا . فماذا يملك الانسان الصرصار اكثر من هذا ليخبرنا به ؟ حسناً ، اليك هذا الامر الجديد ، انه يحب ان يعاني ويقاسي :

« ... في هذا الجنون النصفي ، الكريه ، وفي هذا الانكار النصفي الذات .. هذا السم من الرغبات اللامطمئنة .. في هذا كله أجد جوهر الغبطة التي تحدثت عنها .. » (١٢)

و « هذه الغبطة الغريبة » هي مركز جدلية هذا الانسان الصرصار،لأن مسألة الحرية انما تدور حولها . ألا يستطيع الانسان حقاً أن يعرف الشر المطلق ، كما يقول بوثيوس (بعد أفلاطون) ؟ وهل يكافح دائماً من أجل ما يفهمه بصورة فطرية على انه خير ؟ فأما المجرم فان الجريمة هي رد الفعل لحياته

الاجتماعية المعقدة . وفي هذه الحالة ، هل تتحكم القوانين الطبيعية في الروح، قوانين آينشتاين في الجاذبية مثلاً ؟ « كل شيء هو للأفضل في هـذا العالم الذي يعتبر أفضل العوالم الممكنة » ، ويكمل هيغل ما بدأه ليبنتز ، « لقد كان ليبنتز هو الذي أسبغ على الفلسفة مفهوم المنطق العظيم الـذي خابت نتائجه في الفلسفة الحديثه » ، ولهذا يقول هيغل إن العقـل يتحكم في كل شيء ، وان البشر ليسوا غير أجزاء في آلة عظيمة تعمل من أجل الخير النهائي.

الا أن صرصار دوستويفسكي ينتفض فجأة ويفتح فمه فتلوح أسنانه القـذرة ، ويواجهنا بعينيه المحملقتين صائحاً : « ليذهب هذا النظام الى الجحيم ، انني أطالب بحقي في التصرف كما أشاء .. بحقي في اعتبار نفسي جوهراً فذاً فرداً. »

وهنا ندرك ماذا يريد هذا الانسان الصرصار ، بنظراته الشريرة ، وضحكاته الرنانة ، فان إشهاره الحرب ما هو إلا رد فعل ضد شيء معين ، وهذا الشيء هو الانسانية الاستدلالية ، ولا يمضي وقت طويل حتى نميز لديه اللهجة النيتشية :

« ان الإيمان بالنظريات التي تدعو الى اصلاح الجنس البشري بواسطة الأنظمة هو كالايمان بأن الانسان يصبح أرق كلما أوغل في الحضارة . ولعـل ذلك صحيح من الناحية المنطقية ، إلا أنه ميال الى الأنظمة والاستنتاجات المجردة الى درجة انه مستعد حتى لتزييف الحقيقة ، للتعامي أمام الأشياء التي يراها ، والتصام أمام مـــا يسمعه ما دام ذلك يساعده على اثبات منطقه...ان الحضارة لا تطور في الانسان الا قابلية اضافية على استقبال المؤثرات — وهذا هو كل ما في الأمر ، كما أن نمو هذه القابلية يزيد من ميله الى البحث عن اللذة في سفك الدماء . ولعلك تلاحظ ان أشد الناس دموية وعنفاً هم في الوقت نفسه أشدهم تمدناً وحضارة .. » (١٣)

هذا ما رآه نيتشه أيضاً على قمة التل .. عدم التعقل ، رائحة الدم ، والعنف ، واحتقار جميع الفعاليات الذهنية .. ويمكننا أن نتصور كم سيكون اشمئزاز الرجل الصرصار عظيماً لو سمع بفلسفة فرويد في علم النفس، ذلك العلم الذي يفسر أعقد التفاصيل عن العوامل التي تسبب التصرفات الانسانية اللاعاقلة .

« ... انك تقول ، على العكس ، أن العلم سيرينا يوماً أن الانسان لا يملك

شيئاً من الارادة أو الفطرة الخاصة به – وانما هو كلوحة المفاتيح في البيانو . وتضيف فضلاً عن ذلك أن العلم سيرينا ان هنالك قوانين معينة في الطبيعة هي التي تسبب حدوث كل شيء ... وعليه فانك تقول إن هذه القوانين ستشرح للانسان،وإذا تمّ هذا فإنه سيتجرد من كل المسؤوليات ويعيش حياة أسهل . ستكون كل الأعمال الانسانية حينذاك مجرد حسابات مضبوطة وفق القوانين الطبيعية ، داخلة ضمن جداول اللوغاريتمات ...

ولكن من يجرؤ على ممارسة قوة ارادته طبقاً لجداول اللوغاريتمات ..؟»

وهنا نستطيع أن نتوقف قليلاً انلاحظ أن هذه الجدلية التي يقدمها الانسان الصرصار ،وهذا الكلام الطويل العريض الذي ينهض ضد الاستدلال، كانا قد نشرا قبل أن يسمع الناس باسم كيركغارد خارج الدنمارك ، أو باسم نيتشه خارج ألمانيا . ان « الملحق اللاعلمي » الذي كتبه كيركغارد، والذي ليس غير حالة الانسان الصرصار مبحوثة في بضع مئات من الصفحات، كان قد نشر تحت الاسم المستعار الغريب « جوهانس كليماكوس » في ذات العام الذي ظهرت فيه قصة « الفقراء »،إلا أنه لم يحظ بالتأثير الذي حظيت به قصة دوستويفسكي ، بالاضافة الى أن كيركغارد لم يكن أول من دعا الى الفلسفة الوجودية ، فقد كتب مغمور آخر قبله ما يلي :

« ان الكتب المقدسة كلها كانت هي السبب في الأخطاء التي حدثت بعد ظهورها :

وتلك الأخطاء هي :

أن للانسان جانبين يتألف منهما ، هما الجسد والروح .

وأن الفعالية التي تسمى بالشر هي من الجسد وحده ، وأن العقل الذي يدعى بالخير هو من الروح وحدها .

الا أن الأشياء التالية ، التي تعتبر أضداداً للأشياء السابقة ، هي الصحيحة:

ليس للأنسان جسد متميز عن الروح – لأن ما يدعى بالجسد ان هو إلا ذلك الجزء من الروح الذي يمكن تمييزه بالحواس الخمس ...

اما الفعالية فهي الحياة الحقيقية الوحيدة ، وهي صادرة عن الجسد ؛ أما العقل فهو الجسد او المحيط الخارجي للفعالية .

اما الفعالية فهي الغبطة الخالدة .. » (١٤)

ولم يكن وليم بليك ليحب الفلاسفة ولوغاريتماتهم ، وقد كره الأنظمة كما كرهها كيركغارد . إلا أنه كان عليه أن يعمل في سبيل تحقيق ما كان يحاول الوصول اليه من فلسفة وجودية :

ليس واجبي أن ادقق وأقارن ، وإنما واجبي هو أن أخلق .. » (١٥)

عليّ أن اخلق نظامي الخاص ، وإلا فسأكون عبداً لنظام انسان آخر .

نجد هنا أنه قد توفرت لنا جماعة من الناس ، غريبة حقاً ، تضم بليك وكيركغارد ونيتشه ودوستويفسكي : فيلسوفين مسيحيين خارجين على المسيحية بعنف ، وفيلسوفاً وثنياً يحمل المطرقة ، وفيلسوفاً معذباً نصف كافر نصف مسيحي ، ونجدهم جميعاً مدفوعين بنفس الدوافع ومسوقين بالبواعث ذاتها . ولما وجدنا أن هذه الدوافع هي أشياء أساسية في اللامنتمي ، فبإمكاننا ان نصرح ، دون أن نخشى شيئاً ، ان هؤلاء الرجال يدينون بمعتقدات واحدة . أما الفروق التي تلوح وكأنها تفصل بينهم فليست غير فروق في الأمزجة « تصور رد الفعل الذي يحدث لدى بليك حين يقرأ « مذكرات المفسد » لكيركغارد ، أو رد فعل نيتشه حين يقرأ قصة دوستويفسكي — حياة الأب زوسيما » ، إلا أن الفكرة الأساسية هي واحدة لدى الجميع .

ان الوصول الى هذه النتيجة هو في الحقيقة اقرار بصحة الأشياء التي ينهض هذا الكتاب على بحثها ، أي الاقرار بأن قيم اللامنتمي هي في الحقيقة دينية ، إلا ان ايضاح هذه النقطة أكثر سيتم بعد ان نفرغ من بحث دوستويفسكي.

ان نقاش الانسان الصرصار يصل الى ذروته في ما يلي :

« اذا قلت بأن كل شيء — كالفوضى والظلام واللعنات — يمكن أن يقلص حتى يصبح مجرد حسابات — فإن الانسان سيجن لأنه يريد أن لا يكون عليه حكم ما وأن يتصرف كما يشاء . انني اعتقد بهذا لأنه من الواضح أن الانسان يجب ان يكون انساناً ، لا جزءاً من اجزاء الآلة . ومن يدري ؟ فقد يكون

كفاح الانسان على الأرض مؤلفاً من كفاح من أجل شيء يبغي الوصول اليه في الحياة نفسها أكثر من أن يكون من أجل نهاية حقيقية هي في الواقع قاعدة ثابتة تشبه في جوهرها قاعدة أن ٢ + ٢ = ٤ ، انني متأكد من ان الانسان لن ينبذ عذابه الأصيل الذي تسببه له الفوضى والدمار . ولماذا يفعل ذلك ؟ أليس العذاب والمعاناة والشقاء المصادر الوحيدة للمعرفة ؟» (١٦)

« ان ما يجب أن أدافع عنه هو ارادتي الحرة الخاصة ، وما تستطيع هذه الارادة أن تفيدني به حين أعود الى طبعي الحقيقي لأقوم باستخدامها آنذاك.» (١٧)

ولا يستطيع هذا الانسان الصرصار ، بعد هذه التحليلات الواسعة ، أن يقاوم النتائج التي وصل اليها إيفان ستراود : « وهكذا وصلنا الى الاعتقاد بأن أفضل شيء يمكننا أن نفعله هو أن لا نفعل شيئاً قط — أي أن نغرق في استمرارية تأملاتنا . »

الا انه يعرف مثل ستراود ، أن هذا ليس ما يريده . وانه ليس غير صنف جودته من الدرجة الثانية ، كتعويض عن جودة الدرجة الأولى « التي أنا جائع لها، والتي لن أجدها قط ، » وهنا تنتهي مقدمة الانسان الصرصار بالنسبة للقارىء .

أما القسم الثاني من « اعترافه » فهو قصة يرويها عن ماضيه ، ولمحة خاطفة يرى فيها « ذلك الشيء الذي لن يحصل عليه » . وليست قصته قصة ممتازة، فهو يروي لنا كيف فرض نفسه على بعض رفاق المدرسة القدامى،وكيف أنهم صارحوه بكراهيتهم له ، وكيف أنه تبعهم الى المبغى . ثم نراه مع إحدى البغايا في فراشها وهو يتحدث معها عن الموت ، في حين ينطلق خياله انطلاقاً لاهباً . ويبدأ حديثه بالكلام عن الحب والدين والله، فتتهمه بأنه يتحدث وكأنه كتاب ، وتسخر منه ، الا انه يزداد بلاغة . وفجأة نكتشف أننا انما نرى دوستويفسكي نفسه،الفنان السيكولوجي العظم،مؤلف « الفقراء » الذي يخلق لنا صورة عن التعاسة الانسانية والحب المعوض والذي يتحدث في ظلام البغي ، التي تضطجع الى جانبه . تلك هي ساعة اللامنتمي وذلك هو شعوره بالوفاق وإحساسه بـ « القوة التي في داخله » . وتبكي الفتاة فجأة ، فيترك اللامنتمي الفراش ، ثم يغادر الغرفة بعد أن يعطيها عنوانه .

ولكن الفتاة ما ان تزوره في مكانه بعد ايام قليلة ، حتى تجد انه قد طرأ عليه تغير كبير ، فان ذلك الاحساس تلاشى تماماً،وحل محله شعوره بالضيق وميله الى العنف. انه يلعنها ويهينها ، الا انها،وهي تحبه وتعرف انه لا بد يشعر بشيء من عدم الرضا ، بحكم طبيعة المرأة ، تحاول أن تفعل كل ما في وسعها لتبديد كآبته ، فتقدم نفسها اليه . وما تكاد تفعل ذلك حتى يتحول احتقاره لنفسه اليها فيلغ في جسدها ثم يعطيها بعض الدريهمات كثمن لخدماتها . وتتركه ، فنراه وحيداً ثانية ، يشعر بالضياع والشقاء، كارهاً نفسه وفشله في التحكم في الأشياء التي تصطرع في أعماقه .

ليست قصة « ملاحظات من تحت الأرض » بالقصة السارة ، بل انها لا تشجع القاريء على متابعتها ، الا ان ما تفيدنا به هنا هو انها تظهر لنا اللامنتمي معذباً موزع النفس . اما الطعم المر الذي تتركه قراءتها في فم القاريء فانه راجع الى فشلها كعمل فني ، والى إلحاح دوستويفسكي فيها على اظهار الضعف الانساني .. للخ . ان أعمال دوستويفسكي كلها تقريباً تترك مثل هذا الطعم ومثل هذا الشعور في نفس القارىء ، وان أقصوصة « الزوج الخالد » وغيرها من القصص القصيرة تثير شيئاً من الضجر الممتزج بالاشمئزاز،هذين اللذين تثيرهما أيضاً قراءة ألدوس هكسلي ، حين نراه يشرّح شخوصه تشريحاً . فاذا كان علينا ان نحكم على دوستويفسكي بالنسبة الى مثل هذه المؤلفات فان حكمنا هذا لن يختلف في شيء عن حكم شو على شكسبير — انه يفهم الضعف الانساني،إلا انه لا يفهم القوة الانسانية .

على ان هذا ليس صحيحاً ، فان مؤلفات دوستويفسكي ما هي إلا خطوات بطيئة نحو فهم القوة الانسانية ، ونجد أبطال قصصه الأولى لا يملكون أي رب ، ثم نراهم يتخلون شيئاً فشيئاً عن تفاهتهم وغرورهم. اننا نجد راسكولنيكوف ثم الأمير مشكين ، ثم كيريلوف ، ثم شاتوف وأخيراً نجد الاخوة كارامازوف الذين يعتبرون عمالقة بالنسبة الى الانسان الصرصار .

لقد عانت قصته « الجريمة والعقاب » الكثير من النقد ، الذي وجهه

اليها نقاد يصرون على اعتبارها قصة أخلاقية تدور على الشر الكامن في التعلق بالحياة الانسانية ، بالرغم من ان دوستويفسكي يذكر الكثير فيها عن هدف الحياة الحقيقي . ان نيكولاس بيرديف نفسه ، الذي كتب أروع الكتب التي أُلفت عن دوستويفسكي ، يلتزم جانب المسيحية ويتهم راسكولنيكوف ، أحد أبطال دوستويفسكي ، بأنه عملاق شرير لا يبالي » .

ان ما رأيناه في بحثنا « لمحاولة السيطرة » يجعلنا ننبذ مثل هذا التفسير دون أن نكون كمن يغمض عينيه عن جريمة قتل. اننا نجد راسكولنيكوف في « الجريمة والعقاب » في موقف يشبه موقف الانسان الصرصار ، فهو يعيش في غرفته وحيداً ، كارهاً الاجتماع بالآخرين ، ممعناً في نفسه أكثر من اللازم ، محتقراً الشرور البشرية، والضعف الانساني الذي يعتبره سبب تلك الشرور . انه يريد أن يتصل بهذه « القوة في داخله » ، وهو يعلم انه لكي يفعل هذا فانه يجب ان يثير ارادته نحو هدف معين ، وأن يجد عملاً معيناً ليقوم بأدائه . ويصف لنا دوستويفسكي في فصل آخر من القصة – أي بعد ارتكاب راسكولنيكوف جريمة القتل – يقظة راسكولنيكوف: « كانت حركاته محددة واضحة،وكان في أعماقه هدف واضح ملحوظ . وقال في نفسه – اليوم – . الا انه فهم انه ما يزال ضعيفاً،غير ان تركيزه النفسي وهبه القوة والثقة بالنفس . » (١٨) ويقول بعد بضع صفحات :

« ... والتمع في عينيه فجأة نوع من النشاط الوحشي ، ولم يقتصر على عينيه المحمومتين وانما لاح في وجهه الأصفر النحيل أيضاً . لم يكن يعرف الى أين كان ذاهباً ، وانما كان يفكر في أمر واحد فحسب، هو ان ذلك كله يجب أن ينتهي اليوم ... وانه لن يعود الى البيت دون أن يفعل ذلك ، لأنه لن يستمر على الحياة كذلك . »

يمكننا الآن أن نرى ان « الجريمة والعقاب » ليست إلا دراسة لما بحثناه في الفصل الرابع ، أي العمل الواضح المحدد . وتشبه وضعية راسكولنيكوف هنا وضعية نيتشه ، فهو يكره ضعفه ، ويكره الضعف الانساني والشقاء الذي يعانيه

البشر . أما فطرته العميقة فانها تتجه نحو القوة والصحة ، الى الارادة المطلقة التي لا تربكها القيود العقلية ، اي انه لا يؤمن بأنه فاسد حتى الاعماق ، وبأنه ليست هنالك صحة فينا ، بل ان هنالك لقوة ، وهو يؤمن بذلك ايماناً أكيداً ، الا انه يعرف أن هذه القوة موجودة في الاعماق البعيدة ، وعليه ان يقطع شوطاً بعيداً في هذه الاعماق لكي يصلها ، الامر الذي يتطلب ارادة قوية جداً . حسناً ، اره الطريق ، أي طريق . أره عدواً مكافئاً لقوته .

هنا تكمن الصعوبة ، لان راسكولنيكوف ، كبطل باربوس ، لا يملك نبوغاً ولا موهبة معينة . ان الكاتب والمفكر والواعظ والجندي ليجدون شيئاً يعملونه في حقلي الشقاء والفساد الانسانيين ، الا ان راسكولنيكوف لا يؤمن بالغاية من وجوده . انه يرى بتروغراد كما رأى بليك لندن ، في ايام الثورة الصناعية :

« اجول في كل شارع قذر
يجري بمحاذاته نهر التيمس القذر
وأجد على كل وجه انساني
علامات الضعف ، وتعبيرات الرعب . »

ان الشقاء الذي دفع بالطلاب الروس الى الالتحاق بهيرزن وباكونين أثار في نفس دوستويفسكي شيئاً أعمق من مجرد الثورة الاجتماعية . أما راسكولنيكوف في « الجريمة والعقاب » فهو الناطق بلسان دوستويفسكي والمعذب المحموم .. الذي ليس رد الفعل الذي يثور في نفسه نحو تلك الثورة غير مشاعر دوستويفسكي الخاصة موضوعة في قالب قصصي .

تصبح مشكلة التفسير في هذه الحالة صعبة جداً ، لان رد الفعل الذي قام في نفس راسكولنيكوف ضد الشقاء الانساني هو أنه ارتكب جريمة القتل ، اذ قتل احدى العجائز اللواتي يعطين المال بالربا ، وذلك ليحقق غرضين ، الاول هو أن القتل يمكنه من الحصول على المال الذي يستطيع به أن يتلافى حرمانه وبؤسه ، والثاني هو أنه يستطيع أن يتحدى ، وأن يقوم بعمل معين . الا أن القتل لم يحقق له أياً من هذين الغرضين ، ذلك لانه لم يجد مالاً ولم يحل أية مشكلة . وهنا يتساءل

القارىء: لماذا لم يحل أية مشكلة ؟ على انه بامكاننا بسهولة أن نريه الرعب الذي قام في نفسه حين رأى الدماء ، وكذلك ما كان قصد المؤلف اليه من غاية خلقية : ان بيرديف يكتب عن ذلك قائلاً :

« ان طبيعة الانسان الروحية تمنع أن يقتل الانسان أقل أو أشد البشر ضرراً : لان ذلك يعني أن يفقد الانسان جوهر انسانيته .. انها جريمة لا يمكن أن يبررها أي مبرر . ان جارنا أثمن لدينا من أية فكرة مجردة ، هذا هو مفهوم المسيحية ، وهذا هو مفهوم دوستويفسكي ايضاً . » (١٩)

ان هذا التبسيط السهل يغطي على معنى القصة الحقيقي تغطية تامة ، لأن راسكولنيكوف ينبذ هذا الرأي ، وليس لدينا أي دليل على أن دوستويفسكي يقلبه . ان دوستويفسكي لا يقول : « ان القتل خطأ لان مفهوم المسيحي عن قدسية الانسان صحيح » ، وانما تذهب افكاره الى نواح أخرى أشد قوة ، وبالرغم من أن نتائجه النهائية مسيحية ، الا أنه غمط لقيمة افكار دوستويفسكي ان نتقبل ايجاز بيرديف لها ، لان ذلك يعني اننا سنفهم ان دوستويفسكي خلق شخصية راسكولنيكوف كما خلق شكسبير شخصية آياكو ليكون نذلاً فحسب ، وعند ذلك سنتفق مع بيرديف على أن : « راسكولنيكوف لا يملك شيئاً من النزعة الانسانية ، وانه ظالم عديم الرحمة . » في حين ان نظرة واحدة الى أية صفحة من صفحات «الجريمة والعقاب» ترينا انذلك سخف. انالفكرةالاساسية في « الجريمة والعقاب » هي الشفقة،والشفقة هيالتي تربطراسكولنيكوف. أما الفكرة التي تشغل باله فهي فكرة فان كوخ : « ان الشقاء الانساني لن ينتهي» . وتهدف القصة منذ سطورها الاولى حتى النهاية الى اثبات هذه النقطة ، فان مارميلادوف السكير ، الذي يستمتع بالعذاب مثل الانسان الصرصار ، وعائلته الجائعة ، وحلم الحصان الذي يشبعونه ضرباً حتى الموت ، ورسالة والدة راسكولنيكوف المملوءة بالتحذيرات ، والحوادث العرضية التي ليست ذات علاقة بالقصة، والتي تكشف عن الشقاء الانساني ، كالفتاة الشابة التي يسكرونها ويغوونها ، والمرأة التي تحاول أن تلقي بنفسها في النهر بينما كان راسكولنيكوف واقفاً على الضفة ، أضف الى

ذلك ضعة راسكولنيكوف وفقره وإلحاح صاحبة البيت عليه ليدفع لها الايجار ، كل ذلك يختفي تحته أيضاً سؤال الانسان الصرصار الملحاح ، ما هو الشيء الذي يستحق أن يقوم بفعله الانسان ؟

أما بالنسبة الى الانسان الصرصار فان المشكلة معقدة أكثر بسبب ضعفه العاطفي ، لانه يفكر أكثر من أن يستمتع أو يتعذب ، في حين ان راسكولنيكوف أفضل منه قليلاً ، لان شقاء العالم يوحد كيانه كله مع شعور بالثورة ممتزج بالشفقة ، وخاصة شعوره نحو من يعيشون عيشة أوضع من عيشته (الذي يشبه اشمئزاز لورنس) ، وشعوره نحو العجائز اللواتي يعطين المال بالربا مثلاً . انه انسان غير قانع ، ولهذا فهو انسان خطر . وهنالك الشقاء الانساني ، وهنالك كذلك السؤال الذي ينهض في نفسه : ماذا يمكنني ان أفعل لادفع هذا الشقاء ؟ اما السؤال الذي يسعفه به عقله الصحيح فهو : « لن يكون في استطاعتك أن تفعل اي شيء ما دمت على هذه الحال . » ولكن لماذا ؟ « لانه في وضعه الحاضر يعاني من كل الاشياء التي تثبط عزيمة اللامنتمي . » انه شاعر بقوته ، الا أنه لا يعرف كيف يستعملها ، ولهذا فانه يفكر بدلاً من أن يعمل .

انه ليس مجنوناً او احمق او سوداوياً كالانسان الصرصار ، الا انه مع ذلك شديد الحساسية ، وهو يعتبر نفسه قاسياً جداً ، في حين أنه ليس كذلك . وبالاضافة الى ذلك فانه قرر ان يقتل المرأة العجوز وحدها ، الا ان شقيقتها باغتته فتعين عليه ان يقتلها هي ايضاً . ثم يؤخذ بالجريمة رسامان ، ويلوح انهما سيعدمان ، وهكذا يعتبر قاتلاً لاربعة . ذلك كله يؤلف سبب انهياره ، بالاضافة الى ان تلك الجرائم لم تغير من حياته شيئاً ، ولم يحصل على فائدة تذكر منها ، وانما عاد وفي عنقه جريمتا قتل ، وربما اربع ، الى حيث بدأ ، فلا عجب اذا ما انهار واعترف .

الا انه ، قبل ان ينتهي الكتاب ، يدرك ادراكاً خاطفاً « طريقاً الى الخارج » ، اذ نراه مع البغي سونيا التي تقرأ له بصوت مرتفع قصة بعث لازاروس من الموت ، فيدرك راسكولنيكوف انه هو ايضاً يحتاج الى بعث من الموت ، ولا

يختلف في شيء عن غيره من اللامنتمين في هذا الشأن، لانه يميل الى هذه الفكرة، وفي الوقت نفسه يثور ضدها ، ان البعث امر مخيف بالنسبة الى من ماتت روحه، غير ان سونيا ، المتواضعة البسيطة التي تشبه سوزان في « الحياة السرية » ، تحترم شقاء راسكولنيكوف ، وتستطيع هي ايضاً ان تقول له : لا بد ان تكون شيئاً ، بأية طريقة . الا ان المحاولة التي يقوم بها لحل مشاكله كلامنتم تفشل ، اذ انه حاول ان يسيطر على نفسه ولكنه لم يستطع ، الا ان فشله في ذلك ليس راجعاً الى خطأ طريقته ، لانه كان قد وصل الى مثل حالة نيتشه ، اي «وراء الخير والشر» ، ورغم انه يقول لسونيا ، معترفاً لها بأنه قاتل : « لقد قتلت نفسي ، ولم اقتلها هي » ، فان ذلك لا يعني انه يعتبر القتل شراً ، لانه يسأل بعد ذلك : « الجريمة ؟ ما هي الجريمة ؟ اهي جريمة ان اقتل حشرة شريرة سامة ؟.. »

ومن الواضح انه لا يشعر في النهاية بشيء من « التوبة المسيحية » عن ذلك القتل . انه لا يريد ان يتخلى عن نفسه ، وانما يريد ان يعوضها ، ان يقتص لها .

« الآن فقط استطعت ان ادرك مدى غبائي وجبني .... فلم اقرر التخلي عن نفسي الا لانني حقير لا املك في اعماقي شيئاً ... لقد اردت ان افيد الناس ، وأن اقوم بألف عمل خير مقابل تلك الحماقة الوحيدة ، والتي لا تعتبر حماقة بقدر كونها غباء ، لانها لم تكن تبدو حمقاء من قبل كما تبدو كذلك الآن عند فشلها . » (٢٠)

هذا امر واضح، وما لم يتنصل دوستويفسكي من افكار راسكولنيكوف، فاننا لا نستطيع ان نستمر على الاعتقاد بأن راسكولنيكوف فشل في حله لان هذا الحل خاطيء من الوجهة الاخلاقية . لقد فشل في امر آخر مختلف كل الاختلاف ، ذلك هو انه لم يكن قوياً بما يكفي ليكف عن كونه لا منتمياً . الا ان هذا لا يعني اننا يجب ان نسلم برأي راسكولنيكوف في ان القتل ليس خطأ من الوجهة الاخلاقية ، وانما يعني ان هذه المسألة لا علاقة لها بمشاكل اللامنتمي ، في حين ان قصة « الجريمة والعقاب » ما هي الا بحث لمشاكل اللامنتمي .

ان الانتقال من « ملاحظات من تحت الارض » الى « الجريمة والعقاب »

يشبه الانتقال من بطل باربوس الى فان كوخ وت. ي. لورنس . كما ان الانسان الصرصار هو لامنتم معنوي مثل « باربوس » ، في حين ان راسكولنيكوف هو لامنتم فعلي مثل فان كوخ ، وقد قفز دوستويفسكي في معالجته للمشكلة من مرحلة الى اخرى . واذا لاحظنا ان « الفقراء » و «المزدوج » اللتين كتبها دوستويفسكي قبل نفيه الى سيبريا تدوران عن اللامنتمي ايضاً ، بل تدوران عن لامنتمين اشد ضعفاً وحمقاً من الانسان الصرصار ، ففي استطاعتنا ان نقول اذن ان مشاكل اللامنتمي كانت كل ما شغل بال دوستويفسكي ، وأنه كلما تقدم في قصصه خطوة الى الامام كفنان ، ازداد لامنتموه طولاً وأهمية ..

ان قصصه التالية تدلنا على هذا ايضاً ، فحتى مشكين في « الاحمق » يمكن ان يعتبر لامنتمياً ، رغم انه يختلف عن اللامنتمين الذين بحثناهم . انه صورة خيالية « للتاو » الصيني :

« هو لطيف ، كالضيف ،
مستسلم ، كالثلج المقبل على الذوبان ،
بسيط ، كالغابة التي لم تعبث بها يد الانسان ،
خال ، كالوديان الجوفاء ،
معتم ، كالماء العكر ... » *

هذا هو مشكين، كما وصفه لاوتزي قبل المسيح بخمسمائة عام، اما سره فبسيط، لانه لا يزال طفلاً . ان الناس يفعلون الشر لانهم يعلقون اهمية كبيرة على الاشياء الخاطئة ، لانهم كبار ناضجون ، أما مشكين فانه يتمتع ببساطة فطرية كاملة ، غير ان النقد الذي يمكن ان يوجه اليه سبق ان وجهناه في بحثنا الماضي ، فهو لا يستطيع ان يحل مشكلة الشر بالبقاء طفلاً ، وانما يجب ان يواجه الفوضى ، ويجب ان يهبط الى العالم الاسفل . ونجد في « الاحمق » ، كما وجدنا لدى اميل سنكلير ، عالمين ايضاً ، عالم عائلة الجنرال الجميل ، خاصة أكلايا ، وعالم التوتر العصبي

---

* تاو تي شنج (١٥) .

والجريمة والفوضى ، « ناستاسيا وروكوجين » . الا ان مشكين ينفجر تحت وطأة هذا التجاذب بين هذين العالمين ، فيجن كما جن فازلاف نجنسكي ، فالمشكلة هنا اذن تشبه تلك التي تتجلى في « دميان » ، اي ان التشبه بالاطفال لا يمكن ان يكون حلاً لمشاكل اللامنتمي .

هنالك قصتان أخريان لدوستويفسكي يجب علينا تحليلها تحليلاً شاملاً « اذا تركنا قصة ـ شاب خام ـ التي تعتبر من الناحية الفنية قصة مجهضة لا نظام فيها ، صعبة القراءة » لانهما تعتبران محاولتين جديدتين لحل مشاكل اللامنتمي . ويمكننا ان ننتظر الكثير من طبيعة دوستويفسكي الفنية وذهنه الخصب وقابلياته الخلاقة الهائلة ، كما اننا سنرى انه يفلح جداً في تحليل هذه المشاكل تحليلاً شاملاً في « الشياطين » و « الاخوة كارامازوف » الامر الذي لم يفعله احد آخر غيره .

تعتبر « الشياطين » تطويراً لفكرة قصة « الجريمة والعقاب » . ولهذا علينا ان نبحثها في ما تبقى من هذا الفصل . اما اعظم مجهود قام به دوستويفسكي لمهاجمة تلك المشاكل فقد تجلى في قصته الاخيرة التي تنقلنا الى ميدان جديد تماماً ، ولهذا فسنؤخرها ونخصص لها فصلاً كاملاً . لقد كانت الافكار الاخلاقية في دور التكوين في القصص « ملاحظات من تحت الارض » و « الشياطين » و « الجريمة والعقاب » ، اما في قصة « الاخوة كارامازوف » فاننا نجد تلك الافكار متبلورة في مفاهيم معينة من الخير والشر .

تعتبر « الشياطين » نتيجة منطقية للقصص التي سبقتها ، وهذا امر متوقع ، ويبسط دوستويفسكي معالجته للمشكلة بتقسيمها الى قسمين وتوزيع الادوار على الشخصيتين الرئيسيتين فيها ، ستافروجين ، وكيريلوف . ولنتحدث الآن عن اصل فكرة الكتاب قبل الحديث عن بطليه .

تنبثق فكرة الكتاب من « حادثة نيتشاييف » ، وقد كان نيتشاييف نهيلستيا فوضوياً ، ولهذا فقد كان يستحق ان تكرس دراسة تاريخية لحياته . كان نيتشاييف يقف موقف المثالي المتعصب كلما تعلق الامر بالفوضوية ، بالاضافة الى ان مزاياه الشخصية تمثل اسوأ ما في التاريخ الجنائي من شرور ومفاسد وضعة . وترينا حيله

وخدعه انه لم يكن ليقل انحطاطاً عن لا سينير ،ولا وحشية ولا قسوة عن اي نازي، الا ان حياته ترينا مع ذلك ان فيه شيئاً من البطولة الفريدة ، الضالة ، وهنالك قصة تروي لنا كيف أن هذا الرجل ساعد على تنفيذ خطة لاغتيال الاسكندر الثاني بينما كان سجيناً في قلعة بيترو بول (جزيرة الشياطين في روسيا) ، وان رفاقه سألوه ما اذا كان الافضل انقاذه هو أو قتل القيصر ، اذ قال لهم : « اقتلوا الظالم » ، وكانت النتيجة ان اغتيل القيصر ، ومات نيتشاييف في السجن ، بعد عذاب شديد بمرض الاسخربوط .

كان نيتشاييف « الثعلب المتنمر » من اشهر المخادعين في العالم ، لانه حاول أن يخلق حركة ثورية عظمى على اساس من الاكاذيب والخداع والتضليل : لقد خدع الجميع بما فيهم قواد الثورة باكونين وهيرزن وغيرهما ، ولو ساعده الحظ أكثر لاصبح دكتاتور روسيا (وكان ذلك ما هدف اليه) .

كانت تلك الفكرة التي استعملها دوستويفسكي في كتابه قصة (الشياطين) هي ذاتها التي ادت الى انهيار نيتشاييف . لقد نظم نيتشاييف جماعة ثورية من الطلاب والعسكريين السابقين في موسكو ، بدعوى انه يمثل التحالف الثوروي الاوروبي ، وجعل تلك الجماعة في لجان ثوروية . وحدث ان اتهم طالب يدعى ايفانوف بخيانة الجماعة ، فقتله نيتشاييف بالاتفاق مع الجماعة ، واكتشفت السلطات الامر ، وتبعت ذلك سلسلة من الاعتقالات ، ففر نيتشاييف الى سويسرا ثم انكلترا ، في حين كانت الحادثة تحتل بانبائها المثيرة جميع الصفحات الاولى من صحف روسيا . الا ان نيتشاييف ما عتم أن عاد الى فم الاسد ، ظاناً ان السلطات نسيت أمره ، فانتهى أمره الى قلعة بيتروبول .

وقد استفاد دوستويفسكي في هذه القصة من نقطة اخرى ، تلك هي أن أحد الطلاب قرر الانتحار ، الا ان الجماعة الثوروية طلبت منه ان يهبها حياته ، فاذا ارتكب أحد أفراد الجماعة جريمة القتل وحامت حوله الشكوك ، كان على الطالب أن يذهب ويعترف بانه هو الذي ارتكبها . وهكذا قدم الينا دوستويفسكي

كيريلوف ، المصاب بجنون الانتحار والذي يعتبر نموذجاً مهماً على معالجة دوستويفسكي لمشاكل اللامنتمي .

اما بناء القصة فمنحل غير مقنع ، وهي تبدأ بمشهد طويل نرى فيه رجلاً مسناً كان من احرار عام ١٨٤٠ ، وأرملة الجنرال التي تعاضده. ويعتبر هذان نموذجين لسكان المدينة الصغيرة التي تحدث فيها حوادث القصة.وهكذا يبدأ دوستويفسكي القصة ، ويضع أسسها ، ليفسح المجال بعد ذلك لابطاله « مجانين الانتحار » للظهور أمامنا . وهنا نرى نيتشاييف (الذي يدعى بيوتر فيركوفينسكي في القصة) باعتباره ابن الرجل المسن ، وستافروجين باعتباره ابن الارملة .

اما وجود نيتشاييف فانه يزود القصة بهيكلها العام واستمراريتها ، الا انه مع ذلك يلوح عديم الاهمية ، في حين ان ستافروجين هو بطل القصة ، الا انه ليس هنالك تناقض بينه وبين نيتشاييف باعتبار الاخير شريراً نذلاً ، ولو نظرنا الى القصة بمنظار حادثة نيتشاييف للاح ستافروجين نفسه عديم الاهمية فيها . الا ان القصة تظهر على أتم قوتها حين نرى ستافروجين (أو كيريلوف) ونشعر بأن نيتشاييف هو الدخيل على المشهد ، لا ستافروجين .

وتبلغ القصة ذروتها في المشهد الذي يقوم فيه رفاق نيتشاييف الثوريون بحرق المدينة وقتل ضابط سابق مع شقيقته المريضة عقلياً والتي هي زوجة ستافروجين . اما العجوز الذي كان ينتمي الى الاحرار الروس في السابق ، فانه يترك البيت ويموت ، ويموت التلميذ شاتوف (ايفانوف) مقتولاً ، وينتحر كيريلوف حين يسمع التفاصيل التي يرويها له نيتشاييف ، في حين يلحق نيتشاييف بالقطار ، ويفر الى سويسرا .

تعتبر قصة ستافروجين مركز القصة . وليس ستافروجين غير حصاد أفكار دوستويفسكي السابقة حين أراد أن يكتب قصة «حياة خاطيء كبير » . وقد خلبت الجريمة لب دوستويفسكي ، لانه يعتبرها قيداً من قيود الشخصية الانسانية ، يظهر حين يشعر اللامنتمي بأنه منفي عن المجتمع. ان المجرم الكبير بعيد عن البورجوازي العادي بعد القديس عنه. أما من الناحية العملية ، فاننا نجد أن معظم المجرمين الكبار ليسوا غير عمالقة

أغبياء او مرضى في اعصابهم كمرضى فرويد ، الا انهم يظلون في ذهن الفنان وخياله ، او بالاحرى من الناحية النظرية ، اشخاصاً يتمتعون بالاستقلال العقلي الذاتي غير المألوف ، ويختلفون عن عظمة الفنان او القديس . ان دستويفسكي يقدم الينا في « بيت الموتى » كل ما يعرفه من قصص المجرمين الذين قابلهم في سيبيريا ، ويمكننا ان نجد هؤلاء المجرمين ، القتلة ، شيئاً اكثر من ان يكون انسانياً فقط ، شيئاً يجذب انتباه القارىء (بمقارنته مع الشخوص الانسانية التي نراها في قصص الروائيين اليوم ، الذين يصابون بالعسر العقلي بعد كتابة خمسين صفحة لا اكثر) . وفي الوقت نفسه ، فان هذا المجرم الذي يختار الجريمة « اختياراً ، ولا يقع فيها وقوعاً بسبب غبائه او اهماله » انما يهبط الى العالم الاسفل المظلم طائعاً مختاراً ، الامر الذي يضعه قريباً من مسألة تقرير الخير والشر التي يحققها القديس ، وهكذا نجد الخلاص عن طريق الوقوع في الخطيئة يتكرر عند دوستويفسكي .

نجد في « الشياطين » ان قصة ستافروجين مروية بطريقة تجعلها محاطة بالغموض ، لأن دوستويفسكي يريد ان يظهره لامنتمياً . الا ان القارىء الذي يدرك مفاهيم بطل باربوس ادراكاً جيداً ، لا يجد شيئاً غامضاً في تصرفات ستافروجين . انك اذا فهمته على انه مزيج روسي من ايفان ستراود واوليفر كاونتليت ، مع شيء من بطل بوشكين « يوجين اونيجين » فستكون امامك صورة واضحة كل الوضوح له . ان قصته تكشف عن سلسلة من الاضداد ، فهو يقبل زوجة احدهم وسط جمع من الناس ، ويقبض على جنرال متقاعد ، ويعض اذن رجل عجوز مسالم ، اما صفوة القول فهي انه يمثل دور غلام رامبو الخشن في غرف استقبال المدينة « ان المسنين والعجزة محترفون الى درجة انهم يتوقون الى من يثيرهم » * . ويتضح سلوك ستافروجين

---

* يلوح لي أن هنري ميلر استطاع أن يصور هذا النوع من الخروج على المجتمع في واحد من كتبه (الاستوائية) ، حيث يقص علينا كيف أنه حاول أن يتصل اتصالا جنسياً مع فتاة أثناء رقصها

لسكان المدينة حين يصاب بانهيار عقلي ويرسل الى مصح عقلي لمعالجته ، اما بالنسبة الى القارىء المدرك ، فانه يعلم جيداً ان تلك الاعمال وذلك الانهيار العقلي هما نتيجتان لميوله اللاانتمائية .

وتستمر القصة ، ويفعل ستافروجين اموراً اشد غرابة ، فيتقبل صفعة على وجهه من شاتوف ، ويشترك في مبارزة يسمح فيها لخصمه برميه اولاً ، ثم يطلق نار مسدسه الى اعلى ، ويطلب من فتاة شديدة البؤس ضعيفة العقل ان تكون زوجته » رغم ان معظم نساء المدينة راغبات في الحصول عليه » ، وأخيراً فانه يدلي باعتراف رهيب رهبة الكابوس * ، ويشنق نفسه . وفي هذا يقول دوستويفسكي : « لقد قرر اطباء المدينة ان حالة ستافروجين لم تكن جنوناً . »

ان العبارة الاخيرة شديدة الاهمية ، كما ان دوستويفسكي لم يكن لينهي القصة لقرائه نهاية عادية ، ويعتبر ستافروجين اهم محاولاته لتخليص افكاره عن الخير والشر . ان اعتبار ستافروجين مجنوناً ، لا يقل ضحالة عن اعتبار راسكولنيكوف شريراً قاسياً لا يرحم .

ولا يقوم ستافروجين بتقديم نفسه الينا في القصة ، كما ان دوستويفسكي لم يكتب مقالة او بحثاً علمياً عن اللامنتمي ، بالرغم مما قام به من مجهودات ضخمة في هذا الباب . (كان واجبه ان يخلق ، لا ان يقارن ويحقق) ، رغم انه يكون من غير الانصاف ان لا نعترف بأن طريقته في ذلك كانت في ٨٠٪ منها طريقة الناقد الحاذق . اما من الناحية الخلاقة ، فانه من غير المعقول ان نتوقع من

معاً وسط جمع من الراقصين ، دون أن يلاحظهما أحد ، ويؤكد أن ذلك الموقف كان ألذ مواقفه .
ولهذه الحادثة مدلول نفسي ، ويمكن أن تكون أساساً لبحث كامل عن العقلية الخارجة على المجتمع .

* حذف الناشرون فصل الاعتراف هذا من القصة ، ولم يظهر إلا بعد سنوات عديدة ، حين نشره السوفييت . وقد وصفه مير يزكوفسكي بأنه « جوهر الرعب المركز » . وقد نشر هذا الاعتراف في كراس صغير في لندن ، وقامت بذلك مطبعة هوكارث ، الا انه لسببما لم يدخل ضمن القصة في اية طبعة من طبعاتها الكاملة .

شخوص دوستويفسكي ان يقوموا بتحليل أنفسهم بالبساطة التي يقوم بها ابطال بيرانديللو وشو . ولحسن الحظ ، فان دوستويفسكي لم يقدم لنا شيئاً لم نبحثه في هذه الدراسة ، بالاضافة الى ان ستافروجين لا يمثل مشكلة ما . أما الرسالة التي كتبها قبل قيامه بشنق نفسه ، فانها تصلح ان تكون تمهيداً لكتاب « أعمدة الحكمة السبعة » للورنس .

« لقد جربت قوتي في كل مكان ، لانك نصحتني بذلك قائلاً انه سيجعلني ـ أعرف نفسي ـ الا انني حين فعلت ذلك من اجل نفسي ، ومن اجل اظهار نفسي للناس ، لاح لي ان قوتي ليست محدودة ، كما كانت قبلاً طيلة حياتي ، وقد رأيت بعينيك كيف انني احتملت صفعة من اخيك ، وأعلنت زواجي على الملأ . أما على اي شيء أطبق قوتي ، فان ذلك ما لم اعرفه ولا اعرفه الآن ايضاً . ليست رغباتي قوية بما يكفي ، لانها لا تستطيع ان تقودني . انك تستطيع أن تعبر النهر على جزع شجرة ، الا انك لا تستطيع ان تفعل ذلك على قشرة شجرة . » (٢١)

ان ستافروجين ، الذي يشبه ايفان ستراود في لا انتمائيته ، فقد دوافعه ، الا انه ما يزال قادراً على الاعتراف بقوة هذه الدوافع لدى الآخرين ، فاما لدى كيريلوف ، المصاب بجنون الانتحار :

« .... على الرغم مما كان يتمتع به كيريلوف من شهامة وصبر ، فانه لم يستطع ان يتفق مع اية فكرة ، وانما اطلق الرصاص على نفسه . »

الا ان ستافروجين يعلم انه لا يستطيع ان يقلده :

« لا استطيع ان اتفق مع اية فكرة ، الى ذلك الحد نفسه ، وليس في استطاعتي قط ان اطلق الرصاص على نفسي . »

الا انه مع ذلك ينتحر ، بالرغم من ان الانتحار لا يهبه املاً ما :

« انني اعرف ان ذلك سيكون ضلالاً آخر ، في سلسلة لانهائية من الضلالات . »

لا شيء حقيقي ـ ولهذا فانه لا يملك شيئاً يعيش من اجله ، ولا يملك سبباً يدفعه الى الموت .

« لن يكون حبي اقل تفاهة مني ... انني اعرف انني يجب ان اقتل نفسي ، وأن أفصل نفسي من الارض كأية حشرة كريهة ... »

انك تجد دوستويفسكي يقارن البشر بالحشرات دائماً : ويمكنك ان تتذكر في ذلك كثيراً من صفحاته . ويشبه هذا الموقف موقف همنغواي ايضاً « معظم البشر ... يموتون كالحيوانات » ، ومقارنة كاترين باركي بالنمل على قطعة مشتعلة من الخشب . لا ايمان هنالك ، اما حياة البشر فهي عبث ، وهم « لا يموتون برجفة عنيفة.. وانما بنواح خافت » ، اما حين يلهمهم ايمان ما ، فان ذلك يعتمد على مدى قابليتهم واستعدادهم لترك العواطف تعمي اعينهم . هذه هي حالة ستافروجين ، وانه ليكره ذلك ، ويريد ان يتنفس الهواء الطلق ويشعر بعنف قوته الذاتية ،ولكن كيف ؟ أبأن يفعل الخير ؟ ذلك امر بعيد عن الموضوع ، لانه يرى عمل الخير مجرد لعبة ليس فيها غير ربح عاطفي ، ليس فيها غير الاعجاب بالنفس . أم بأن يفعل الشر ؟ ان اعترافه ليس غير وصف لمحاولاته في عمل الشر ؟ ولا يلوح ذلك غير بحث متعمد عن كل ما يثير المشاعر ، كبحث دوريان غراي ؛ ما عدا أن دوريان غراي انما يبحث عن اللذة والشهوة ، وكذلك ستافروجين ، فانه يتجرد من كل الاخلاق ، ويسرق احد كتاب البنك من آخر روبلاته ، ويفسد طفلة في العاشرة من عمرها ثم يغريها بقتل نفسها ، وتقوم بذلك غير مدركة فلا يمنعها . وهكذا ، فاننا ما أن نقرأ الاعتراف حتى نثور على ستافروجين . ترى لماذا لا يتخلص من محيطه المتهالك ،ويكتشف كم هو قوي ذلك الدافع الى الحياة الذي يتميز به الجسد ؟ اننا لنشعر أن عشر سنوات في سيبريا يمكنها ان تعلمه قيمة الحياة ،واننا لنجد أن دوستويفسكي يقدم هذا الحل فعلاً لبطل آخر من ابطاله سمح لتفاهته بأن تعمي عينيه ، وذلك في قصة «الاخوة كارامازوف» . ان ستافروجين يظن بأنه جاب الحياة من اقصاها الى اقصاها فوجدها كلها خواء ، في حين أنه انما كان هو نفسه هذا الخواء . انه يفشل في استعمال قواه العقلية للاجابة عن هذا السؤال : لماذا تفضل الاشياء الحية الحياة على الموت دائماً ؟

لقد أخطأ ستافروجين الهدف ، الا ان خالقه لم يكن يشبهه في الحمق ، لأن

الرجل الذي وقف امام فرقة الرمي متهيئاً لساعة اعدامه في ميدان سيميونوفسكي يعرف كل شيء عن الحياة. ونجد راسكولنيكوف في « الجريمة والعقاب » يفكر بما يلي :

« .. يقول احد المحكوم عليهم بالاعدام ، او يفكر حين لا يبقى على موعد اعدامه الا ساعة واحدة ، بأنه اذا كان عليه أن يحيا على صخرة عالية ، ذات حافة ضيقة ، له منها موطيء قدميه فحسب ، يحيط به البحر ، والظلام ، والوحدة ، واذا كان عليه أن يقف في ياردة مربعة فقط طول حياته ، أو ألف سنة ، او حتى الأبد ، فان ذلك كله أفضل من ان يموت الآن ، ان يعيش فقط ، يعيش ، يعيش ، مهما كانت الحياة .. »

وعلى النقيض من ذلك ، نجد رؤيا سفيدريكايلوف ، الشهواني المجرم الذي لا يعرف ما اذا لم يكن الابد ايضاً زاوية مترّبة في غرفة ضيقة ، مملوءة بالعناكب وأنسجتها . ويطلق سفيدريكايلوف النار على نفسه ، في حين يعد راسكولنيكوف العدة لتحمل عشر سنوات من النفي في سبيريا ، ذلك النفي الذي سيبعثه من بين الموتى » .

اما في « الشياطين » ، فان ستافروجين يمثل ذلك المجرم الشهواني الذي لا يفهم الابد ، ما عدا ما يسعفه به وجوده الكئيب الحبيس من مفاهيم لهذا الابد . أما كيريلوف ، المصاب بجنون الانتحار ، فانه يقتل نفسه ايضاً ، الا انه بذلك انما يكتشف طريقاً للخروج من كابوس اللاحقيقية . ان كيريلوف يمثل أعلى ذروات القصة ، وهو ينتظر الاشارة من نيتشاييت ليقتل نفسه ، الا انه كان قد قرر ذلك بنفسه ، أما اسبابه في ذلك فهي لا انهائية المنطق . لو كان الله موجوداً ، فكل شيء هو رهن ارادته ، واذا لم يكن موجوداً ، فان كيريلوف هو الله ، وعليه ان يظهر ارادته بالوصول الى حل نهائي لا يمكن رده قط ، الى عمل أكيد نهائي ، وذلك هو ان يقتل نفسه .

« لان الارادة ملكي ، ترى أليس في هذه الارض انسان واحد ، انتهى من مشكلة وجود الله ، وآمن بارادته هو ، يملك الشجاعة الكافية للتعبير عن ارادته

الذاتية في اهم مظاهرها ؟ انه يمثل الشحاذ الذي ورث ثروة كبيرة ، الا انه يخاف منها » . (٢٣)

لقد انتهى كيريلوف من أمر الله ، لانه لا يستطيع ان يؤمن بأي مبدأ خارجي أعظم من حقيقته الثابتة ذاتياً. ويقول كيريلوف في هذا : «لو كان الله موجوداً، فانه يجب ان يكون حقيقة خارجية ، مثل جيهوفا ، إلآه العهد القديم . » ان منطقه الوجودي ينبذ مثل هذا الالآه ، ولهذا فانه على النقيض من بدو لورنس الذين « لا يستطيعون ان يجدوا إلآهاً في ذواتهم ، وانما كانوا يعتقدون بأنهم موجودون في الله » ، الا ان كيريلوف لا يؤمن حتى بالله في ذاته ، لسوء الحظ .

الا أن القرار الذي يصل اليه كيريلوف ، من أن الحياة لا قيمة لها ، انما يهبه الادراك الذي كان ينشده ، بمقارنته مع ارادته الخاصة. وقد حصل على الانفصال المثالي دون ان يشعر بذلك ، الانفصال الذي يشبه المثل الاعلى الديني . ولما كان مستعداً للتخلي عن حياته في اية لحظة ، فانه استطاع بذلك ان يجنب حياته التفاهة التي تفيد معظم البشر بضلالاتهم . لقد حطم « الطبيعة التي يذهلها الفكر » . وهو يسأل ستافروجين قائلاً :

« — هل رأيت ورقة — ورقة في شجرة ؟

— بلى .

— لقد رأيت واحدة في الايام القريبة الماضية — ورقة صفراء ، مخضرة قليلاً ، ذابلة على الحافة ، تعابثها الرياح . لقد كنت اغلق عيني ، حين كنت غلاماً ، اذا جاء الشتاء ، واتصور ورقة خضراء ، نابضة العروق ، والشمس تسطع عليها ...

— ما هذا الكلام ؟ أترمز به الى شيء ؟

— كلا ، لماذا ؟ انني لا أرمز الى شيء — انني اقصد ورقة فحسب ، والورقة شيء يتمثل فيه الخير ، كل شيء يتمثل فيه الخير .

— كل شيء ؟

— اجل ، كل شيء. ان الانسان يحس بأنه غير سعيد لانه لا يعرف انه سعيد

فعلاً ... أما من يعرف ذلك ، فانه يشعر بالسعادة حالاً ، مباشرة ...
– وماذا عن الانسان الذي يموت من الجوع ، والانسان الذي يفسد ويقتل فتاة صغيرة ؟ ترى هل تعتبر مثل هذا الانسان خيراً ايضاً ؟
– أجل ، انه لكذلك ، بالاضافة الى ان من يقتل نفسه أسفاً على تلك الفتاة هو ايضاً خير . كل شيء خير ...
– ترى متى اكتشفت انك سعيد الى هذه الدرجة ؟
– أنا ؟ لقد كنت أسير في الغرفة ، وفجأة اوقفت الساعة ، وكانت تشير الى الثالثة الا ثلاثاً وعشرين دقيقة . » (١٤)

لقد كان دوستويفسكي شديد التأثر بالمقطع الذي يدور عن « الايحاء » :

« ووقف الملاك الذي رأيته على البحر ... ورفع يديه واقسم ان لا يكون هنالك زمن بعد ذلك ، وان ينتهي غموض الله ... » (٢٥)

من المحتمل ان يكون دوستويفسكي قد شعر « باللحظات الزمنية » في اللحظات التي كان يرى فيها رؤاه مباشرة قبل اصابته بنوباته العصبية . واليك وصفه لاحدى هذه اللحظات ، كما جاء في « الاحمق » :

« وفي اللحظة التالية ، لاح وكأن شيئاً ينفجر امامه ، وطفق شعاع بديع يسطع في روحه ، واستمر ذلك نصف ثانية ، الا انه لم ينس انه سمع نواحاً حزيناً غريباً صدر عنه هو دون ارادته ... ثم غاب عن وعيه ... » (٢٦)

تشبه هذه اللحظة (لحظة النور الداخلي) لحظة نيتشه التي أحس فيها « بارادته الحرة ، التي لم تعد عقليته تربكها .. » وهي تعبر عن ارادته ورغبته في ان يموت ليفصح بذلك عن عظمة ارادته وعن قابليتها على نبذ كل شيء . ويمكننا ان نعود الى ما كتبه القديس يوحنا ايضاً :

« وعليه ، فان الروح التي تسبغ حبها على الاشياء المخلوقة .. لا تستطيع أن تحصل على الاتحاد بوجود الله اللانهائي : لان ما ليس موجوداً لا يستطيع ان يتصل بما هو موجود * . »

* صعود جبل الكرمل ٤ : ٤ .

لقد حقق كيريلوف رؤيا القديس بدون ان يلجأ الى الدين أو الايمان بالله ، وقد جعله انفصاله التام شيئاً وهمياً ، فعاش دائماً في تلك الرؤيا المدركة التي لم يعرفها ميركول الا في ليلة اعدامه : «لقد كنت سعيداً ، وانني ما زلت سعيداً.»

ولم يتوقف دوستويفسكي ليبحث او ليوضح هذه النقطة ، وانما جعلها على شكل قصة ، وها هي القصة تقترب الآن من نهايتها ، وكل شيء فيها يتحرك بسرعة الى هذه النهاية . ويصل في الصفحات المائة الاخيرة الى تركيز نبوي شديد لم يصل اليه كاتب آخر في عالم الأدب . كان نيتشاييف قد قرر ان يقتل شاتوف، ويحرق المدينة ويغتال زوجة ستافروجين الضعيفة العقل ، وأخاها السكير . وكان على شاتوف ان يقابل « خمسة رفاق » في مقاطعة ستافروجين ليسلمهم المطبعة السرية . الا انه قبل ان ينطلق في سبيله لاداء ذلك تصل زوجته وهي في الاشهر الاخيرة من الحمل ، (وكانت قد هجرته منذ ثلاث سنوات ، اي بعد اربعة عشر يوماً من زواجها ، لتعيش مع ستافروجين) . ويهرع شاتوف ليقترض مالاً ويبحث عن قابلة . وما ان يولد الطفل ، وينظر اليه شاتوف حتى يدركه الالهام ويثيره بعمق فيتمتم : « كان هنالك شخصان ، اما الآن فهنالك ثلاثة كائنات حية من البشر .. روح جديدة تامة كاملة ... وتفكير جديد .. وحب جديد .. وذلك يخيفني .. فليس هنالك في العالم شيء اكبر من هذا .. » (٢٧) ثم يصل أحد الرفاق ليستصحبه . ويسأل شاتوف ، بينما كانا يسيران في الظلام : « ايركيل ، هل شعرت يوماً بالسعادة ؟ »

اما القتل الذي يعقب ذلك ، فلعله أفظع حادثة في قصص دوستويفسكي كلها ، بل ان القارىء ليشعر بأنه لا يستطيع احتمال القصة اكثر ، بعد ان شهد مشهد مولد الطفل ، الا ان اعمال نيتشاييف لم تنته بعد ، فبعد ان ترمى جثة شاتوف في أحد المستنقعات ، يذهب لمقابلة كيريلوف . لقد حانت الآن الساعة التي يجب على كيريلوف ان يقتل نفسه فيها من اجل « التحالف الثوروي الاوروبي » ، الا ان شيئاً من الرسميات يجب ان يسبق ذلك ، اذ على كيريلوف ان يكتب ورقة يعترف فيها بالانتحار ويقر فيها بأنه هو الذي قتل شاتوف . ويصل المشهد ثانية

الى حد التوتر الدراماتيكي ، الذي لا يضارعه فيه اي عمل أدبي آخر في العصر الحديث ، ما عدا مشهد القتل في « الجريمة والعقاب » . ويقتنع نيتشاييف في البداية بأن كيريلوف لن يفعلها ، فيحثه على الادلاء بأسباب انتحاره ، وهكذا يقنع كيريلوف بذلك ، فيطلق هذا النار على نفسه .
ويهرب نيتشاييف بعد ان يضمد اصبعه الذي عضه كيريلوف بمنديله ، ويستقل القطار خارج المدينة ، تاركاً وراءه مدينة تلتهب ، وثلاثة قتلى ، ومنتحراً . الا ان القتل لم ينته بعد ، وانما شهدنا فقط نهاية « الثعلب المتنمر ». ولم يكن نيتشاييف مهماً في القصة ، وانما كان يمثل دور « اياكو » فيها ، لانه لم يكن لامنتمياً . اما اهم شخصيات القصة ، فانه ميت ، ممدد في غرفة متهدمة ، والمسدس ما يزال في يده ، وتجده زوجة شاتوف في الصباح ، حين تخرج باحثة عن زوجها .

وينتهي الكابوس ، بهذه الدراسة الاخيرة الكبيرة التي قام بها دوستويفسكي للامنتمي .

الفصل السابع

التركيب العظيم

تعتبر « الاخوة كارامازوف » أعظم محاولة قام بها دوستويفسكي لبحث مشكلة اللامنتمي . وقد رأينا كيف انه بدأها بلامنتم من نوع بطل باربوس — الانسان الصرصار اللافقري ، انسان تحت الارض الذي لا يستطيع الخلاص من اشمئزازه من حمق الجنس البشري — وظل يتبع قاعدة ان خلاص اللامنتمي هو في التطرف حتى خلق راسكولنيكوف ، ومشكين ، وستافروجين الذين يعتبرون لامنتمين يعرفون من هم واين كانوا ذاهبين . ان للتطرف في الجريمة والتطرف في الزهد ، القتل والنبذ ، أثراً واحداً ، فكلاهما يحرران اللامنتمي من تردده الاساسي وهكذا يمكنانه من الوصول بالمشكلة الى مرحلة أعلى .

ويلخص دوستويفسكي في « الاخوة كارامازوف » كل ما تعلمه سابقاً عن اللامنتمي . اذ نرى في وقت واحد الانسان الصرصار وراسكولنيكوف ومشكين مجتمعين في هذا التركيب العظيم . انهم الاخوة الثلاثة : ميتيا ، وايفان ، واليوشا — الجسد ، والعقل ، والمشاعر . ولما كان دوستويفسكي نفسه لامنتمياً من النوع العقلي ، فان ايفان هو الذي يتمتع بمركز اول في هذه القصة التي تعتبر أروع قصصه . ونجد في ايفان أن مشكلة « مبدأ الشر » مهاجمة

من الداخل .

أما فكرة القصة فبسيطة ، اذ نجد ميتيا وأباه الشرير الشهواني ينازع أحدهما الآخر على حب فتاة واحدة وحين يقتل سميردياكوف ، شقيق ميتيا اللاشرعي ، أبا ميتيا ، تحوم الشكوك حول ميتيا ، فيقبض عليه ويرسل الى سيبريا (في حين ينتحر سميردياكوف) .

والى جانب هذه الفكرة نجد فكرتين اخريين ، مرتبطين بايفان واليوشا ، ذلك ان اليوشا يمتاز بطبع فان كوخ الانزعاجي ، الا انه ، ولحسن الحظ ، يدرك الدين ويفهمه في وقت مبكر . ونحن نراه في بداية القصة تلميذاً دينياً في أحد الاديرة المحلية (مثل نارزيس بطل باربوس) ، اما اليوشا فانه يصاب برجة عقلية تسببها وفاة الأب زوسيما ، رئيس الدير الذي يقدسه اليوشا كل التقديس ، وينتهي الامر باليوشا ذاهباً الى العالم (مثل كولدماند وكنيست) ليبحث عن خلاصه .

تعتبر قصة ايفان ثابتة ، لاننا نجده لامنتمياً عقلياً ، يفكر اكثر مما يجب ليتمتع بالحياة . ونجد في ايفان ، بالاضافة الى ذلك ، شيئاً من قسوة راسكولنيكوف ، في حين نجد أن أخاه اللاشرعي سميردياكوف يحبه حباً جماً ويقلده في كل شيء ، مما يذكرنا دائماً بأنه لا يتمتع الا بخمسين بالمائة من قواه العقلية ، اي أنه ليس غير الجسد والحمق الكبير . على انه لا يحدث شيء لايفان ، وانما يستخدمه دوستويفسكي ليطرح السؤال التالي : ما الذي يحدث حين يؤمن الانسان بأنه لا يستطيع أن يعيش الحياة ؟ أما الجواب فيأتيه على شكل تجسد لعدم ايمانه ، فيزوره الشيطان .

ولم ينه دوستويفسكي « الاخوة كارامازوف » ، اذ انه لم يخبرنا ما اذا كان ايفان قد اكتشف جواباً ، أو أنه أصيب بالجنون ، ولم يقل لنا ماذا فعل اليوشا حين ذهب الى العالم ، وكان حرياً بذلك أن يكون موضوع ملحق القصة ، لم يعش دوستويفسكي ليتمه ، الا ان دوستويفسكي يقدم الينا بدلاً عن ذلك محاولة استنتاجية تهدف للبحث عن الحل الذي لم يكرس له احد مما بحثناهم سابقاً مثل

هذه الدراسة .

وتعتبر قصة ميتيا ، دون غيرها من قصص الابطال الآخرين ، أقل القصص تفاصيل ، وقد كان دوستويفسكي مهملاً دائماً في قصصه، « رغم أن — الجريمة والعقاب— تعتبر نجاحاً فنياً كاملاً » ، ذلك لان قصصه الباقية تشبه الوسائد المحشوة بالاسمنت . اننا نجد أن القصة الرئيسية ليست الا أساساً لقصتي البطلين اللتين تعتبران أشد أهمية منها رغم أن هذه القصة الاساسية لا تتعلق بقصتي الشقيقين الآخرين الا في نقاط واهية . ان مسؤولية ايفان الخلقية عن موت ابيه ، لانه تمنى ذلك ، لا علاقة لها بمشاكله كلامنتم قط ، (بصرف النظر عن ان النقاد الدينيين يحكمون على القصص بقدر ما فيها من حكم وعظات ونهايات تضرب للناس مثلاً على نتيجة من يفعل الشر) ، فاذا استطعنا أن نستنتج أية عظة من قصة ايفان، فانها لن تكون غير عظة للامنتمي ، تقول له : ان من يفكر اكثر مما يجب غالباً ما يتطرف في افكاره تطرفاً منهمكاً ، الى درجة ان العالم يلوح له معتركاً ظلالياً من الافكار والاشباح ، وعليه ، اذا اراد ان يظل عاقلاً ، ان يحتفظ بصلته بالواقع .

ولم يكن اليوشا على مثل هذا الحمق ، ولا خطر عليه من ترك الواقع والتعلق بأفكاره الخاصة ، الا انه بدلاً عن ذلك يسقط في نفس الهوة التي سقط فيها فان كوخ ، اذ يسمح للمشاكل العاطفية ، المشاكل الخاصة بالبشر ، بأن تغطي على رواء العقلية الاساسية ، وتلك هي القصة التي نخرج بها من قصته .

وماذا عن ميتيا ؟ حسناً ، يلوح انه من اولئك الذين يهتمون بخالقهم اكثر من اهتمامهم بنا (مثل شاتوف في الشياطين) ، كما انه يعتبر تجسداً لافكار دوستويفسكي عن « الخجل » ، اذ انه يضرب صدره اسفاً ويدعو نفسه حشرة ، ونراه يتنقل من الغضب العنيف الى احتقار نفسه بشدة ، ويتصرف تصرفات بعيدة كل البعد عن الانفعالات المنضبطة ، تصرفات يشمئز منها الاوروبي الغربي . ان ميتيا روسي خالص ، ولذلك فانه يفشل في جذب انتباه القارىء الاوروبي ، على عكس ايفان واليوشا . ولا يسعنا ان نخرج من قصته بأية عظة ،

لان قصته غامضة ، على اننا نستطيع ان نفسر قبوله لحكم المحكمة عليه بالسجن بأنه يدرك اخيراً ان ما يحتاج اليه فعلاً هو شيء من النظام والضبط ، وانه يجب ان يفرض ذلك فرضاً ، والا فانه يعاني من الضعة والانحطاط ما يعانيه المعتقلون في سيبريا .

الا ان هذا يجب ان لا يدعنا نترك ميتيا ، لانه في الحقيقة يعرف اكثر مما يعرفه ايفان . ان ميتيا هو قبل كل شيء انسان يتميز بالفعالية الجسدية « مثل نجنسكي » ، فاذا وجد الخلاص ، اي اتحاد دوافعه مع اهدافه الثابتة الاكيدة ، فيجب ان يكون ذلك عن طريق الحركة والفعالية الجسدية ذاتها ، الا ان قصة ميتيا ايضاً ناقصة لا يكملها لنا دوستويفسكي في النهاية .

وهكذا نجد ان قصص الاشقاء الثلاثة جميعها ناقصة في «الاخوة كارامازوف» . ولا يعني ذلك الا ان مشاكل اللامنتمي المبحوثة في هذه القصص تظل بلا حلول ايضاً ، الا ان تحليل هذه المشاكل يعتبر اقوى من اي تحليل صادفناه حتى الآن . اليك ايفان المفكر ، مثلاً ، الذي يشبه راسكولنيكوف من بعض الوجوه ، اننا نجده قاسياً حين يكون الامر متعلقاً بابيه السمح واخيه المتحلل من الضوابط . « حية تبتلع الاخرى ، وذلك افضل لها ايضا » . ان ايفان لا يتمتع بأية ميزة عاطفية ، الا انه مع ذلك يشفق على الشقاء الانساني ، ويحار في امر السؤال التالي: ما دام البشر جميعاً اشقياء ، فماذا يستطيع الانسان ان يفعل من اجلهم اكثر من ان يدعوهم بالحشرات ، ويعترف بأنه واحد منهم ؟ ان فطرة ايفان تدفعه الى نشدان الصحة التامة ، مثل نيتشه ، وهو مثله ايضاً في ادراكه لاقبال الحياة وادبارها ، لـ « نعم » النهائية او « لا » النهائية . ان فصل « اقبال الحياة وادبارها » الذي يحلل فيه ايفان المشاكل تحليلاً مفصلاً يعتبر اعترافاً من اعترافات اللامنتمي ، وملخصاً يعتبر مصدراً اكيداً يمكن الاستناد اليه في معرفة مشاكله ، بل يعتبره النقاد ذروة اعمال دوستويفسكي وافضل ما جادت به قريحته الخلاقة ، ولهذا يجب علينا ان نبحثه بحثاً مفصلاً .

نجد اليوشا وايفان وحدهما لاول مرة ، وفجأة ، وبدون مقدمات ، يصرح

ايفان بأفكاره الخاصة :

« .... لو كنت فقدت ايماني بنظام الاشياء ، ولو كنت مقتنعاً بأن كل شيء مضطرب لعين شيطاني تركبه الفوضى ، ولو اصابني كل ما يصيب البشر من رعب وخيبة امل ، فانني لن اتخلى عن رغبتي في الحياة ... » (١)

واليك نبذ ايفان « للطبيعة التي يربكها الفكر » :

« اود ان اسافر الى اوروبا يا اليوشا ، وانني لا اعلم ان اوروبا ليست غير مقبرة في هذه الايام ، الا انها مقبرة ثمينة رائعة . ان اولئك الموتى المضطجعين فيها ينطقون بالحياة الملتهبة التي عاشوها في الماضي والايمان الذي ادوا به اعمالهم ... سأعمق روحي بهذا الشعر ، انني احب الاوراق في الربيع ، والسماء الزرقاء — وهذا كل ما في الامر . وليس هذا من اختصاصات العقل او المنطق — انه الحب الصادر من أعماق الانسان ، من كيانه . » ويجيبه اليوشا قائلاً :

« اظن ان الجميع يجب ان يحبوا الحياة اكثر من أي شيء آخر في العالم الا انني أسألك أتحب الحياة دون ان تفكر في معناها ؟ »

« بالتأكيد ، ويجب أن لا تهتم بالمنطق ، لانك اذا احببت الحياة حقاً استطعت ان تفهم معناها بصورة لا مباشرة . »

ونستطيع من هذا ان نرى كم قطع دوستويفسكي شوطاً بعيداً عن رعب لورنس من « عدم وجود نموذج أو هدف في الطبيعة » . ان الهوة تكمن وراء الانسان ، اللاشيء ويعرف اللامنتمي هذا ، اما غرضه فهو ان يتمسك بالحياة ويغرز فيها مخالبه ، أن يقبض عليها بأقوى مما يفعل البورجوازي اللامكترث ، ان يبني وان يريد برغم الهوة ، وقد استطاع ايفان ان يحل نصف مشاكل اللامنتمي الرئيسية ، ويدرك اليوشا هذا فيقول له :

« لقد اتممت نصف واجبك ، وعليك الآن ان تقوم باتمام النصف الثاني . »

« أي نصف آخر ؟ »

« ان تبعث موتاك ، الذين من المحتمل ان لا يكونوا قد ماتوا بعد » . (٢)

ان اليوشا على حق ، الا انه لا يدرك عظمة مشكلة « بعث الموتى » ، في حين

يوضح ايفان ذلك . ونجد لدى ايفان ، بالاضافة الى ذلك ، شيئاً من استنتاجات الراهب :

« انني اقبل الله ، وأقبل حكمته ، وهدفه ، اللذين لا نعرف عنهما شيئاً . انني أؤمن بالنظام والمعنى الكامنين في الحياة ، وبالتوافق الابيد .. وأؤمن بالكلمة التي ينشدها الكون ويناضل من اجلها .. ويلوح انني اسير على الطريق المستقيم الآن ، أليس كذلك ؟ — الا انني في النتيجة لا أقبل عالم الله . »

ثم يبدأ البحث العظيم ، او بالاحرى ، التفكير الذاتي العظيم ، لان ايفان هو الذي يقوله وحده . ان ما يبحثه ايفان الآن هو صعوبة تحقيق «النصف الثاني» من الحل ، اما فكرته فتدور على القسوة والشقاء ، فيتحدث صفحات طويلة عن القسوة على الاطفال ، ثم ينتهي الى النهاية السابقة فيقول : « ليس الامر الذي لا اقبله الله يا اليوشا ، وانما اعيد اليه بطاقة الدخول دون ان استعملها . »

انه بحث وجودي ، كما انه لكي يكون في استطاعتك ان تبني على الهوة ، يجب ان يكون لديك اساس ، في حين ان ايفان يعتبر العذاب الذي يعانيه الطفل البائس كافياً لزلزلة اي اساس . لقد صرح لورنس بأن عذاب الجسد لا يستطيع ان يؤثر على الارادة ، ويمكننا ان نعتبر هذا اساساً معقولاً ليتم البناء عليه ، وهذا الاساس هو ان يريد الانسان . ولكن ماذا عن عذاب الاطفال ؟ اذ لا يستطيع الطفل ان يبذل شيئاً من قوة الارادة . ان عذاب الاطفال موجود ، لا يمكن انقاصه او حله عن طريق التوافق الكوني ، او النظام .

ويقر اليوشا بأن ذلك ليس حلاً معقولاً ، وربما يقر بذلك ، ولكن ماذا عن الحلول غير المعقولة ، كالحل الديني الذي يقضي على المسيح بالموت لكي يزول العذاب من العالم ؟ ان باستطاعة ايفان ان يجيب عن ذلك ايضاً ، بالاسطورة التي يرويها عن المفتش العام . (٣)

يقول ايفان لاليوشا ان المسيح عاد الى الارض مرة ، في اشبيلية ، الا ان المفتش العام القى القبض عليه واودعه السجن ، ثم زاره في الليلة ذاتها في سجنه واخبره لماذا لم يسمح له بمواصلة تعاليمه في اشبيلية . واليك ما قاله للمسيح :

« اية رسالة جئت بها في فلسطين ؟ أهي ان يكافح البشر من اجل حياة اكبر وفرة ؟ وان يكون لديهم ارادة دائماً ليدركوا ان مملكة الله هي فيهم ؟ وان لا يكونوا قانعين بكونهم بشراً وانما يجب ان يناضلوا ليكونوا ابناء الله ؟ لقد جئت بتعاليم جديدة فيما يخص السلوك الانساني لم تكن موجودة في كتاب العهد القديم ، واضفت الى الوصايا العشر ، ثم تركتنا لنبني كنيسة على تعاليمك ، الا ان الشيء الذي لم تدركه هو ان البشر ليسوا جميعاً انبياء او عباقرة اخلاقيين . ان واجب الكنيسة ليس محصوراً في انقاذ اولئك الذين يكون لديهم من قوة الارادة ما يدفعهم الى نشدان الخلاص . اننا معنيون برفع مستوى البشر ، ولا يمكننا ان نفعل ذلك بأن نقول لكل انسان : كن انت كنيسة نفسك ، كما فعلت انت ، لان ذلك يعني اننا نقول لكل انسان : كن لامنتمياً – الامر الذي لا يرضي الله ! لأن مشاكل اللامنتمي غير قابلة للحل ، ونحن ، الطبقة المختارة ، نعرف ذلك جيداً . لقد رفعت من المستوى اكثر مما يجب ، وتعين علينا ان نهبط به من جديد ، اننا ، ونحن الطبقة المختارة ، لا نشعر بالسعادة ، لاننا ندرك صعوبة «بلوغ الخلاص» ، الا اننا احتفظنا بذلك سراً دفيناً ولم نطلع عليه احداً من الناس – الذين ليسوا أفضل من القطط أو الكلاب . وها أنت تعود ثانية ، مدعياً بأنك ستتخلى عن ذلك ، فهل تظن انني سأسمح لك بذلك ؟ بل انني اخشى ان اكون مضطراً الى اعدامك ، وليس هذا خطأي وانما خطؤك . الافضل للانبياء أن يكونوا امواتاً ، اما اذا كانوا احياء فلا مفر من احراقهم او صلبهم » .

ولا ينتهي المفتش العام من كلامه حتى يميل اليه المسيح ويقبل شفتيه الباهتتين ويقول له : كلامك معقول وقوي ، الا ان حبي اعظم .

الا ان ايفان شهر سلاحه في وجه الدين بطريقة لم يفعله بها احد قبله ولا بعده ، اذ قال ان حب المسيح لا يمكن ان يكون حلاً . وكان غرض دوستويفسكي من كتابه « الاخوة كارامازوف » هو ان يحلل الكفر لكي ينقضه . ويقول النقاد في هذا ان فن دوستويفسكي تغلب على غرضه في هذه القصة ، فجعل حالة ايفان عديمة الحل . دعنا اذن نعترف حالاً بأن « المفتش العام » يعتبر قطعة فنية رائعة

وان الحالة المعاكسة « في فصل – الراهب الروسي » لا يمكن ان تقارن بها من حيث القوة والاقناع ، ولكننا يجب ان لا نخلط بين التأثير الدراماتيكي الذي يتجلى في هذا البحث وبين حقيقته الاخيرة . ان ما فعله ايفان هو أنه عبر عن « لا » النهائية التي دفعت لورنس الى الانتحار العقلي ، وفان كوخ ونيتشه ونجنسكي الى الجنون . وقد فعل دوستويفسكي هذا بوضوح وقوة يجعلاننا نتوقف لنبحثه بحثاً دقيقاً قبل ان ننتقل الى ما فيه من دفاع عن الدين ضد الكفر . ان هذه القطعة تعتبر أروع ما يمكن ان يكتبه اللامنتمي عن قضيته : ان الصورة التي بنيناها عن اللامنتمي ترينا اياه واقفاً في منتصف الطريق نحو نوع افضل من الانسان ، نوع ارقى من الفرد المولود مرة واحدة ، معانياً من كل انواع التوترات العصبية ، قليل النوم ، قليل الطعام . الا اننا وجدنا حين حللنا قلق اللامنتمي وحالة التوتر العصبي التي تلازمه انهما يعتبران سبباً موضوعياً لشعوره بحراجة الحياة الانسانية وامتلائها بالمخاطر ، تماماً كما رأينا بالمقتطف الثاني في الفصل الخامس .

قد يعترض البورجوازي المولود مرة واحدة هنا قائلاً انه ما دامت الخطورة موجودة فعلاً ، وان كل انسان يعرفها جيداً ، فانه من الحمق ان يعيش الانسان في توتر عصبي دائم بسببها . (وقد يضرب لنا مثلاً على ذلك الاغريق القدماء ، ذلك الشعب الذي اشتهر بافراده الاصحاء المتفائلين المولودين مرة واحدة ، والذين يلوحون مدركين للموت ولعدم استطاعة الانسان تجنبه ، لما يتجلى في قلوبهم المختلفة من صور له) ، الا ان ذلك مناقض للحقيقة القائلة بأن المحافظة على الحياة تعتمد على ادراكنا للموت . انك اذا حقنت انساناً بقليل من الجراثيم ، فانه سيصبح بعد قليل مستودعاً كبيراً لها ، ولو عرضت انساناً للبرد الشديد والحر الشديد فقد تتكون لديه قابلية على احتمال برودة او حرارة قد يموت غيره فيها . ويستطيع اللامنتمي ان يتخذ من شعوره المؤلم بخطورة الحياة مقياساً عضوياً يزيد به من قوته ، او بعبارة اخرى ، ليجعله قادراً على ان يعيش حياة اكثر وفرة ، وذلك هو ما وصل اليه ستيفن وولف .

لقد بحث دوستويفسكي الامر من زاوية الحرية، وقد صرح الانسان الصرصار بآرائه في ذلك حين قال : « ان على الانسان ان يثبت انه انسان ، وليس قطعة في الآلة الكبيرة » . ان الحرية تعني الحياة ، ولهذا فانها لا تعني شيئاً بالنسبة الى روح من ادراج المكتب ، او الى جسد ميت ، وهي تعني بالنسبة الي شجرة أقل مما تعنيه بالنسبة الى انسان ، وبنفس الطريقة فانها تعني بالنسبة الى المدمن على الخمر او المخدرات اقل مما تعنيه بالنسبة الى الانسان الصحيح القوي ، اي انه كلما زادت الحياة شدة ، زادت امكانية الحصول على الحرية .

والآن يمكننا ان نفهم ما قصد اليه ايفان بوضوح ، اذ نجد ان اقواله تلك انما تصل الى ما وصل اليه جيمس من انه لا حرية هنالك . انه يقر بوجود الحياة ، كما انه يحب هذه الحياة ، « والبراعم المتفتحة في الربيع » ، الا انه لا يستطيع قبول اي معنى لها * . انها موجودة فحسب ، وهي ليست غير فوضى شيطانية لا معنى لها . ويرسم لنا ايفان في معرض حديثه عن القسوة على الاطفال صورته النيتشية للطبيعة الانسانية : البشر انسانيون اكثر مما يجب ، تافهون ، ضالون . اما الذكاء الذي يجب ان يميزهم كبشر عن غيرهم من الحيوانات فانه انما يجعلهم اشد وحشية من هذه الحيوانات (كما يقول ميفيستوفليس) . ثم ينتقل ايفان الى المسيح ، وهنا نتذكر ما قاله كيريلوف لنيتشاييف : (٤)

« اسمع هذه الفكرة العظيمة : كان هنالك يوم في هذه الارض ، كان في وسط الارض صلبان ثلاثة ، وكان لدى احد ** المعلقين على هذه الصلبان الثلاثة من الايمان ما جعله يقول لصاحبه : ستكون اليوم معي في الجنة ، وانتهى اليوم ، ومات كلا الرجلين ، الا ان احداً منهما لم يجد الجنة ، ولا وجد البعث .

---

* قارن هذا بالفصل الثاني من مسرحية تشيخوف « الشيقيقات الثلاث » :
« ماري : ألا بد من وجود معنى ؟
توزينباخ : هل قلت معنى ؟ أنظري ! — ان الثلج يتساقط ، ترى ما هو معنى ذلك ؟ »

** المقصود هنا هو المسيح . (المترجم)

اسمع ، لقد كان ذلك الرجل اعظم الناس على هذه الارض ، ولهذا فان هذا الكوكب يعتبر جنوناً محضاً بدون هذا الرجل ، وهكذا فاذا لم تستطع قوانين الطبيعة ان تحتفظ حتى ولا بهذا الرجل ، وانما تركته هو نفسه يعيش بين الاكاذيب ، ويموت من اجل كذبة ، فان الكوكب باجمعه ليس الا كذبة ، ويرتكز على كذبة وسخرية حمقاء ! »

ان ايفان يؤمن بأن « ذلك الرجل كان اعظم الناس على هذه الارض ، كما ان الاسطورة التي يرويها عن المفتش العام تعتبر تفصيلاً لكلام كيريلوف . ان المفتش العام رجل يمتاز بالادراك الروحي ، وكان قد اشرف على الموت جوعاً في الصحراء من اجل الحرية ، الا انه ، كما يقول ايفان ، « رأى ان ذلك لم يكن يعني السعادة والراحة ، وانه لا يستطيع الحصول على هذين الامرين بمجرد الحصول على الكمال ما دام يعتقد في الوقت نفسه : بأن الملايين من مخلوقات الله انما خلقوا كدعابة ساخرة ، وان هذه الملايين التعسة من الثائرين لا تستطيع ان تكون عمالقة . » ان المفتش العام لتأخذه الشفقة على الجنس البشري . ولعله في امكان اللامنتمي ان يحس بأعمق ما في شقاء البشر من معان ، اما بالنسبة الى هذه الحشرات المسكينة التي تعيش حياة عمياء ، فمن هو الذي سيفتح لها اعينها على عبوديتها وشقائها ؟ وما هو نفعها ؟ اعط هؤلاء البشر خبزاً ومسرة وهبهم بعض العقائد الضحلة ليكافحوا من اجلها ، وبعض الخرافات السخيفة ليغنوا لها تسابيحهم في الليل ، ولكن لا تطلب منهم حكمة . لقد سأل المسيح : من منكم يستطيع ان يشرب من القدح التي شربت منها ؟ الا انه تصرف بما يوحي بأنه يدرك ان البشر يستطيعون ان يفعلوا ذلك جميعاً ، لقد قال : « ان النير الذي احتملته سهل ، والعبء الذي حملته يسير » ، الا انه كان كاذباً في ذلك ، لان الحرية تعتبر أثقل الامور جميعاً ، ولم تكن تعاليمه لتعني الا هذه الحرية ، اذ انه اخبر الناس بأنه يجب عليهم ان يفكروا لانفسهم ، وان يصلوا الى حل بصدد مشكلة الخير والشر وان يعملوا على ضوء ذلك الحل ، وان يعيشوا من اجل الحقيقة ، لا من اجل اوطانهم ، او المجتمع الذي يعيشون فيه ، او عوائلهم ،

على انه من الافضل اعتبار البشر حشرات ، لان الحياة الخالدة بالنسبة الى مثل هذه المخلوقات لا بد ان تكون خرافة هائلة ، ولن يخلو البشر دائماً من القلائل الذين يناضلون من اجل ادراك مثل الحرية الاعلى ، وذلك بأخذهم الحكم على انفسهم على عواتقهم ، وهؤلاء وحدهم هم الذين يعرفون كم هو معذب ان يبقى الانسان وحيداً . وفي هذا يقول المفتش العام للمسيح : « لاننا نحن فقط ، الذين نحرس الغموض ، والسر ، يتعين علينا ان لا نكون سعداء ، » وهذا هو المفهوم ذاته الذي تصل اليه « مقالة عن ستيفن وولف » . ان اللامنتمي شقي دائما، الا انه السبب في سعادة غيره من ملايين المنتمين . ونتذكر هنا كيف ان رد الفعل الذي قام في نفس هاللر ضد هذا كان انه قرر الانتحار . ان اليوشا يسأل ايفان : « كيف يمكنك ان تعيش ؟ ومثل هذا الجحيم موجود في قلبك وعقلك؟» ويجيبه ايفان قائلاً : « هنالك قوة لاحتمال كل شيء ، » تلك هي حالة ايفان ، حالة الـ « لا » النهائية ، فماذا عن الناحية الاخرى ؟ الـ « نعم » النهائية ؟

ان « ذكريات الاب زوسيما » تعتبر جواباً على « اسطورة المفتش العام » ، وزوسيما هو رئيس الدير الذي درس فيه اليوشا وسجل آخر أحاديثه معه ، ويمكننا ان نعتبر هذه الاحاديث تاريخاً لحياة زوسيما ، رغم ما فيها من مواعظ ، ويبدأها زوسيما بالحديث عن اخيه الأكبر الذي مات مسلولاً حين كان زوسيما طفلاً ، وكان هذا الاخ شاباً ذكياً ، ومفكراً حراً ، وقد صرح بأن حقائق لتن لم تكن غير هراء ، وانه ليس هنالك اله ، الا انه ما كاد يلزم فراشه ، اثر اصابته بالسل ، حتى اصابه تبدل كبير ، اذ انه لم يعد يكترث لما كانت تقوم به أمه من اعمال دينية ، وبدأ ينهمك في تأملات صوفية « عزاها الاطباء الى المرض » . « ان الحياة جنة ، ونحن في الجنة ، الا اننا لا نعرف ذلك . » ولما اخبره الطبيب بأنه قد يعيش اياماً او شهوراً او سنوات قال له : « لماذا تعد لي اياماً ؟ لا يحتاج الانسان الا الى يوم واحد فقط ليعرف السعادة كلها ! » (٥)

ترك هذا الامر اثراً عميقاً في ذهن أخيه الاصغر ، بالاضافة الى امر آخر ،

ذلك انه سمع في الكنيسة يوماً بعض القراءات من « كتاب ايوب » * ، « لقد خرجت من رحم أمي عارياً ، وسأذهب الى اعماق الارض عارياً ايضاً ، » وقال : « وشعرت لاول مرة بأنني صرت أفهم ما كان يتلى في كنيسة الله » . انه شعور بليك نفسه حين يقول : « اذهب ، وأحب ، دون الاعتماد على مساعدة أي شيء في الارض » ، وقد أدت هذه التجربة الى الحماس الديني الذي قام في نفس الأب زوسيما بعد ذلك . ويلوح ان قصة شباب زوسيما لا تختلف في شيء عن قصة شباب اللامنتمين الآخرين (خاصة اميل سنكلير ، وتولستوي) ، فهو ينسى عبث الطفولة حين يصبح تلميذاً في الجيش ، ويخطيء ويعربد ، ويفعل كل ما وسع الشباب الحار الدم أن يفعله ، وتفاجئه نقطة التحول حين يتحدى أحد الناس الى مبارزة ، اذ يدرك فجأة مدى حماقته ، فيسمح لخصمه باطلاق النار عليه ، ثم يلقي بمسدسه ويبدأ بالقاء موعظة يقول فيها : « الطبيعة بريئة ... أما نحن فخطاة ، لا نفهم ان الحياة هي الجنة . اننا لا نحتاج الا الى ان نفهم الحياة ، لكي يتحقق كل ما فيها من جمال بالنسبة الينا ... »

ولم يكن هذا التبدل بسبب المبارزة فحسب ، وانما كان بسبب تقريع ضميره له لانه ضرب احد الخدم في اليوم السابق ، وانه ليتذكر أخاه فجأة ، الذي مات وهو يعبر عن فكرة المساواة المسيحية : « لا يتمتع انسان ما بأية فضيلة تجعله سيداً على انسان آخر » ، وما كاد يعود من المبارزة حتى يستقيل من كل اعماله ويصبح راهباً .

هذا هو ملخص حياة زوسيما ، وتعتبر هذه الحياة جواباً يقدمه دوسيويفسكي مقابل عصيان ايفان . ان زوسيما مسيحي متعصب ، الا انه متصوف اكثر من

* « كتاب أيوب » : في التوراة ، كتاب تعليمي تأريخي يهدف إلى حل المشكلة حلاً هو من ناحية تأملي ، أي خاص بالعقل ، ومن ناحية أخرى روحي ، أي خاص بالحياة . فأما العقلي فانه يقول بأن العذاب والشقاء يظهران الصالح من الطالح ، وأما الروحي فانه عبارة عن قبول الإنسان ذلك الشقاء ، لا لأنه مفروض من قبل الله وإنما لأنه يعبر عن الله نفسه ، ذلك التعبير الذي يحققه أيوب في صبره المشهور ، الذي يقول في ختامه « الآن تستطيع عيني أن تراك » .

(المترجم)

ذلك ، وليست رسالته « ان المسيح مات من اجل الانسان ، ولهذا فعليك أن تحب جارك » لان هذا وحده قد يفشل في التغلب على منطق ايفان . ولا يبدأ بنفي ما قاله ايفان من أن البشر حقيرون ، وانما تجده يؤيد هذا الواقع ، اما جوهر رسالته فهو عقيدة بليك الصوفية : « لو تم تنظيف ابواب الادراك ، للاح كل شيء خالداً ، » بما في ذلك البشر . ولهذا فان اعتبار « حياة » زوسيما جواباً على منطق ايفان ليس اكثر من اعتبار البلوغ جواباً على الطفولة . ولم يكن متوقعاً من ايفان أن يفهم مدركات زوسيما ، لانه ما زال في أول مراحله ، مؤمناً بالعقل ، وبالاعتقاد في أن القول بأن كل شيء خالد يعتبر حقيقة وجودية لا يمكن للعقل أن يبحثها . على ان تحليل ايفان للعالم صحيح تماماً ، فلن ينتهي الشقاء ، وهذا صحيح ، الا انه لا ينفي رؤيا القديس ، لانه يرى ان الحياة لا يمكن ان تنتهي ، وليس هذان الرأيان مبدأين أساسيين مختلفين ، وانما ينهض كل منهما على اساس مختلف عن الاساس الذي ينهض عليه الآخر .

يستطيع الانسان ان يعيش على اساس ايفان او اساس زوسيما ، بل انه يستطيع أن يفعل أسوأ من ذلك ، اي ان يعيش على الاساس الواهي الذي يعيش عليه البورجوازي ، اما الامر المهم فهو ان يترك ضياء النهار المألوف ، ويدخل الى الارض التي لا تخص احداً والتي تقع بين الجنة والجحيم ، ليعيش لامنتمياً ، وهنا تبدأ الصعوبات . فاذا لم يكن حسن الحظ فانه سيجد وجهه متجهاً نحو الجحيم ، والضلال الانساني ، والتفسخ ، والالم والحمق ، والهزيمة النهائية ، ولن يجد غير هذه الحقائق ما يملأ افقه ، اما خلف ذلك كله فتقبع مناظر هائلة تلوح فيها هذه الاشياء كلها ضلالاً وأشباحاً ، ورعباً من الفراغ ، واللاوجود ، والهوة !

وليس الفرار سهلاً ، ليس سهلاً لانه لا سبب هنالك يدعو اليه ، وهذا ينفي كل شيء حتى الحرية . اما الانطلاق والتحرر فانه ؛ اذا دان له ، ليس الا العودة الى الاساس الانساني ، الى ارادة الحياة الاساسية ، تلك التي تكمن وراء كل وجود . ويهبه هذا التمييز للاحقيقية العالم ، وهذا الادراك الذي يتوفر له بين الموت والصباح ، شيئاً من اليقين في اليقظة . انه ادراك عار للهدف الذي يكمن

في تلك القوة التي تبني الحياة بأي ثمن . اما هذا الادراك ، فانه يدعى بالتصوف .

أما ايفان ، فانه نصف متصوف ، كما يقول اليوشا : « لقد حل نصف المشكلة » ، في حين ان زوسيما يقل عن ايفان ادراكاً للشقاء والضعف الانسانيين ، بل انه لا يأمل حتى في أن يكون البشر جميعاً « حراساً للسر» وهو لا يبشر بالحياة بعد الموت ، وبالجنة للصالحين ، والجحيم للاشرار ، « ما هو الجحيم ؟ أعتقد أنه العذاب الذي نشعر به حين لا يعود في امكاننا ان نحب – ولهذا فانك لا تحتاج الى الابدية ، وانما يكفيك يوم واحد ، بل لحظة واحدة ! »

ونجد في « الاخوة كارامازوف » فصلين آخرين يؤكدان على كلمات زوسيما ، في حين يمكننا أن نقارنهما بأسطورة ايفان ، من الناحية النفسية . أما الاول فهو رؤيا اليوشا للمعجزة الاولى ، اذ يموت زوسيما ويتفسخ جسده مباشرة ، فيعجب الناس كيف يتفسخ جسده وهو ذلك القديس ؟ ويظنون أن ذلك تحذير من الله لئلا يعظموا زوسيما ويبجلوه . ويحير هذا الامر اليوشا أيضاً ، الا أن ذلك ليس لانه يشك في قدسية زوسيما ، وانما لان تخلي الناس عن زوسيما يلوح نذيراً على أن الشر سينتصر في النهاية .

ويغلبه النعاس وهو جالس الى جانب التابوت ، ويرى حلماً يعيد اليه كل ايمانه السابق ، اذ يرى نفسه حاضراً في الجليل ، حين يحول المسيح الماء الى خمر ، ليئلا ينقطع حبل المسرة على الضيوف ، ذلك لانه يدعو ضيوفاً جدداً الى الابد ..» ويستيقظ اليوشا من حلمه شاعراً بأن الحياة انما تعود اليه من جديد . ويخرج الى العراء وينظر الى السماء المظلمة ويفتنه « الادراك الكوني » ، وتوحي اليه النجوم « بأن بين عوالم الله هذه التي لا حصر لها وبينه خيوطاً تشده اليها ... ولاح وكأن فكرة ما استولت على عقله . » ويطرح نفسه أرضاً وينتحب « ولم يسعه أن يعلل لماذا شعر برغبة عنيفة في أن يقبل الارض – ويحبها الى الابد » ، ويستطيع اليوشا في مثل هذه اللحظة أن يرى ويلمس الجواب على عصيان ايفان . يلوح منطق ايفان صحيحاً للبشر كما هم ، الا أنهم اذا استطاعوا أن يروا ما رآه ، لاكتشفوا أن كلمات ايفان زائفة .

يمكننا أن نجـد شبهاً قوياً بين رؤيا أليوشا ورؤى اشخاص آخرين بحثنا أمرهم في هـذا الكتاب : مثل ميرسول ونيتشه . ترى ما معنى رؤيا اليوشا ؟ اذا تذكرنا رؤيا نيتشه « للارادة الحرة التي لا تربكهـا حيرات العقل » فاننا نستطيع أن نقول إنها رؤيا للقوة ، للـ « نعم » . ان عقل الانسان يتألف عادة من ادراكه لحاجاته المباشرة ، ويمكننا أن نعرف ذلك بأنه ادراك لقواه الخاصة التي تمكنه من تحقيق تلك الحاجات وهو يستطيع أن يخبرك بما يريد أن يفعله في أقل من نصف ساعة ، أو يوم أو شهر لا اكثر ولكنه لا يسأل نفسه : « ما هي حدود قواي ؟ » انه يشبه انساناً يملك ثروة في أحد المصارف ، الا أنه يسأل نفسه : كم من النقود أملك ؟ وانما : هل أملك ما يمكنني أن أشتري به جبناً ؟ أو ربطة جديدة ؟.. الخ أما أليوشا فانه يترك هذه الامور كلها جانباً ، في تلك اللحظة ، ولا يفكر في قوته بمقدار ما تستطيع أن تفعل ، وانما بمقدار وجودها ، ولما كانت الاشياء التي نفعلها هي التي تقرر ما نحن عليه ، فان هذا اللجوء الى كل ما يملكه الانسان من فعالية يميل الى أن يتعدى حدود الشخصية ؛ وكل « حيرات العقل » . انه بعبارة أخرى رؤيا « للارادة الحرة ، والامكانية الحرة . وتختفي الشخصية مؤقتاً : وهذا هو أهم جوانب الرؤيا .

وفي الوقت نفسه ، طبعاً ، يدرك اليوشا حقيقة أن زوسيما وكيريلوف عرفا أيضاً : أن كل شيء خير ، أما الشر فهو العبودية الدائمة ، وهذا مما يوحي بامكانية الحرية الدائمة .

وقد رأى ميتيا رؤيا أيضاً ، وكما نتوقع ، فان رؤياه تختلف تماماً عن رؤيا اليوشا ، اذ ليس لدى ميتيا شيء من ضبط النفس ، كما أنه أناني جداً . ولكي يهرب من هذا السجن أي من سجن أنانيته ، يجب عليه أن يكون لامنتمياً . ان عليه ان يكشف انه في عالم مملوء بالشقاء الى درجة ان واجبه الاول هو أن يحب فقط . وليس ميتيا شريراً أو أنانياً من الناحية الجوهرية ، وانما كانت مشكلته أنه لم يفكر في أحد آخر غير نفسه ، وقد عذبه اشتهاؤه لتلك الشابة الروسية التي

أحبها ، والتي « كما يقول المؤلف ساخراً » سوف تسمن بافراط في اقل من عشر سنوات . اننا نراه متهماً بقتل والده وسرقة نقوده ، ثم يعقب ذلك مشهد طويل يقع في اكثر من خمسين صفحة نراه خلالها يقاسي الامرين مما يشبه « اختبار الصليب » ، فيعيش حياة تعسة للغاية ، وتحيره هذه الحياة ويلوح وكأنه فقد كل ما يربطه بالواقع . ان السطور التالية لتدل على مقدار ما لدى دوستويفسكي من براعة فنية ومقدرة رائعة :

« وشعر بضيق شديد متزايد بسبب احساسه بضعفه الجسدي ، واطبق عينيه تعباً . وأخيراً ، انتهى سؤال الشهود ، ونهض ميتيا مبتعداً عن المقعد الذي كان يشغله في الزاوية ، قرب الستائر ، واضطجع على صندوق كبير مغطى بقطعة من القماش ، ونام مباشرة .

« ورأى ميتيا حلماً غريباً ، بعيداً كل البعد عن كل مكان اوزمان يمكن ان يعينهما أي انسان لحدوثه . لقد رأى نفسه راكباً في عربة صغيرة يجرها حصانان ، ويقودها فلاح ، وكانت العربة تمر بهما وسط مراعٍ شعر ميتيا بأنه كان يعيش فيها منذ زمن بعيد ، وكان الثلج في كل مكان ، بل كان ينهمر من السماء انهماراً ، وشعر بالبرد . كان ذلك في اوائل تشرين الثاني ، وكان الثلج يتساقط قطعاً كبيرة ندية ما تكاد تسقط على الارض حتى تذوب ، اما الفلاح فكان يقود العربة في دعة ، وكان ذا لحية طويلة جميلة .. وعلى مبعدة لاحت قرية، واستطاع ميتيا ان يرى اكواخها السوداء ، التي كان نصفها محترقاً ، لم يبق منه غير بعض قطع الخشب المتفحمة ، ومرت العربة بالقرية ، فرأيا على طول الطريق نساء سائرات ، وكن كثيرات، كلهن نحيفات مريضات، لوحت وجوههن الشمس، خاصة تلك المرأة الطويلة ، التي تشبه مجموعة من العظام ، اذ لاحت وكأنها في الاربعين ، في حين ان في ملامحها ما يدل على انها في العشرين من عمرها فحسب ، يا لوجهها الطويل الذابل . كان على ذراعها طفل صغير يبكي ، بينما لاح ثدياها جافين ضامرين ليس فيهما من الحليب قطرة واحدة . وطفق الطفل يبكي ويبكي ويمد يديه الصغيرتين الزرقاوين من شدة البرد .

— لماذا يبكون ؟ لماذا يبكون ؟

وأجابه الحوذي :

— انه بسبب الطفل ، الطفل الذي يبكي :

وتأثر ميتيا كثيراً بالطريقة البسيطة التي قال بها الفلاح ذلك ؛ والتي نطق بها كلمة « الطفل » ، وود لو سمع الكلمة منه ثانية ، اذ أنه أحس في لفظه لها بفيض من الشفقة والعطف . وسأله ميتيا ثانية ؛ متغابياً — :

— ولماذا يبكي الطفل ؟ لماذا ارى يديه عاريتين ؟ ألا يستطيعون أن يلفوهما ؟

— انه شعر بالبرد ، أما ثيابه فانها متجمدة ليس في وسعها ان تدفئه .

الا ان ميتيا عاد الى السؤال ثانية ؛ مغرقاً في غبائه :

— ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

— لماذا ؟ ألا ترى أنهم فقراء ؟ قد احترقت بيوتهم ؟ انهم لا يملكون خبزاً ، وهم يستجدون لأنهم لا يملكون خبزاً ..

ولاح أن ميتيا لم يفهم بعد ، فقال :

— كلا ، كلا ، أخبرني لماذا تقف الامهات الفقيرات هنا ؟ ما الذي يجعل هؤلاء القوم فقراء ؟ لماذا يكون الطفل فقيراً ؟ لماذا تكون هذه المراعي جرداء ؟ لماذا لا يعانق بعضهم البعض ؟ لماذا لا يقبل بعضهم البعض الآخر ؟ لماذا لا يغنون اغاني المرح والغبطة ؟ لماذا اراهم سوداً من شدة الشقاء ؟ لماذا لا يطعمون الطفل ؟

وشعر برغبة عنيفة في الاستمرار على تلك الاسئلة ، رغم ما فيها من سخف وغباء ، وأحس بعاطفة الشفقة التي لم يعرفها من قبل تتدفق من قلبه ، فود لو بكى ، وود لو يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلهم جميعاً ، فلا يعود الطفل الى البكاء ، ولا تعود المرأة النحيلة المريضة التي اسود وجهها من البؤس تبكي ، ولا يعود انسان يذرف دمعة واحدة في هذه الارض ، وود لو فعل ذلك كله حالاً ، بالرغم من كل العقبات والمصاعب ، وبكل ما لدى آ ل كارامازوف من اندفاع وقوة .

وسمع صوت الحوذي ، كروشينكا يقول بجانبه :

سأبكي معك ، ولن اتركك مدى الحياة ..

كان صوته يتدفق بالعاطفة والانفعال ..

وتأجج شيء في قلبه ، وشعر بأنه كان يكافح من أجل النور ، وتاق الى الحياة والحب ، والاستمرار على الحياة والحب ، حتى يهتدي الى ذلك النور ، وشعر بأنه يجب أن يسرع ، الآن ، الآن ..

« ماذا ؟ » ، « أين ؟ » كان ذلك كل ما بقي في ذهنه من اسئلة حين استيقظ ، وجلس على الصندوق وهو يبتسم ، وكان نيكولاي بارفينوفتش يقف الى جانبه ، ففهم أن عليه أن يستمع الى المحضر ثم يوقعه ، وأدرك فجأة ان على الصندوق وسادة لم تكن موجودة عليه حين نام ، متعباً ، متهالكاً . وصاح معبراً عن شكره وامتنانه : من وضع هذه الوسادة تحت رأسي ؟ من هو الذي بلغ به العطف أنه فعل ذلك ؟

الا انه لم يعرف ذلك الانسان العطوف — ربما كان أحد الفلاحين الشهود .. الا أن نفسه غرقت في فيض تلك المشاعر العطوفة ، فاتجه الى المنضدة ، وقال انه مستعد لتوقيع كل ما يشاءون .

وقال للحاضرين ، بصوت غريب ، متدفق بالغبطة : « لقد رأيت حلماً سعيداً أيها السادة » : (٦)

نستطيع ان نرى في عبارة « وتاق الى الحياة والحب والاستمرار على الحياة والحب » قول الـ « نعم » الذي حققه اليوشا في رؤياه ايضا ، والذي حققه كيريلوف وشاتوف ايضاً ، بل انه في امكاننا ان نقارنه برؤيا راسكولنيكوف في « الجريمة والعقاب » حين تقرأ له سونيا بعض صفحات الانجيل :

« كيف حدث ذلك ؟ انه لا يعرف كيف ، وانما شعر فجأة بشعور غريب دفعه الى القاء نفسه على قدميها ، فاتجه اليها وعانق ركبتيها ، وما ان نهض حتى أدرك ذلك وشعر به بكل وجوده ، بكل كيانه . » (٧)

بل ان ستافروجين نفسه جرب هذا ايضاً * ، لانه يخبرنا به في نهاية اعترافه ،

* من المفيد للقارىء أن يقارن هذا بالمشهد الذي يصفه توماس مان في « الجبل المسحور الذي رآه هانز كاستورب في حلمه » ، وذلك في فصل « الثلج » .

الذي يشبه حلماً رآه في عصر ذهبي ، يشبه صورة كلود ، يتألف من بحر دافيء ، وتوافق جميل بين الكائنات البشرية ، ولا شيء غير ذلك الانسجام البديع . وفجأة تعاوده ذكرى الطفلة التي استباحها وقتلها ، فتبدد رؤياه . ان ميتيا يعبر عن هذا العصر الذهبي ايضاً حين يقول : «لماذا لا يغنون اغاني المرح والغبطة ؟ » تماماً كما عبر ايفان عنه في نهاية فصل «العصيان». ويمثل هذا مفهوم دوستويفسكي لمقبلات الحياة ومدبراتها ، اذ يضع في احدى كفتي الميزان شقاء البشر ، بينما يضع في الاخرى رغبة البشر ، التي لا يمكن أن تقاوم ، في الحياة ، تلك الرغبة التي يقيدون أنفسهم بها فيسجنون نفوسهم فيما يتعلق بها من تفاهات صغيرة . ويتعلم ميتيا أن الانسان قادر على الشعور بهذه الارادة الحرة على الحياة اذا استطاع أن يكفّ عن الشؤون التافهة .

وهنا نأتي الى رؤيا ايفان ، التي تعتبر أهم ما في هذا الكتاب . لقد اعتبر النقاد فصل « المفتش العام » ممثلاً لجوهر أفكار دوستويفسكي * ، ولم يهتموا بالمشهد الذي نرى فيه ايفان مع الشيطان، رغم أن هذا المشهد يعتبر تتمة لذلك الفصل.أما انا فانني اعتبر رؤيا ايفان أعلى الذرى التي تصلها هذه القصة، اذا يمكننا ان نجد في هذه الصفحات خلاصة لاسلحة اللامنتمي الجدلية ، بالاضافة الى ما نجده فيها من بذور نمت فيما بعد وكانت ثمرتها التطورات التي حدثت في الادب الحديث . **

ان ايفان مريض ، ويخبرنا القاص بأنه على وشك معاناة عاصفة ذهنية شديدة، وبأنه سيصل الى هذه النتيجة لان تفكيره الذى لا ينتهي سيقوده اليها حتماً . انه يقابل سمير دياكوف ، أخاه النصف ، « الذي يمثل جانب القرد منه ، والذي يذكره دائماً بالجزء المنحط من نفسه » ويستخلص منه اعترافاً بارتكاب جريمة القتل ، الا انه يقفل راجعاً الى غرفته ، وهنا يحدث المشهد الذي يميل اليه مصير

* انظر « المفتش العام » ، تقديم د. هـ. لورنس ، مطبعة هوكارث .

** المقصود هنا هو كتاب تشيخوف « الراهب الاسود » الذي نجد أفكاره الميتافيزيكية مكررة في مؤلفات بيرانديللو ، وأندرييف ، وسارتر ، وفي انكلترا لدى اليوت في « التئام شمل العائلة » ، بالاضافة إلى أن توماس مان يدين بكتابه « الدكتور فاوست » إلى تلك الأفكار أيضاً .

اللامنتمي دائماً ، اذ لا تكون الغرفة خالية تماماً ، وانما هنالك آخر ...

ذلك الآخر هو الشيطان ، وهو هنا يرتدي سترة عريضة وسروالاً ضيقاً ، ويصفه دوستويفسكي وصفاً لا نجد مثل دقته الا لدى بلزاك حين يصف الباعة . الا ان هذا الشيطان انساني الملامح تماماً ، وقد قال ايفان لاليوشا مرة ، في فصل « اقبال الحياة وادبارها » ، ما يلي :

« اظن أنه اذا لم يكن هنالك شيطان ، وانه اذا كان هذا الشيطان من ابتداع الانسان ، فانه انما يتصوره على هيئة تشبه هيئته هو . »

وها هو الشيطان ، كما قال ايفان : انساني الملامح، انساني جداً، يشبه مسلحاً مضحكاً ، بل انه يشبه والد ايفان ، بالاضافة الى بعض ملامح القرد ، او بعبارة أخرى ، ملامح سميردياكوف . فهل هو حقيقي ؟ وهنا يشير دوستويفسكي قائلاً : « انه حقيقي، تماماً مثل اي شيء آخر في عالم الاشياء اللاحقيقية هذا » . ويعتقد ايفان بأنه ليس حقيقياً ويخبره بذلك ، فيضحك الشيطان ، ويقر بذلك ويقول له : « كل شيء هو غير حقيقي ، الوجود ؟ ما هو ؟ الادراك ! ان ما تراه موجود بالنسبة اليك ، فلو كنت وهماً بالنسبة لعقلك فانك انت أيضاً وهم بالنسبة لعقلي. كل انسان موجود في كون ذاتي * ، يعتبر فيه اوهامه من الحقائق . ان العقل ليهدم المنطق ، عاجزاً عن التقدم اكثر ، ليتدفق خارج حدود هذه الصفحات . ألست أيها القارىء ، يا من تقرأ هذا الكتاب الآن ، جانباً من هذه الحقيقة ؟ ان ايفان يمثل جانباً من الحقيقة أيضاً – الا انه أقل حقيقة ، وكذلك الشيطان، فانه يمثل حقيقية أقل من حقيقية ايفان، غير ان كلاً منكم متعلق بالآخر. ترى هل تقرأ هذا الكتاب للمتعة وحدها ؟ كلا ؟ أتحس شغفاً جاداً بهذا الكتاب؟ انه لا يضيرك حقاً ان تقرأ عن حيرة ايفان بين الحقيقية واللاحقيقية، ولكن، ماذا سنفعل بعد ان نلقي هذا الكتاب جانباً ؟ انك ستعود الى حياتك لتسأل – :

---

* Solipsism (في الميتافيزيكيات) : رأي يقول بأن الذات هي الشيء الوحيد المعروف أو الموجود . (المترجم)

حقيقية ؟ أم ليست حقيقية ؟ أما الذكي فانه سيتظاهر بأنه مخلص ، يتظاهر بأنه يفحص كل شيء ويختبره ، الا انك لا تختبر وجود الكرسي الذي تجلس عليه ، أو ادراج مكتبك ، أو النار ، ولا العمل الذي يجب عليك ان تقوم به غداً أو بعد غد . ويمكن العقل ان يحلق بعيداً ، في متاهات المثل العليا والنبل والشهامة واحلام اليقظة ، أما الكيان ، والشخصية ، فعليهما ان يتبعا المصير ، الذي يدعوه مينكاوسكي : بالبعد الارضي .

هذا ما نخرج به من مواجهة ايفان للشيطان ، وسنظل نخرج بهذا دائماً ، حتى يحصل البشر على الحقيقة ، فيقرأون « الاخوة كارامازوف » وهم يجلسون على كراسي حقيقية ، هي حقيقيتها تماماً كما تلوح عليه ، مواجهين حياتهم بمعرفة تامة نهائية ، وجواب أكيد على الاسئلة : لماذا هم موجودون ؟ ما هي الحياة ؟ ما هو الموت ؟ من اين جاءوا ؟ واين هم ذاهبون ؟ اذاك يمكنهم ان يعلموا بأن شيطان ايفان لم يكن حقيقياً ، الا ان قصة « الاخوة كارامازوف » لن تعدو عند ذلك كتاباً ، ولن يعدو دوستويفسكي كونه رجلاً ، أما من حيث اللاحقيقية ، فلا شيء يميّز أحدهما عن الآخر. هنالك خلف ايفان عالم من الفوضى ، والدخان. وان ايفان ليتهم الشيطان بانه انما يثير في نفسه الافكار التي كان يفكر بها حين كان تلميذاً ، ولكن ماذا يهم ذلك ؟ بل قد يكون ذلك دليلاً آخر على لاحقيقية الشيطان ، ولكن ، هل يثبت ذلك ان هذه الافكار لا حقيقية أيضاً ؟ وهل ان هذه الافكار اكثر حقيقية من ايفان ؟ قد يقول افلاطون : نعم ، كما يقول كيركغارد وغيره من وجوديي العصر الحديث : لا ، وهذا ايضاً موجود في الموقف الذي نشهده بين ايفان والشيطان . اننا لنحس ، حالما نلمس أفكار ايفان هذه بأن خيالنا ينطلق ثانية باحثاً مدققاً . ولقد بحث ايفان ، حين كان تلميذاً ، فكرة انه لا علاقة للخير أو الشر بالروح ، وانما هما قطبان للحياة ، او قاطعا أخشاب يمسك كل منهما بمقبض المنجل ، الا انه منجل كبير ذو حدين . يمكنك أيضاً أن تشبه الشر بمدقة الناقوس ، اذ انت خلعتها صمت صمتاً نهائياً . ان الشيطان ليسأل : الخير والشر ، ترى ما هما ؟ اذا كان الانسان متوحشاً فان خيره وشره

مستبدان لا يطيعان الا نفسيهما ، وأما آلهته فانها فاسدة ، في حين لا تعدو شياطينه عفاريت مقابر ؟ أما اذا تعلم أن يستخدم عقله ، فانه يستطيع ان يميز بين الخير والشر ، ولكن اين سينتهي به ذلك ؟ ما عدا نهاية اللامنتمي ؟ « الحقيقة ؟ ترى ماذا يعنون بها ؟ » انه لا يفكر في بحث نفسه بالنسبة الى الله ، وانما هو يشبه حمار بوريدان الذي يجوع ، بينما يحمل على ظهره كومتين متعادلتين من القش . فأما فكرتا الخير والشر فانهما سرعان ما تتبخران ، ليجد نفسه في غرفته ، محملقاً في الجدار ، فاذا كان الى جانبه آخر ، فلا بد أنه يشبه شيطان ايفان ، بملامحه المبتذلة وسرواله الضيق ، وتلك هي النهاية التي تصل اليها افكاره فيما يخص الله. اما الأبد، فأنه ليس اكثر من غرفة قذرة مملوءة بنسيج العنكبوت ، واما الشيطان فهو كائن بشري ، وأما الجنة فلعلها كما جاء في سوناتا ريوبيرت برووك حيث :

« هب نسيم رخاء على عرش خال
فحرك الستائر الثقيلة المعلقة على الحائط ... »

الايمان ؟ كلا ، ليس ذلك لان ايفان لا يؤمن ، فان الجوع الروحي جعله يحس بالمرض والخوف من وجوده ذاته .

« هل تصلي الاخت التي ترتدي القناع
للاطفال الذين يقفون بالباب
لا يستطيعون ان يذهبوا ولا ان يصلوا ؟ »

فاذا استطاع ان يثوب الى نفسه من هذا الادراك المرعب ، ويجد الايمان ، فقد يصبح اكثر تحمساً للدين من اليوشا ، وقد يؤمن بالثقة التي يؤمن بها من كان تائهاً طول عمره ، ولما اهتدى ، قرر ان لا يتيه بعد ذلك أبداً .

الا أننا لا نستطيع أن نعرف ما حدث ، لان دوستويفسكي لم يكمل القصة . هنالك حقاً بعض التلميحات عن ذلك في فصل الشيطان : وهنالك أيضاً قصة المفكر الحر الذي آمن بأنه لا حياة بعد الموت ، الا انه خجل من نفسه أشد الخجل حين مات واكتشف انه كان مخطئاً ، وكان عقابه على جحوده أن حكم عليه بأن يمشي تر ليوناً من الاميال ، الا أنه اضطجع ورفض أن يتحرك ، ومر عليه الف عام

وهو على تلك الضجعة ، حتّى ملّ النوم ، وفضل أن يسير تلك الاميال المفروضة عليه ، ولم يكد يأتي على نهايتها — « وهنا يقاطع ايفان الشيطان ليسأله : من أين جاء بالبليون سنة التي قضاها ذلك الانسان ماشياً ، ويجيبه الشيطان قائلاً : ان ارضنا هذه ماتت وعادت الى الحياة ألف مرة — استمرارية زرادشت المتكررة الحدوث » — لم يكد ينتهي من تلك الاميال، ويدخل الجنة في النهاية، حتّى صاح قائلاً — : إن ثانيتين في الجنة تساويان مسيرة تلك المسافة مضاعفة الف مرة.. (٨)

وهنا يقاطع ايفان الشيطان قائلاً : « انك تعيد لي قصة سبق لي ان اخترعتها حين كنت تلميذاً ! » وهكذا نجد أن الشيطان لم يكن غير خيال ايفان. كذا !

ولكننا اذا تفحصنا القصة ذاتها ، وجدناها مشابهة تماماً للرؤيا التي رآها نيتشه على قمة التل : الوفاق ، ورؤيا الوجود الحر الذي يستطيع أن ينهض في وجه كل رعب وشقاء يمكن أن تتصف بهما الحياة . ان الجاحد ليسير ترليوناً من الاميال ، الا أن لحظة واحدة من الحقيقية تساوي اضعاف ذلك . ويشبه هذا امل ستيفن وولف في أنه سوف يستطيع يوماً «ان يعود الى النظر الى نفسه حين يصل الى هدفه النهائي ، الذي يلوح أن هذا الطريق الشاق سيوصله اليه » ، ويبتسم «بمزيج من الغبطة والشفقة . » بل ان يدرك « انه كان سعيداً ، وانه ما يزال سعيداً » مثل ميرسول . ان هذه الفكرة تتكرر في كل اديان الارض ، ذلك ان الحياة هي سلسلة من الضلالات والاوهام، لا يستطيع الانسان فيها أن يكوّن أية فكرة عن: من هو ، وماذا يفعل ، الا أنه قد يرى الحلم فجأة ، ويبرق في كيانه نور الفهم الكامل . ان الباكافادكيتا لتعبر عن ذلك بما يلي :

« حتّى لو كنت أشد الخطاة ؛ فان هذه البصيرة ستحملك كالطوف فوق كل خطاياك . » * (٣٦:٤)

---

* باكافادكيتا : (أي أغنية كريشنا) قصيدة في المهابهاراتا تحتوي على مقاطع كثيرة يدعى كل منها « يوبا نيشاد » ، وهي سلسلة من التعاليم الصوفية كتبها كريشنا لتلميذه الامير أرجونا في مساء إحدى المعارك ، وهي تعتبر انتهاء الوجود امتزاجاً بروح الله . (المترجم)

ويقول شوانج تزو :

« وبينما هم يحلمون ، فانهم لا يعرفون انهم يحلمون ، وقد يحاول البعض منهم أن يفسروا الحلم الذي يرونه – تستطيع أن تأخذ مثلاً على أولئك هيغل والفلاسفة لسببين – أما حين يستيقظون ، فانهم يدركون أن ذلك كان حلماً ، ويحصلون شيئاً فشيئاً على اليقظة العظيمة ، اذ ذاك نكتشف أن هذه الحياة ليست غير حلم كبير ... »

وفي هذا يكمن جوهر الفلسفة الوجودية. ان الفيلسوف الشاعر ليعرف بفطرته أن الانسان غارق في أوهامه الى حد أنه لن يعرف نفسه ، ولن يعمل على ضوء تلك المعرفة . وتحين اللحظة ، اللحظة التي يتوفر للانسان فيها ادراك اكثر عمقاً ، وأشد مما يملكه في حالته المألوفة ، حين يستطيع أن يعرف أن الانسان لا يعرف العالم أو نفسه . انه غارق في الوهم ، مولع بتعظيم نفسه ، الى درجة انه لا أمل له في أن يعرف نفسه . ويمكن للامنتمين أن يعرفوا هذا ، لان اللامنتمي ينظر الى الامور بعين تستطيع أن تنفذ الى صميم خداع النفس المألوف ، الى ما يعمي الرجال والنساء عيونهم به من مشاعر وانفعالات . أما النتيجة فانها لا تعدو الاحتقار الذي شعر به جوناثان سويفت نحو الرجال والنساء ، ذلك الاحتقار الذي يذكره على الاخص في الصفحات الاخيرة من « رحلات جيليفر » ، أي – في رحلته الاخيرة الى الهويهنهمس * :

« لم أكن لاجد اشفاقي وعطفي على هؤلاء الـ « ياهو » ** صعباً لو انهم اكتفوا بشرورهم وحماقاتهم التي ميزتهم الطبيعة بها . ان منظر المحامي والنشال والضابط والاحمق واللورد والمقامر والسياسي والطبيب وشاهد الزور والوكيل

---

* الهويهنهمس : بلاد يتصور سويفت أن بطله جيليفر يزورها فيجد الخيل فيها بمثابة الإنسان في عالمنا هذا ، تتحدث وتعمل ، بينما لا يعدو البشر حيوانات حقيرة تؤدي أعمال الحمير بصورة فظيعة وتعيش عيشة حقيرة كريهة . لاحظ أن اسم هذه البلاد مشتق من صهيل الخيل، وكذلك بعض الألفاظ التي تقرأها في هذا المقتطف . (المترجم)

** ياهو : الاسم الذي تطلقه الخيل على الجنس البشري في تلك البلاد . (المترجم)

الشرعي والخائن او ما يشبه هؤلاء لن يثيرني قط ، فان ذلك كله متفق مع ماجريات الامور الطبيعية ، الا انني حين ارى كومة من التشويه والمرض ، انساناً يتصف بهما عقلاً وجسداً ، فانني لا املك ، باعتباري انساناً ايضاً ، الا ان اشعر باقصى حدود الصبر تتحطم في نفسي اشمئزازاً ..! »

وليس هذا الاحتقار ناجماً من مرض في سويفت ، بل لا يمكننا ان نصف سويفت بذرة من الجنون (رغم ان الرأي السائد الآن يعارض هذا) ، فان هذا هو سلوك اللامنتمي المألوف حيال البشر ، كما انه السلوك الديني ايضاً . ويمكننا ان نجد مثل هذا الاتهام الفظيع للحماقات الانسانية في كتاب « الواعظ » ، بالاضافة الى ما في الانجيل و « خواطر » باسكال مما يشبه ذلك . ان هؤلاء الرعاع التافهين المشغولين بالمال ليسوا غير ذباب السوق ، فاذا اشتد ادراك اللامنتمي عمقاً ، فانه لا يعود يرى البشر ملايين الملايين من الافراد ، وانما يرى ارادة العالم التي تسوقهم كالنمل في خلية كبيرة ، ويعلم انهم لا يستطيعون الفرار من ضلالهم وحماقاتهم ، وانه ليس في امكان النطق او المعرفة أن تجعل الانسان اكثر من حشرة ، أما أشد ما يثير غيظه في هذا القمل البشري ، فهم اولئك الذين يدعون الى الانسانية ويتحذلقون بالعقل ، بينما يهملون تفاهاتهم وحماقاتهم .

ان الجواب الذي يقدمه انسان مثل كيركغارد على هذه الرؤيا ، التي فرضت نفسها على حواسه الحساسة جداً ، هو الحل الديني ، لانه لا شيء اكثر طبيعية من فكرة أن العقل المتعب من شدة التفكير والتفحص يجب ان يعود الى مناطق في الكيان كامنة خلف الادراك ، أي الى الفطرات والبداهات . وقد يمثل ذلك ثورة بسيطة متواضعة ، كثورة د. ه. لورنس الا أنها مع شدة بساطتها قد تقع في الخطأ ذاته الذي تجنبه ستيفن وولف : أي سلوك طريق « العودة الى الحيوان » التي يعبر عنها لورنس في « القديس مارو » وفي « العذراء والغجري » . ان هذا لا يمكن ان يكون حلاً . الا ان كيركغارد وجد هذا الحل عندما ادرك ان الشدة الضرورية لامتزاج فتراته وقواه العقلية انما تكمن في السلوك الديني .

وهنا قد يسأل القارىء الذي يحيره أمر اللامنتمي الا أنه لا يفهم كيف سيستطيع القفز الى مثل هذا السلوك الديني : « هل من الصحيح ؟ هل من الصحيح ان نقول بموجب هذه الطريقة ذاتها ، ان ١+١=٢ ؟ » وهنا قد تنفعنا المقارنة فتجعل الاشياء أشد وضوحاً . حين قدم آينشتاين نظريته الخاصة عن « النسبية » بذل جهداً كبيراً في توضيحها الى درجة أنه جعل قارئه يؤمن بأنها لا تتعارض مع قوانين نيوتن ، ما دامت المشكلة التي تبحثها تتعلق بأشياء مطلقة بسرعة شديدة جداً ، بسرعة تقترب من ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية الواحدة . فاذا لم تكن تشغلك مثل هذه السرعة فانه لن يهمك ان تقلق بشأن الزمن اذا كان مختلفاً في مختلف الانظمة المتعادلة في الحركة النسبية ، ولا بشأن الحدوث المترابط الذي لا يمكنك ان تعرف معناه بدون تعاريف أخرى متعددة ، أما اذا كنت تبحث امر السرعات الشديدة ، فلا بد من نبذ معادلات غاليلي واستعمال معادلات لورنتز .

وينطبق هذا على اللامنتمي أيضاً ، فاذا كنت تعيش حياة عادية كئيبة ، ليس فيها الا ضغط قليل ، فانك تستطيع أن تعتبر اللامنتمي شيئاً لا يستحق الاهتمام دون ان تخشى شيئاً ، اما اذا كنت مهتماً بالانسان في حالاته المتطرفة ، او بالانسان المشغول بأسئلته عن طبيعة الحياة بصورة شاذة ، فان كل جواب قد تسمعه من اللامنتمي جدير بانتباهك وملاحظتك الشديدين . ان اللامنتمي مولع بالسرعات الشديدة والضغط العالي ، وانه ليفضل ان يفكر في الانسان الذي يبدأ شريراً جداً أو خيراً جداً اكثر من تفكيره في المواطن الصالح الذي ينظر الى كل الامور باعتدال .

ويعيدنا هذا الى ايفان كارامازوف ، وايفان هو انسان غير قانع بالسرعات العادية . انه يحس في نفسه بقوة روحية هائلة ، كما أنه مثل راسكولنيكوف في عدم شعوره بأنه كان قد ولد ليكون شيئاً لا اهمية له ولا وجود . ويخبرنا دوستويفسكي بانه « لاح منذ طفولته ذا قابلية روحية لامعة شاذة على التعلم ، » وانه ليشعر شعوراً طبيعياً بأن طريقه يجب أن يكون طريق العقل ، وما هو عمل العقل يا ترى ؟ انه لا يكف عن التركيب . ان اللامنتمي ينظر الى البشر دائماً

باعتبارهم يمثلون الفشل ، بل انه ليشعر بأن كل انسان عاش على هذه الارض كان فاشلاً ، ولهذا فان اللامنتمي من نوع ايفان يحاول ان يعد قواه العقلية لمواجهة هذا السؤال : كيف يسعني ان أعيش حياتي بحيث انها لا تكون فشلاً ؟ ولما كان هذا السؤال على مثل هذا المستوى العالي ، فان المشكلة تقرض في نفسه ليل نهار ، فتجعل متعه امراً مستحيلاً ، وتحطم أعصابه بتوتر لا نهاية له والحاح لا حد له ، تماماً مثلما يغوص مسمار طويل في الدماغ . ان يبحث عن المقاييس ، ويدرك بصورة فطرية انه : « اذا استطعت ان اقول : ان الانسان كان فشلاً دائماً ، فانه يجب أن تكون لدي فكرة عن النجاح . »

وهنا تبدأ المشكلة حقاً ، فاذا كان لديه وقت ليجلس في بقعة هادئة ، وفي ظروف مؤاتية ، فانه قد يكون في استطاعته ان يكتشف ذلك ، الا ان حياتنا كبشر في مجتمع حديث قلما تسمح لنا بمثل تلك الظروف . وان ذلك ليعتبر تكراراً لمشكلة فان كوخ وكفاحه المتصل ليلاً ونهاراً من أجل الشدة التي حصل عليها بالامس ، والتي تقاطعها الترهات الانسانية والتفاهات التي لا حد لها . وعندما جعل دوستويفسكي ايفان يرى الشيطان في الامسية التي كان سيعاني في صباحها من أشد العواصف في عقله ، فانه انما كان يعبر عما يمكن ان يحدث لمثل هذا اللامنتمي . ان ايفان يبحث عن التركيب التام ، أي انه يريد ان يرى العالم ككل. ويسمي بليك ذلك بالرؤيا الرباعية في احدى قصائده :

« انني أرى الآن رؤيا رباعية
وهذه الرؤيا الرباعية موهوبة لي
انها رباعية في غبطتي الكاملة
وثلاثيه في ليلة من ليالي بيولا * السمحة
وثنائية دائماً . وليحفظنا الله من

---

* بيولا : اسم يطلق على أية كنيسة أو معبد يصلي فيه الخارجون على الكنيسة العامة . (المترجم)

كل رؤيا احادية ، ومن نوم نيوتن . » (٩)

ان شيطان ايفان يعتبر تجسداً للبيت الأخير من هذه القصيدة ، « رؤيا احادية ، ونوم نيوتن » ، كما أنه يشبه غثيان روكانتان وحقيقة وليم جيمس المستعصية التي لا يمكن اختصارها ، والواقع الصافع الذي ينفي الروح ، أو أسوأ من ذلك ، الذي يعتبر تجسداً للوهم . ان هذا الشيطان هو الذي ساق فان كوخ الى الجنون ، وجلس على مرفق ت. س. لورنس هامساً له بعدم الثقة بالنفس ، وليس هذا الشيطان وحشاً كابوساً شريراً ذا ثلاثة وجوه ، وانما هو محطم أجنحة ، وسجان لارادة الحياة .

• • •

ان توماس مان مدين « بالدكتور فاوست » الى مشهد الشيطان هذا ، وقد أضاف اليه بعض الملاحظات الطريفة الخاصة بسيكولوجية اللامنتمي ، وبذلك أوضح رؤى دوستويفسكي وسهلها . ان « فاوست » مان « الذي يرتكز على أسس فردريك نيتشه » يقول : (١٠)

« ان الشعور بالخطيئة بطريقة لا يكون فيها أي مجال لذرة من الأمل ، أو أي ايمان بامكانية وجود الرحمة والغفران .. هو الشعور الحقيقي بالخطيئة .. انك لتقر بأن الخاطىء العادي الذي تشهده في كل مكان هو خاطىء باعتدال ، الا أن الاعتدال بين الشر والخير لا معنى له في الواقع من الناحية اللاهوتية ، في حين ان القابلية القصوى على الخطيئة ، تلك التي لا شفاء لها ، والتي تجعل الانسان يائساً يأساً عميقاً من أي انقاذ — هي الطريقة الوحيدة التي يمكن ان يتحقق بواسطتها الخلاص عن طريق اللاهوت .

هو (الشيطان) : أنت كلب محتال ، ترى كيف يمكن لأمثالك ان يحصلوا على الوحدة العقلية واللااكتراث البسيط الذي يتميز به اليأس والذي يمكن أن يكون نقطة انطلاق للخلاص عن طريق ارتكاب الخطايا ؟ ترى هل غاب عن بالك أن الاعتماد المدرك المتعمد على المفعول السحري الذي تستطيع الخطايا العظيمة ان تسبغه على الخير يجعل الرحمة مستحيلة بالنسبة له ؟

فاوست : ومع ذلك فانه لا يمكن الاحساس بوجود هذه المشاعر اللاهوتية الا عن طريق هذه الـ « لا » ، بالاضافة الى التطرف العنيف – أعني بواسطة الجرائم التي لم تخطر على بال احد من قبل ، بالاضافة الى آخر ما يتخلف في النفس مما لا يمكن مقاومته من دوافع الخير الابدية .

هو : هذا حسن .... والآن سأخبرك بأن رؤوس أمثالك هي التي تملأ الجحيم ، كعالم اللاهوت ، والدرويش التنبل المخادع الذي يملأ ذهنه الأمل في الربح ، لأن الأمل في الربح يجري في دمه ... »

ان مان يجعل الموقف أشد وضوحاً ، ولا يختلف هذا الموقف في شيء من ذلك الذي حللته في الفصل الخامس حين بحثت أمر « أربعاء الرماد » لإليوت . اما الحل الذي يصل اليه أوغسطين ، فهو : آمن أولاً لكي تفهم . ولكن ، كيف يتم هذا اذا لم يكن في اعماق الانسان شيء من الايمان ؟ واذا كان يريد ان يختبر كل شيء بعقله ؟ ولست اعني بالاختبار العقلي ما يدعي به اولئك الذين نعرف مبدأهم بهذا الاسم – كالمنطقيين الحديثين الذين يبحثون في امكانية التركيب الاستنتاجي ، الا أنهم لا يشكون في نفع المحاضرات التي يلقونها على الطلاب ثلاثة مرات في الاسبوع ، والكتب التي يؤلفونها عن الايجابية المنطقية ، فان اللامنتمي سيحكم على هؤلاء بالحكم القاسي الذي ذكره مان : « ان الاعتدال بين الخير والشر لا معنى له في الواقع من الناحية اللاهوتية . » ولكن ، هل ان الانسان الذي ينطلق مثل ايفان ستراود « ناشداً الخلاص من كل الاخاديع ليستطيع الوصول الى قلب الاشياء .. » ملعون حتماً ؟ ان هذا السؤال يعتبر أسوأ ما يحير اللامنتمي : أجل ان أسوأ ما يحيره هو ان يشعر بكل كيانه يتوق معذباً الى شيء من القناعة العاطفية ، الى شيء من الواقع الحقيقي ليلمسه ، وان يحس بأن قواه العقلية انما تقف بعيداً عن ذلك كله ، هازئة بامكانية الشعور بالقناعة ، مثبطة عزمه كلما شعر بأنه يكاد يقترب منها . ترى ماذا يجب على مثل هذا اللامنتمي ان يفعل ؟ أعليه ان يسكت صوت عقله عامداً ، ليتقبل الايمان ويأمل في ان يجد فيه ما يرضي عقله يوماً ما بعد ذلك ؟ أعليه أن يتقبل مبدأ

« آمن اولاً ، لكي تفهم ؟ »

كلا ، اذ ليس في استطاعة اللامنتمي أن يفكر في مثل هذا . والواقع أننا رأيناه وهو يحل المشكلة في هذا البحث ، فان الانسان لا يتألف من العقل والمشاعر فحسب ، لأنه جسد ايضاً، وهذا مما يسهل نسيانه. ان حياة اللامنتمي دائرة دائماً حول عقله ومشاعره ، وانه ليعود الى غرفته الكئيبة ناسياً ان لديه جسداً ، كما فعل بروست . الا أن همنغواي هو الذي اعاد اهمية الجسد الى دنيا الأدب الحديث ، وقد فعل ذلك بنجاح اكثر من نجاح د. ه. لورنس ، الذي كانت مشاعره تتغلب عليه دائماً . انك لتجد لدى همنغواي ، خاصة في رواياته الاولى ، ما يوحي اليك بطراوة الجسد ، بالاضافة الى تجربة الامور الطبيعية تجربة مركزة مباشرة ، الأمر الذي يجعل « حيرة العقل وارتباكه » أشياء لا معنى لها . كان ذلك رأي زرادشت أيضاً . كما ان لورنس يوضح هذا ايضاً في السطور التالية التي تعتبر جوهر كتابه « الرجل الذي مات » :

« لم يكن المسيح العبري يعرف غير دموع العبريين وسوداويتهم ، بالاضافة الى كرههم للخير والصلاح ، حين فاجأه حنينه الى الموت . ولو بقي في الصحراء ، بعيداً عن الخير والصلاح ، اذن لتعلم كيف يعيش ويحب في هذه الأرض – ولضحك ايضاً ! » (١١)

ان هذا الحكم ، بصرف النظر عما تراه فيه من نقد لمؤسس المسيحية ، مألوف لدى معظم المتصوفة في مختلف الأديان . وستجد في الفصول الأخيرة كيف ان « حب الأرض » يعتبر اهم الأمور لدى بليك او تراهيرن ، الأمر الذي فشل فيه بطل مان « الدكتور فاوست » ، وانها لصورة شوهاء لرسالة نيتشه ، لأنها تهمل جانب «وتمان» من نيتشه وتؤكد على المشاكل العقلية فحسب. * وانه ليلوح

* إن الذين قرأوا مسرحية « غوتيه » « فاوست » يتذكرون ولا ريب المشهد الذي يحاول فيه فاوست الانتحار لشعوره بالانحدار بالنسبة لمشاكله العقلية ، إلا أن نواقيس عيد الفصح تعيده إلى الأرض ثانية ، بالاضافة إلى ما يتذكره فجأة من حياته الماضية حين كان صبياً صحيح البنية حر الجسد .

ان ايفان فشل في ذلك ايضاً . بالرغم من انه يؤكد على حبه « للسماء الزرقاء ولبراعم الربيع » . على ان دوستويفسكي يبدد هذا الغموص بالمشاهد التي يصف فيها رؤى الشقيقين الآخرين .

ان اليوشا يشعر بحبه للارض ، مثل فان كوخ ، ويقبلها ويبكي وهو منطرح عليها ، اما ميتيا ، فانه يدرك فجأة ان الأرض مملوءة بالبشر التعساء الأشقياء ، وان واحداً لا يستطيع ان يشعر بانه كامل تماماً ، اذ لم يكن لديه شيء من الشعور بالصلة التي تربطه بهم والعطف عليهم لما يحيط بهم من شقاء وبؤس .

ويتحدث همنغواي عن «سكوت فتزجرالد» في « ثلوج كليمنجارو » قائلاً :

« يا لسكوت المسكين ، ويا لرهبته من « الأغنياء » ... لقد كان يظن انهم يؤلفون جنساً خاصاً عظيماً ، الا انه حين وجد انهم ليسوا كذلك ، سحقه شعوره بهذا تماماً كما سحقته مشاعره عن اشياء اخرى في حياته . لقد كان « البطل » يحتقر اولئك الأشقياء .. كان في امكانه ان يدحر اي شيء .. لأنه لم يكن في استطاعة اي شيء ان يؤذيه ما دام غير مكترث لأي شيء ... » (١٢)

ويخصص همنغواي هذا الكتاب لبحث أمر اولئك الذين اصبحوا تعساء لأسباب مختلفة ، كالاهتمام الشديد بأشياء معينة ، حتى ادى بهم ذلك الى الانفجار تحت وطأة ذلك التوتر .

اما دوستويفسكي ، فانه نقلنا الى تطورات جديدة ، وساعدنا على تلخيص معظم افكار الفصول السابقة ، ولن يغيب عنا ان نلاحظ ، في بحثنا الذي شمل باربوس وسارتر وهيس ، حتى راسكولنيكوف وايفان كارامازوف ، ان اعظم الناس كانوا اولئك الذين اهتموا اشد الاهتمام بمشاكل اللامنتمي ، وبالسؤال التالي : كيف يمكن للانسان ان لا يشقى ؟ ويجب على اللامنتمي ان يظل يسأل : لماذا اجد معظم الناس فاشلين ؟ ولماذا يميل اللامنتمون الى ان يكونوا اشقياء ؟

ان ما ينقصنا هو « ان نفهم العدو » ، وهذا هو اساس المشكلة ، واننا لنتحدث بغموص عن « مشاكل اللامنتمي » ، وقد نسبغ عليها بعض التعاريف ، فنقول : « الحرية » ، و « الشخصية » ، الا ان هذا لا يقودنا الا الى بحوث

ميتافيزيكية عن المعاني . فأما الأمر الذي لم نبحثه بعد فإنه قولنا : « إلى هنا يريد اللامنتمي ان يصل ، وهذه هي العقبات التي تقف في طريقه ، والتي يتعثر بها فتدق عنقه . » هذا هو ما نحتاج اليه ، وانه ليتمثل في تصنيف الأنواع التي بيّناها في الفصول السابقة لنحصل على: تقرير المصير، وإدراك للعدو ، أو « العقبات » . دعنا اذن نلخص ما توصلنا اليه :

يريد اللامنتمي أن يكفّ عن كونه لامنتمياً .

انه يريد أن يكون « متعادلاً » .

انه يريد أن يحصل على إدراك حسي حر ، (لورنس ، وفان كوخ ، وهمنغواي) .

يريد أيضاً أن يفهم الروح الانسانية واعمالها ، (باربوس ، وميتيا كارامازوف) .

يريد ان ينجو من التفاهة إلا الأبد ، وان تتملكه « ارادة القوة » من أجل حياة أكثر وفرة .

وفوق كل شيء فانه يريد ان يعرف كيف يعبر عن ذاته، لأنه يستطيع بواسطة ذلك فقط ان يعرف نفسه وإمكانياته المجهولة .

ان كل مأساة لا انمائية درسناها حتى الآن لم تتعد مأساة التعبير الذاتي .

ولدينا اكتشافان عن طريق اللامنتمي، يمكنهما أن يقودانا في بحثنا هذا:

١ : ان خلاصه كامن في التطرف .

٢ : ان فكرة الخروج انما تأتيه على شكل « رؤى » ، ولحظات من الشدة .. الخ ، وعلينا ان نفحص الاحتمال الأخير في الفصلين الباقيين .

الفَصْلُ الثَامِنُ

اللامنتمي كإنسان يرى رؤى

ان من يرى أية رؤيا هو لا منتم بالفعل ، وليس ذلك لأن من يرون الرؤى قليلون بالنسبة إلى بقية أفراد المجتمع ، لأننا في مثل هذه الحالة ، يجب ان نعتبر صيادي الفئران مثلاً وغيرهم من الشواذ لامنتمين أيضاً ، وانما يرجع ذلك إلى أنه يبدأ من نقطة يفهمها الجميع ، إلا أنه سرعـــان ما يحلّق إلى أشياء لا يفهمها الناس . انه يبـــدأ من « الرغبة في الفعالية المنتجة والدرجة الممتازة من الحياة » اللتين تمثلان أعمق ما في الانسان من فطرات ، ولا يمر وقت طويل حتى تجده يقول :

« انني أصرح لنفسي انني لا أرى المخلوقات الخارجيـــة الأخرى ؛ وانها لا تمثل بالنسبة لي حركة ما،وانما عائقاً . انها كالتراب الذي يعلق بقدمي ، والذي لا يمكن ان يعتبر جزءاً مني . قد يسألون: ألست ترى ، حين تشرق الشمس ، حلقة ملتهبة من النار تشبه الجنيه الذهبي؟ أواه ، كلا .. كلا ، انني أرى ما لا يحصى من ملائكة السماء هاتفين : مقدس مقدس مقدس ، ربنا الله العظيم . » (١)

أهي استعارة شعرية ؟ ربما ؟ اليك اذن أن بليك أخبر كراب روبنسن بأنه كان قد رأى شبح يوليوس قيصر في المساء السابق ، وانه قضى معظم حياته متحدثاً مع الأرواح أكثر من حديثه مع البشر . ويمكننا ان نعتبر هـــذا أحد أمرين : جنوناً مطبقاً ، أو شكلاً غريباً من اشكال صحة العقل .

وقد قال متصوف آخر ، وكان عالماً لامعاً ومهندساً من الطراز الأول ، انه زار الجنة والجحيم ، وان ذلك لم يكن خيالاً شعرياً مثل خيال دانتي ، وانما كان أمراً حقيقياً ، تماماً كما تخرج انت للنزهـــة في يوم عطلتك ، وأضاف انه اعتاد ان يتحدث مع الملائكة دائماً . ويوجد اليوم آلاف ممن يؤمنون بما آمن به عمانوئيل سويدنبرغ ويعتبرون كتبه صادرة عن عقل لا يقل صحة عن عقل نيوتن ، ولا موضوعيـة عن بحوث « كنزي » في السلوك الجنسي . ولن يسهل علينا ذلك السؤال ان نقول ان «صحة العقل» متعلقة بالرؤى دائماً ، خاصة عندمـا يتعلق الأمر بالطوائف الدينية . لقد صرح بليك وسويدنبرغ بأن رؤاهما حقيقية خاصة بأشياء حقيقية، تماماً كما ادعى ويلز في « العقـل في منتهى حدود الاحـــتمال » . الا ان فحصنا لكراس ويلز يجب أن يجعلنا حذرين من الاستخفاف بمثل هذه الادعاءات.

أود في هذا الفصل ان ابحث أمر لامنتميين وجدا حلولاً دينية لمشاكلهما ، وصرحا أيضاً بأنهـما انميا في نفسيهما قابلية خاصة على رؤية « الرؤى » ، وان ذلك كان نتيجة لمحاولاتـهما من أجل ايجاد تلك الحلول . أما طباعهما فقد كانت مختلفة تماماً ، اذ ان جورج فوكس كان رجلاً عملياً ، وكان شغله الشاغل هو ان يبحث عن مخرج لما كان يعتمل في نفسه عن طريق الفعالية الجسدية،أما بليك فقد كان في وقت واحد مفكراً واضح التفكير وحالماً،منددآً بالرسوم والطقوس الكنائسية ، وشاعراً من شعراء العالم الآخر . وقد عرفت انكلترا كلها باسم جورج فوكس،في حين ظل بليك مغموراً.لقد حقق هذان الرجلان ، بواسطة قوة الارادة الحرة شدة ادراك لم تتوفر الا للقلائل .

ومن الضروري ان نذكر ، في معرض الحديث عنهما ، ان ما تركاه خلفهما مسجلاً على الورق لم يكن غير قسم ضئيل من حياتيهما . ويمكننا ان نضرب مثلاً على ذلك قصة دوق شي وصانع العجلات ، في كتاب « شوانج تزو » . وتقول هذه القصة ان صانع العجلات رأى الدوق يقرأ في كتاب ما، فسأله ان يخبره عما كان مؤلف الكتاب يتحدث عنه ، وأجابه الدوق بأنه كان يقرأ « كلمات

الحكماء » ، الا ان صانع العجلات عقّب على جواب الدوق قائلاً : « حثالات الذين ذهبوا وثفلهم ، » ولما سأله الدوق غاضباً عما عناه بذلك ، أضاف صانع العجلات قائلاً : « ان في صناعة العجلات لسراً لم استطع ان أدل عليه ابني ، ذلك لأنني لم استطع ان اقول له ذلك بواسطة الكلمات ، ولهذا لم أستطع ان اسلمه أعمالي ، وانما تراني مستمراً على العمل وحدي برغم بلوغي السبعين ، ولعل الأمر لا يختلف مع الحكماء : فان كل ما كان يستحق الاهتمام لديهم مات معهم ، أما الباقي الذي استطاعوا أن يصفوه في كتبهم ، فليس الا حثالة لا تجدي . وهذا هو السبب الذي جعلني اقول لك انك انما تقرأ حثالات الأموات وثفلهم . »

ويجب علينا الاحتفاظ بهذا في أذهاننا كلما قرأنـــا شيئاً من المقتطفات التي كتبها أصحاب الرؤى أيضاً ، فان جوهر ما رأوه مات معهم ، ولا تكمن قيمهم بالنسبة الينا في الرؤى التي استطاعوا وصفها بكلماتهم ، وانما في التعليمات التي خلفوها لكل من يريد أن يرى الأشياء التي رأوها . انها تكمن ، بعبارة أخرى ، في النظام الذي اتبعوه .

يجب علينا ان نطرح بعض الأسئلة ، قبل ان نستمر في بحثنا لأمر هذين الرجلين ، اذ ان هنالك بعض القراء ممن يجدون ان الأسئلة ، التي رأيناها في الفصلين الأول والثاني بخصوص الدين لا يمكن أن تحل . ان اللامنتمي ليدرك بوضوح ان جميع الناس ليسوا مخلصين مع أنفسهم ، وان الجميع يعمون أعينهم بمشاعرهم ، اما اجوبة الدين ، فانها تلوح للامنتمي اكاذيب منمقة لينخدع بها الناس ويجدوا الراحة . وليس رفض هذا اللامنتمي للدين راجعاً الى وقوفه ضد المسيح ، بل على العكس ، قد يكون الشقاء محيطاً به الى درجة انه لا يستطيع ان يتقبلها . انه ليجد دفاعاً عن نفسه في الكنيسة ذاتها ، في ايكهارت ، مثلاً ، الذي يقول : « لو تخلى الله عن الحقيقة ، فانني سأتركه يذهب وأظل متمسكاً بها . »

وهنا يتجلى لنا ان السؤال الذي يجب علينا ان نطرحه هو : أليس من سقط القول اللجوء الى مقتطفات كتبها رجال متمسكون بالدين ، المفروض فيهم انهم منحرفون عن الحقيقة ؟ اما الجواب ، فانه : « لن يضيرنا في

شيء أن نرى ماذا يمكنهم أن يخبرونا به عن اللامنتمي » . وهنا ، يمكننا أن نقرر ان اللامنتمي الوجودي الذي رأينا أمثلة عليه في الفصول الأولى لا يعتبر الحل الديني أمراً ممكناً،لأن الوجودي لا يريد أن يكون حله عن طريق «أؤمن» ، وإنما عن طريق «أعرف»،وله الحق في ذلك من الناحية المنطقية،إذ أن سارتر يقدم الينا مثلاً يوضح ذلك،فيقول إنه اذا رن جرس التلفون وقال صوت في الطرف الآخر من السلك ، « الله يتكلم ، اذا آمنت استطعت ان تخلص،واذا شككت فإنك ملعون » ، وأجابه الانسان الذي يقف بجانب هذا التلفون قائلاً : « حسناً ، انني ملعون اذن ! » فان لديه ما يبرر جوابه هذا،لأن للبشر حقاً في عدم الإيمان بشيء لا يعرفونه. (٢)

ان هدف هذا الكتاب هو تقرير ما يعرفه اللامنتمي ، وما يستطيع ان يعرفه ، أما مقياسنا في هذا فإنه تجريبي . وعليه فإن كل ما يمكن تجربته، في حدود هذا التعريف ، يمكن معرفته أيضاً . علينا اذن ان نسأل اللامنتمي كل ما يخطر ببالنا من أسئلة لنعرف أية تجربة تنقصه ، وحينذاك نستطيع أن نقول له : « اذهب وفتش عن هذه التجارب،إذ أنك اذا وجدتها استطعت ان تحل مشاكلك وشكوكك » .

ان هـ. ج. ولز يرينا في « تاريخ حياة المستر بوللي » كيف أن بطله يحرق بيته ويترك زوجته مشردة في الشوارع : « إذا لم تكن حياتك الحالية تعجبك ، بدلها » . إلا أنه لا قيمة لهذا الحل الذي يجده المستر بوللي ، بالنسبة لمعظم اللامنتمين الذين بحثناهم في هذا الكتاب ، لأنهم أكثر تعقيداً من المستر بوللي،ما عدا هيس. الا أنه مع ذلك يمكن ان يعتبر مثالاً على الحل النموذجي الذي نبحث عنه: « اذهب وافعل شيئاً » . ولهذا تجدني أتناول جورج فوكس أولاً .

يعتبر فوكس أعظم الأساتذة الدينيين الذين ظهروا في انكلترا،لأننا اذا قارناه بغيره وجدنا بنيان ضعيفاً ، وويسلي سوداوياً ، وويكليف متعصباً . لقد كان فوكس خيالياً ذكياً ، ورجلاً عطوفاً طيب القلب . وحين تقابل فوكس ، الواعظ الديني،مع كرومويل ، حامي السلام ، أعجب العسكري

بالواعظ والواعظ بالعسكري ، وافترقا صديقين ، فقد كانا يملكان معاً نفس الصفات – الشجاعة وقـــوة الارادة – وقد عرف كل منهما نفسه جيداً ، ولم يخشيا بث ما كان فيهما .

الا انه كان في فوكس ، بالاضافة الى الميزات العسكريـة ، ميزات أخرى مختلفة تماماً ، ميزات الشاعر والمتصوف . وقــد أدى اجتماع كل تلك الصفات الى مزيج غريب والى نتائج عجيبة : (٣)

« وبينما كنت أسير مع بعض الأصدقاء ، رفعت رأسي ورأيت ثلاثة أعمدة عالية فوق ثلاثة بيوت ، وكان لذلك أبلغ الأثر في حياتي . وسألت رفاقي : ماذا يدعى هذا المكان ؟ فقالوا انه يسمى « ليشفيلد » ، وإذا بكلمة الله تتغلغل في أعماقي فجأة ، فقررت ان اذهب الى ذلك المكان ، وما ان ذهب الأصدقاء ، حتى عدت راجعاً ، طاوياً الوديان والمرتفعات حتى بلغت مكاناً لا يبعد عن ليشفيلد بأكثر من ميل واحد، وهناك رأيت حقلاً واسعاً يرعى فيه بعض الرعاة أغنامهم.وأمرني الله بأن اخلع نعليّ ، فوقفت ، لأن الوقت كان شتاءً ، إلا أن كلمة الله كانت كالنار في أعماقي، فخلعتهما وتركتهما مع الرعاة،وكان المساكين يرتجفون ، دهشين مستغربين . ثم سرت ما يقرب من الميل ، ولما دخلت المدينة ، سمعت كلمة الله: « اهتف: اللعنة على ليشفيلد ، المدينة الدموية » ، فمضيت اصيح في طرقات المدينة وأزقتها بذلك النداء . ولما كان ذلك اليوم يوم السوق،فإنني ذهبت الى سوق المدينة وكررت ذلك النداء عدت مرات ، الا ان أحداً لم يمسسني بسوء ولم يقل لي شيئاً . ورأيت في وسط المدينة شيئاً يشبه نهراً من الدم ، أما السوق فقد كان مصطبغاً بلون الدم ، بل كان يلوح لي بركة من الدم .. ولما أتممت ما كنت أمرت به ، وأرحت نفسي ، غادرت المدينة عائداً الى حيث تركت الرعاة ، وذهبت اليهم ، وأخذت منهم نعلي،واعطيتهم بعض النقود ، إلا ان نار الله كانت من الشدة في كل كياني بحيث أنني لم اجد داعياً للبس نعليّ ..

ثم اخذت افكر بعد ذلك في جدوى ذلك النداء ، الا انني فهمت بعد ذلك

ان ألف مسيحي استشهدوا في مدينة ليشفيلد ، في عهد الأمبراطور ديوكليسيان. ولهذا تعين علي ان اخوض في ذلك الدم،لأعيد ذكرى أولئك الشهداء الذين سفك دمهم قبل اكثر من الف سنة ، وظل بارداً في شوارع تلك المدينة .»

ان اول ما يجتذب انتباهنا في هذا هو : كيف استطاع فوكس ان يفعل شيئاً يعتبره الناس جنوناً دون ان يمنعه اي شيء عن ذلك، من اجل نفض ما في نفسه . ان اللامنتمين الذين بحثناهم في هذا الكتاب لم يخبرونا بما كان في انفسهم ، ولم يقوموا بتوضيح ما كان يتملكهم عن طريق فعالية مثل هذه،او عن طريق اي عمل واضح محدد . لقد شعر ستيفن وولف ، على سبيل المثال ، في نهاية يوم من ايامه الكئيبة ، برغبة شديدة في الخروج والقيام ببعض الأعمال العنيفة . فلو كان فيه شيء مما كان في نفس فوكس ، لما ظل سوداوياً عليلاً زمناً طويلاً . اما دوستويفسكي ، فانه جعل بطله راسكولنيكوف اشد عزماً من بطل هيس،الا انه جعله يفقد شجاعته بعد ذلك، بعد ان قام بذلك العمل المحدد،الأمر الذي ترك فكرة دوستويفسكي ناقصة.

قد يحسد اللامنتمي الصرصار ، وامثاله ، أبطال باربوس وسارتر ، فوكس على ما يملكه من ثقة واعتقاد ، الا انه يشعر بأن هنالك حواجز كثيرة لا يمكن التغلب عليها ، تمنعه من القيام بمثل ما قام به فوكس . ان فوكس انسان يتعلق بلاشيء ، وانه ليصلح مثالاً على اللامنتمي الثائر، فاذا حدث ما يثير المعتقدات الراسخة في نفسه ، وجدته يخفض رأسه ويهجم كالثور الهائج ، تماماً كما يفعل « الانسان الفعّال » الذي اعجب به انسان

* لا أقصد بهذا نقداً « للجريمة والعقاب » ، فان الوضعية التي يصفها دوستويفسكي في القسم الأول من هذه القصة تجعل التطورات التي حدثت بعد ذلك أشياء لا مفر من ذكرها من الناحية الفنية . ولقد عثرت حين كتبت هذا ، والفصل السادس ، على مثل هذا في رسالة من رسائل ريلكه . انه يتحدث فيها عن مقالته فيقول: « .. انه يشبه راسكولنيكوف في أنه يتراجع إلى الخلف، بينما تنخر فعلته في صدره كالسل ، ويكف عن العمل في الوقت الذي يجب أن يبدأ فيه العمل،ولهذا فان الحرية الجديدة التي حصل عليها صارت وبالا عليه ، إذ أنها دمرته ، لأنه كان أعزل من السلاح » ، أما تاريخ هذه الرسالة فهو ١٩ تشرين الأول عام ١٩٠٧ .

دوستويفسكي الصرصار في الفصل السادس ، ولن يقلقه ان يقف في طريقه جدار ، انه من ذلك النوع الذي يعجب به الانسان الصرصار ويحتقره في الوقت نفسه . ان فوكس يتقبل اشياء لا يستطيع الانسان الصرصار ان يتقبلها : ومن ذلك ذاته مثلاً . فاذا كان جورج فوكس يقول : « الا ان شيئاً لم يتبدل فيه قط ، » فان الانسان الصرصار لا يستطيع ان يدعي بمثل هذا .

الا ان كل من قرأ « المذكرات » يعلم جيداً ان فوكس اكثر من مجرد ثور ينطح بوابة . ذلك ان ثقته بنفسه ليست اصيلة وانما هي نتيجة لشكه الطويل فيها . وهذا ما لا يفهمه الانسان الصرصار ، لأن شكه في نفسه لا يؤدي به الى التفتيش عن حل ما بالاصرار والعزم اللذين يمتاز بهما اليائس ، ولهذا فانه لن يكتشف ما في استطاعته ان يفعل .

ان الأمر الذي لا يشك فيه كل من قرأ «المذكرات» هو ان جورج فوكس كان يوماً ما مثالاً على اللامنتمي الذي وجدناه في قصة دوستويفسكي « ملاحظات من تحت الأرض » ، وكان ذلك حين لم يكن يتعدى التاسعة عشرة من عمره . وهو يخبرنا كيف شعر في ذلك الوقت بعدم القناعة ، ذلك الشعور الذي فصله عن اهله واصدقائه ، فيقول انه ذهب يوماً مع ابن عمه الى احدى الحانات ، واذا به يكتشف فجأة انه يحتقر احتقاراً تاماً كل متعة من ذلك النوع ، فوقف ثم غادر الحانة و « عدت الى البيت » ، الا انني لم اذهب الى فراشي ،لا لأنني لم اكن استطيع النوم،وطفقت اتمشى احياناً، وادعوالله احياناً اخرى قائلاً : يا إلهي ، انك ترى كيف يغرق الشبان في غرورهم وتفاهاتهم ، بينما يغوص المسنون تحت الأرض ، انك ستتركهم جميعاً ، شيباً وشباناً ، وتبتعد عنهم جميعاً ، وتكون غريباً عنهم جميعاً . » (٤)

« اية جذور تنبت وتتغلغل
واية اغصان تنمو وتعلو
من هذه النفايات المتحجرة ، يا ابن الانسان
انك لا تستطيع ان تقول ، او تخمن ذلك ، لأنك لا تعرف إلا

كومة من التصورات المحطمة تلهبها الشمس بشواظها ،
بينما لا تستطيع الشجرة الميتة ان تحميها ، ولا الجدول الجاف ان ينعشها .. »

كانت مشاعر فوكس في التاسعة عشرة من عمره مشابهة لبعض الأفكار الموجودة في الأدب الحديث ، ذلك ان الطريقة التي ينظر بها اللامنتمون الى المجموعة البشرية لا يمكن ان تتبدل في مدى ثلاثة قرون :

« كثيرون من أولئك الذين يدعون بالدين يحاولون التقرب مني ، إلا انني أخشاهم لأنني أشعر بأنهم لا يملكون ما يدعون به . » (٥)

لقد شعر فوكس ، كغيره من اللامنتمين ، بأن ما يدعوه الناس بالدين ان هو إلا شيء مستبدل زائف . وانه ليقر بأنه « ... شعر في بارنيت بإغراء اليأس يتملكه .. واستمر سنوات على هذه الحالة ، وقد حاول ، عبثاً ، ان يلقي باليأس جانباً . وكان يلجأ الى مختلف القسس باحثاً عن الراحة ، الا انه لم يحصل على شيء من ذلك .. » (٦)

ونستطيع ان نتخيل أننا نرى فوكس ، رجلاً معذب النفس متوقد الذهن ، ينتقل هنا وهنالك مثل فان كوخ أو ابطال هيس المتجولين الباحثين ، شاعراً بحاجات أعمق من تلك التي يشعر بها الناس ، متسائلاً عما إذا لم يكن وجوده غير ضباب في هذا العالم . إلا ان فوكس كان افضل من وجوديي العصر الحاضر اللامنتمين ، لأن هؤلاء يرون الدين مجموعة من الأكاذيب المستهلكة ، أما في زمن فوكس ، فان كلمات الانجيل كانت تملك مفعولاً سحرياً في النفوس ، وكانت تثير فيها شيئاً من معاني الاصالة ، والصدق ، كما ان كروموبل كان قد جمع بعض رجال الدين وشكل منهم فرقة أرسلها مع قواته الباقية لمواجهة قوات الملك في مارستون مور ، فمزقت شملها ، الأمر الذي حدا بكروموبل أن يكتب قائلاً : « لقد ارسلهم الله عوناً لسيوفنا » ، وكان جو انكلترا مشحوناً بالرغبة في الاصلاح ، وكان جورج فوكس يود ، كغيره ، أن يكون له نصيب في هذا الواجب ، وقد اراد ان يجد نساء ورجالاً مثله ، يشعرون « بالظمأ والجوع الى التقوى والصلاح » ،

ويعتبرون خلاصهم أشد الأمور أهمية ، ولكن ، ماذا وجد بدلاً عن ذلك ؟

«غادرت بارنيت ذاهباً الى لندن، حيث وجدت مأوى آوي اليه بشق الأنفس، وقد قاسيت فيها كثيراً من البـؤس والشقاء ، لأنني بحثت فيها عن أولئك الذين ادعوا بالدين ، فوجدت الجميع غارقين في الظلام ، مقيدين بقيود الظلام ...

وكان لي عم يدعى بيكرنك ، وكان قساً ... الا انني لم استطع ان اتفق معه على نقطة واحدة من نقاط الفهم ، ولقد رأيت الجميع ، شيباً وشباناً ، تماماً كما كانوا .. » (٧)

وبعبارة أخرى ، فإن فوكس رأى اكثر واعمق مما يجب . ويخبرنا بالبحوث التي عقدها مع قس قريته الصغيرة ، والتي تحدث فيها عن يأس المسيح والمغريات التي دخلت الى نفسه ، بالطريقة المفزعة التي يدرك بها اللامنتمي ذلك ، وكيف ان ذلك القس أعاد احاديثه في مواعظه التي كان يلقيها في الآحاد ، الأمر الذي ملأه بالاشمئزاز . أما خبراته التالية مع القس فإنها أشد بثاً لخيبة الأمل في نفسه :

« ثم قصدت الى القس عجوز في مانسيستر بواروبكشاير ، وبحثت معه أسس اليأس والاغراء ، الا انه لم يفهم الحالة التي كنت فيها ، ونصحني بأن أدخن وانشد التسابيح » . (٨)

« يمكننا أن نقارن هذا ببرود بينت في « جزيرة جون بول الأخرى» لبرنارد شو ، حين يقول لكيغان ، القس اللامنتمي : « استعمل حبوب الفسفور ، فقد جربتها مراراً كلما شعرت بالتعب العقلي » .

« ثم سمعت عن قس يعيش قرب تام وورث ، وقيل لي انه خبير مجرب ، فمشيت سبعة أميال حتى وجدته، الا انني رأيته كالبرميل الفارغ ! ! وقيل لي ان هنالك طبيباً في كوفنتري يدعى كرادوك ، فذهبت اليه وسألته عن أسس اليأس والاغراء ، وكيف امتزجت المتاعب والمشاق بالانسان ... وبينما كنا نتحدث معاً في حديقته ؛ وكان الممر ضيقاً ، مما اضطرني الى السير بمحاذاة الزهور ، اذا به ينفجر غاضباً وكأن بيته يحترق... فغادرته آسفاً حزيناً ، في حالة اسوأ من حالتي قبل ان أراه . لقد كان اولئك

جميعاً اشقياء،لأنهم لم يستطيعوا ان يبلغوا الحالة التي كنت فيها . » (٩)

لقد كان هم فوكس الوحيد ، كغيره من اللامنتمين ، ان يجد من يفهمه ، وينظر الى روحه ليصلح ما فيها من اخطاء بلطف ورقة. ويتعلم، كغيره من اللامنتمين ايضاً، كيف ان عليه هو ان يعمل من اجل خلاصه. انها اصعب رسالة على الاطلاق، ان يشعر الانسان بأن هنالك عدواً نهائياً، يحمله كل رجل وكل امرأة معه : الا ان النضال مع هذا العدو يجب ان يكون خاصاً بالفرد ذاته ، غير متعلق بالأفراد الآخرين على الاطلاق. اما فكرة التعويض والمكافأة فقد ابتدعت للتخفيف من الرعب الذي يحس به الانسان امام هذا العدو النهائي الداخلي ، الذي لا يمكن ان تساعدنا اية قوة خارجية على مقاومته. اننا لنجد ان جميع القديسين والأساتذة الدينيين قد ضمنوا فكرة وجود هذا العدو في صميم الأسس التي دعوا اليها. * وقد ترك معظم المصلحين الدينيين خلفهم كتابات كثيرة تحدثوا فيها عن «كفاحهم من اجل النور» ** ، اما مميزات هذا الكفاح فانها لا تختلف في شيء عن وصف ستيفن وولف ليوم من ايامه الرتيبة : الفشل، والكآبة وموت الحواس ، وعدم وجود ما يوحي بالأهمية ، وغالباً ما ينتهي ذلك الكفاح بعد مجهود طويل الى راحة مفاجئة ، وتركيز ودفء غريبين :

« وبالرغم من ان مجهوداتي والمشاق التي لقيتها كانت شديدة جداً ، الا انها لم تتسم بطابع الاستمرارية، اذ انني كنت احس خلال ذلك بشيء من الدعة والغبطة الى درجة انني كنت اظن نفسي مريحاً رأسي على صدر ابراهيم ... »(١٠)

اما كفاح فوكس الروحي فقد انتهى الى ادراك مفاجيء :

« ثم مكنني الله من معرفة السبب الذي جعل اهل الأرض قاطبة غير قادرين

---

* تتمثل هذه المشكلة الفردية على بساطتها في قول القديس أوغسطين : « عرفت أين كنت — حين كنت طفلا — وحاولت أن أعبر عن رغباتي لاولئك الذين يستطيعون أن يطمنوها، إلا أنهم مع ذلك لم يكونوا قادرين عليه ، لأن رغباتي كانت في أعماقي بينما كانوا هم في الخارج . » — (الاعترافات، الكتاب ١ : ٦) .

** يشبه ذلك أيضاً « كفاح بوذا الأول » (أقوال بوذا ، ترجمة وودوارد ، ص ١٤) .

على الاستجابة للحالة التي كنت فيها، ذلك لأنه ارادني ان اعظمه هو ، لأن كل ما عدا ذلك انما ينتهي الى الخطيئة ، والى سجن اللااعتقاد الذي كنت فيه . كان يريدني ان احس بأن يسوع المسيح هو كل ما في نفسي .. » (١١)

ولو ترجمنا هذا من اللغة الدينية الى لغة اللامنتمي الوجودي ، لرأينا انه حين وصل فوكس الى حل ما لمشاكله اللاانهائية ، شعر بالغبطة التامة لأنه لم يكن مضطراً الى حلها عن طريق اللجوء الى الآخرين ، او الى اية عقيدة او ايمان آخر . « لأنه ارادني ان اعظمه هو » ، « كان يريدني ان احس بأن يسوع المسيح هو كل ما في نفسي » ، .... حتى اذا لم تكن هذه العبارات تعني شيئاً بالنسبة الينا ، فانه من الواضح انها تلعب دوراً سيكولوجياً ، فتعني بذلك شيئاً بالنسبة الى اللامنتمي . انها لا تختلف كثيراً عن ادراك ستيفن وولف انه يجب ان يعاني من الجحيم الذي يضطرم في أعماقه ، واننا لنجد حتى في عبارته هذه « الجحيم الذي يضطرم في اعماقه » اعترافاً بهذا العدو الداخلي. لقد شعر فوكس ، كما شعر ستيفن وولف ، وفان كوخ ، ونجنسكي وبطل سارتر ، ببعض الدقائق التي احس فيها بكامل ارادته ، وانه يستطيع ان يقول « نعم » وان كل شيء حسن ، بل انه ليستطيع ان يواجه ذلك الرعب الكامن في اعماقه بهذه الـ « نعم » ايضاً . ومثل هذه اللحظات مألوفة لدى الشعراء والفنانين ، والمتدينين امثال فوكس . وقد تحدث ريلكه ، تابعاً في ذلك اسلوب نيتشه بصورة مباشرة ، عن « الشكر رغم كل شيء » : وذلك في مدائحه العشر العظيمة :

« لعلي ، وقد تخلصت في النهاية من هذا الادراك المرعب ،
استطيع ان اتدفق بالشكر للملائكة الراضية ... » (١٢)

كل ذلك يمكن ان يساعدنا على معرفة ما كان يدور في « قلب القلوب » الذي توفر لفوكس، وماذا كان يقصد اليه من وراء هذه العبارات ، من الأمور التي تعني اقل بالنسبة الينا مما كانت تعنيه بالنسبة لمعاصريه ، رغم اننا قد نهتم بها اكثر منهم اذا استطعنا الوصول الى اعمق ما فيها من معان . ان ما نستطيع ان نقوله ، دون ان نخشى ان نظلم فوكس في شيء ، ان كفاحه هذا لم يكن ليختلف

في شيء عن كفاح لورنس وفان كوخ ونيتشه، وانه حين تحدث عن «العذاب الداخلي» فانه عنى تلك الرغبة في «التعبير الذاتي» نفسها، فكأنه كان غريقاً يتشبث عبثاً ليتنفس شيئاً من الهواء، وذلك الشعور بشقاء العالم ورعبه، الذي سماه ريلكه «الادراك المرعب». اما الاغراء الذي تحدث عنه فوكس فقد كان بالنسبة اليه كإعادة التذكرة الى الله من قبل كارامازوف (ايفان).

نأتي الآن الى المشكلة التي تحدثت عنها في نهاية حديثي عن نجنسكي، مشكلة بيان الأشياء التي استطاع اللامنتمي ان يحلها من مشكلته، والأشياء التي استطاع ان يتخلى عنها من اجل الحصول على ذلك الحل. وقد رأينا كيف اننا حين قرأنا ما كتبه فوكس في «المذكرات» محاولين تفسير ذلك بلغة لامنتمي باربوس كان ذلك شديد الصعوبة. قد نفهم هذا العذاب، الا ان فهم كتابات كالتي تلي، أمر من الصعوبة بمكان كبير:

«ازدادت رغباتي في الله، وازداد حماسي من اجل معرفة الله والمسيح وحسب، دون اللجوء الى أي انسان أو كتاب، إذ رغم انني قرأت ما كتب عن الله والمسيح إلا انني لم أفهمهما عن طريق الايحاء...

لقد وجدت في نفسي ظمأين، اولهما الى المخلوقات، فلعلي أجد لديها شيئاً من المساعدة والقوة، وثانيهما الى الله الخالق وابنه يسوع المسيح..» (١٣)

ترى ماذا يعني بالضبط «بالله الخالق وابنه يسوع المسيح؟ دعنا نهمل فكرة انه آمن بهما كما يؤمن الطفل بالخرافات، او انه وجد فيهما ما يوحي بشيء من المشاعر الدينية كما يشعر ايرلندي مثلاً، بالشعور الوطني حين يسمع باسم فن ماكول. لقد كان فوكس لامنتمياً، واننا لنعرف عن اللامنتمين ما يكفينا لنفهم ان عبارته ليست غير رموز ترمز الى واقعة السيكولوجي. بالاضافة الى ان ظمأ فوكس «الى المخلوقات الأخرى» أمر مألوف لدى اللامنتمين جميعاً، إذ يمكننا هنا أن نتذكر رغبة هنري جيمس الكبير في دعوة زوجته حين شعر بوجود شيء «شرير» في الغرفة*. لقد عاد جيمس الى «المخلوقات»

* يمكننا أن نقارن هذا ببعض سطور هنري الصغير في قصته التي تدور على الشر =

باعتبارها تمثل خلاصه،أما حله فتجده في عنوان كتابه « المجتمع ، الشكل الانساني المتحرر » ، أما عبارة فوكس ، ويجب أن نكون حذرين هنا، فانها تعني انه يستطيع أن يؤمن بالحل الذي لا يعتمد على البشر الآخرين ولا يتعلق بهم ، أي انه لا علاقة لهذا الحل بالمصادر الخارجية . ولا يلوح انه يريد ان يغير من علاقته بالمجتمع أو من علاقة المجتمع به،وانما يريد تغيير علاقته بذاته الداخلية ، ولو سمع فوكس بهذا لأنكره ولقال انه انما تخلى عن علاقاته الخارجية بالبشر لأنه أراد أن يوطد علاقته بالله : « وقد كتب القديس اوغسطين في معرض حديثه عن السنوات التي اهتمّ فيها بالبشر أكثر من اهتمامه بالله قائلاً : « أليست الروح ترتكب الزنا ضدك اذا اهتمت بهذه العلاقات الزائفة ؟ » ، ولكن ما هي العلاقة الكاملة بالله ، ان لم تكن القدرة على التعبير الذاتي ؟ لقد كتب هيس : « لم يحقق أي انسان التعبير الذاتي الكامل » . ان التعبير الذاتي مستحيل مع الآخرين ، لأن تعبيرهم الذاتي يتدخل فيه ويعرقله . ان أسمى ما عبر به البشر عن نفوسهم – في الشعر والموسيقى والرسم – توفر لأولئك الذين كانوا وحيدين . ولهذا فان « الرؤى البهجة » تعنو للفنان أكثر مما تفعل بالنسبة لغيره من الناس ، إذ عليه فقط أن يتصور اللحظة التي يكون فيها وحيداً مركزة الى درجة انها تملأ حياته وتجعل العلاقات الأخرى غير ممكنة أو غير ضرورية . ان الناس الآخرين غير موجودين بالنسبة للفنان ، أما اذا انتهت رؤاه، تاركة اياه سعيداً جذلاً ، فانه ليعود الى الناس ثانية،إلا انه يعرف على الأقل الاستقلال التام عن البشر الآخرين ، ذلك الاستقلال الذي يميل الناس الى الشك حتى في وجوده النظري .

ان ما عرفه فوكس كان انه يستطيع أن يحصل على لحظات يشعر فيها بما في أعماقه وحسب ، دون أي شيء خارجي . وقد اكتشف أيضاً انه

= السيكولوجي والمسماة « دورة اللولب » إذ يتكلم جيمس عن الطفلة التي تستيقظ فترى شبحاً في الغرفة فيتملكها الرعب وتوقظ مربيتها لتحميها منه ، إلا انها تجد أن المربية نفسها أشد منها رعباً بحيث انها لا تستطيع ان تطمئنها ، ويرمز هنا بالطفلة والمربية اليه نفسه والى أبيه حين يحسان بسمة تشتتهما وحيدين تماماً .

كلما استيقظ من مثل تلك اللحظات وجد نفسه انساناً آخر مختلفاً .

وليس هذا بالأمر الغريب ، اذ يستطيع ان يحسه كل من يخرج من مسرح او حفل موسيقي او دار سينما ، إذ يشعر بأنه « بعيد عن نفسه » . كما لا يمكن أن يعاني الانسان من تجربة عاطفية او حسية مركزة ما لم يشعر بعد ذلك بأنه صار انساناً مختلفاً . فأما في السينما ، فانك تعيش حياة الآخرين ، دون ان تتعلم جديداً عن نفسك ، ولهذا فان الراحة التي تجدها في ذلك ، والتغيير الذي تحسه ، لا يمكن ان يستمر اكثر من ساعات ولا يمكنك ان تبقي ذلك الشعور طويلاً . اما اذا كان الفيلم الذي رأيته قد اخبرك بأشياء عن نفسك لم تكن تعرفها من قبل، وجعلك تعلم بأنك تستطيع ان تفعل اشياء لم تكن تحلم بها يوماً ، وان كل احكامك السابقة عن نفسك وعن الآخرين انما كانت قائمة على سوء الفهم ، وان عليك ان تلقي بكل تلك الاعتبارات جانباً لتعيش حياتك من جديد ، وللمرة الأولى ، فان الأمر مختلف جداً .

وهذا هو ما حدث لفوكس بعد ثلاث سنوات من التجوال في جميع انحاء القطر ، معانياً من صراعه الروحي الشديد الأمرّين . ثم بدأ يرى رؤى ويسمع اصواتاً، او بعبارة اخرى اصح ، بدأ يحس بتجارب عاطفية جديدة لم يستطع ان يتحدث عنها إلا بلغة الرؤى والأصوات : (١٤)

« ثم رأيت الجبال تلتهب ، والطريق الوعرة والأماكن المتخلفة تصبح اجمل واشد نظاماً، وكل ذلك لكي يأتي الرب الى الكنيسة .. هذه اشياء موجودة في كل قلب انساني » .

لقد كان إدراكه اللاانتهائي ، بقدر ما يعني الأمر اللامنتمين الآخرين، حاداً جداً :

« ورأيت ان الفلاسفة والقسس والناس كانوا كاملين تماماً ، في حين انهم لم يكونوا إلا في الحالة التي اعتبرتها أنا شقاء .. وكانوا يحبون ما كنت احاول ان أتخلص منه ... ان عقولهم مقيدة ، وهم متغيرون أبداً، ينقلبون من هذه الفكرة الى تلك ، ومن هذا المبدأ الى ذلك ... » (١٥)

الا انه عرف الآن أنه اكتشف ما يساعده على الكف عن كونه لامنتمياً، او على عدم الشعور بالشقاء بسبب لاانتمائيته ، لأنــه شعر بأن اللامنتمي هو في الحقيقة ذلك الانسان القادر على رؤية فساد « العـالم » وضلالاته ، والذي يعرف ايضاً انه لا يوجد طريق للعودة من مثل هــذه الوضعية ، وإنما هنالك طريق الى الأمام وحسب. لقد عنى ذلك بالنسبة اليه أن يصيح في وجه العالم فاضحاً فساده وضلاله ، مخبراً اياه باللعنة المنصبة عليه .

كانت الكنيسة أول اعداء فوكس ، وكذلك كان المصلحون الروحيون . وبالرغم من أن اولئك الذين يكتشفون الصلة التي تربط القديسين والنساك والصوفيين ، هم اذكياء ، يستطيعون ان يحصلوا على نوع من السعادة بالانضمام الى مثل هذه الجماعات، الا ان هنالك قوماً آخرين يستطيعون أن يروا من الكنيسة ظاهرها وحسب ، كما يمثلها أفراد لم يكرسوا لها شيئاً ، ولم يتوفر لديهم شيء من قوة الارادة ، ولهذا فإن اولئك الناس لا يستطيعون ان يعرفوا جانب الخير منها. أما أولئك الذين يستطيعون ان يوفقوا بين ما فيهم وبين الكنيسة فــانهم المصلحون الروحيون : أما نيومان ، وهوله ، واليوت ، وجورج فوكس فقد كرهوا ذلك ووقفوا ضده على طول الخط . لقد تجول فوكس كثيراً حــتى تمزقت ملابسه ، ووقف في وسط السوق مبشراً برسالته النارية ، بل انه اعتاد ان يقاطع القسس في الكنائس ، الأمر الذي لم يخل احياناً من « العراك واستعمال القوة » :

« الا ان الناس انهالوا علي غاضبين،وألقوني ارضاً وكادوا يخنقونني ، وقد ضربوني كثيراً وجرحوني بقسوة بالغة بأيديهم واناجيلهم وعصيهم، ثم اوقفوني ، رغم انني لم اكن استطيع الوقوف ، وحبسوني في المخزن ، ثم جلبوا نوعين من السياط ، سياط كلاب وسياط خيل ... » (٢٦)

انك تجد كثيراً من هذه الأمور في « المذكرات » ، حتى انك لتشعر بأن فوكس صار يتلذذ بذلك الضرب المبرح ، اذ أثبت بذلك انه قوي الاحتمال ، بالاضافة الى انه استطاع بذلك الحصول عــلى بعض المؤيدين والمشفقين ، بل المعجبين .

ان نجاحه كواعظ امر يمكن تبرير غموضه في جيلنا هذا ، اذ لا بد أن هنالك شيئاً خفياً بالنسبة الينا ، كان سبب قوته ، لأنه كان يسيطر بسهولة على قلوب المستمعين اليه ، ربما كان ذلك لأن « الأرواح الجافة » التي كان يعظها كانت كالهشيم الذي يلتهب بسرعة ، من الشرارة الأولى ، تماماً كما كانت معتقداته ..

ان من التجول في حدائق « هايد بارك » يعلم كم هو ضائع ذلك الجهد الذي يبذله الوعاظ ، وكم يفشل اولئك المتعلقون أشد التعلق بايمانهم في اثارة حماس الجمهور . أما فوكس ، فقد استطاع أن يحصل على مؤيدين لم يكونوا يكترثون حتى للسجن في سبيله ، وانما احتملوا الاضطهاد الذي انصب عليهم من جانب الحكومة ورجال الدين ورفاقهم الآخرين بشجاعة وثبات ، وصرحوا بأنهم مع ذلك ما يزالون أصدقاء الجميع ، وانهم يبحثون عن النور في اعماقهم بدلاً عن نشدانه في الكنيسة .

اما ما تبقى من القصة فانه بعيد عن مشاكل اللامنتمي ، وانما تصبح قصة حركة دينية وشأناً من شؤون التاريخ . لقد كف فوكس عن كونه لامنتمياً من طراز باربوس ، ورجلاً معتكفاً في ذاته لم يجد من يفهمه في هذا العالم ، واصبح قائد حركة دينية تضاعفت قوتها بعد ذلك كثيراً . ولم يتقبل فوكس لا انتمائيته باعتبارها أعراض من مرض غريب ، وانما باعتبارها علامة دلته على ان روحه الصحيحة كانت تعاني من الاختناق في وسط عالم تافه ضحل ليس فيه غير الحمقى والمفسدين . وما ان أدرك ذلك حتى انتهت المشاكل بالنسبة اليه . وكان فوكس كالسفينة التائهة في البحر ، لم توزع حمولتها عليها بصورة متعادلة فمالت على جانبها ، اما بعد ذلك ، حين اعاد تنظيم الحمولة ، وعرف الاتجاه ، فقد صار ابحاره هادفاً سهلاً . انه يقول :

« ان النظام الكامل النقي الذي فرضه الله على الجسد يهدف الى الاحتفاظ بهذا الجسد واعماله تحت مستوى ذلك النظام الكامل ، الا ان نظام الله الكامل هذا لا يجد صدى له الا في المبادىء الكاملة التي يمكن ان يحملها الانسان . » (١٧)

اذا درسنا هذه السطور على ضوء ما بحثناه سابقاً ، دون ان نسمح لعبارة «نظام

الله » بأن تصرف اذهاننا عن الفكرة الاساسية ، فاننا سنجد هذه العبارات انما تمثل محاولة اللامنتمي لتوضيح ما حدث في ذاته . واذا كانت الكلمات المستعملة في ذلك عتيقة ، فيمكننا استبدالها بكلماتنا الخاصة ، الا أنها ستظل محتفظة بالغاية التي أرادها منها . لقد كان في ذاته دينامو ، وبينما كان ذلك الدينامو موجهاً لتحريك متطلبات الجسد المألوفة—الكرش العالي المملوء بالطعام والضمان الاجتماعي— كانت متطلباته العظيمة الأخرى جائعة محرومة . انه يدعو المتطلبات الأخيرة « بنظام الله الكامل » ، وقد رأينا الكثير من مثل هذا في خلال بحثنا ، رغم ان هذه الكلمات لا تعجبنا ، لطرازها العتيق كما قلنا . ان ما يجد عملاً محدداً واضحاً ليقوم به « على ضوء نظام الله » معبراً بذلك عن هذا النظام فانه انما يعمل وفق « قانون الله » . ويضيف فوكس في معرض حديثه عن هذا القانون قائلاً بأسى : « دع كل من يستطيع أن يأخذه يفعل ذلك » ، اما الآخرون ، حسناً ، ان اللامنتمي لا يعرف شيئاً بخصوص الآخرين ، ولو كان فوكس في مكان المفتش العام لأجاب بمثل ما اجاب به — : الخبز والمتعة والسلطة المقدسة . الا أن فوكس لم يواجه هذه المشكلة ، وقد قضى حياته كلها ظاناً ان الناس جميعاً يستطيعون أن يحتملوا عبء الحرية والتقرير الذاتي ، ولم تخل تجربته في مجال هذه الفوضوية الروحية من نجاح ، فقد بشر مثل المسيح بأن كل انسان مسؤول عن خلاصه ، وانه من الأفضل له أن ينظر الى مشكلته ويواجهها . ولم يكن فوكس سيكولوجياً عظيماً مثل باسكال ونيومان ليسأل نفسه أسئلة صعبة مثل : كم من المعرفة الذاتية يجب أن يتوفر في الانسان لكي يمكن ان يقال عنه انه قد خلص ؟ (يقودنا مثل هذا السؤال الى جواب مثل جواب هيس : لم يحقق انسان ما الخلاص !) لقد كان فوكس قوي العقيدة متواضع الادراك ، يشبه مخلص يتس الذي قال لمستمعيه في زاوية من زوايا الطريق : « ان مملكة الله في أعماقكم ، وانه لأمر شاق طويل أن تظهروها ، » وقد شعر فوكس بأن حث الناس الى مستوى أعلى من السلوك الشخصي يعتبر أفضل الطرق لتخليصهم ، ولم يكن الهدف الذي بينه للناس يشتمل على الحصول على الفردوس بعد الموت ، وانما على الثقة بوجود الله في هذه الحياة ،

تماماً كما شعر هو نفسه .

لقد تساءل فوكس : « ما هي علة الانسان الذي لا يستطيع الخلاص ؟ » انه كسول ، وتنقصه المثل العليا ، ولا يستطيع ان يرى ابعد من الغد . فما هو خلاصه اذن ؟ انه لا يخشى من الأهداف العليا ، وأنه لا يخاف من الشعور بأن وشاح الشعراء والأنبياء الذين عاشوا من قبله قد استقر على كتفيه ، وحده ، وان مستقبل البشرية جمعاء متوقف عليه . ولما تقبل فوكس هذا لنفسه كف عن كونه لامنتمياً شقياً واصبح قائداً كبيراً ، وقد نصح كل من قابله باستخدام هذا العلاج . وهنا يعترض أحدهم قائلاً : ولكن الناس ليسوا لامنتمين جميعاً ؟ ويجيب فوكس على ذلك قائلاً : هراء ! دع كل انسان يفتح عينيه على العالم الذي يعيش فيه ، فاذا فعل ذلك فانه سيصبح لامنتمياً على الفور ، وسيبدأ بالظن بأنه يرى اكثر واعمق مما يجب ، وينتهي بادراك أنه لا يستطيع ان يرى اكثر واعمق مما يجب .

وهذا يشبه بالضبط قول نوفاليس : « يستطيع كل الناس ان يكونوا نوابغ ، لو لم يكونوا كسالى » ، الا ان مثل هذا الظن صعب الاثبات ، فقد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة الى نوفاليس ونيتشه ، وقد يكون صحيحاً بالنسبة لي ولك ، لأننا نوابغ فعلاً ، ولكن القول بأن الجميع يستطيعون امر مختلف جداً ، وكذلك الأمر بالنسبة للخلاص والكمال . واذا كان الخلاص يعني المعرفة الذاتية فانه ليلوح ان النسبة الكبرى من البشر ملعونة مقدماً .

دعنا ننس امر فوكس قليلاً ، لنبحث امر هذه المعرفة الذاتية . ان التاريخ مملوء بالأشخاص الذين استطاعوا بواسطة قوى روحية خالصة ان يتخلصوا من مجموعة من الظروف ويتحولوا الى مجموعة اخرى مغايرة ، بل اعلى . ويحدث مثل هذا في ميدان الفنون ، وخاصة الأدب . ويمكننا ان نضرب مثلاً حديثاً على ذلك د. هـ. لورنس الذي ولد في ريف نوتنكهام وسط مناجم الفحم ، وكان والده عاملاً في تلك المناجم ، فلو كان لورنس تقبل ظروفه التي فرضها عليه مولده (باعتبارها حدوده الذاتية التي لا يمكن تخطيها ، في الظروف الراهنة ، كما نظن

نحن) ، لظل عاملاً في المناجم مثل ابيه ، او لأصبح ، لضعفه ، كاتباً في دائرة المنجم ، او معلماً متواضعاً ، الا ان كفاحه من اجل التعبير الذاتي ، ذلك الكفاح الذي ادى به الى كتابة « الابناء والعشاق » لم يكن غير هذه المعرفة الذاتية نفسها .

وينطبق ذلك على كتاب كثيرين ، فان التغلغل الذي يقوم به الكاتب في أعماقه هو بحد ذاته تغلغل في أعماق العالم الواسع ، وفي أعماق غيره من الكتاب ، فكأنه يقارن بينه وبينهم ، مكتشفاً كثيراً من العلاقات ، ومدركاً شيئاً فشيئاً ما يملكه هو من القوة . ولو لم يكن الأمر كذلك ايضاً ، لظل دكنز عاملاً بسيطاً في احد المصانع ، ولما ترك برنارد شو الدائرة التي كان يعمل فيها في دبلن ، ولرأيت ويلز مستخدماً في دكان بقالة ، وريلكه احد افراد الجيش البروسي ، الا ان رغبة هؤلاء الملحة من اجل اكتشاف الذات صنعت منهم جميعاً كتاباً عظاماً ، وقوى عقلية محركة في هذا العصر . ولكن ، هل في امكاننا ان نقول ان كلاً من هؤلاء استطاع ان يدرك نفسه ؟ كلا ، فقد كان ريلكه دائم التشاؤم من الأمراض ، وويلز عرافاً سياسياً ولم تكن العلاجات التي وصفها لادواء العصر الا مجموعة من الأكاذيب ، اما دكنز فقد كان عاطفياً سمم لغتنا ، في حين ان شو ، الذي يعتبر اعظم الأربعة ، اصبح حين تقدم به العمر رجلاً مغروراً بنفسه .

كيف ، اذن ، نستطيع ان نتحدث عن المعرفة الذاتية ، والخلاص النهائي ؟ لقد خلص د. ه. لورنس نفسه من المناجم ليصبح في اقل من عشر سنوات مغرماً بذاته ، فكتب « الكانغارو » و « وعشيق الليدي شاترلي » اللتين تلمس فيهما غروره هذا حتى انه ليضايقك . وارجو ان لا تعتبر هذا نقداً ظالماً لهذا الكاتب الكبير ، وانما تكمن هنالك مشكلة كبيرة ، وما عليك الا ان تدع القراء الذين يعتمدون كثيراً على قواهم السيكولوجية يحاولون قراءة كتب هؤلاء الكتاب الخمسة الذين ذكرتهم ، ويمعنون النظر في تواريخ حياتهم ، ويحاولون ايضاً ، وكأنهم يحلون لغزاً روحياً ، ان يعرفوا كيف سيعيشون هم حياة كل واحد من هؤلاء اذا توفرت لهم نفس ظروفهم . دعهم يدروا ان هؤلاء الأشخاص جميعاً كان ينقصهم النقد الذاتي ذلك النقص الذي قتل إلهامهم ، ثم دعهم يسألوا :

كيف كان باستطاعتهم تجنب ذلك ؟ عند ذلك يدركون ان اخطر ما يهدد المعرفة الذاتية هو ان يتقبل الناس الانسان الذي ينشدها باعتباره قائداً روحياً .

وتعيدنا هذه النقطة الى جورج فوكس ، فيا ترى الى اي حد يستطيع تاريخ حياته ان يرينا حلاً نهائياً مقنعاً لمشاكل اللامنتمي ؟ انه لا يفعل ذلك اطلاقاً مع الأسف . وقد يكون باستطاعة « المذكرات » ان تقودنا شيئاً ، وتلهمنا بعض الحلول ، الا انها ما تكاد تبلغ نقطة معينة حتى نجد انفسنا منحدرين من الذروة الى هوة اخرى . لقد ضيغ فوكس نفسه في مناهضة التفاهات التي حفل بها عصره . ويمكننا ان نعتبر حركة « الصداقة » شيئاً قيما ، ولكن ، هل ذلك كل ما في الأمر ؟ دعنا نتذكر ايفان ستراود ، الذي يقول :

« ستراود : دعني من ضلال السيطرة ، لقد كانت لدي يوماً ما — وانني لأشكرك على ذلك — قوة ما في داخلي الا ان تلك القوة لم تستجب لأي دافع ..

جوان : حتى ولا لدافع سبب معقول ؟

ستراود : (كمن يطلق نفسه من مغريات اللاحقيقية) هنالك الكثير من الأسباب المعقولة ، التي يسهر عليها الأدعياء البارزون ، الذين يغلب عليهم حب الظهور ، والذين يرقبون بعقولهم الصغيرة ماذا سيحدث .. فاذا بحثت عن قوتهم — التي لا يمكن ان تستعار او يساوم عليها — لوجدت انها تنبعث من الحياة السرية .. »

يمكننا ان نرى كيف ان فوكس افضل من ستراود ، لأنه تعقب قواه الذاتية الى جذورها الأساسية ، وأثارها ووجهها نحو العمل . وقد رفض فوكس حياة الدرجة الثانية ، (حياة الدرجة الثانية تخص الشيطان) ، وجعل من نفسه رجلاً عظيماً ، ولكن ماذا بعد ؟

يلوح اننا لن نحصل على جواب هذا السؤال ، واننا يجب ان نتخطاه الآن ، لأننا رأينا كيف انه حين تقودنا مشاكل اللامنتمي الى زقاق مسدود يتعين علينا ان نعود باحثين عن طريق آخر . لو كان فوكس قد احرق مثل ايليا ، لما غيرنا رأينا فيه ، ولظل بالنسبة الينا يمثل الفشل ، كأي لامنتمٍ آخر . ولكن ، هل يمثل

اللامنتمون الفشل جميعاً ؟ لقد ادرك ميرسول : « كنت سعيداً ، وما ازال سعيداً ، ولكن ما فائدة كون الانسان سعيداً اذا لم يدرك ذلك الا في ساعة موته ؟

وقد كان فوكس أفضل من لامنتمي باربوس والانسان الصرصار أيضاً ، كان افضل من فان كوخ ولورنس ، لأن محاولته أدت الى نجاح أكثر من نجاحهما .

ولكن ، في أى أمر فشل يا ترى ؟

لقد دلنا ستراود على الجواب ، هو : الضلال . لقد تقبل فوكس العالم كما رآه ، ولم يتفق مع المفاهيم الاخلاقية السائدة آنذاك ، وانما اتفق مع التفاسير الميتافيزيكية وتبناها ، وهكذا قال ان الواقع هو ما يبدو .

دعنا نعد الى نيتشه ، نيتشه حين كان في العشرين من عمره ، يوم اكتشف مجلداً بالياً عتيقاً في احدى مكتبات لايبزك ، وقرأه مباشرة : « العالم كارادة ومظهر » لشوبنهاور :

« .... وشعرت بعين الفن الواسعة ، غير المنحرفة ، تحملق فيّ ، ورأيت مرآة استطعت ان ارى فيها العالم ، الحياة وروحي أنا في عظمة مخيفة ... » (١٨)

لقد جعل شوبنهاور نيتشه يدرك أنه ، كشاعر وكلامنتم ، كان لديه شيء من شعور العقل الباطن طيلة وقت طويل : بأن العالم لم يكن في الحقيقة هذه الأشياء البورجوازية الظاهرة عليه ، وانما هو الارادة والوهم . وكان شوبنهاور مولعاً باقتباس بعض العبارات « اليوبانيشاد » ، وكان يدعوها « وهم مايا » . أما رأي هذه الفلسفة الهندوسية فهو : أن العالم ليس الا مظهراً من مظاهر براهما المطلق الذي لا تميزه ميزة ما . وانك لتجد في المسيحية شيئاً مثل هذا ، اذ نجد : « الله هو كل شيء » ، الا أن الأمر يختلف اذا قلتها وانت منضم الى قيادة الكنيسة ، أو اذا قلتها وانت لامنتم .

لقد توفر ذلك للامنتمين الذين بحثت امرهم في الفصل الأول ، اذ أنهم شكوا في حقيقة عالم البورجوازية (انني ادعوه كذلك لأنني لا اجد كلمة أخرى تعبر عن المفهوم الذي اهدف اليه غيرها ، انني اقصد بهذا ، العالم كما يلوح للحيوان

البشري الاجتماعي .) ونجد ذلك كله ملخصاً في عبارة دوليل آدم : « أما قضاء هذه الحياة ، فسيفعل ذلك خدمنا لنا » . ويعني ذلك أن الشخصية الانسانية مفهومة باعتبارها عدوة ، ما تكاد تتصل بالعالم حتى تسرد على الروح سلسلة من الأكاذيب ، اكاذيب عن ذاتها وعن علاقاتها بالآخرين . ويعتقد آكسيل حين يجد نفسه وحيداً متأملاً ، منهمكاً في دراساته ، بأن روحه تحقق بذلك اكمل صلة بالعالم ، الا انه ما يكاد يبدأ بالعيش حتى تبدأ الأكاذيب . « لقد اراد ان يرى ، في العالم الحقيقي ، تلك الصورة المعنوية التي طالما تخيلتها روحه ، » هذا ما يقوله جويس عن ديدالوس ، الا ان ذلك من مميزات اللامنتمين جميعاً ، وقد فعل ذلك فوكس ايضاً خلال تجواله ، ولكن ، هل رأى ما كان يبحث عنه ؟ هل خلقه بواسطة عقليته النفاذة في الناس الآخرين ؟

اننا اذا حكمنا عليه وفق مقاييس اللامنتمي العابسة الكئيبة لما كان الجواب غير لا . لقد ارانا فوكس طريقاً ما ، ووسيلة للبدء بحل المشكلة ، وارانا كذلك انه لا داعي للشعور بالكآبة والانحدار امامها ، وللتقرير بأن العالم والروح يمثلان مشاكل لا يمكن التوصل الى حلها قط ، كما فعل شوبنهاور . ان « المذكرات » تعتبر وثيقة اشد ايحاء ونفعاً من « العالم كإرادة ومظهر » ، « الا انها ليست اكثر صحة منها من الناحية السيكولوجية) ، كما يميل اللامنتمي الى ان يعترض . ان مفهوم العالم باعتباره ارادة ووهماً واضح في الصفحات الأولى من المذكرات وضوحه الى شوبنهاور . الا اننا في النهاية نكتشف ان فوكس يخطيء الحل النهائي ، ونشعر بأن الواقع القاسي الصافع (او كما يقول جيمس : الحقائق الجافة التي لا يمكن تلخيصها) قد اصبحت له اليد الطولى في الأمر ، بل اننا لنشك في امر فوكس ونحس بأنه قد صار ثرثاراً يتحدث عن نفسه دون اي رقيب ناقد في ذاته . هنالك مثلاً مسألة جيمس نايلر :

كان نايلر ساعد فوكس الأيمن ، وكان شاباً لامعاً ، وخطيباً مؤثراً ، وكانت له المنزلة الثانية بعد فوكس في تلك الحركة . الا ان نايلر كان اخصب خيالاً من فوكس ، وقد ترك امرأتين من الأعضاء تقنعانه بأنه كان المسيح المنتظر ،

وانه ارسل ليبشر باقتراب يوم الدينونة ، وهكذا اقتنع نايلر وركب حماراً قادته امرأتان وهما تناديان « مقدس ، مقدس ، مقدس ، وكانوا متجهين نحو بريستول ، الا ان الشرطة قبضت عليهم بتهمة الالحاد ، واعقبت ذلك محاكمة سئل فيها نايلر : « أتدعي بأنك ابن الله ؟ » فأجاب : « اجل ، وكذلك الجميع » ، الا ان القضاة لم يشعروا بالحرج امام مثل هذا الرد المفحم المتفق مع أصول اللاهوت ، فأصدروا حكمهم عليه وكان يتضمن الجلد العلني في لندن وبريستول، وختم جبهته بحرف « بي » (بلاسفيمر : ملحد) • وتمزيق لسانه بقضيب من الحديد المحمى . وقد أثارت وحشية هذا الحكم حتى اولئك الذين لم يكونوا من « الاصدقاء » ، أما فوكس فلم يثره ذلك ، لأنه كان غاضباً على نايلر بسبب حماقته ، التي أدت الى اضعاف الحركة كثيراً . وقد رفض فوكس التوسلات التي بذلت له لحمله على الوقوف بجانب نايلر ، وأهمل رسالة نايلر التي سأله فيها ان يزوره في سجنه « حيث لقي نايلر اقسى معاملة ، رغم تنفيذ أحكام الجلد والختم والحرق بحقه » . الا ان فوكس كتب الى نايلر رسالة في آخر الأمر ، يلومه فيها لأنه يتهمه بالغيرة منه ويقول له فيها : « لا عذر لك في هذا ... ولا صفح » ، وظل نايلر في السجن ثلاث سنوات ، ثم اطلق سراحه في ايلول عام ١٦٥٩ . ولم يمر عام واحد على ذلك حتى هاجمه اللصوص يوماً وهو في طريقه الى الشمال ، فمات .

ويلوح ان سلوك فوكس في هذه القضية كان بعيداً عن الانسانية ، الا ان ذلك ليس صحيحاً ، لأن فوكس كان قد كرس حياته كلها من اجل مبادئه ، ولذلك فانه لم يشأ ان يزيف من هذه المبادىء شيئاً بالدفاع عن الرجل الذي زيفها. وقد كان قائداً محنكاً ؛ ويمكن تبرير تصرفه هذا كما يبرر تصرف أي سياسي لا يدع مشاعره تتغلب على عقائده . أما رأي اللامنتمي في هذا ، فهو انه من المرعب ان يجد فوكس نفسه في مثل هذا الموقف، وان اللامنتمي يجب ان يعنى بالسيكولوجية الانسانية وحسب ، مميزاً بين العالم كإرادة والعالم كوهم ، ولهذا فان هذه القضية فظيعة الى درجة انها لا تمت الى اللامنتمي بصلة ، فكيف يمكن للامنتمي ان يضع

نفسه في مثل هذا الموقف الطائش ؟

من العـــدل بالنسبة الى فوكس ان نسأل : كيف، كان باستطاعته ان يتفادى ذلك ؟ ان الفلاسفة يقولون لك انه اذا كان الانسان يحمل مقياساً ما في ذهنه ، فلا بد من وجود حقيقة او فكرة تتعلق بهذا المقياس ، فما هو هذا المقياس الذي تحكم به على فوكس ؟

ذلك امر صعب ، لأننا لسنا متأكدين من الأمور التي انتهينا اليها ، ولك ان تسأل اللامنتمي : ماذا يريد ؟ وسيجيبك بأنه لا يدري . لماذا ؟ لأنه يريد بصورة فطرية ، وليس من السهل التعبير عن الاتجاهات التي تدفعك اليها فطراتك . لقد أراد دبليو . ب. ييتس حين كان شاباً أرضاً خيالية «تتلاشى فيها وحدة القلب» ، أما داوسن وتومبسن وبيدو فكانوا « أنصاف عشاق للموت السهل » :

« ليست طويلة ، أيام الخمر والزهور
التي يضمها حلم ضبابي
أما طريقنا ، فتلوح لحظات ، ثم يطبق
عليها الحلم . » (١٩)

لقد أراد آكسيل أن يعيش في الخيال وحده ، في قلعة على الراين ، محاطاً بمجلدات ضخمة تبحث في فلسفة النسك ، أما ييتس فقد حاول أن يحقق ذلك بدعوته الى توحيد الشعراء في منظمة أخوية تعيش في قلعة منعزلة على قمة صخرة عظيمة في لاوكاي في روسكومون :

« فكرت في خطة تهدف الى بناء منظمة صوفية ، وشراء قلعة أو ايجارها والاحتفاظ بها للاعضاء فقط ، الذين يميلون الى العزلة والتأمل ، وبذلك نستطيع أن نحيا حياة تشبه حياة ايليوسيس وساموثريس ، ولدي شعور أكيد بأن الأبواب ستفتح هنالك بطريقة غامضة ، كما فتحت أمام بليك ، وسويدنبرغ ، وبوهمه ، أما كتبنا المقدسة فهي كل ما يكتب في مجال الأدب الخيالي ... »

ان فكرة ييتس هذه هي مثل اللامنتمي الأعلى ، الذي نجده حتى لدى اللامنتمين اللارومانسيين : العزلة والانسحاب ، ومحاولة تنظيم زاوية وسط هذه

« الفوضى الشيطانية » يجد فيها الانسان ما يرضي رغباته . ولا شك في ان النقاد الماركسيين سيدعون ذلك تهرباً ، ولن يكون ذلك خطأ محضاً من جانبهم ، ولكن ، دعنا نتفحص رأي ييتس أكثر . ان الفرق الحقيقي بين الماركسي وبين اللامنتمي الرومانسي هو ان الأول يريد ان يهبط بالجنة الى الأرض ، بينما يريد الثاني أن يرتفع بالأرض الى الجنة . ويرى اللامنتمي ان الماركسي قليل الادراك لأنه يريد أن يوجد جنة في الأرض ، وانه يبني افكاره هذه على مفهوم خاطيء للسيكولوجية الانسانية . (تعتبر « العالم الجديد الشجاع » لالدوس هكسلي و « نحن » لزامياتين ، تعبيرين نموذجيين عن النقد الذي يوجهه اللامنتمي للمثالية الاجتماعية) * . لقد جمع جورج فوكس بين عملية الماركسي ومقياس اللامنتمي العالي بخصوص « جنة الأرض » ، الا انه برغم نجاحه في « عمليته » فشل في التغلغل الى اعماق المثل الأعلى اللانهائي . ترى ماذا انجز فوكس ؟ لقد اسس جمعية الأصدقاء ، وانه لأمر جميل تأسيس هذه الجمعية ، الا ان ذلك لم يستطع أن يقضي على الطوائف القديمة ، وانما استطاع بذلك ان يقضي على عزلته اللانهائية فحسب . ونفهم من ذلك أنه تقبل ، كمعلم ديني ، نفسه والعالم ، في حين لا يستطيع اللامنتمي ان يفعل ذلك . لقد تقبل فوكس فلسفة متفائلة جوهرياً .

ولما فهم « الأصدقاء » أن في أعماقهم نوراً ، شعروا بأن الشر قد اندحر نهائياً ، ولم يعد أمامهم الا ان يعملوا على ضوء ذلك النور ، لأنه قد تم حصر العدو في نطاق محدود . على ان الشر الكامن في هذا هو ذاته الذي تجده في كل مذهب يهب اتباعه شعوراً بأنهم يملكون طينة مقدسة وانهم منفردون في ذلك . ويعتقد اللامنتمي أن أفضل مكان يستطيع منه أن يراقب كوميديا البشرية الخالدة ، البشرية التي تخدع نفسها بالوهم ، (ما عدا من شهد جيهوفا ، ومن

---

* من الطريف أن نلاحظ ان قصة زامياتين ، التي نشرت في روسيا عام ١٩٢٧ ، تتشابه تشابهاً قوياً جداً مع قصة جورج أورويل (١٨٨٤) ، بل اننا لنعتقد انه لو كانت لتلك الرواية ترجمة باللغة الانكليزية لما جرأ أورويل على نشر قصته . وبالرغم من أن هنالك ترجمة أميركية لهذه القصة ، إلا أنها معدومة في أسواق انكلترا .

كان عالماً مسيحياً) ، هو اجتماع تعقده جماعة الأصدقاء في أمسيات الآحاد ، فأما التمييز بين الحقيقية واللاحقيقية فهو مفقود ، كما أنه ليس هنالك ادراك بأن الخير مرتبط بالحقيقية ، والشر باللاحقيقية ، لأن البشر يتقبلون أنفسهم في تلك الاجتماعات مجردة من الشعور بالعبودية ، باعتبار ما فيهم من نور ، والمعروف أن النور الداخلي لا يفعل الشر قط ! وقد يلوح هذا النقد قاسياً بغير عدل ، الا أننا يجب أن نتذكر أننا انما نرى الأمر من وجهة نظر اللامنتمي ، من وجهة نظر روكانتان مثلاً ، الذي يعتقد أن أولئك الذين يدعون بأن وجودهم ضروري ليسوا غير كلاب قذرة. ان هدف اللامنتمي هو أن يميز بين الحقيقية واللاحقيقية، والضروري وغير الضروري . فاذا لم تستطع مقاييس فوكس أن تفعل ذلك فان علينا أن نلومه ، لأن المشكلة هي من الصعوبة بحيث أن أي تنازل أو اتفاق مؤقت من جانبنا انما يزيدها تعقيداً .

لقد كان فوكس ، اذن ، عملياً أكثر مما يجب ، وكانت طريقته في اقناع البشر جميعاً بأن يكونوا لامنتمين واضحة أكثر مما يجب أيضاً ، مما جعلها تفشل في معالجة التعقيد الشديد الذي تتميز به المشكلة ، ولهذا فقد فشل في حلها .

علينا أن نعترف بعظمة الجهود التي بذلها فوكس لحل مشاكل اللامنتمي ، قبل أن نترك أمره . لقد كان أفضل أساتذة انكلترا الدينيين ، وأما مبدأه فهو مبدأ اللامنتمي ، ولو وجد فوكس في ظروف مختلفة وفي عصر آخر فلعله كان يكون مؤسس دين جديد ، بدلاً من طائفة جديدة ، لأن مؤسسي الأديان جميعــاً لم يقلوا عن فوكس تنازلاً عن بعض الأشياء من أجل جعل أديانهم متناسبة مع الجميع .

بدأ فوكس يحل مشاكله اللاانتمائية حين تقبل مصيره كنبي . اننا نعلم أن اللامنتمي هو بالدرجة الأولى ناقد ، واذا شعر الناقد شعوراً عميقـاً كافياً بالشيء الذي يقوم بنقده فانه يصبح نبياً .

لقد صدّر بليك قصيدته الطويلة عن «ملتن» بمقتطف من أحد الكتب : «ليت كل الناس يصبحون أنبياء الله» ، وقد تقبل فوكس مثل هذا الشعور من أعماق

قلبه ، بل انه حاول ان يجعل من كل البشر انبياء ، وكان اسلوبه في ذلك من القوة بحيث انه حصل على نسبة كبيرة من النجاح . اما بليك، فقد قضى حياته مغموراً تماماً ، ولم تفارق نبرة النبوة صوته قط ، الا انه لم يتحدث الى الناس فوق المنابر ، وقد اعتبره الناس في حياته مجنوناً هاذياً ، بل ان اصدقاءه أنفسهم لم يعترفوا له بالنبوغ . ولم يقلق ذلك الجحود بليك ، وانما واظب على اعماله ، فرسم ما رسم وكتب ما كتب من القصائد ، ولم ينل شهرة ولا نجاحاً في كل اعماله ، الا انه عاش بافضل ما في استطاعته وتبنى في ذلك مبادىء النساك الاغريق ، وآمن بأنه كان يملك كل ما يحتاج اليه :

« لدي الغبطة العقلية ، والصحة العقلية
والاصدقاء العقليون والثروة العقلية
وزوجة احبها وتحبني
لدي كل شيء : عدا ثروات الجسد . » (٢٠)

كان كفاح بليك يشبه كفاح نيتشه ، بل ان تشابه طريقتيهما في النظر الى العالم يبعث على الدهشة . لقد سبق احدهما الآخر بثمانين عاماً ، فعاصر بليك الدكتور جونسن ، وعاصر نيتشه دوستويفسكي . وكان بليك محظوظاً بزوجته التي وقفت الى جانبه في ذلك الكفاح ، وكانت فتاة وديعة لطيفة، لم تكف قط عن اعتبار زوجها رجلاً عظيماً . ولو توفرت لنيتشه مثل هذه الزوجة لانقذته من جنونه حتماً .

اعتقد بليك بأن الشهرة ليست ضرورية للعبقري ، لأن الانسان يولد وحيداً ويموت وحيداً ، فاذا سمح لعلاقاته الاجتماعية بايهامه الى حد انه ينسى وحدته الأساسية ، فانه يعيش في فردوس الحمقى . وقد شغلته منذ البداية مسألة الذاتية المتفردة ، اي انك لا تستطيع ان تتأكد من وجود اي شيء او اي انسان ما عدا نفسك :

« لا يحب احداً كما يحب نفسه
ولا يحترم ذاتاً كما يحترم ذاته

ومن المستحيل عليه ان يفهم ذاتاً اخرى
كما يفهم ذاته . » (٢١)

تلك هي نقطة انطلاق ايفان كارامازوف ، التي تبدأ بالتساؤل عن معنى الفكرة المسيحية التي تعظلك بأن تحب جارك كما تحب نفسك . وان تحب الله الذي يأمر ابراهيم بذبح اسحق . لقد قرر بليك أن يضع الأسس قبل البداية ، فاذا كان وضع أسسه يعني مهاجمة الأسس الدينية ، فلا بأس ، وانه يخبرنا بهذا في فاتحة عمل من أعماله الأولى .

« بما ان التجربة أفضل طرق المعرفة ، فان قدراتنا على المعرفة يجب ان تكون تلك التي تختبر وتجرب فعلاً . » (٢٢)

هذا امر بديهي من الناحية العلمية ، واذا وجدته مذكوراً في كراس تصدره جمعية علمية لما رأيت في ذلك عجباً ، الا انك ما تلبث ان ترى بليك ينتقل في المقاطع التالية من هذه الفكرة ليغرق في صوفيته :

« ... ان الشاعر العبقري هو الانسان الحقيقي ، أما الجسد ، او المظهر الخارجي للانسان ، فانه مشتق من النبوغ الشعري . بل ان الاشياء كلها مشتقة من هذه الأسس ذاتها ، تلك الأسس التي دعاها الاقدمون بالملاك ، والروح ، والملاك الحارس .

ان العبقرية الشعرية تدعى في كل مكان بروح النبوة . »

نجد هنا تأكيداً آخر على النبوة ، كما يمكننا ان نتوقع من المفتش العام الذي يحدثنا عنه ايفان ان يضيف الى النار بليك وفوكس الى جانب المسيح .

يرى القارىء انني اقتطفت من بليك كتابات تريه وهو سائر في خط مستقيم مع نيتشه ، — « الحيوية هي المتعة الخالدة » ، أي أنه لم يسر مع العظات المسيحية التي تقول : « مباركون هم الفقراء في ارواحهم » وانما سار مع الفكرة التي تمجد الانسان العبقري . وسنقوم في نهاية الكتاب بتحليل مفهومي « المسيحي » و « الحي » ، الا انني أود ان اشير هنا الى ان هذه « الحياتية » ليست فلسفة متعلقة باعتبار هذه الحياة كل البداية وكل النهاية ، واعتبار كل القيم الاخلاقية

الاخرى تابعة لها ، موضوعة من أجلها ، لأن هذه الفلسفة « الحياتية » قد تعني خلق هذه القيم أو تجديدها فحسب . وعندما كتب ارسطاطاليس : « أفضل الاشياء هو ان لا يولد الانسان ، والموت أفضل من الحياة » فقد عبر عن الرأي الذي يمكن أن يقال عنه انه جانب من التطرف الديني ، أما في الجانب الآخر فاننا نجد هذه « الحياتية » ، أو فكرة كيريلوف « كل شيء حسن » (لاحظ أن كيريلوف عدّ نفسه كافراً) ، ويمكننا ، بهذا المعنى اعتبار « الحياتية » ثورة على ما في القوانين الاخلاقية من جبرية :

« عبادة الله هي : تقدير مواهب الآخرين ، كلاً حسب نبوغه ، ومحبة العظماء أكثر من محبة الآخرين ... » (٢٣)

ويخبرنا بليك بأن المسيح نقض الوصايا العشر كلها حين قال :

« أخبركم بأنه لا يمكن أن توجد فضيلة اذا لم نعص هذه الوصايا العشر . لقد كان المسيح يمثل الفضيلة ذاتها ، ولهذا فقد عمل على ضوء دوافعه ، لا على ضوء القواعد والوصايا . » (٢٤)

وهنا نجد دفاعاً عن راسكولنيكوف وستافروجين ، فكل دافع في الذات هو خير ، و « الحياة هي المتعة الخالدة » ، وقد كتب بليك في « القدس » :

« حين تطبق الكهوف على الفكر
فان الحب سيكشف عن جذوره حتى في أعمق أعماق الجحيم ... » (٢٥)

وبعبارة أخرى ، اذا لم يستطع الانسان أن يعبر عن ذاته ، راحت حيويته تبحث عن مخرج بواسطة الجريمة أو العنف . ويرينا بليك مراراً وتكراراً في أعماله عدم اكتراثه بالمسائل الاخلاقية اذا كان التعبير الذاتي مكتوماً مشلولاً .

« اقتل طفلاً في مهده ، فذلك أفضل من كبت رغبة غير مطمنة . »

« ان من لا يستطيع أن يسند الحقيقة يكون مضطراً الى اسناد الكذب ... لكي لا تنتهي الحياة وما فيها من حيوية . » (٢٦)

لقد كان بليك مفكراً جريئاً بطرق أخرى ، بالقضايا الجنسية مثلاً ، فقد قال بليك ، قبل قرن ونصف من ظهور « عشيق الليدي شاترلي » لـ د. ه. لورنس ، ان الجنس يستطيع أن يصل بالانسان الى مستوى الرؤى ، وقال ايضاً ان أفضل

الطرق للتغلب على الشرور هي طريقة افساح المجال لهذه الشرور واعطائها أكمل تعبير ذاتي ممكن ، فما نتيجة ذلك الا الفضيلة :

« الا أن الجشع تدفق
وشبع الحسد من سمن الخراف
والغضب من دم الأسود المتخثر
ونامت الدعارة مع قيثارة العذراء
أو شبعت من حبها
حتى حطم الجشع قيوده وحدوده
وأغفى تاركاً الابواب مفتوحة
وغنى الحسد في حفل الغني
وسار الغضب يتبعه حمل صغير
وكان أن ولد للداعر والعذراء
شعب عظيم . » (٢٧)

ويقال ان بليك كان مقتنعاً ببراءة الحواس الى درجة أنه اقترح أن يأخذ وصيفة زوجته معه الى فراشه ، الا أن زوجته رفضت أن تسمح له بذلك . الا أن اقتراحه هذا كان متفقاً مع التعاليم التي كتبها في كتبه النبوية . ويرينا في « رؤى ابنة البيون » البطلة وهي تعد زوجها « ثيوتورمون » :

« بأن اقتنص لك فتيات فضيات هادئات ، أو ذهبيات مثيرات ، وأضطجع بجانبك ، على الشاطيء ، « أرقب اتصالك بهن ، بركة على بركة يا ثيوتورمون . » (٢٨)

ولم يكن هذا دعارة من جانب بليك ، وانما كان جزءاً من عقيدته الدينية ، انه يجعل أوثون يسأل :

« كيف يمكن لمتعة أن تتلاشى في أخرى ؟ أليست المتع المختلفة مقدسة ، خالدة ، لا نهائية ؟ وكل متعة هي حب . »

اما السؤال الذي يجب علينا ان نسأله فهو : ماذا كان مصير نظام بليك ؟

يلوح لنا من هذه المقتطفات أن لدى بليك شيئاً من افكار روسو عن « العودة الى الطبيعة » .

كانت النهاية ، بكلمة واحدة ، الرؤيا ، او قول « نعم » . تلك كانت النهاية بحث بليك ، وهي تشبه نهاية نيتشه وريلكه ! « الشكر رغم كل شيء » .

لقد توفرت لبليك ، تماماً مثل فان كوخ ونيتشه ، لحظات رأى فيها العالم ايجابياً تماماً ، وخيراً مطلقاً . وكان بليك رساماً ايضاً ، وقد رسم فان كوخ حقول قمح لاحت ملتهبة متأججة ، أما بليك فقد رسم صوراً شخصية لنفسه محاطة بذلك الاساس الخلفي نفسه ، المضطرب البراق ، فكأنه لم يستطع ان ينظر الى نفسه في المرآة دون ان تنبثق حمى الحيوية من ريشته انبثاقاً . كانت نظرة بليك الخارجية مماثلة لذلك ايضاً ، الا ان الطريقة التي عبر بها عن ذلك كانت مختلفة ، وقد عرف طريقتين فقط للتعبير عن حيويته هذه ، احداهما خلال الجسد البشري ، والثانية خلال الالوان. وقد فضل الالوان المائية لانها اخف من الالوان الزيتية ، وقد رسم اشخاصاً يشبهون اشخاص ميكل انجلو ، وأحاطهم بأساس خلفي من الضياء ، ولم يكن بليك فناناً عظيماً* مثل ميكل انجلو لسوء الحظ ، ولم يعرف من تأثيرات الضياء ما عرفه ترتر ومونيه ، ومع أن لوحاته تتدفق بالحيوية ، الا انها تتدفق ايضاً بأكثر مما يلزم من الضياء ، مما يهبط بها من مستوى العظمة ، في حين نجد ذلك من أسباب عظمة فان كوخ ، ذلك لاننا لا نجد لدى بليك التركيز والشدة اللذين نجدهما لدى فان كوخ .

الا ان لوحاته قيمة لانها تعبر عن « نظرته الى العالم » ، في حين لا تفعل لوحات فان كوخ ذلك .

ولم تكن صوفية فان كوخ مدركة ، بالاضافة الى أنه لم يعبر عنها قط في رسائله ، في حين اصطبغت حياة بليك وأعماله كلها بهذا العرض المنظم لصوفيته .

وهنا يتعين علينا أن نسأل : ماذا نعني بالصوفية ؟ ولن نجد أفضل من هذه

---

* هذا الرأي يحتمل المناقشة طبعاً ، ولست ادعي بأنه أكثر من رأيي الشخصي وحسب .

المرحلة من بحثنا لنوجه فيها هذا السؤال ، لان بليك يستطيع ان يجيبنا على سؤالنا الجواب الشافي :

ان الصوفية مشتقة من كلمة اغريقية معناها « اغلاق العين » ، وكان ذلك ما عناه بليك بالضبط حين قال ان الرؤية لا تتم باستعمال العيون . ان عدسة العين تسجل الانطباعات التي تنقل الى الدماغ ليفسرها ، فاذا تكاسل الدماغ ، وكفّ عن تفسير الانطباعات التي تنقلها اليه العين ، فان الانسان لا يعود يرى شيئاً ، وهذا امر يعرفه جميع الناس . فكم من مرة كنت فيها تقرأ كتاباً ، واذا بك تشعر بالتعب ، ويبدأ ذهنك بالشرود ، ثم تكتشف فجأة انك قرأت ما يقرب من نصف صفحة دون ان تفهم شيئاً . ويعني ذلك ان عينيك قرأتا السطور ، الا ان ذهنك لم يفسرها ، وعليه يمكنك ان تقول انك لم تقرأ شيئاً ، وهكذا الأمر مع الرؤية ، فاذا كنت مسافراً بالقطار فانك تتطلع الى الحقول في بداية السفرة تطلع المتلذذ المستمتع ، وتثير المناظر الجديدة في ذهنك مختلف الانطباعات والافكار ، اما في نهاية السفرة ، فانك تجد نفسك نصف نائم ، في حين لا تعود الاشياء تسرك او تثير فيك شيئاً من الانطباعات ، اي انك لم تعد ترى شيئاً .

لقد توصل رامبو الى مثل ذلك حين كتب الى احد أصدقائه قائلاً : « يجب على الشاعر ان يرى رؤى ... » ، « يستطيع الانسان ان يرى رؤى اذا واظب على نظام مركز يتوصل بواسطته الى اضعاف الحواس او تشويهها . » ويدعي رامبو بأنه استطاع ان يمرن نفسه على رؤية التخيلات والاوهام ، وانه استطاع ان يرى « جامعاً ، بدلاً من مصنع » ، « ورأى عربات على طرق مؤدية الى السماء وغرفة استقبال في قاع بحيرة . » لقد ادرك رامبو ان الابصار عمل من اعمال الذهن ، وانه في الامكان التأثير على الذهن بقوة الارادة . ان كان الانسان الداخلي هو الذي يقرر ما يراه .

قد يلوح لنا « اضعاف الحواس المنظم » الذي يقوم به رامبو أمراً سخيفاً ، او من تصورات الشباب ، الا ان ذلك ليس صحيحاً تماماً ، اذ لم يدافع رامبو بذلك عن شرب الخمر او تناول المخدرات ، وانما دافع عن قوة الارادة على

الحواس. وكانت النتيجة انه حصل على تركيز وتنقية شديدين للحواس، مما بدل كل ما كان يراه، فصار لا يرى الا الرؤى.

لقد تحدثت عن هذه «التنقية للحواس» في معرض حديثي عن لورنس، أما بليك فانه يقول عن ذلك:

«ان الفكرة القديمة القائلة بأن العالم سيفنى محترقاً بالنار بعد ستة آلاف سنة شيء صحيح، لأنني سمعته بنفسي من الجحيم.

ذلك لأن الملاك الذي يحمل سيفاً ملتهباً مأمور بأن يكف عن حراسة شجرة الحياة، فاذا فعل ذلك، فان المخلوقات جميعاً ستفنى، وعندئذ تلوح خالدة أبيدة، في حين انها الآن تلوح فانية فاسدة. ولن يحدث ذلك الا بتطور الاستمتاع الحسي الى افضل ما يمكن ان يكون عليه. الا انه من الواجب، قبل ذلك، ان نمحو من اذهاننا فكرة أن جسد الانسان متميز عن روحه، اما انا فيمكنني ان افعل ذلك باستخدام الوسيلة الجهنمية، طريقة التآكل والاذابة التي تعتبر من علاجات جهنم، وبهذا أستطيع ان اذيب الاشياء الظاهرة لأظهر ما يختفي تحتها من خلود.

واذا استطاع الانسان ان ينقي أبواب الادراك فان كل شيء سيلوح له خالداً.

لقد حبس الانسان نفسه، ولم يعد يرى الاشياء الا خلال شقوق كهفه العميق.» (٢٩)

ويمكننا ان نسند هذا بمقتطف آخر من مقدمة «أوربا»:

«تضيء كهف الانسان الحبيس نوافذ خمس، يتنفس الهواء من احداها! ويصغي الى موسيقى الاكوان من الثانية، اما في الثالثة، فان خمائل الكرم الخالدة.

تزهر وتتألق لكي يتذوق العنب، ويمكنه ان يرى من الرابعة
اجزاء صغيرة من العالم النامي أبداً

اما من الخامسة، فانه يستطيع ان يخرج، الا انه لا يفعل ذلك، لأن المتع المسروقة عذبة، والخبز الذي يأكله سراً لذيذ جداً.» (٣٠)

هذا واضح تمام الوضوح، ونرى منه ان بليك يدعي بأن العالم الخارجي غير

محدود ، خالد ، ويمكن ان يراه كل انسان كذلك اذا استطاع ان يرى الاشياء على حقائقها دون ان تمنعه عن ذلك الاقذار العالقة بأبواب الادراك . ولو عاش بليك ليرى لوحتي « ليلة النجوم » أو « طريق السرو عند الغسق » لفان كوخ ، لما تردد في أن يقول : هذا انسان يرى الاشياء كما هي .

وهنالك صفحات أخرى في « رؤى بنات البيون » يوضح فيها بليك ما يحدث حين يمتنع الذهن عن التفسير ، او ما يحدث حين يؤثر فيه شيء ويحرف تفاسيره :

« قالوا لي ان الليل والنهار هما كل ما يمكنني ان اراه
قالوا لي انه لدي خمس حواس أنا حبيسها
فسجنوا ذهني في دائرة ضيقة
وأغرقوا قلبي في الهوة ، في كرة حمراء مستديرة ، ساخنة ملتهبة .
حتى انهم محوني من الحياة !
ولم يعد صباحي غير طيف براق .
كأنه فجوة في سحابة شرقية .
أما ليلي ، فقبو كئيب لا يضم غير الموتى ... » (٣١)

ان ما يقصده بليك من هذا هو ان رؤيا الاشياء باعتبارها « مقدسة لامحدودة » ليست بالأمر الشاذ ، وانما هي أكمل حالات الانفعال الطبيعي . الا ان الانسان لا يولد مزوداً بمثل هذه الرؤى ، ويعيش طيلة حياته بعيداً عنها ، حتى اذا اشرفت حياته على الانتهاء ، قال انه « من الافضل ان لا يولد الانسان ، وان الموت خير من الحياة » ، لماذا ؟ ولا يستطيع بليك ان يقول لنا لماذا ، وانما يستطيع فقط ان يصف ذلك ، مستخدماً اسطورة السقوط ، فكأنه اراد ان يقول : « يولد الناس كأجهزة الراديو المفككة ، التي لا تستطيع ان تعمل قبل ان تصلح . » « لقد عاش بليك قبل عصر الآلة ، ولعله كان سيستعمل نفس هذا التشبيه لو كان يعيش معنا الآن » ، الا أنه استخدم قصة « الخطيئة الاولى » .

ان القراء الذين يبدأون بقراءة هذا الكتاب من هذه المرحلة

يشكون من الاقتراح القائل بأن الناس يجب ان يروا العالم دائماً كما رأى فان كوخ « ليلة النجوم » . وقد يعترضون قائلين : « يمكننا أن نتوقع من الانسان أن يرى ليلة النجوم كما فعل فان كوخ ، ولكننا لا نستطيع أن نقول انه يجب أن يرى الاشياء هكذا ، ولعله فعل ذلك مرة ، الا أنه فقد قدرته على ذلك حين أكل التفاحة من الشجرة المحرمة ... » هذا معقول ، ويمكننا أن نجيب عليه بأن مفهوم الخطيئة الاولى لا يمكن أن يؤكد لنا على وجود جنة عدن ، أو على أن الانسان استطاع يوماً أن يرى الرؤى الا أنه فقدها بعد ذلك ، وانما يؤكد لنا على أن رؤية الرؤى أمر جوهري في الانسان . يمكنك أن تقول ان انساناً ما شاذ لانه يملك فماً الا أنه لا يستطيع النطق ، وعينين الا انه لا يستطيع الرؤية ، وعليه فانك لا تستطيع أن تعده طبيعياً غير شاذ اذا كان لديه ذهن دون أن يكون في مقدوره أن يرى رؤى ! ان معظم الناس يعيشون من اللحظة الى اللحظة ، دون أن يكون لديهم توقع لما سيحدث ، أو ادراك لما حدث ، لأن وجودهم الجسدي يتطلب منهم انتباهاً مباشراً لما يشغله في الوقت الحاضر ، تماماً كما هي الحال مع الحيوانات . ان الانسان الاعتيادي متميز عن الكلاب والقطط في أنه ينظر الى المستقبل : أي أنه في مقدوره ان يقلق بشأن ما يحتاج اليه جسده في مدى الستة شهور ، او السنوات العشر القادمة ، كما ان فكرة الخطيئة الاولى تؤكد على ان الانسان فقد قابليته على رؤية الرؤى لانه صار ينفق فعاليته كلها في التفكير بالامور العملية المباشرة ، وذلك على الاقل ، ما يلوح ان اشد رجال الدين تعمقاً يودون ان يوضحوه : وقد طلب المسيح من اليهود ان لا يضيعوا اوقاتهم كلها في الاخذ والعطاء ، وان ينتبهوا الى زهور الحقل !

يمكنني ، بمثال آخر ، ان اوضح ما اعنيه « بالقابلية على رؤية الرؤى » . ان ت. ي. لورنس يخبرنا بأنه حين عرض الصور التي رسمها كيننغتون للبدو ليضعها في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » عليهم ، شكوا في انها صور بشر ، وقلبوها عدة مرات ، وقال بعضهم انها صور جمال لأن الفكوك تشبه اسنمة الجمال . قد لا نفهم ذلك ، لاننا رأينا كثيراً من الصور ، الا اننا يجب ان نتذكر ان الصور

ليست غير خطوط وألوان مجردة ، وان الامر يتطلب منا شيئاً من المجهود العقلي لكي نتوصل الى معرفة هذه الصور وندرك انها تمثل انساناً ما او غروب الشمس . ونحن نقوم بهذا المجهود دون ان ندركه ، بالاضافة الى ان هنالك بعض علماء الرياضيات الذين يستطيعون ان يعرفوا حل اية مسألة جبرية صعبة بمجرد النظر الى مخططها ، وذلك ، ايضاً ، لأن اذهانهم تقوم بعملية الحل بنصف ادراك ، وتستطيع ان تدرك ما في المسألة من علاقات ، في حين اننا لا نرى فيها غير خطوط وزوايا مشوشة ، اي ان حواسنا لا تستطيع ان تقوم بالعمل ان لم يقم به الذهن . واذا استطاع اوروبـي أن يرى منظر الغروب مرسوماً على قطعة من القماش ، حيث لا يرى البدوي غير تشويش من الالوان ، فانه من المعقول ايضاً ان نقول ان الاوروبـي الذي يمرن هذه القابلية في نفسه يستطيع ان يرى اشياء اخرى لم يكن يراها من قبل . وهذه القابلية هي التي توفرت لبليك بالفطرة ، والتي قال بليك عنها ان البشر جميعاً يستطيعون ان يملكوها ، اذا هم أنفقوا وقتاً اقل على امورهم العملية ، ووقتاً اكثر على تقوية قابلياتهم على رؤية الرؤى . اما في الدين ، فانك غالباً ما ترى ما يشبه هذه السطور .

« لقد علّم الله اخي وعلمني ان نركز انتباهنا على ارنبتي انفينا ، وكنت اذا فعلت ذلك ألاحظ بعد اسابيع ثلاثة ان شهيقي وزفيري يلوحان لي دخاناً صادراً من مدخنة . وفي الوقت نفسه اشعر بأن جسدي وعقلي صارا يطفحان بالضياء ، وانني ارى العالم كله يتضح شيئاً فشيئاً حتى ليصبح كالبلور الشفاف ، وانني اخف حتى اصل الى حالة من الصحو التام . » (٣٢)

هذا مقتطف من كتاب « سورانكا ماسوترا » البوذي الذي كتب حوالي عام ١٠٠ م ، نقلاً عن اسطورة لعلها امتدت قبل ذلك بزمن طويل . ويمكننا ان نختار مئات من مثل هذه المقتطفات من مختلف الكتب الدينية ، ونجدها كلها تشير الى الحقيقة ذاتها : ان تمرين العقل يؤدي الى طريقة مختلفة في النظر الى العالم. وقد اكتشف بليك ، كما فعل نيتشه ، شيئاً اساسياً في الطبيعة الانسانية ، ويمكننا ان نعلم من بليك ان « القوة على رؤية الرؤى » لا تتوفر لنا بسهولة ، ولا تصيبنا

فجأة كالحصبة ، وانما هي نتيجة اتباع تمرين قوي طويل للحواس ، تمرين نهدف منه الى حمل الذهن الى اتباع اتجاه مغاير كل المغايرة لنشاطاته العادية المألوفة ، مغايرة العمودية للافقية .

ان أفضل طريقة لفهم بليك ، في بحث متواضع كهذا ، هي ان نفحص اعماله حسب تسلسلها التاريخي ، الا اننا سنعود قبل ذلك الى الاشارة الى بعض النقاط السابقة .

لدينا في « ستيفن وولف » و « دميان » لهيس ، خلاصة للمشاكل التي عرفها بليك قبل هيس بزمن طويل . وهنالك عالمان ، او طريقتان متميزتان في النظر الى هذا العالم نفسه ، ويمكننا ان ندعوهما : الملهمة ، واللاملهمة. وانه لمن الواجب على الفنان ان يربط بينهما ، اي بين ستيفن وولف الذي تؤثر فيه الموسيقى او الشعر وتجعله يحس فجأة بالتوافق والكمال ، وستيفن وولف المتضايق المستثار المريض ، او بعبارة اخرى بين عالم الفن والموسيقى والمتعة العقلية وعالم الاشياء العقلية والعمل المضني والكآبة . ولكن ، اين يلتقي هذان العالمان يا ترى ؟ ان بعض الناس يشعرون بهذا العالم الاول ، عالم التوافق في الفن او في الطبيعة ، ونحن ندعو هؤلاء الناس « حساسين » او « فنانين » .. الخ ، الا انهم سيقولون لك ان الفن امر والعيش امر آخر . وهنالك جزء ساخر في « بودنبروكز » لتوماس مان ، يصف فيه كيف ان الشاب (هانو بودنبروكز) يذهب لمشاهدة «لوهينغرن» وكيف انه استيقظ في الصباح التالي ليذهب الى المدرسة ، فيجد انه صار يكره العالم الذي يعيش فيه ، والفجر البارد ، والرذاذ ، ورائحة المعاطف المبللة في المدرسة ، وهنا نشهد مشكلة اللامنتمي الاساسية ، كما نشهد العالمين ، عالم الذهول والحيوية ، عالم « لوهنيغرن » وعالم المدرسة الكئيب .

وتوماس مان هو من اتباع نوفاليس والمدرسة الرومانسية الالمانية ، مثل هيس ، كما ان طريقته في وصف المشكلة التي تتعلق بالعالمين تجعل منها أمراً غير مألوف ، يشبه المأساة . الا ان هنالك فنانين وشعراء آخرين نجد لديهم شيئاً من التفاؤل فيما يخص العلاقة بين هذين العالمين ، وتراهم قادرين على وضع قدم واحدة في كل

عـــالم دون ان يضايقهم ذلك ، ومن هؤلاء : سنج وجويس وهيريك وشكسبير ورابليه وبليك ايضاً .

كان هدف بليك الاول ان يصور هذين العالمين تصويراً تمهيدياً ، ففعل ذلك في « اغاني البراءة » و « اغاني التجربة » ثم بدأ يعالج المشكلة بتعقيد اكثر في قصيدته الطويلة الاولى « كتاب ثيل » ، وثيل هي العذراء البريئة التي تحيرها مشكلة الموت ، فتسأل الزهرة وتسأل السحابة وتسأل الدودة ، الا ان هؤلاء يؤكدون لها على توافق العالم الاساسي ، وأبوة الله . ثم تدخل القبر (وهنالك ما يشير الى ان بليك اضاف هذا بعد اتمامه القصيدة) ، ويرعبها صوت يصدر من حفرة قبرها ، صوت يخبرها بمدبرات الحياة ، بعنصر الفوضى :

« لماذا لا تستطيع الأذن ان تقتصر على فنائها ، والعين البراقة على سم ابتسامة ؟ » (٣٣)

وتشبه ثيل (لبليك) دميان (لهيس) ، اما هدف هذه القصيدة فهو ايضاً « ان الفوضى يجب ان تواجه . »

ولا نرى شيئاً من البراءة في قصائد بليك بعد « ثيل » ، اذ نجد في « رؤى بنات ألبيون » ان اوثون تقع فريسة اعتداء على شرفها ، في حين يتملك الحقد والكراهية والغيرة زوجها حين يعلم أن غيره قد عرف جسدها ! (من المفيد ان نلاحظ تشابه هذا مع المواقف المماثلة التي يصفها د. ه. لورنس في « طيف في حديقة الورود » ووليم فولكنر في « ضجة وهياج » ، اما الجانب الاكبر من القصيدة فيتألف من توسلات اوثون بزوجها حين تحاول ان تقنعه بأن البراءة لا يمكن ان تشوه . الا ان ذلك لا يجدي شيئاً لان ثوتورمون ترك الانفعال يطغى على « ابواب ادراكه » ، فتصور انه قد حدث شبيه لما يدعونه « بالخطيئة الاولى » .

اما في « اميركا » ، فان بليك يستخدم الثورة الامريكية وتحرير العبيد رمزين للانطلاق من سجن الحواس الخمس . ونجد في هذه القصيدة الأبيات الرائعة التالية :

« انتهت الازمان ، ومرت الاشباح ، وها هو الفجر يطلع ،

وتعود المتع اللاهبة التي زيفها يورايزن في الوصايا العشر
فقاد موكب النجوم في ليل طويل وقفار شاسعة
انني اسحق ذلك القانون المتحجر ، واحيله تراباً ، وانشر الدين بعيداً بعيداً ،
تحمله الرياح الاربع كتاباً ممزقاً ، حيث لا احد يجمع الصفحات ...
سنجدد تلك المتعة اللاهبة ، ونحطم ذلك السقف الصخري ، تلك المباءة الدينية الشاحبة .
سنبحث عن العفاف والطهر لدى البغايا ، عن النقاء في تلك الطيبة الملفعة بالخشونة ، رغم ان مهدها يتدنس ليلاً نهاراً .
ذلك لان كل شيء على قيد الحياة مقدس ، ولا تغتبط الحياة الا بالحياة
لان الروح التي تسعدها عذوبة الغبطة لا يمكن ان تشوه
فاذا التهمت النار هذه الارض ، فان الانسان لن يفنى ،
انه يسير وسط هذه النيران الشهوانية ، بقدمين قدتا من البرونز
اما ركبتاه وفخذاه فمن الفضة ، وصدره ورأسه من الذهب . » (٣٤)

انه يستخدم « النساء » في «اوروبا» كرموز للانطلاق والتحرر ، لان مشاعر النساء عملية ، مباشرة ، مقصورة على الارض * . ان اينيثارون ، الانثى المقابلة لـ « لوس » الذي يمثل اللاانهائية ، تصيح قائلة :

« اذهب واخبر البشر بأن حب المرأة خطيئة
وان الحياة الخالدة تنتظر دودة ستين شتاء
في مثوى متخيل ، حيث لا وجود هنالك قط ... » (٣٥)

ان الرمزية التي يستخدمها بليك واضحة هنا تمام الوضوح ، فان التفكير المركز في تصورات الدين يجعلها خرافات ، ونجد ان اتهامات بليك تنهال على

* معظم النساء الأديبات يدافعن عن رأي بليك ، وانه ليلوح لي ان الأدب العالمي قد أغفل ، ضمن الامور العظيمة التي أغفلها ، تصوير المرأة الفنانة ، في شكل تأريخ روحي لامرأة شديدة الحساسية. أما الرجال فانهم لا يستطيعون أن يكتبوا عن المرأة أشياء مقنعة .

العالم كله ، لانه يفكر بهذه الحرفية . اما ألد اعدائه فكانوا الاستدلاليين ، ورجال الدين الطبيعيين من امثال جبون وفولتير وروسو والعلماء بريستلي ونيوتن . (يقابل هؤلاء اليوم الجمعية الطبيعية ، ويفكرون مثل ديوي ، ورسل .) وقد قال بليك عن هؤلاء انهم « انذال حقيرون » خاضعون للطريقة التي تفكر بها المرأة .

نجد في « اوروبا » ان نيوتن يذكر الناس بهرطقته بيوم الحساب الاخير (ويمكن لكل قارىء ان يعلم لماذا كره بليك نيوتن اذا قرأ كتاب نيوتن — عن النبوءآت) ، اما « لوس » فانه رمز الحيوية المتخيلة ، وهو يدعو اولاده جميعاً « كفاح الدم » . وقد قال بليك ، كما قال شو بعده ، انه سيأتي اليوم الذي يسفك فيه « رجال الخيال » دم هؤلاء الحرفيين الذين جعلوا هذا العالم مكاناً غير مناسب للحياة *

و « اوروبا » هي القصيدة الاولى من سلسلة من القصائد عالج فيها بليك مسألة العقل الضيق المتعلق بالحرفيات (الرؤيا الواحدة ونوم نيوتن). وقد اعتقد بليك بأن مثل هذا العقل هو العدو الحقيقي. وقسم بليك الانسان الى الاقسام الثلاثة التي عرفناها

---

* قارن هذا بالمقتطف التالي ، من مسرحية شو « بيت القلب المحطم » ، الفصل الأول :

الكابتن شوتوفير : ما العمل اذن ؟ أنظل في هذا الوحل ، ويرغمنا البقاء فيه هؤلاء الخنازير الذين يعتبرون هذا الكون آلة لدهان شعورهم وملء خياشيمهم ؟ يجب علينا أن نكسب قوى الموت والحياة ، وانني لأرفض أن أموت قبل أن أحقق ذلك .

هكتور : ولكن من نحن ، لنحكم عليهم ؟

شوتوفير : ومن هم لكي يحكموا علينا ؟ ومع ذلك فانهم يفعلون هذا بلا تردد . هنالك عداء قائم بين أساسنا وأساسهم ، وانهم يعرفون ذلك ، ويعملون بموجبه ، خانقين بذلك أرواحنا . انهم يؤمنون بأنفسهم ، وما علينا إلا أن نؤمن بأنفسنا لنقتلهم ...

هكتور : انهم من الحمق بحيث أنهم لا يستخدمون قواهم .

شوتوفير : لا تخدع نفسك ، فانهم يستخدمونها ، ونحن نقتل أفضل ما في نفوسنا لنخدمهم كل يوم ، وان علمنا بأنهم موجودون لخنق طموحنا يمنعنا من الطموح ...

في الفصل الرابع ، وذلك لكي يسهل عليه امر تحليل مشاكل اللامنتمي : الجسد ، والقلب ، والعقل ، ودعاه على التوالي : ثارماس ، ولوفا ، ويورايزن . وتعالج قصائده الرئيسية الثلاث : «فالا» و «ملتن» و «القدس» تداخل هذه العناصر الثلاثة في مشهد من سلسلة من المشاهد الالهامية ، في حين تلوح في ظاهرها عديمة التماسك. الا انه بالرغم من الارتباك الموجود فيها ، فان فكر بليك الخلاق لا يتجلى الا في هذه القصائد. اننا نجد الحوادث كلها تحدث في داخل نفس البطل (الانسان) البيون العملاق المضطجع على صخرة العصور . (وتذكر هذه الطريقة القارىء بيقظة فينيجان تلك الاسطورة الغامضة التي تحدث في عقل البطل المضطجع النائم أيضاً) ، ولعل احد ابيات قصيدة « ملتن » يوضح ما هدف اليه بليك من هذه القصائد :

« اعتبر بكلماتي هذه — انها تهدف الى خلاصك الأبيد ... »

ويمكننا ان نعتبر هذا البيت عنواناً لكل اعمال بليك . وقد اضاف بليك الى رموزه الثلاثة « لوفا ، وثارماس ، ويورايزن » رمزاً رابعاً هو « لوس » ، الذي يمثل الخيال ، والذي يفهمه البعض على انه المسيح . الا ان بليك لم يعن بالخيال ما عناه ملتن حين وصف « عرض الشيطان لخياله بفخر » ولا ما عناه شيللر حين ميز بين الخيال والوهم . لقد كان خيال ملتن أمراً من امور العقل ، وخيال شللر امراً من امور الانفعال ، اما خيال بليك فكان مزيجاً معقداً من العقل والانفعال وحتى الجسد . وقد عرف بليك اهمية الجسد ، تماماً مثل نيتشه ، ولم يغن شاعر من اجل الجسد كما فعل هو ، ما عدا والت وتمان طبعاً ، لان « الجسد هو ذلك الجزء من الروح الذي يمكن للحواس الخمس ان تميزه » ، ولهذا فان للجسد مكاناً في الخيال .

اما عمل الخيال فهو النظر الى الاعماق ، وقد عبر عن قصد في « القدس » :

« لأفتح العوالم الأبيدة ، لأفتح العيون الخالدة

في اعماق الانسان ، على عوالم الفكر ، على الأبد . » (٣٦)

الخيال هو الوسيلة لمعرفة الذات ، ونحن نفهم من بليك ان الخيال ليس انفعالياً فقط او عقلياً فقط ، وانما هو متضمن في كل الوجود ، في الجسد والانفعال والعقل .

وما « لوس » الا صورة نصفية لاعماق الانسان ، اما النصف الآخر فهو الوجود العجيب ، الذي يدعى « بالشبح » :

« تتملك كل انسان قوى شبحه
حتى تحين الساعة
حين تستيقظ انسانيته
وتلقي بشبحه الى البحيرة ... » (٣٧)

ان الشبح هو الشكل الميت ، وهو يمثل الادراك المستقر ، اما « لوس » فانه متزايد متسع شيئاً فشيئاً . واذا تراجعت الحياة ، فان حدود فعالياتها تلوح حية ، تماماً كما يلوح الجسد الميت كالجسد الحي . ان الميت هو الشبح ، اي الجانب المدرك من الانسان ، الذي يخطيء فيظنه نفسه ، وهو يؤلف الشخصيات والعادات وما يعرفه به الناس ، وقد ادرك ستيفن وولف في لحظة من لحظات رؤاه ان « الانسان ليس شكلاً ثابتاً لا يحتمل التغيير » ، الا حين يكون في قبضة الشبح (ومعظمنا في قبضته في كل يوم) فانه يرى نفسه والعالم « اشياء ثابتة لا تحتمل التغيير . »

ولقد عرف بليك عالمي هانوبود نبروكز وستيفن وولف : بأن الاول هو عالم « لوس » والثاني عالم « الشبح » . والشبح شيء غير مرئي ، كالطيف ، الا انه ما ان يسيطر على الانسان حتى يلوح كل شيء جامداً ، غير متغير ، ثابتاً ، غير حقيقي .

يمكننا هنا ان نرى الى اي حد استطاع بليك ان يحل مشاكل اللامنتمي ، بل قد رأينا كيف ان النظام الذي يقدمه يمثل هيكل هذا الحل ، اكثر من اي نظام آخر . ان روكانتان وميرسول ولورنس وكريز وستراود واوليفر وكاونتليت كلهم في قبضة الشبح : في قبضة شخصياتهم الخانقة ، وانهم ليرون العالم خامداً ساكناً ، لانهم يحسون بأنهم كذلك ، اما علامة وجود هذا الشبح فهي اللاحقيقية .

انك ان تحث في امر التشتت في هؤلاء الرجال : مجنون تولستوي الذي يقر بأنه لم يستطع ان ينجو من « الرعب » لانه كان يحمل مصدره معه ، ولم يكن هذا

المصدر غير نفسه ، ولورنس الذي اعترف بأنه « لم احب هذه الـ (نفسي) التي أراها وأسمعها » ، ووليم جيمس وخوفه الذاهل من وجوده ، وجدت هذه الحالات كلها تشير الى الاعراض التي أشار اليها بليك .

ان السبب ، كما ادركه ت. ي. لورنس ، راجع الى « الطبيعة التي يربكها الذهن » ، أي الى العقل المتحكم في القابليتين الآخريين . وقد رمز بليك الى العقل بـ (يورايزن) أي « ملك الضياء » ، أما يورايزن هذا فانه يحاول ان يقوم بدور الدكتاتور نحو العنصرين الآخرين، الا ان الانسان لا يريد ان يكون حكومة دكتاتورية ، لان ذلك يجعله غير متوازن ، واذا استمر على هذه الحال طويلاً فلا بد من حدوث أمر ما . بل ان ذلك الامر سيحدث حتى اذا كان الدكتاتور أحد العنصرين الآخرين : لوفا او ثارماس ، وحتى الجسد ، (وثارماس هو أرق أبناء السماء) ، ذلك لان مشاكل الحياة تتطلب تعاوناً مشتركاً بين العقل والانفعال والجسد على ان لا يتفوق أحد هذه العناصر على العنصرين الآخرين .

نجد انفسنا الآن في قلب اسطورة بليك . ان ملحمته الطويلة المشوشة « فالا ، أو الالهة الاربعة » هي طريقته في كتابة ما يشبه « الاخوة كارامازوف » ، وهي حكاية سيكولوجية تجري حوادثها في العقل البشري . أما البطل البيون العملاق ، فانه يحلم طيلة القصيدة التي تبدأ حوادثها حين يحاول يورايزن ان يقبض على زمام الدكتاتورية .

ونجد ثارماس يشكو :

« ضاعت ، ضاعت ، ضاعت كل المصادر الاصيلة في نفسي ! »

وهو يعني بذلك ان من المتعذر عليه ان يعبر عن ذاته بعد الآن . (ويعني المصدر الاصيل لدى بليك شكلاً من اشكال التعبير الذاتي) . ويلاحظ خلال القصيدة ذلك الارتباك الذي يحدث نتيجة لسيطرة احدى القابليات سيطرة تامة ، ونلاحظ كذلك ، وبصورة رمزية ، كل التغيرات التي يمر بها البطل البيون — ت. ي. لورنس ، ونجنسكي ، وفان كوخ ، وايفان وميتيا وأليوشا . ونجد أن يورايزن هو النذل الاول دائماً ، لانه ليس العقل وحسب ، وانما هو الشخصية

والميزة الذاتية والشبح ، وما ان يبدأ الانسان بالتفكير حتى تتوفر لديه فكرة عن « من هو » ، فاذا كان الانسان جسداً فقط ، أو انفعالاً فقط لم يدرك ميزاته الذاتية قط ، وعليه فانه لن يكون في امكانه ان يحصل على التوازن مثل نجنسكي ولورنس وفان كوخ. ان يورايزن هو الذي يثير المشكلة . ويتحدث الانجيل عما يشبه هذا ، حين يسند أول خطأ يحدث في الكون الى الشيطان وغروره ، والشيطان هو النور والادراك ويورايزن .

الا أن اللامنتمي يعتقد بأن الحياة تهدف الى حياة أكثر ، الى شكل أعلى من أشكال الحياة ، الى شيء أكثر من مجرد السوبرمان الذي ليس غير رمز شعري له (تماماً كما عبر دانتي عن رؤياه السعيدة بالرمزية الشعرية) ، وهكذا نجد أن يورايزن هو أهم العناصر الثلاثة ، وقد كان السقوط امراً ضرورياً ، كما ان نيتشه نفسه ادرك ذلك ايضاً . على يورايزن ان يستمر وحده الآن ، وعلى العنصرين الآخرين أن يتبعاه ، وما ان يتقدم يورايزن أكثر ، حتى تحدث السقطة ، ولا يمكن الوصول الى الله بدون هذه السقطة ، فاذا ادرك الشاعر ذلك استطاع « أن يشكر رغم كل شيء » ، « لانه اذا كان الشر أمراً لا يمكن أن ينظم أو تحل مشاكله فان فكرة — الشكر رغم كل شيء — تكون حينذاك تناقضاً ذاتياً » ، الا أنه يجب ان يكون واضحاً وجديراً بالاهتمام ان نعلم ان هذا لا يشبه بأي شكل من الاشكال فكرة هيغل القائلة بأن « الله في السماء، وكل شيء حسن في العالم» ، وحتى لو كان الشر ضرورياً ، فانه يظل شراً ، وفوضى وألماً . انه يظل حقيقة خارجية ، ولا يمكن ان يكون شيئاً آخر بتغيير وضعه أو القاء شيء من الضوء عليه . ويلوح لنا ان هذا الموقف يشبه موقفاً آخر نجد فيه جيشين متعادين يقف أحدهما ضد الآخر : فأما رأي هيغل فانه يصر على ان السلام امر ممكن لانه من السهولة اثبات انه لا داعي الى التضاد ، اي انهما صديقان فعلاً ، وأما رأي بليك فانه يقول بأن العداء ضروري ، الا انه لا يمكن ان يزول اذا لم يسحق احد الجيشين الآخر . وهذا هو الرأي الوجودي الذي عبر عنه لاول مرة سورين كيركغارد ، وهو رأي اللامنتمي ايضاً ، وهو ، كنتيجة لذلك ، الرأي الديني

ايضاً ، اما الاختلاف العام بين هاتين الفكرتين، الوجودية والهيغلية، فانه متضمن في المقارنة بين عنوان كتاب هيغل « فلسفة التأريخ » وعبارة جيمس جويس « التاريخ كابوس احاول ان استيقظ منه » ، ونجد هذه العبارة في الصفحة ٣١ من يوليسيس. وقد زود بليك الرأي الوجودي بالرمزية والاسطورة .

والتوافق هو الهدف النهائي في رأي بليك ، الا انه ليس هدف الحياة الاول ، لان هذا الهدف هو الحصول على حياة اكثر وفرة بأي ثمن ، اما التوافق فيمكنه ان يحدث بعد ذلك .

يتفق بليك اذن مع نيتشه ودوستويفسكي وهيس . ان الطريق الى الامام تقود الى حياة اكثر وفرة ، الى ادراك اكثر ، اما الانتحار فلا يمكن ان يكون جواباً ، ولهذا لن يكون الانتحار العقلي جواباً ايضاً ، كما لن تكون كذلك فكرة البحث عن مستقر رمزي « حيث لا نجد وجوداً » ، أما « الجنة بعد الموت » فانها أمر لا علاقة له بالبحث او بالحياة . ان الطريق هو الى الامام ، الى حياة اكثر ، وقد قتل فان كوخ نفسه ، وجن نيتشه ، الا ان راسكولنيكوف وميتيا كارامازوف استمرا ، بعد ان ضحيا بمشاكل اللامنتمي ، وتقبلا التغلغل في التجربة القاسية ، بدلاً عن الموت ، وانهمكا في « جرائم اخرى ، ومضيا الى اعمق ما في الحياة الانسانية » ، الى النفي الذي دام عشر سنوات ، والذي كان بمثابة تطهير وتنقية لها . بل ان الحياة نفسها منفى ، الا ان طريق العودة لا يمكن ان يكون الى الخلف ، وانما الى الامام .

انه لمن المؤسف ان يضطرنا حجم الكتاب الى الاقتصار على ما بحثناه من اعمال بليك ، الا انه قد اتضح لنا من البحث السابق ان فلسفة بليك بدأت اولاً باعتبارها فلسفة لا انهائية ، مثل فلسفة فوكس ونيتشه ودوستويفسكي ، اما أهم النقاط التي اتضحت من هذا التحليل الذي قمنا به فانها الطابع الديني الذي يميز حل بليك . ان الخطيئة الاولى والخلاص واللعنة تمثل كلها الحصيلة الطبيعية لمحاولته مواجهة العالم كلامنتم .

ويمكننا ان نلخص افكار بليك بما يلي: يجب ان يكون الناس جميعاً «قادرين على

رؤية الرؤى » الا انهم ليسوا كذلك ، لانهم يعيشون حياتهم خطأ . انهم يعيشون تحت ضغط اكثر مما يجب وبشدة مفرطة « آخذين معطين » ، الا ان ضياع هذه القابلية على رؤية الرؤى ليس خطأ الانسان وحده ، انه خطأ العالم الذي يعيش فيه ، العالم الذي يفرض على البشر ان ينفقوا جانباً كبيراً من وقتهم « في الاخذ والعطاء » لكي يظلوا احياء .

ان القابلية على رؤية الرؤى تتوفر بصورة طبيعية للبشر جميعاً ، فاذا شعروا بالراحة الكافية فان كل ورقة في كل شجرة من اشجار العالم . وكل ذرة من الغبار يمكن ان تمثل عالماً منفصلاً في استطاعته ان يهب الانسان متعة لا حد لها . فاذا فشلت هذه الاشياء في ذلك فان ذلك خطأ الانسان ، لانه هو الذي يضيع وقته وفعالياته من اجل التفاهات . اما الانسان المثالي ، فهو الشاعر المتأمل ، « الحكيم » الذي لا يريد من الحياة الا ما يسد به رمقه ، والذي « لا ينظر الى الغد مطلقاً » ، ويمكن ان يتوفر هذا النوع من التفكير للذهن الشرقي اكثر منه للذهن الغربي ، وقد لاحظ البروفسور وايت هيد أنه :

« كلما ازدادت معرفتنا بالفن والأدب والفلسفة الصينية عن الحياة ، ازداد اعجابنا بالمراحل التي قطعتها تلك الحضارة ... ومع ذلك فان العلم الصيني لا يستحق الالتفات اليه ، وليس هنالك سبب يدعو الى الاعتقاد بأن الصين تستطيع ان تقدم اي نجاح في مضمار العلم فيما لو تركت وحدها . ويمكن ان يقال ذلك نفسه عن الهند .. » * .

اما سبب ذلك فواضح جداً ، لان الطريقة الشرقية في التفكير هي طريقة بليك ايضاً ، ولا يعمل هذا التفكير على الوصول الى حضارة ميكانيكية تتميز بالقنابل الذرية والادمغة الالكترونية ، ولهذا كره بليك نيوتن والثورة الصناعية . وانه ليصعب على الغربي ان يفكر في كلمة « تأمل » بدون ان يفكر في « حالم » او « لا ارضي » او « غير عملي » ، وانه ليصعب عليه ان يدرك ان معظم الحضارات

---

* الفصل الأول من « العلم والعالم الحديث » .

قامت على قاعدة التأمل وازدهرت وأثرت وقامت فيها خير النظم . ويمكن ان يعتبر بليك خير مثال على المزاج التأملي ، ولسنا نجد فيه شيئاً من تفاهة « الحالم الخامل » ، لان قيمه كلها واضحة نقية .

« يدخل الناس الى الجنة ، لا لأنهم كبتوا عواطفهم ومشاعرهم وتغلبوا عليها ، ولا لانه لم تكن لديهم عواطف ومشاعر ، وانما لانهم طوروا فهمهم وأبلغوه افضل ما في استطاعتهم ، ولا تمثل كنوز الجنة نفياً للعاطفة ، وانما هي حقائق العقل التي تصدر عنها كل العواطف ، دون ان يكتمها شيء في عظمتها الأبيدة . اما الاحمق فانه لن يدخل الجنة ، مهما كان طاهراً او مقدساً . » (٣٨)

ويمكننا ان نلاحظ اساءة فهم « التأمل » في الغرب اذا تفحصنا وجهة النظر الماركسية ، التي تقول : « لا فائدة للدين بالنسبة لي ، لانه ليس عملياً » ، وانه ليعتبر فشلاً ان يسلك عقل الانسان مسلكاً يرى فيه الدين امراً عملياً .

انحضارتنا تقترب من الماركسية شيئاًفشيئاً ، ولهذا تجدنا لامنتمين لان اللامنتمي هو الانسان الذي يفكر على الطريقة الصينية . اما ثورته ضد المقاييس الغربية فانها تأخذ شكل الاحساس بتفاهة هذه المقاييس ، الاحساس الذي يعبر عنه ت. س. اليوت في « الفارغين » وهو يسأل اسئلة عن اشياء يعتبرها غيره من الغربيين مسلماً بها ، اما سؤاله النهائي فانه يميل الى ان يكون مثل صيحة الحاج (بطل بنيان) : ما يتعين عليّ ان افعل لكي اخلص ؟ ولا يصدر هذا النداء الا عن اشد الحيرة ، لانه يرى العالم « فوضى شيطانية » ، ولا يجد نفسه متأكداً من ميزته الذاتية في هذا العالم . اما ستيفن وولف فانه يعبر عن الخطيئة بما يلي :

« كل شيء مخلوق ، حتى ابسط الاشياء ، خاطيء مقدماً ، متعدد مقدماً ، ان الطريق الى البراءة يكمن في الخطيئة ، والتعمق في الحياة الانسانية . » (٣٩)

وهذا الرأي مشابه تماماً لرأي نيومان ، الذي يعتبر من اشد المسيحيين تعصباً :

« انني انظر الى عالم الناس فأجد ما يملأني بكآبة لا يمكن ان توصف ، لانني اجد العالم متعلقاً بأكذوبة بدلاً من الحقيقية الكبرى ، التي يمتليء بها

كياني . انني انظر الى هذا العالم المائج الحي فلا أجد فيه انعكاساً للخالق ، وان مجرد التفكير في اندحار الخير وغلبة الخطيئة ، والكفر ، يمثل رؤيا تطيش بصوابي وترعبني وتملأ العقل بغموض يلوح أنه لا طاقة للانسان على حله ، وهكذا أجدني مضطراً الى القول بأنه : اذا كان هنالك رب حقاً فان البشر مقبلون على كارثة رهيبة مفزعة . » (٤٠)

لاحظ عبارة « يلوح انه لا طاقة للانسان على حله » ، ان مبدأ الانسانية ينكر ان هنالك مشاكل لا طاقة للانسان على حلها . وما دامت كلمة «الانسانية» قد وردت في بحثنا فلنتذكر قول ستيفن وولف : « الانسان اتفاق وتنازل بورجوازيان » .

يمثل المقتطف السابق من نيومان العرض الكلاسيكي لفكرة الخطيئة الاولى : « كارثة رهيبة مفزعة » ، وهكذا نجد أن طريقة نيومان في النظر الى العالم متشائمة جداً ، وهي طريقة دوستويفسكي وبليك وكافكا أيضاً ، ويمكننا ان نجد رؤيا مماثلة لها لدى القاص الحديث غراهام غرين ، (رغم ان العناصر المتعمدة التي يدخلها في قصصه نزولاً عند اذواق الجمهور يجب ان تبعده من أي بحث جدي) . ان تلك الطريقة هي طريقة اللامنتمي الغربي .

الا ان تشاؤم بليك ودوستويفسكي لا يتعدى نقطة معينة ، ثم نرى قبساً من النور يأتي من اتجاه أهملناه ، ذلك هو اتجاه العبقرية الشعرية ، اي القابلية على قول الـ « نعم » :

« ايثنثوس ، ملكة المياه ، اي اشعاع لك في السماء
أختاه ، ما اشد غبطتي ، لأن اطفالك منتشرون
كالأسماك المرحة ، تتراقص على الموجة ، حين يشرب القمر الندى . » (٤١)

انها القابلية التي يمكنها ان ترى « عالماً كاملاً في الذرة من الرمل » ، او في ورقة (ورقة وحسب) في اطرافها شيء من السمرة . وذلك هو ما كان ينقص نيومان وكافكا وغرين .

ويمكننا ان نرى ، من هذا التعريف الاول لفكرة الخطيئة الاولى ، الخطوط

الاولى لمعنى « الخلاص » و « اللعنة » ، واللعنة هي الانضمام « بلا أمل » الى « الفوضى الشيطانية » ، والتشبه بها ، ومقاساة سياطها بلا أمل أيضاً . وتبرر هذه الكلمة من وجهة نظر اللامنتمي اليأس التام . وقد قال ييتس « لن نبدأ بالحياة ما لم ندرك ان الحياة مأساة » واعترف نيومان بأنه يعتبر البشر ملعونين دون أن يكون لهم أمل في الخلاص ، رغم أنه أنفق حياته « محاولاً أن يخفف من هول هذه الحقيقة على العقل الانساني » . وكان في استطاعة غوتيه أن يشبه حياته « بصخرة تتدحرج باستمرار ، في حين يتعين عليه أن يستمر على محاولة رفعها الى الأبد . » وأخبر مارتن لوثر المرأة التي دعت له بالعمر الطويل قائلاً : « سيدتي ، انني على استعداد للتنازل عن نصيبي في الجنة اذا استطعت أن أتجنب البقاء على قيد الحياة أربعين عاماً اخرى . » كلا ، ان اللامنتمي لا يفهم العيش امراً سهلاً ، وانما يفهمه درباً طويلاً حافلاً بالمشاق ، اذا كان على افضله ، اما اذا كان على اسوئه فانه (وهذه عبارة من اليوت) رداء من اللهب لا يحتمل ارتداءه انسان .

كانت تلك الرؤيا نفسها التي جعلت اكسيل يقول : « اما قضاء هذه الحياة ، فسيفعل ذلك خدمنا لنا . » وقد كان اكسيل متصوفاً ، كان لديه على الاقل ما نجده لدى المتصوفة . لان المتصوف هو الذي يقول : « ارفض ان اعيش » ، الا انه لا يقصد بذلك انه يريد ان يموت . وهنالك طريقة اخرى تتضمن نوعاً من الموت :

« ان يموت الانسان من اجل ان يحيا » ، وكان متوقعاً من اكسيل ان يحبس نفسه في قلعته على ضفاف الراين ، ويطالع كتبه الفلسفية الصوفية ، لانه رأى العالم والبشر كما رآهما نيومان ، بل كما رآهما اليوت ايضاً في « نورتن المحترقة » .

« .... وجوه متوترة ، يصفدها الزمن
محولة عن التحول بالتحول
مملوءة بالاوهام ، والمعاني الفارغة
يتضخم فيها ورم اللا اهتمام ، واللا تركيز

الرياح الباردة تعصف بالبشر والاوراق الممزقة
تلك الرياح التي تهب قبل الزمان وبعده ... » (٤٢)

الا انه لم يشأ ان يعتبر نفسه ملعوناً بلا امل لمجرد ان بقية العالم تلوح هكذا ، وانما انطلق باحثاً عن خلاصه ، ومع انه فعل ذلك وهو منحرف عنه برومانسيته التي كانت تميل الى القلاع القوطية الطراز والفتيات ذوات الشعور الذهبية ، الا انه ظل سائراً في الاتجاه الصحيح .

ترى ما هي الوسائل التي يمكن ان يتوصل اليها البحث عن التعبير الذاتي ؟ هنالك لحظات الرؤى المدركة ، لحظات الشعور بالتوافق . ويسجل ييتس واحدة من هذه اللحظات في قصيدته « التردد » :

« حل عامي الخمسون ومضى
وجلست رجلاً وحيداً
في محل مزدحم من محلات لندن
في يدي كتاب مفتوح ، وامامي قدح فارغ
يستقر على المنضدة الرخامية

* * *

وبينما كنت احملق في المحل ، والشارع
شعرت بجسدي يلتهب
ولاح لي في مدى عشرين دقيقة أو أقل
ان سعادتي كانت من العظمة والروعة
بحيث انني شعرت بأنني صرت مباركاً ، وانه في امكاني أن ابارك * .. » (٤٣)

---

* قارن هذا بوصف ادغار ألن بو لشعور أولئك الذين يمرون بدور النقاهة في قصته « رجل الزحام » ، إذ يقول : « .... ووجدت نفسي ، حين عادت إلي قواي ، في حالة من تلك الحالات السعيدة التي تختلف اختلافاً شديداً عن حالة الضجر ، في لحظات شعرت فيها بأشد اللذة ، حين يغادر

انها لتجربة هامة ، وانها للحظة من لحظات الـ « نعم » ، والوفاق مع « الفوضى الشيطانية » لانها تتيح للامنتمي فكرة عن الحالة العقلية التي يميل اليها انسان الرؤى ، ويسعى الى تحقيقها بصورة مستمرة * .

يتضح اذن ان كلمة « انسان الرؤى » لا تعني هنا « من يرى رؤى » ، مثل القديس يوحنا ، الذي كتب « الرؤيا » ، وانما تعني فقط ذلك الذي يرى العالم ايجابياً . وقد يعترض معترض فيقول ان السكير ينصاع لهذا ايضاً ، وهذا صحيح في الواقع . ويذكر القارىء انني اقتطفت شيئاً من حديث وليم جيمس عن السكر ، الذي قال فيه ان الخمر تثير القابليات الغامضة في البشر . بل ان في تلك المقتطفات ما يشير أيضاً الى ان الانسان المعافى يشعر بذلك الغموض مباشرة بعد وجبة شهية من الطعام ، الا اننا يجب ان نكون حذرين بهذا الصدد ، فان الملاحظة الخاصة بالحالة الاعتيادية ، حالة المولد الواحد ، وسلوك الانسان الخير بطبيعته ، العادي المألوف ، الذي يرى الحياة من وراء منظار وردي ، تقول هذه الملاحظة ان ذلك شيء لا يمكن اخضاعه لسيطرة ما ، فاذا اختفى ذلك ، نتيجة لمرض أو لسوء حظ ، فان ذلك الاختفاء معقول ، ما لم يعد من ذاته .

ولا يستطيع اللامنتمي ان يعتبر مثل هذا التأكيد شيئاً ذا معنى ، أو صحيحاً ، لانه أمر بعيد عن سيطرته . انه يريد ان يقول : « أقبل » ، لا لأن حظه سيكون ممتازاً بالصدفة ، وانما لانه « يريد » ان يقبل ذلك . انه يعتقد بأن القابلية على قول « نعم » يمكن ان تؤلف رؤياه بصورة دائمة . وهنالك ما يوحي بذلك في

شريط الرؤى الذهن ... أما هذا الذهن المكهرب فانه يسبق حالته الاعتيادية ... ويصبح حتى التنفس متعة عظيمة ... »

وجدير بنا أن نلاحظ أن بطل بو يقول هذا وهو جالس في محل عام من محلات لندن أيضاً ، وهو يرقب الزحام .

* يذكرني هذا بقصيدة « البحار القديم » لكوليردج التي يصف فيها ضياع خاطيء ثم توبته وراحته . (المترجم)

لوحة فان كوخ « حقل اخضر من الحنطة » ولوحته الاخرى « طريق السرو عند الغسق » وكذلك في الحركة الاخيرة من سوناتا بتهوفن « هامر كلافير » ، وفي كل صفحات « هكذا تكلم زرادشت » ولوحات معينة لكوكان . ان اللامنتمي يعتقد انه يستطيع ان يحقق لنفسه مثل هذه الطريقة في رؤية أعماقه بصورة دائمة ، ولكن كيف ؟

انه يستطيع ان يفعل ذلك كلما كان في مقدوره أن يعرف نفسه أكثر . ويتوفر له ذلك باتباع نظام يتغلب بواسطته على ضعفه وانقسامه ، ويهدف منه الى التوافق والتوحيد . تلك هي الاجوبة التي نستخلصها من هذا التحليل . انك لا تجد في أذهان البشر غير هذه الحاجات الجسدية المباشرة ، فاذا وضعتهم في جزيرة صحراوية مقفرة ، ولم يكن لديهم ما يشغــل أذهانهم ، فانهم سيجنون ، لانهم لا يملكون دافعاً حقيقياً . ان اللعنة المنصبة على حضارتنا هي الضجر ، وقد لاحظ كيركغارد ذلك أيضاً :

« كان الآلهة ضجرين ، ولهذا خلقوا الانسان . وكان آدم ضجراً لانه كان وحيداً ولهذا خلقت حواء ... وكان آدم ضجراً وحده ، اما الآن فقد ضجر هو وحواء ، ثم شعر آدم بالضجر هو وحواء وقابيل وهابيل ، وازداد سكان العالم ، فصار الناس يضجرون ضجراً اجتماعياً . وشعروا بأن عليهم ان يمتعوا أنفسهم فبنوا برجاً عالياً ليصلوا بواسطته الى السماء ، وكانت هذه الفكرة ذاتها تزداد اثارة لضجرهم كلما ازداد البرج ارتفاعاً ، حتى أرعبهم ان يروا أن الضجر صار صاحب اليد الطولى في العالم » (٤٤)

أجل ، هذا التفكير نافذ ، الا انه ليس الا تكراراً لقول هيس بأن في اعماق كل انسان شعوراً بالضجر ، واللاانجاز ، والاحساس بأن البشر جميعاً في مستوى واحد :

انهم لا يعرفون انفسهم وهم يعيشون في سجن ، فيا ترى كيف يستطيع فرد ان يهرب من المصير العام الذي يحكم على الجميع بالتفاهة ؟

كان حل بليك : « اذهب وطوّر قابليتك على رؤية الرؤى حتى تصل بها الى

أفضل ما يمكن أن تكون عليه ، وهذا معقول ، ولكن كيف ؟

لا يمكنني أن اجيب عن هذا السؤال بشيء مستخلص من المقتطفات السابقة التي بحثناها حتى الآن ، كما فعلت في الفصول الماضية ، بالاضافة الى ان ساحة هذا الكفاح واسعة جداً ، على انني سأحاول أن أقصر الأمر في الفصل القادم على اسئلة نموذجية معدودة .

الفصل التاسع

تحطيم الحلقة المفرغة

تقف سارة والكونت الشاب آكسيل في قبو القلعة ، يحتضن أحدهما الآخر ، وكانت سارة قد أطلقت على آكسيل رصاصتين من بعد خمس ياردات ، الا أنها أخطأته في المرتين . وتغني سارة أغنية عن العالم الذي يمتلكانه الآن بأيديهما : أسواق بغداد ، وثلوج التيبت ، وخلجان النرويج « والاحلام التي قد نحققها » ، الا أن آكسيل العابس يسألها :

« لماذا نحققها ؟ ألكي نعيش ؟ كلا. ان وجودنا كامل . أللمستقبل ؟ صدقيني يا سارة اذا قلت : اننا استنفدنا المستقبل . ماذا ستكون كل الحقائق غداً بمقارنتها بالسراب الذي عشناه حتى الآن ؟ ان ميزة رجائنا لا تفسح لنا مجالا للبقاء في الارض أكثر مما بقينا ، وما الذي يمكننا ان نطلبه من هذا الكوكب الشقي الذي تتسكع فيه سوداويتنا وكآبتنا ، عدا الافكار الشاحبة التي قد تساورنا عن هذه اللحظة ؟... الا ترين – ان الارض نفسها صارت وهماً ؟ فأقري يا سارة بأننا دمرنا حب الحياة في قلوبنا الغريبة .. أما أن نرضى بالحياة بعد هذا فان ذلك يعتبر خرقاً لحرمة نفسينا. أنعيش ؟ ان خدمنا سيفعلون ذلك لنا ... آه ، العالم الخارجي ! لا تدعي ذلك العبد العتيد يخدعنا بالاوهام .. ذلك الذي يعدنا بمفاتيح قصر

سحري ، في حين تنطبق قبضته التي يخفيها وراءه على حفنة من التراب ! » (١)

وتقتنع سارة فيشربان قدح السم ويموتان في نشوة ذاهلة . وليس هنالك شك فيما نتوقعه من نيتشه كتعليق على هذا المشهد الاخير : فان آكسيل مثل الكاتب الذي خلقه يمثل نموذجاً متطرفاً للانسان الحالم بالعالم الآخر ، ان هؤلاء الحالمين بالعالم الآخر « هم سموم ، سواء علموا بذلك أم لم يعلموا . »

ولكن ، هل هذا عدل ؟ لقد بدأ نيتشه نفسه كحالم بالعالم الآخر ، واتفق مع شوبنهاور على ان الحياة « أمر محزن » ، وأن أفضل طريقة لقضائها هي بالتأمل فيها . وقد بدأنا دراسة اللامنتمي بانسان يقضي أمسياته محملقاً في ثقب الجدار ، « متأملاً » في ما يراه . اما فان كوخ فقد تقاعد من الحياة حين كان يقضي أيامه في الرسم في البيت الاصفر الكائن في آرل ، في حين ذهب كوكان الى البحار الجنوبية مقتفياً أثر الحلم نفسه « الترف واللذة والدعة » . بل ان زرادشت أيضاً نصح أولئك الذين يعيشون فوق مستوى أنفسهم ويسبقونها بأن « يلجأوا الى الوحدة » ، وينجوا من لسعات « ذباب السوق » ، « أي من البشر الآخرين . »

كلا، ان آكسيل على صواب، رغم ان انتحاره كان طريقة كئيبة للخروج من المشكلة ، « وما الذي يمكننا ان نطلبه من هذا الكوكب الشقي .. ؟ » الا أن سارة كانت قد تحدثت عن « طرق السويد الشاحبة » ، وعن خلجان النرويج . ان انساناً يرى الرؤى مثل فان كوخ ليجد كثيراً من الآمال في مثل هذا العالم . أما آكسيل ، فانه انما يلعن عالم البشر ، أي الناس الآخرين ، الذين يمثلون أساس المشكلة بالنسبة اليه .

ولا يسعنا أن نقر بهذا قبل أن نلجأ الى انسان رؤى آخر هو توماس تراهيرن، فان تراهيرن هذا يصف الطفولة بذلك الوصف الشهير ، في « عصور من التأمل » حين :

« لاح كل شيء جديداً وغريباً لاول مرة ، نادراً ومغبطاً وجميلاً بكيفية لا توصف .. ولاح لي أنني كنت مدعواً الى حفل تعرض فيه أعمال الله بكامل عظمتها وفخامتها ، وقد رأيت ذلك كله وسط سلام يشبه سلام جنة عدن ...

كانت الذرة شرقية ، وكانت الحنطة خالدة ، ولم تكن لتحصد ، وما كانت مبذورة قط ! اما غبار الشوارع وأحجارها فقد كانت من الذهب الخالص ... « وكان » الشبان ملائكة براقة متألقة ، وكانت الفتيات قطعاً غريبة طيفية من الحياة والجمال ... » (٢)

ويسأل تراهرن : لماذا تكف مدلولات الخلود هذه عن الظهور ؟ ويجيب :

« لقد كسفت نورها ... تقاليد الناس وتصرفاتهم . ان القذى ، والجذام الاصفر ، لم يدعا الناس يروا تلك الاشياء كما كانت من قبل ، ولهذا ترانا غرباء عن افكار وتقاليد وآراء الناس في هذا العالم ... لقد جعلوا قيماً لأشياء لم أكن لاحلم بها ، وكنت ضعيفاً فسهل اقتيادي في أثرهم . » (٣)

« وهو يختم ذلك بعبارات تشبه هرطقة بيلاجيوس * :

« ان عبوديتنا ناجمة من العادات والآراء الخارجية عشر مرات أكثر من كونها ناجمة من فساد أو نقص في الطبيعة ، كما ان الاسر والعمى اللذين يقيدانا لم يكونا لأن اجساد آبائنا وأمهاتنا فرضتها علينا ، وانما فرضتها علينا حياة آبائنا وأمهاتنا ! »

هذا هو سلوك بليك أيضاً ، سواء أكان ذلك مشابهاً لسلوك بيلاجيوس أم لم يكن ، وهو في الوقت نفسه سلوك الصوفيين جميعاً . ويمكننا ان نرى فيه اقتراب صوفية تراهرن المسيحية من السلوك الرومانسي . قارن ابيات ييتس بذلك :

« تلوح الاشياء كلها قبيحة محطمة ، قديمة بالية
صراخ طفل على جانب الطريق ، وزقيق مركبة عتيقة
وخطوات الفلاح الثقيلة ، الغائصة في وحل الشتاء
أشياء تزيف الصورة التي تتوهمها عن زهرة تتفتح في قلبك . » (٤)

---

* بيلاجيوس : (الكافر الكبير) أنكر فكرة الخطيئة الأولى (كما رواها القديس أوغسطين) وكتب : « كل خير وكل شر هو من أعمالنا ، ولم يولدا معنا ، لأننا نولد بلا فضائل أو شرور ، أما قبل أن تبدأ فعالية ارادتنا الخاصة فليس هنالك شيء فينا ، ما عدا ما وضعه الله . »

يريد ييتس أن يقول ان قبح العالم ، أو قبح بعض مظاهره ، هو الذي يدمر « مدلولات الخلود » .

« ان الضرر الذي ينجم من هـذه الاشياء القبيحة شديد الى درجة لا تتيح لي أن أتحدث عنه . »

وهذا ما اراد آكسيل ان يقوله أيضاً ، الا أن فكرتي تراهيرن وبليك تختلفان عن ذلك ، فانهما يعتقدان بأن الناس الآخرين هم اساس المشكلة ويخبرنا تراهيرن في مكان آخر باللحظة التي يصل فيها الى قراره العظيم :

« ولما جئت الى الريف ، وجلست بين الاشجار الساكنة والتلال والمراعي ، وكان وقتي كله ملك يدي ، قررت أن أنفق أوقاتي كلها ، مهما كلفني الأمر ، بحثاً عن السعادة ، علّني أروي هذا الظمأ اللاهب الذي أشعلته الطبيعة في ذاتي منذ شبابي ، وقد كنت مصراً على هذا القرار الى درجة انني عشت على عشرة باونات في السنة وارتديت الجلود وأكلت الخبز المبلول بالماء ، وكل ذلك لانني أردت أن يكون وقتي كله ملكي وحدي .. » (٥)

هذا قرار لا انتمائي ، ولم يلح هذا القرار شاذاً حين وجدناه في (سيذارثا) لهيس ، لأن ذلك حدث في الهند ، أما أن يحمل هذا القرار أوروبياً على التجوال والبحث في الريف الاوروبي ، مرتدياً الجلود ، مثل جورج فوكس (الذي كان معاصراً لتراهيرن تقريباً) فان ذلك يلوح لعقليتنا الغربية أمراً غريباً عجيباً ، وقد يحملنا على الشك في صحة عقل كل من نعرف عنه أنه يفعل ذلك . الا انه مع ذلك قرار معقول صريح ، ولا يتطلب الأمر من الانسان الا شيئاً من الفهم المتواضع ليقول « ان الحضارة أمر يعتمد على السطحيات وحسب ولست اميل الى السطحيات ، كما انني أميل أشد الميل الى الحرية والبطالة . » ولست أريد بهذا ان أقـول للامنتمين جميعاً ان هذا القرار يعتبر حلاً صحيحاً لمشاكلهم ، بل ان الاعتراض العملي الذي ينهض ضده هو ان حياة التجوال لا تسمح بالبطالة والتأمل ، بل انها تفشل في تطمين حاجة اللامنتمي الى اتجاه ، أو عمل اكيد واضح .

الا ان عمل «الارادة» مهم جداً ، أما النتيجة ، أي ما اذا كان ذلك نجاحاً أم خيبة ، فهي ثانوية . وقد نعود ثانية الى ييتس ، الذي يعتبر مثالاً أقل أهمية من البحث الذي بأيدينا الآن ، الا انه من المستحسن ان نغفله ولا نقتطف منه شيئاً بهذا الصدد . اننا نجد في مقدمة «رؤيا» شاباً يدعى دانيال أوليري يخبرنا كيف أنه شعر حين كان في المسرح ذات ليلة ، برغبة قوية في الهتاف والتعبير عن رأيه في الطريقة التافهة التي كان الممثلون يقدمون بها «روميو وجولييت» :

«وفاجأني هذا الخاطر ، ترى ما الذي سيحدث اذا خلعت فردتي حذائي والقيت واحدة على السيد ..... والاخرى على الآنسة ..... ؟ أيمكنني أن أهب حياتي المقبلة مثل هذا الهدف المحدد ، بحيث أنني أدع هذا يحدث ، لا في عالم الوهم ، وانما بين أشكال من التركيز والشدة ؟

وقلت بصوت خفيض ،

ـ لست تملك الشجاعة !

الا انني اجبت .

ـ بل املكها ، ثم بدأت بخلع حذائي ... » (٦)

ان عبارة «ايمكنني ان اهب مستقبلي .... » مهمة جداً ، فانها وصف دقيق للعمل المحدد الواضح ، لانه اذا وهب الانسان حياته المقبلة مثل هذا الهدف المحدد فان ذلك يعني شكلاً من اشكال التركيز . وانني لأقر بأن عبارة «اشكال التركيز» غامضة ، الا ان القارىء لن يشك فيما يريد ييتس ان يقوله . عندما قتل راسكولنيكوف المرأة ، ارتكب مثل هذا العمل ، الذي كان سيهب حياته المقبلة هدفاً محدداً ، او على الاقل ، كان ذلك امله . وعندما افترس ستافروجين فتاة في العاشرة من عمرها ، وسرق ورقة نقدية من كاتب المصرف ، فانه لم يفلح في ارتكاب «شكل من اشكال التركيز» ، لانه ، ولسوء حظه ، لم يكن حقير النفس بما يكفي ليحمله على انتهاك الاعراض او السرقة ، اما محاولته لارتكاب عمل يحمل معنى مختلفاً عن الانفعال الذي وضعه فيه ، فقد كانت فاشلة ،

كانت فكرة بليك « ان الروح الحقيقية التي تتمتع بالغبطة العذبة لا يمكن ان تشوه قط » قد وقفت ضده ، وكان على ستافروجين ان يتعلم ان الاعمال ليست شريرة بذاتها وانما يضع الانسان الشر فيها بالدافع الذي من اجله يرتكبها . اما مقياس الدافع النهائي لدى بليك فانه « ان الحياة والنشاط لن ينتهيا » ، اما الشر فانه لا يمكن ان يوجد الى جانب الكفاح « من اجل الحياة بوفرة اكثر » والذي يعتبر هدف الدين النهائي * في حين نجد ان ستافروجين كان بلا دافع .

اننا لا نعرف الكثير عن حياة تراهيرن مع الأسف ، لنعرف ماذا حدث حين قرر ان يعيش على الخبز والماء ويلبس الجلود . اننا نعلم في حالة فوكس انه لم يمثل النجاح الكامل بالنسبة لمقاييس اللامنتمي على النجاح . اما تراهيرن فقد صار قساً لعائلة ريفية واستطاع ان يعيش حياة تأملية ، ثم مات وهو في الثامنة والثلاثين . فاذا اردنا ان نحكم عليه حسب « عصور من التأمل » فيمكننا ان نقول انه نجح في التوفيق بين العالم وبين رؤاه حتى استطاع ان يرى العالم كما رآه فان كوخ في « طريق السرو عند الغسق » ولا يمكن ان يتم هذا التوفيق الا بالوحدة ، وقد فهم نيتشه ان المجتمع ليس غير قاعة من المرايا التي تعكس الصور مشوهة .

قد يعود علينا بالنفع أن نلجأ الى حياة المتصوف الهندوسي الكبير راماكريشنا ونقارن بينه وبين الصوفيين الغربيين الذين بحثناهم . والمحيط هنا مختلف ، فللهند تقاليدها المعروفة في التأمل « والتفوق على النفس » ، (رغم ان الافكار الغربية كانت طاغية على تقليد التأمل هذا ، في الوقت الذي ولد فيه راماكريشنا ، اي في عام ١٨٣٦) ، ويمكننا ان نرى هنا ماذا يحدث حين يجد اللامنتمي نفسه وسط تقاليد تعتبر التأمل شيئاً مألوفاً .

(سأقتطف في الصفحات التالية بعض المقتطفات من كتاب—حياة راماكريشنا الذي لم يذكر اسم مؤلفه ، والذي نشرته « الادفايتا آشرا ما » في مدراس . وهو

* يحتمل هذا الرأي المناقشة طبعاً ، وسأعود اليه عند الحديث عن ت. ي. هولمه .

كتاب متزن يحتوي على اشياء كثيرة هامة في اقسامه الاخيرة .)

ولد شري راماكريشنا لابوين بهرامين في قرية صغيرة من قرى الهند تقع في البنغال . ولاح منذ شبابه أنه كان يرى العالم كما رآه تراهيرن ، وكان اذا قام بتمثيل بعض الادوار في الاحتفالات الدينية ، يغرق في غيبوبة من النشوة ، حتى ان المتفرجين كانوا يشعرون بأنه كان « الطفل كريشنا » نفسه الذي كان يقوم بتمثيله . وكان في طفولته خيالياً يميل الى القصص الدينية والاساطير ، وكان يقرأها للفلاحين بصوت عال « ولم يتح له ان يقرأ من الأدب الخيالي غير هذه القصص طبعاً » ، ولاح لابويه أنه كان يتقمص اشخاص تلك القصص فظنا أن ذلك كان علامة على هستيريته او انحلاله العصبي .

وحدثت لراماكريشنا تجربة هامة في حين لم يكن قد تعدى السابعة من العمر بعد ، واليك ما يقوله هو عن ذلك :

« كنت أسير في يوم من الايام ، في حزيران او تموز ، في ممر ضيق يفصل بين الحقول ، وكنت آكل شيئاً من الرز حملته في السلة ، وبينما كنت على هذه الحال نظرت الى السماء فرأيت سحابة مدلهمة ، وبينما كانت تلك السحابة تملأ جوانب السماء كلها ، كانت هنالك أسراب من الطيور البيضاء تطير في مقدمتها ، وقد ألف ذلك كله منظراً بديعاً متناقضاً جعلني أنطلق بخيالي الى آفاق بعيدة جداً ، وفقدت احساسي بالاشياء المباشرة فسقطت على الارض ، وانتشرت حبات الرز حولي ، ثم وجدني بعض الناس وحملوني الى البيت .. » (٧)

يتضح ان لهذه التجربة علاقة وثيقة بتشتي نيتشه ، وقد جرب نيتشه ذلك وهو اكبر سناً ، وكان موجوداً ضمن حضارة مبنية على النقد الذاتي بصورة لم تكن لتتيح للانسان مثل هذا التطرف في الانفعال. ومع ذلك فان نيتشه وراماكريشنا عرفا نوعاً من التوافق ، وحصلا على قابلية في النظر الى العالم جعلت الحياة بالنسبة اليهما « شكلاً مستمراً من اشكال التركيز » . وهنا يجدر بنا ان نتذكر كيف كان نيتشه يتمشى حول بحيرة سلفابلانا هاتفاً « دموع الغبطة » و « رأيت افكاراً تشرق في افقي ، افكاراً لم اعرف مثيلاً لها من قبل »، و « ينتشر السكون والسلام

على الجبال والغابات » و « اعلى من البشر والزمان بستة آلاف قدم » .

الا ان هنالك اختلافاً كبيراً . فقد عاش راماكريشنا في قرية صغيرة ، وكان ابوه برهمياً ، وقد كان محمياً من العنف والاشياء المؤذية ، بل كانت حياته سائرة على وتيرة غنائية « وكان باستطاعته ان يشعر بحالة الذهول متى اراد ، كما تخبرنا بذلك الاغاني الشعبية التي تغني عن حياته » . كان راماكريشنا يشبه وتراً رقيقاً باستطاعته ان يتذبذب بالانغام لأي اهتزاز مهما تفه ، وامام اي جمال او توافق في محيطه . وقد نكون معذورين اذا سألنا : اتراه سيحظى بذلك التوافق لو انه عاش في « بترسبرك » التي عاش فيها راسكولنيكوف ، او في المحيط الذي يصوره غراهام غرين في « صخرة برايتون » ؟

كان راماكريشنا على ما اعتقد محظوظاً اذ اتيح له ان يعيش حياته وسط ذلك المحيط الهادي، الا ان ذلك لا يؤلف جواباً كاملاً. فقد رأى نيتشه رؤياه عن «الحماس والحياة » وهو في طريقه الى سترسبرك ، بعد ان قضى اياماً طويلة وسط وحشية سوح المعارك وجثثها . الا اننا يجب علينا ان نعود الى هذه النقطة فيما بعد . لقد كان مزاج راماكريشنا الروحي او كما يجب ان نقول حساسيته التخيلية مستمرة على التطور خلال شبابه ، وقد اصبح أخوه الاكبر كاهناً في معبد « كالي » في داكشينيسوار ، وهو مكان مخصص للعبادة بنته امرأة غنية من سدرا وقامت على شؤونه . ولحق راماكريشنا بأخيه في المعبد في الوقت المناسب .

وبدأ راماكريشنا يفكر بالله بتفكيره في التوافق ، الذي كان طبيعياً ، ما دام عقله سائراً منذ البداية على نهج اسطورة حياة كريشنا على هذه الأرض ، وما دامت تجاربه الصوفية ، كتلك التي رآها في الحقل ، قد وهبته ادراكاً لحالة كاملة من حالات الهدوء الداخلي . لقد قال تراهيرن انه كان يفتش عن السعادة ، الا ان راماكريشنا قال انه كان يفتش عن الله ، في حين انهما عنيا شيئاً واحداً ، اما بليك فقد دعا ذلك « الرؤيا » . وقد أدرك راماكريشنا ، كما فعل تراهيرن ، أن الهدوء يتأتى في لحظات التأمل بتوجيه التفكير نحو فكرة التوافق ، وعليه فقد بدأ ينفرد بنفسه في أماكن لم يكن يضايقه فيها أحد ،

وكان يفضل الأماكن التي يظن الناس أنها مسكونة أو مسحورة ، وكان يجلس متربعاً ويحاول ان يجعل انفعالاته وعقله متعاونين لتحقيق أكمل ما يمكن من الانفصال عن العالم ، وبعبارة أخرى فانه كان يحاول أن يحقق الحالة التي استطاع نيتشه ان يحققهـا عندما كان يستمع الى « تريستان وايسولت » ، أو عندما كان يقرأ « الانفصال » لشوبنهاور .

والآن يمكننا أن نقول ان كل من جرب ذلك يعلم ماذا يحدث بعده مباشرة ، فاذا لم يستطع الخيال أن يحتفظ بتلك الفكرة السامية منظورة دائمة ، فان الانظار ستميل الى التشبث بالارض ، كالطير الذي لا يستطيع أن يطير . انك لتجلس محاولاً أن تجعل ذهنك يحلق الى السماء ، وتمر ساعات واذا بك ترى ان الاشجار والارض صارت أكثر حقيقية من قبل ، وان فكرة « المناطق السماوية » تلوح هراء ! ان الاشياء حقيقية أكثر مما يجب . وهنا نعود الى غثيان روكانتان ثانية . ان هذه الطبيعة الميتة التي تميز الاشياء فتجعلها تلوح صامدة لا تسمح للعين بالنفوذ اليها ، هي كل ما يقلق أولئك الذين ينشدون الوحدة ، أما الاختلاط بالناس الآخرين فانه يثير على الأقل روح التنافس ، ويحمل الانسان على جعل نفسه أفضل في معرض المقارنة بالغير . أكان ستيفن ديدالوس ، بطل جويس ، يفخر مثل فخره بكونه فناناً ، اذا لم يكن في استطاعته أن يقول لنفسه « ان اصواتهم الحمقاء جعلته يشعر بأنه كان مختلفاً عن غيره من الاطفال ؟ » هذا ما يعنيه راماكريشنا حين يخبرنا عن الوحدة الملهمة :

« سيأتي يوم لا ترى فيه اشياءك السامية قط ، وستخاف من غبطتك وتراها كالشبح المرعب . حينذاك ستهتف : كل شيء زائف ! »

لقد اخبرنا راماكريشنا كيف انه مر بمثل هذه المرحلة ، وكيف صلى للام المقدسة (كالي) : « هل أنت حقيقية أم أنك وهم ؟ ترى هل أخدع نفسي اذا ظننت أنني أستطيع أن أعرفك ؟ »

وبدأ يشعر بأن كل عباداته وتأملاته لم تتح له لحظة من لحظات رؤى « الارادة الحرة » .

« قاسيت أشد الألم لانني لم أحصل على بركة رؤياي للأم . شعرت وكأن شيئاً يعتصر قلبي كالمنديل المبلل ، واستولى عليّ قلق شديد ، وخشيت أن لا يكون في استطاعتي أن أراه في هذا العالم ، ولم أعد احتمل الانفصال أكثر مما احتملته ، ولاح لي أن الحياة لا تستحق أن يعيش فيها الانسان ، ثم وقع بصري على السيف المعلق في معبد الام ، فقفزت اليه وقبضت عليه مصمماً أن أضع لحياتي حداً ، وفجأة كشفت الام المباركة عن نفسها لي .. واختفت الابنية والمعبد ، ولم يعد لها وجود ، ولاح بدلاً عنها بحر واسع لا نهاية له ولا حد ، بحر وضاء من الادراك الروحي ، كانت أمواجه تنهال عليّ من كل جانب ، الى أبعد ما كان باستطاعة عيني أن ترى ... أمواج تريد ان تبتلعني ، ووجدت نفسي ألهث ، ثم احتوتني الامواج فسقطت فاقد الشعور . » (٨)

ان ما حدث واضح كل الوضوح ، فقد اتعبه التأمل الطويل حتى انه لم يعد يرى هدفه ، اما محاولة الانتحار فقد كانت خطراً مفاجئاً هدد قواه الحيوية فايقظت كل نشاطاته الحياتية . وكانت رؤياه مثل رؤيا نيتشه على قمة التل . ونرى هنا كيف ان اللامنتمي يعرف نفسه فجأة ، وانها رؤيا أليوشا ايضاً عن حب الارض وحب الحياة ، او ، كذلك الكافر في رؤيا ايفان ، الذي كان مضطراً الى سير تلك الاميال الطويلة ، والذي أعلن أن لحظات قليلة في الجنة تساوي أضعاف شقاء ذلك المسير . وانها يقظة شو أنج تزو العظيمة ايضاً ، وأبواب الاعماق التي انفتحت امام سويدنبرغ وبوهمه وبليك . وهي تمثل التهاب الحواس جميعاً ، ولذلك فانها على النقيض من غثيان روكانتان تماماً .

لقد اخبرنا بليك بأن هذه الرؤيا ممكنة للجميع (اذا كانت ابواب الادراك نقية نظيفة) وعليه فاننا نستطيع في مثل هذه الظروف ان نقتنع بأن الرؤيا شيء موضوعي تماماً ، كالجلوس في السينما مثلاً ، ومراقبة ما يحدث على الشاشة أمام أعيننا . كلا ان ما حدث لراماكريشنا هو ان خطر الموت أيقظ الارادة النائمة ، وقامت هذه الارادة بعمل الباقي . وانه لامر مهم جداً ان نفهم هذا ، لان ادراك هذا يمثل الخلاص النهائي بالنسبة للامنتمي . اننا حين نقرأ عن الأنبياء

أو القديسين الذين يرون الرؤى ، نميل الى الظن بأن الرؤى لاحت لهم ، في حين أنه يكون من الأوفق لو قلنا انهم هم الذين لاحوا للرؤى . ان الشكية الحديثة محقة في الشك في امكانية وجود مثل هذه الرؤى باعتبارها شيئاً ممكن الحدوث ، الا ان هذه الرؤى ليست كذلك . انها ليست غير أمثلة على قابلية الارادة على جعل الاشياء تحدث . اما التفكير الغربي فانه يميل الى اخضاع الارادة للوجود المحدد الواضح .

من الضروري ان نعتبر هذا واضحاً قبل ان ننتقل الى بحث حياة راماكريشنا، وانها لحقيقة يصعب على الذهن فهمها ، لان اذهاننا تدرك هذا ، الا انها لا تدرك أنها تدركه بصورة مقاربة .

أدخل أية مكتبة في لندن ، وانظر في قسم الفلسفة حتى تجد كتاباً يحمل عنواناً مثل « ما هو الانسان ؟ » او « هل تستحق الحياة العيش ؟ » واقرأ نصف صفحة منه وسترى ما أعنيه بقولي «اخضاع الارادة للوجود الواضح المحدود » ، فكأن المؤلف يقول : « حسناً ، انني جالس على الكرسي ، انظر الى شاشة الحياة، فماذا تعني ؟ » وهو ينظر خارجاً ويقبل ما يراه، الا انه لا يسأل : ما هي العناصر الموجودة في نفسه والتي تجعله يرى العالم كما يراه . وبالاضافة الى ذلك فانه حتى لو ادار عينيه الى اعماقه وسأل نفسه على طريقة فرويد او كنط : « الى اي حد تؤثر حواسي في الاشياء التي اراها فانه سينطلق فاحصاً هذه الحواس وكأنها موجودة تحت المجهر ، وكأنه ليس غير شخص ثابت ينظر اليها . »

يحدث عكس هذا في « لحظة من لحظات الرؤى » كواحدة من لحظات اليوشا او نيتشه . ان الاستمرار على قذف « الذات » بالانفعالات والمثيرات التي تشبه انهماراً من الكواكب يجعل صاحب الرؤى يدرك ان اعماقه صارت كالتيار الذي يدير الطاحونة . وتسيطر عليه هذه الفكرة القائلة بأن العالم قائم على القوى الدافعة ، في حين كان من قبل يرى العالم هامداً خامداً تحظى فيه التفاهات بالاهمية ، تماماً كما يلوح في قرية كئيبة بائسة . انه يرى العالم الآن ساحة قتال تجتمع فيه قوى هائلة ، ويدرك فجأة امرين ، طبيعة العالم

المعتمدة على القوة الدافعة ، وطبيعة نفسه المعتمدة على هذه القوة ايضاً ، وعليه فبدلاً من ان يرى الاشياء كئيبة خامدة ، صار الآن يرى قوة الحياة العاملة في الاعماق ، والارادة من اجل حياة اكثر وفرة . اما هذه الارادة فانها تختفي عادة ، تاركة العقل المدرك مشغولاً بشؤونه . ويظل هذا العقل المدرك منفياً في عالم المادة ، محاولاً ان يشعر بأنه غير منفي ، بالتعلق بالميزة الشخصية والثبوت . ونادراً ما يتصل الوجود المدرك بالوجود اللامدرك في الناس ، ولهذا فان الهدف المدرك يميل الى تحقيق الراحة ببذل اقل ما يمكن من المجهود .

الا ان هناك بشراً آخرين دعوناهم باللامنتمين ، يتصل وجودهم المدرك بوجودهم اللامدرك دائماً ، وهكذا تظل عقولهم المدركة شاعرة دائماً بالحاجة الى مضاعفة الاهتمام بتحقيق « حياة اكثر وفرة » ، والتقليل من الاهتمام بالراحة والتوازن وغيرهما من الاشياء التي يتعلق البورجوازي بها . لقد حاولت خلال فصول هذا الكتاب أن أبين كيف ان اللامنتمي في حاجة الى اكتشاف طريقة يستطيع بواسطتها ان يمد يداً للقوى الموجودة في اعماقه ليساعدها في كفاحها ، ومن الواضح انه اذا كان يدرك هذه القوى ادراكاً غامضاً ، فأن الامر المعقول الذي يجب عليه ان يفعله هو ان يزيد من ادراكه لها ليكتشف ما تهدف اليه ، ويبدأ اللامنتمي عادة بقوله : « يجب ان احصل على الانفراد الذي يمكنني من النظر في اعماق نفسي ، » وهكذا نجده يغلق عليه باب غرفته . الا انه يكتشف ايضاً لسوء الحظ انه غالباً ما يعرف نفسه بصورة افضل تحت تأثير تجارب جديدة ، بينما لا يمكن ان تتوفر له هذه التجارب الجديدة اذا كان حبيس غرفته . وينشأ الصراع في « بداية الحياة الجديدة » ، الصراع الذي نشهده ثانية اذا عدنا الى قراءة « ستيفن وولف » .

لقد نجح راماكريشنا في توجيه البواعث ذاتها ، فقبض على السيف وأراد ان ينتحر به ، وفجأة كشفت قوى الحياة عن ذاتها في نفسه ، وقالت له : « هراء ! انك لن تموت ، انظر الى هذه الاعمال التي أعددتها لك لتقوم بأدائها . » وهكذا توفرت لراماكريشنا رؤياه الاولى – (للأم) ، التي كانت ادراكاً مفاجئاً

لحقيقة أن الكون مليء بالحياة ، وانه ليس غير الحياة ، وان هذه الحياة قائمة بمحاولة لا نهاية لها من اجل تعزيز سطوتها على المادة . لقد ادرك فان كوخ هذه الدوامة الاعماقية أيضاً حين رسم « طريق السرو عند الغسق » « وليلة النجوم » ، تماماً كما ادركها بيتهوفن ايضاً حين ألف « هامر كلافير » .

ان المشاعر الخاصة بتوافق راماكريشنا الداخلي هي التي سهلت عليه امر الحصول على ذلك الادراك ثانية . اما رؤيا « كالي » في المعبد فقد صارت رمزاً لذلك الادراك .

لقد صور الفنانون « كالي » امرأة سوداء قاسية الملامح ، تحمل سيفاً ورأساً بشرية بيدين من ايديها الاربع ، بينما تبارك باليدين الآخرين اطفالها ، وتقف على جسد زوجها « شيفا » المضطجع ، ويمثل شيفا الحياة المدركة ، أما « كالي » فانها تمثل بواعث الحياة : في حين نجد حول عنقها قلادة من الجماجم البشرية . وكائناً من كان ذلك الفنان الذي صورها بهذا الشكل ، فانه لا بد أن يكون نيتشه آخر على الطراز الهندوسي ،ولا بد قد أدرك ان بواعث الحياة اقوى من الارادة الشخصية المحضة من اجل الحماية الذاتية ، وانها قد تهدف الى حياة اكثر عن طريق موت الافراد * . وتصور الاغاني الهندوسية هذه النوعية فوق البشرية التي تتميز بها بواعث الحياة ونجد في احداها :

« المخلوقات كلها لعب بيد أمي (كالي) المجنونة » .

ونجد في اخرى :

« ابي أحمق ، وكذلك امي » (شيفا وكالي)

ثم نجد في اخرى (وهي تكشف عن هذه النوعية بصورة اشد) :

« سألتهمك هذه المرة ايتها الأم كالي

لانني ولدت تحت كوكب شيطاني

---

* يمكننا أن نعرف كم هي غريبة هذه الأفكار على الذهنية الغربية ، بمجرد الذهاب إلى المتحف البريطاني والتطلع إلى تمثال « كالي » أم الكون المقدسة ، الموجود في القاعة الهندية ، إذ كتب في أسفله . « كالي – الشيطانة المدمرة » .

وان من يولد تحت مثل هذا الكوكب يأكل امه ، كما يقولون .... » (٩)

ويشبه هذا ما يصفه دوستويفسكي على لسان كيريلوف : « ... والانسان الذي يفترس فتاة صغيرة هو خير ايضاً ، وكذلك الانسان الذي يقتل نفسه أسفاً عليها ، فهو خير ايضاً ، كل شيء خير . » وقد ادى تعبير نيتشه عن هذا المفهوم نفسه الى اعتباره « ضد المسيح » ، و « مسخاً قاسياً » .. الخ ، كما أدت الفكرة القائلة بأن « كالي » قاتلة مدمرة الى ظهور مذهب التاك في الهند * ، تماماً كما قادت افكار نيتشه الى السياسة التي اتبعها النازيون حين كانوا يعدمون الاسرى بالآلاف في معسكرات الاعتقال .

صار راماكريشنا كاهناً في معبد « كالي » بعد ان مات اخوه ، وهكذا انتشرت شهرته كقديس في مختلف انحاء الهند . وقد كان كاهناً غريب الاطوار اذ نادراً ما كان يتبع قواعد العبادة ، بل انه قدم الطعام الذي كان معداً للآلهة الى قطة المعبد ، واعترض البعض على هذا ، الا انه اجابهم قائلاً : « لقد رأيت ان كالي « قد تجسدت كل شيء » ، وكان أقل ما أيقظ « ادراكه لله » فيه ووهبه تلك الغيبوبة الذاهلة النشوانة التي يدعوها « ساماذي » انه رأى يوماً غلاماً انكليزياً يجلس متكئاً على جذع شجرة ، وكان جسمه منحنياً في مواضع ثلاثة ، تماماً كما كانت صور كريشنا تثير فيه ذلك دائماً و « تصله بالله » .

ولما بلغ راماكريشنا السادسة والاربعين زاره مدير احدى المدارس القريبة ، واذا بماهندرانات كوبتا هذا يصبر واحداً من تلاميذ راماكريشنا البارزين ، وقد سجل كل ما دار بينهما من احاديث في مجموعة تعتبر بالنسبة الينا « انجيل سري راماكريشنا » . ويعتبر هذا السجل الوحيد الذي في ايدينا الذي ينقل الينا يوماً فيوماً اقوال ذلك القديس الذي اسكره الله . (وتحتوي الترجمة الانكليزية على نصف مليون كلمة ، مما يجعل الكتاب ثلاثة اضعاف انجيل العهد الجديد ،)

* التاك : مذهب ديني آمن أتباعه بأن عليهم أن يقتلوا البشر مضحين بهم من أجل الام المقدسة وكانوا يهاجمون المسافرين ويقتلونهم ثم يدفنونهم ، ويقال انهم قتلوا مليوناً في خلال سنوات خمس فقط .

واليك شيئاً من احاديث راماكريشنا فيه :

« هاجمت نمرة قطيعاً من الماعز في احد الايام ، وما كادت تنقض على فريستها حتّى ولدت نمراً صغيراً وماتت (لان صياداً اطلق عليها النار) ، وعاش النمر الصغير بصحبة الماعز ، وكانت الماعز تأكل الحشائش . فقلدها النمر في ذلك ، وكانت الماعز تثغو فثغا النمر مثلها ، ومرت الايام ونما حتّى صار نمراً كبيراً . وفي يوم من الايام هاجم القطيع نمر آخر ، فأدهش النمر المهاجم ان يرى نمراً يأكل الحشائش ، فلحق به حتّى ادركه ، وبدأ النمر آكل الحشائش يثغو ، الا ان النمر المهاجم اخذه الى الماء وقال له : انظر الى وجهك في الماء ، الا تراه مثل وجهي ؟ فكلْ شيئاً من اللحم .. الا ان آكل الحشائش لم يستطع ان يزدرد اللحم واستمر على الثغاء ، على انه استطاع ان يعتاد رائحة الدم وطعم اللحم بالمران . ثم قال له النمر المهاجم : ترى الآن انه لا فرق بيني وبينك ، فتعال واتبعني الى الغابة ...

كذلك الانسان : فانه انما يأكل الحشائش باستمتاعه « بالمرأة والذهب » ، اما الثغاء والفرار كالماعز فانهما يشبهان سلوك الانسان العادي ، في حين ان الذهاب مع النمر والعيش معه يوقظ فيه الادراك الروحي ، فيعلم انه (والنمر المهاجم هنا هو الحكيم) مثل الحكيم تماماً . اما ان ينظر الى نفسه في الماء ، فانه يشبه معرفة الانسان لنفسه الحقيقية . » (١٠)

ويميل هذا بنا الى تذكر ستيفن وولف وانقسامه الى الانسان والذئب ، أي المعزى والنمر ، تذكراً مقارناً . ان البورجوازي يقوم بدور المعزى فيثغو في العالم ، اما النمر فانه دور اللامنتمي ، ذلك الدور الذي اختاره راسكولنيكوف حين قتل تلك المربية العجوز ، فكان بليك وحشاً ملّ من الاستمرار على العيش مع الماعز . الا ان المقارنة لا تكون دقيقة في هذا المجال ، ورغم ان راماكريشنا تقبل مصيره كلامنتم وقضى حياته محاولاً اقناع الآخرين بأن يكونوا لامنتمين ايضاً ، الا ان ستيفن وولف (المعزى) كان يستمتع بالموسيقى والشعر ، ولهذا فاننا لا نستطيع ان نتهمه بأنه يعوزه « الادراك الروحي » . واذا بلغ اللامنتمي

مرحلة راماكريشنا من الادراك الروحي فان انقساماته تتضح ، فلا يعود هنالك ما يدعو الى قتل امرأة أو ارتكاب أية جريمة عمداً .

ومن اعجب تعاليم راماكريشنا قوله ان جميع الاديان متحدة ، ويخبرنا « تاريخ حياته » بأنه جرب كل انواع النظم الدينية ، واتبع تعاليم مختلف الطوائف (وذلك امر عجيب جداً في الهند ، تماماً كما لو اعلن شخص ما في انكلترا انه وفي وقت واحد مقلد ومن الاصدقاء وكاثوليكي روماني) . وقد درس راماكريشنا المسيحية والاسلام ، فعبد العذراء بدلاً عن « كالي » ، ثم عبد « الله » الذي يشمل كل شيء ، وقد عرف راماكريشنا حقيقة الكون الاساسية فما ضاره في شيء ان يدعوها بمختلف انواع الرموز ، وكانت النتيجة واحدة دائماً ، اي الادراك الروحي الذاهل لله .

وقبل ان نترك راماكريشنا علينا ان نوضح المقصود من «ادراك الله » .وهنالك صفحات في « مختلف انواع التجارب الدينية » يتحدث فيها جيمس عن « الحالات المزاجية الذائبة » :

« يستطيع اغلبنا .... ان يتصوروا هذا ، اذا استطاعوا ان يستعيدوا حالاتهم الشعورية في تلك « الحالات المزاجية الذائبة » التي تنقلنا اليها خبراتنا الواقعية في الحياة ، او مشاهدة مسرحية ما ، او قراءة احدى القصص ، وخاصة اذا بكينا ، فكأن دموعنا تقتحم جداراً في اعماقنا وتغسل كل خطايانا السابقة تاركة قلوبنا نظيفة رقيقة ، مستعدة لتقبل اشياء اسمى . الا ان معظمنا يعودون الى مقـــاساة المشاق المألوفة ، اما اولئك الذين يمتازون بميزات القديسين ، فانهم يخلصون منها الى الأبد .. » (١١)

لقد لاحظنا كيف ان راماكريشنا كان حسن الحظ لانه عاش حياته في قرية هادئة ، ولم يهدد شعوره بهذه الامزجة الذائبة وبحساسيته التخيلية ما فعله الآخرون من انتحار خلصهم من قسوة العالم. (يتذكر قراء « تسبيحة عيد الميلاد » لدكنز المشهد الذي يقرأ فيه سكرووج « الف ليلة وليلة » في المدرسة ويصف غبطته بذلك الكتاب ، وكيف انه يقاسي ما يقاسي من الحياة ، ويكبر ،

ثم يتذكر غبطته السابقة بذلك الكتاب ، فيحصل على تلك الامزجة الذائبة من جديد) .

وعلينا أن نفهم أن راماكريشنا استطاع الاحتفاظ بحساسية الطفولة طيلة حياته ، أما نحن ، وسط حضارتنا المعقدة ، فاننا مضطرون الى التبلور في مزاج معين ، ولهذا فانه ليس تزييفاً ان نقول ان حضارتنا هي المسؤولة عن انتشار النماذج الانسانية والمادية في الفكر ، اما راماكريشنا ، الذي يعتبر في الطرف المعاكس ، فقد كان باستطاعته أن ينفذ الى اعمق ما يستطيعه الانسان من ذهول تخيلي نشوان ، الأمر الذي لم يستطع ان يفعله الا عدد ضئيل جداً من الغربيين ما عدا اولئك القديسين الذين ظهروا في القرون الوسطى ، والذين كانوا قادرين على ان يهبوا عقولهم ايضاً للتأمل والهدوء .

لقد صار الناس يعتبرون راماكريشنا في السنين الاخيرة من حياته تجسداً لله ، كالمسيح وكريشنا وكوتاما (بل ان الآلاف تعبد صورته اليوم باعتبارها تمثل الله) . وأصيب راماكريشنا في عامه التاسع والاربعين بالتهاب في بلعومه تحول الى سرطان قتله في آب عام ١٨٨٦ . ودخل كثير من تلاميذه المعبد وتقاعدوا فيها ، الا انهم عادوا بعد ذلك الى التغلغل بين الناس ناشرين تعاليمه . ويعتبر ناريندرا أفضلهم ، اذ انه نشر تعاليم راماكريشنا في انكلترا واميركا .

اتضحت لنا من الفصلين الاخيرين نتائج معينة عن اللامنتمي ، ويمكننا ان نعبر عن اشدها اهمية بقولنا ان اللامنتمي يلوح في اساسه رجل دين ، يرفض ان يعوّد نفسه على ما يفعله اصحاب التفكير العملي من اشياء تعتبر الوسائل الوحيدة التي تتيح للانسان البقاء على قيد الحياة في حضارتنا المعقدة . ويجب ان نؤكد ثانية اننا لا نعني « بالدين » اي دين معين ، لأن « الخطيئة الاولى » و « الخلاص » و « اللعنة » اشياء يفكر بها اللامنتمي بصورة طبيعية ، مهما كان ، واينما كان .

وبالاضافة الى ذلك فان الطريقتين الشرقية والغربية في التفكير تميلان الى القول بأن الخطيئة الاولى هي مجرد وهم . وقد ظل راماكريشنا يطلب من

تلاميذه ان لا يعتبروا انفسهم خطاة ، الا انه لم يكف عن اعتبار الناس الذين يشغلهم « العالم » ارواحاً مقيدة ، أرواحاً ضالة . أما الطريقة المثلى للتخلص من الضلال ، فان الآراء على اختلاف أنواعها تتفق على طريقة واحدة هي : في التطرف ، فان التطرف يمثل الضرورة الاولى . أما بوذا فانه دعا الى «حل وسط». الا أن ذلك حدث بعد تجربة التطرف أيضاً ، ويخبرنا الماجهيما نيكايا كيف « أنه كان يجهد نفسه في العمل أكثر من الآخرين ، ويعيش حياة خشنة ، بل أشد خشونة من حياة الآخرين ، ويقرعه ضميره أكثر مما تفعله ضمائر الآخرين ويريد ان يعيش وحيداً ، فينبذ جميع الآخرين . » واليك مثالاً آخر على « التطرف » ، (ويستطيع القراء الذين يريدون أمثلة أخرى أن يقرأوا « أقوال بوذا » ترجمة وودوارد) :

« وقلت في نفسي : لنفرض يا آكجيفيزانا أنني أتعمق أكثر فأمنع أنفاسي ، ثم كتمت أنفاسي وسددت أذني .

وفجأة شعرت بالهواء ينفذ في دماغي بعد أن سددت أمامه منافذه الاصلية ، تماماً كما لو غاص في دماغي سيف بضربة قوية ، وتلاشت فعالياتي ، بينما تحرر ادراكي العقلي ، الا أن جسدي لم يعد يحتمل مرارة ذلك الكفاح ، رغم أن شعوري بذلك لم يستطع أن يسيطر على ذلك التحرر العقلي . »

ثم نعلم أن كوتاما أجاع نفسه حتى صار هيكلاً عظمياً ، وبينما كان يسبح في النهر ذات يوم ، وجد أنه لم يكن لديه القوة لابقاء نفسه خارج الماء ، وأوشك على الغرق . الا أنه عثر على غصن متدل ، فتشبث به ، الا ان هذه التجربة التي أتاحت له الشعور بمشاعر الانسان مباشرة قبل الموت ، فعلت فيه ما فعلته مثيلتها في راماكريشنا ، اذ وهبته ادراكاً لحقيقة هامة : هي أنه كان يريد حياة أكثر ، لا حياة أقل ، ثم تذكر :

« وفكرت بعد ذلك ، وتذكرت كيف كان أبي السيخي يحرث الارض يوماً ، وكنت جالساً في ظل شجرة التفاح الوارف ، بعيداً عن التفكير في الملاذ الحسية والحالات المرضية ، اذ غرقت في تأملاتي ، المصحوبة بالتفكير

الموجه ، والتي ترافقني متى كنت وحيداً ، مرتاحاً ، أشعر بمنتهي الحيوية ، ثم قلت في نفسي : أهذا هو طريق الحكمة ؟ »

لقد جعله هذا الادراك يقرر أن يأكل ويشرب بصورة اعتيادية ، وان يعتمد على حساسية خياله ومقدرته على التمييز بين الاشياء من أجل الحصول على النتيجة النهائية المشتهاة .

ثم جئت يورافيلا ، وهي ضاحية قريبة ، ورأيت هنالك بقعة جميلة ، تتألف من غابة ساحرة ونهر ماؤه سلسبيل صاف يجري في دعة ... وكانت على مبعدة القرية التي يمكنني أن أستجدي من أهلها طعامي .. وهكذا ايها الاخوة ، جلست أفكر ، وقلت في نفسي : انه المكان المناسب للكفاح . » (١٢)

وكان هذا المكان هو الذي شهد تأملات كوتاما في « الحرية » ، وتأملات نرفانا عن المعرفة الكاملة والادراك الذاتي . (قد نشك في امكانية تحقيق ذلك ، الا أن هذا على أية حال شرح للطريقة البوذية وحسب .)

ويمكننا أن نجد أمثلة أخرى في التطرف لدى القديسين المسيحيين ، فهنالك مثلاً هاينريخ سيوسه (أو سووسو) الذي عاش بين ١٢٩٥ — ١٣٩٦ والذي يخبرنا في « تاريخ حياته » كيف أنه كان يتفنن في اختراع وسائل تعذيبية رهيبة لجسده ، فكان يرتدي وشاحاً من الشعر ، وسلسلة حديدية كانت تحز في جسده حزاً ، بينما كانت تشد جسده اربطة جلدية ذات رؤوس وخطافات برونزية معقوفة ومغروزة في جسمه ، وكيف أنه لبس تلك الأشياء سنوات عديدة ، وحمل على ظهره صليباً من المسامير المدببة المغروزة فيه طيلة ثماني سنوات ، وكان ينام على باب خشبية منخورة ، مغطياً نفسه بحصير صيفاً وشتاء . واستمر على ذلك ستة عشر عاماً ، ظن بعدها أنه أخضع جسده اخضاعاً تاماً ، وقد أقنعه بذلك أنه قرأ سطوراً من كتاب « مايستر ايكهارت » :

« هنالك قابلية أخرى خالدة أيضاً تصدر عن الروح .. أجل ، ان في هذه القابلية لمتعة خالدة ، قاسية ، وغبطة خشنة عنيفة لا يستطيع أن يصفها الانسان . انني لأضيف انه اذا استطاع الانسان أن يجد في ذلك شيئاً من الغبطة والمتعة ،

عن طريق رؤيا عقلية ، فان كل ما يعانيه من عذاب يصبح تافهاً .. بل لا يكون شيئاً مذكوراً .. » (١٣)

لقد أراد سيوسه أن يحصل على تلك المتعة « اللاهبة » .

ان قيمة هذه الاشياء المتطرفة هي بالطبع في حيوية الارادة الكامنة فيها ، أما اذا كانت مجربة باعتبارها عقوبات مقصودة ، وعبثاً متعمداً ، وحسب ، فانها تكون عديمة النفع بل ضارة ، لأن الأمر الوحيد الذي يبررها هو وجود « الارادة » .

لقد صار بحث هذا الكتاب حلقة كاملة ، ولست أهدف الى ايجاد حل نهائي كامل « لمشاكل اللامنتمي » ، وانما الى الاشارة الى ان هنالك حلولاً تقليدية ، أو محاولات بذلت من أجل الوصول الى تلك الحلول . وقبل ان نعود الى ت. ي. هولمه وتنبوئه « بنهاية الانسانية » علينا أن نبحث محاولة حديثة أخرى من أجل الوصول الى حل ما ، وهذه المحاولة هي من الاهمية بحيث لا يصح اهمالها في هذا الكتاب . تلك المحاولة هي « النظام » الذي اتبعه جورج غورديبف، غريب الاطوار .

كان غورديبف في السبعين من عمره تقريباً حين مات عام ١٩٥٠ (ولم يعرف أحد عمره بالضبط) . وقد قضى حوالي أربعين عاماً من حياته مبشراً « بنظامه » بين تلاميذه . ولسنا نعرف عنه الشيء الكثير ، وانما نعرف أنه يوناني من أصل قوقازي ، وقد بشر بتعاليمه في موسكو وبترسبرك ، وأخيراً في أوروبا وأميركا .

ويعتبر كتابه « الجميع وكل شيء » المعرض الرئيسي لنظامه ، ولم يطبع في انكلترا الا القسم الاول منه ويقع هذا القسم في ١٢٠٠ صفحة ، ويمكن أن يقال عنه انه غير جدير بالقراءة لأنه شديد الصعوبة ، الا أننا نعلم أنه جعله كذلك لئلا يقرأه الهواة ويقولون « انهم فهموا غورديبف » ، وقد أدى ذلك الى الهبوط بهذا الكتاب تحت مستوى « يقظة فينيكان » .

ولحسن الحظ (أو لسوئه كما يقول غورديبف) فان هنالك توضيحات مبسطة لفلسفته ، كالمقدمة التي كتبها كينيث ووكر « مغامرة مع الافكار »

وكتابات أحد تلاميذه البارزين « ب. د. أوسبنسكي » مثل « في البحث عن المعجزات » ، ويقص هذا الكتاب ما حدث لهذا التلميذ حين كان يتعلم على يد غورديف ، وهو يصفه بأنه كان بالنسبة اليه كما كان سقراط بالنسبة الى أفلاطون .

ويمكننا اعتبار نظام غورديف أكمل وأشد الفلسفات الوجودية مثالية ، ولا يتعلق هذا النظام بالافكار لمجرد الافكار ، وانما يهتم بالنتائج ، ولهذا فأن « النظام » نفسه يتألف من تمارين وقواعد مختلفة ، لا يعرفها الآن غير تلاميذ غورديف واتباعه ، ونحن معنيون هنا بالجانب النظري من هذا النظام .

يبدأ غورديف أشد حالات الانسان ضلالاً ، فيقول ان الانسان غارق في هذه الضلالات والاوهام الى درجة أننا لا يمكننا أن نعتبره حياً يعيش ، وانما هو آلة ، أي أنه ، بعبارة أخرى ، لا يملك شيئاً من الارادة الحرة قط !

يلوح هذا أشد الآراء تشاؤماً ، الا أن هذا لا يمثل كل فلسفته ، لانه بعد أن يؤكد على أن البشر نائمون وانهم انما يسيرون في نومهم دون ان يتوفر لهم شيء من الادراك الحقيقي ، يستمر فيقول ان الانسان يستطيع أن يحصل على شيء من الحرية « واليقظة » . الا ان الخطوة الاولى للحصول على الحرية هي ان ندرك اننا لسنا احراراً . وما دمنا قرأنا في الفصول الثمانية السابقة عن لا منتمين صرحوا بهذه الحقيقة ، فانه لن يشكل صعوبة ما في طريقنا . ويشتمل جانب من جوانب فلسفته على ملاحظة الانسان لنفسه وللآخرين ، لانه يكتشف بهذا عدداً كبيراً من الاعمال الميكانيكية والتقليدية .

ومن أطرف ما في نظام غورديف بالنسبة الينا توضيحه للطرق الثلاث ، طريقة الفقير ، وطريقة الراهب ، وطريقة اليوجي ، وتمثل هذه الطرق الثلاث الوسائل التي بحثناها في الفصل الرابع : أي محاولة السيطرة على الجسد ، وعلى الانفعال ، وعلى العقل . الا أن الطرافة تكمن في أن غورديف يدعي بأن نظامه يمثل طريقة رابعة تتضمن الطرق الثلاث الاخرى . وقد دعيت جماعة غورديف في جنوب فرنسا « معهد التطور التوافقي للانسان » اي تطوير الاقسام الثلاثة

بصورة تجعلها متفقة مع بعضها البعض . يمكننا الآن ان نقول ان نظام غوردييف واللامنتمي يسعيان الى هدف واحد .

لقد نظرت في فهرس كتاب أوسبنسكي وفصلت المواضيع الفلسفية عن المواضيع السيكولوجية . فأما الفلسفية فلا يمكننا ان نجزم بصحتها او بخطئها واليك امثلة منها : « القمر هو ارض صغيرة والارض هي شمس صغيرة ، اما الاجرام السماوية فهي كائنات حية مثلنا تماماً » ، ويستطيع القارىء ان يبتلع هذه الافكار او ان يرفضها ، الا ان تحليل غوردييف السيكولوجي يعتبر تحليلاً نفاذاً مدهشاً ، يتحدث فيه عن المواضيع التي تحدثنا عنها في هذا الكتاب .

يقول غوردييف ان هنالك حالات اربعاً محتملة من حالات الادراك ، أولاها هي النوم ، والثانية هي تلك التي يقضي فيها البورجوازي العادي حياته ويدعوها غوردييف ساخراً « بالادراك اليقظ » ، اما الثالثة فهي تدعى « التذكر الذاتي » وسنشرح هذه الحالة ، في حين ان الرابعة هي « الادراك الموضوعي » .

ونحن نعتبر حالة « التذكر الذاتي » اهم الجميع ، فقد رأينا كثيراً من اللامنتمين يعيشون في مثل هذه الحالة ، وأفضل مثال يذكر في هذا المجال هو ستيفن وولف حين نراه في الفراش مع ماريا ، ويتس في « محل مزدحم في لندن » .

ويشرح أوسبنسكي « التذكر الذاتي » بكل وضوح ، انك تنتبه الى شيء موجود امامك وكأن الانتباه يصدر عنك وينصب على الشيء ، اما اذا غرقت في افكارك او ذكرياتك فان الانتباه يتجه الى اعماقك ، الا انه يحدث احياناً ان ينصرف الانتباه الى الخارج والى الداخل في وقت واحد ، فنقول مثلاً : « من انا ؟ هنا ؟ » ويمثل هذا السؤال ادراكاً مركزاً لنفسك ولمحيطك. (وأفضل الامثلة على هذا في الادب المشهد الذي يصوره تولستوي في « القوقازيين » حين يرى اولنين الجبال لاول مرة ، فيتوفر له أكمل تذكر ذاتي » . ويقول أوسبنسكي : « تؤاتي الانسان لحظات التذكر الذاتي حين يرى محيطاً جديداً لم يكن يتوقعه ، وناساً آخرين لم يكن يألفهم ، ويحدث ذلك في الاسفار مثلاً

أو في اللحظات التي ينفعل فيها الانسان جداً ، ولحظات الخطر ..)

ويستطيع الانسان أن يحقق لنفسه هذا التذكر الذاتي باتباع نظام معين مقصود ، الا أن ذلك صعب جداً . جرب ، كمحاولة ، ان تنظر الى ساعتك ، وبينما يكون انتباهك منصرفاً الى معرفة الوقت ، حاول أن تشعر بنفسك وأنت تنظر الى الساعة ، وستجد انك ستحصل على اللحظة التي تدرك فيها كلاً من نفسك والساعة ، الا أن ذلك لن يدوم أكثر من ثوان ! وبعد ذلك تدرك نفسك وحدها أو قرص الساعة وحسب . ان تلك اللحظة التي تدرك فيها نفسك ناظراً الى الساعة والى نفسك هي الحالة الثالثة التي تحدث عنها غوردييف . (أما أولئك الذين لا يمكن صرفهم عن النظر الى حياتهم كمسرحية واعتبار انفسهم أبطالها ، فانهم يشبهون نيتشه حين كان صغيراً ، وهم يحاولون أن يروا انفسهم خارج الوضعية كما يميلون الى اعتبار انفسهم اعتباراً موضوعياً .) ولشرح ذلك من وجهة نظر اللامنتمي يمكننا ان نقول اننا نعرف انفسنا بشخصياتنا ، اي ان هوياتنا تشبه زجاج النافذة ، اما نحن فملتصقون به بشدة ، بحيث اننا لا نستطيع ان نشعر بانفصالنا عنه . اما التذكر الذاتي فانه يشبه العودة الى الخلف ، بحيث انك تستطيع ان تميز بين نفسك (زجاج النافذة) وبين العالم الخارجي المتميز عنك . ويقص لنا أوسبنسكي كيف ان بعض تمرينات التذكر الذاتي استطاعت ان تهب اصحابها حالات شعورية شديدة التركيز ، ومن الواضح انه قد وجد حلاً واحداً كان اللامنتمي قد اهمله . *

---

* يقول أوسبنسكي في الصفحة ١٢٠ من كتابه « في البحث عن المعجزات » ما يلي :

« كنت مرة أسير في شارع ليتايني متجهاً نحو نيفسكي ، ولم أستطع أن احتفظ بانتباهي منصباً على تذكري الذاتي رغم ما بذلت من جهود ، لأن الضوضاء والحركة وكل شيء حولي صرفتني عن ذلك . وصرت إذا فقدت ذلك الانتباه أحصل عليه في اللحظة التالية ، لأفقده من جديد في اللحظة الأخرى . وأخيراً شعرت بضيق شديد في نفسي ، الأمر الذي يثير السخرية ، فانعطفت إلى شارع على اليسار ، مصراً على الانتباه إلى انني يجب أن أتذكر نفسي لوقت قصير على الأقل ، حتى بلغت الشارع التالي . ولما وصلت الناديجنسكايا ، دون أن أفقد ذلك الانتباه ، ما عدا في بعض اللحظات ، عدت إلى النيفسكي وأنا ما زلت أذكر نفسي ، وكدت أصل إلى تلك الحالة الانفعاليةوالشعور بالسلام والثقة ، اللذين يوافقان مثل هذا المجهود ، وكان هناك محل لبيع

ويقول لنا غورديف ايضاً ان الانسان يضيع كمية لا يستهان بها من حيويته فيما يدعوه « بالانفعال السلبي » كالخوف والاشمئزاز والغضب ... الخ . وهو يدعي بأن هذه الانفعالات هي غير ضرورية بالنسبة للانسان ، وانها تشبه في كونها اسرافاً وضع عود ثقاب مشتعل في كومة من البارود . ان الانفعال السلبي هو أمر مخرب لمصنع الحيوية البشري .

وفي الانسان مراكز متعـــددة . فمركز انفعالي ، ومركز حركي ، (يقوم بكل الاعمال الحركية التي يتطلبها الجسد) ومركز عقلي ، ومركز فطري . ولديه كذلك مركز جنسي ، ومركزان ساميان لا يعرف عنهما لأنهما يعملان في اعماق العقل الباطن ، (رغم ان ادراك هذين المركزين يمثل رؤى القديسين) . ويميل الانسان الى مزج هذه المراكز ، واستعمال الحيوية المخصصة للمركز الحركي في الانفعال ، او الحيوية المخصصة للانفعال في العقل ، او الحيوية المخصصة للمركز الفطري في الجنس . ومن الواضح ان المراكز جميعاً تميل الى سلب الحيوية التي يتمتع بها المركز الجنسي ، وتعطيه بدلاً عن ذلك نوعاً من الحيوية التي لا تفيده قط . (وقد قال غورديف لاوسبنسكي انه لأمر عظيم ان يعمل المركز الجنسي بحيويته الخاصة .) ومن الجوانب المهمة في نظام غورديف طريقة ملاحظة المراكز والتمييز بين الاعمال التي يجب ان يقوم بها كل منها .

السجاير في زاوية من زوايا النيفسكي اعتدت أن أشتري منه ما أحتاج اليه من السجاير ، فقررت وأنا ما زلت محتفظاً بتذكري لنفسي أن أشتري شيئاً من السجاير .

ومرت ساعتان ، واستيقظت في التافريشيسكايا ، أي في محل بعيد جداً عن المحل الذي كنت فيه ووجدتني مستقلا عربة ، في طريقي إلى المطبعة . وكان انفعالي عند اليقظة حياً قوياً بدرجة غريبة بل يمكنني أن أقول إنني تذكرت كل شيء دفعة واحدة . تذكرت كيف اني كنت أسير في الناديجنسكايا ، وكيف اني كنت أتذكر نفسي ، وكيف فكرت في السجاير ، وكيف انني غرقت عند ذلك في نوم عميق ، وفي الوقت نفسه ، وبينما كنت غارقاً في ذلك النوم ، كنت أقوم بأعمال معقولة مألوفة ، إذ غادرت محل السجاير ، ودخلت شقتي في الليتايني ، واتصلت بالمطبعة تلفونياً ... وفي الطريق بينما كانت العربة تقلني إلى التافريشيسكايا بدأت أشعر بقلق غريب ، فكأنني كنت قد فقدت شيئاً ما . وفجأة تذكرت اني كنت قد نسيت ان أذكر نفسي .. »

الا ان الصعوبة الرئيسية التي يجب ان يذللها النظام هي ميل الانسان الى النوم والى عمل الاشياء بصورة ميكانيكية. فقد تلهمنا قصيدة او قطعة موسيقية في يوم من الايام، واذا بالعالم كله يصبح حقيقياً ذا معنى عشر مرات اكثر مما كان من قبل، وقد نقرأ القصيدة في اليوم التالي او نستمع الى القطعة الموسيقية ثانية، وحينذاك نفعل ذلك بصورة «ميكانيكية» لاننا نكون قد اعتدنا عليها. الا ان هنالك اموراً اخرى من الافضل ان نفعلها بصورة ميكانيكية. ويمكنني ان اطبع هذه الصفحة على الآلة الكاتبة بسرعة معقولة، لان هذا العمل خرج من نطاق المركز العقلي (الذي علمني كيف استعمل الآلة الكاتبة) ودخل في نطاق المركز الحركي (الذي يستطيع ان ينجز عملية الطبع بصورة افضل)، فاذا أدت كل المراكز اعمالها الخاصة بها فلن يكون هنالك تبذير في الحيوية وانما يمكننا ان نحصل على اقصى ما نستطيع الحصول عليه من الادراك المركز.

وتعتبر آخر مرحلة «لذروة التركيز» حد التعبير الذي يملكه الانسان، (راجع كتيب اوسبنسكي: سيكولوجية امكانية التعبير الانساني). ولفلسفة غوردييف في هدفها (وهو الادراك السامي) والاهمية التي يسبغها على مفهوم التعبير، علاقة وثيقة بفلسفة برنارد شو، ولا يختلف غوردييف عن برنارد شو الا في ان شو لا يضع حداً لامكانية التطور: (بالنسبة لما قد يكون بعد ذلك، يمكنني ان اقول ان ليليث لا ترى الآن الا شيئاً قليلاً، ويكفي ان يكون هنالك شيء بعد ذلك). وقد يأتي يوم، ولعل ذلك يكون بعد قرون عديدة، ينطلق فيه «العقل الحر دون ان يمنعه شيء في المكان الذي كان فيه العالم المادي يوماً ما، وحينذاك ينتقل الله الى تلك المياه.. وهذا ما يقوله ت. ي. لورنس، وانه لبردد هنا الافكار البرنارد شوية، لا افكار غوردييف، الذي يحدد الهدف عن قصد: فالخطوة الاولى هي ان نكف عن النوم المغناطيسي الذي نعيش فيه الآن، وفي هذا يقول غوردييف:

«هنالك قصة شرقية تقص علينا كيف ان ساحراً غنياً لئيماً كان يملك عدداً كبيراً من الخراف، ولم يشأ ان يستأجر لها راعياً، كما لم يشأ ايضاً ان يبني

سياجاً للمرعى الذي كانت ترعى فيه ، ولهذا فقد كانت الخراف تتيه في الغابة ، وتسقط في المستنقعات ، بل كانت تفر ، لانها كانت تعلم بأن الساحر يريد ان يأخذ لحومها وجلودها ، الامر الذي كانت تكرهه جداً .

وأخيراً وجد الساحر علاجاً للأمر ، فنوّم الخراف مغناطيسياً ، وأوحى اليها بأنها خالدة وأن سلخ جلودها لن يؤذيها في شيء ، وأن هذا على العكس سيكون متعة وسروراً عظيمين لها ، ثم أوحى للخراف بأنه كان سيداً طيباً يحب القطيع الى درجة انه كان مستعداً لعمل اي شيء من اجله، ثم أوحى بأنه اذا حدث شيء لها فانه لن يحدث في ذلك اليوم على الاقل ، ولهذا فلا حاجة بها الى التفكير به ، وأخيراً أوحى الساحر للخراف بأنها لم تكن خرافاً قط وانما كان بعضها اسوداً ، وبعضها صقوراً ، وبعضها بشراً وبعضها سحرة .

وانتهت بذلك متاعبه بشأن الخراف ، فلم تفر ثانية ، وانما انتظرت بهدوء ذلك اليوم الذي سيحتاج فيه الساحر الى لحومها وجلودها .

ان هذه الحكاية تصور الانسان ابلغ تصوير .. » (١٤)

ويتحدث غوردييف في صفحة سابقة بالنبرة الاصلية التي يتميز بها الدين الصوفي :

« الانسان مرتبط بكل شيء في حياته ، مرتبط بالخيال ، مرتبط بحمقه ، مرتبط حتى بعذابه – بل انه مرتبط بعذابه اكثر من ارتباطه بأي شيء آخر . ويجب عليه ان يحرر نفسه من هذه الروابط ، لأن الارتباط بالاشياء والتميز بها يفسح المجال لظهور ألف « أنا » في الانسان . يجب على هذه « الانا » الكثيرة ان تموت لكي تولد « الانا » الكبيرة ، ولكن كيف السبيل الى موتها ؟

ان امكانية « اليقظة » تستطيع ان تفعل ذلك . ان يقظة الانسان تعني أنه بدأ يدرك لاشيئيته ، أي انه صار يدرك ميكانيكيته التامة ، واستسلامه وضعفه النهائيين . فاذا لم يكن الانسان يخشى نفسه فانه لا يعرف شيئاً عن نفسه . » (١٥)

ونردد ثانية :

« يجب ان يموت الانسان حالاً والى الأبد ... »

ويشرح ذلك القديس يوحنا :

« اني اعيش ، الا أنه لا حياة بيني
وهكذا ، وبمثل هذه الطريقة المملوءة بالأمل
أموت ، لأنني لا أموت ... » (١٦)

ويشرح غورددييف في « الجميع وكل شيء » عبودية الانسان بطريقة أشد تعقيداً ، الا أنها واضحة بالنسبة الينا ، لأنها ليست غير محاولة لخلق أسطورة ثانية عن الخطيئة الأولى .

انه يقول ان كارثة كونية قد شطرت من الارض قسمين ، القمر ، وقمراً آخر أصغر منه نسيه الناس (رغم أنه ما يزال موجوداً) .. ويجب أن ترسل الارض « طعاماً » لهذين القمرين ، (وقد ذكرت كيف ان غورددييف يعتبر الاجرام السماوية كائنات حية) ، اما هذا « الطعام » فهو نوع من الشعاع يصنعه البشر ، وبعبارة اخرى فان الغرض من وجود البشر على الارض هو ان يصنعوا « طعاماً » للقمرين .

الا ان البشر لم يعجبهم ان يلعبوا مثل هذا الدور التافه في النظام الشمسي ، اذ انهم طوروا في انفسهم « العقل الموضوعي » (الذي يعتبره غورددييف الحالة الرابعة من حالات الادراك) ، وهكذا فان ضجرهم من القيام بهذا الدور صار يهدد وجود القمرين بالخطر . وعليه قررت بعثة من كبار الملائكة ان تضع حداً لنمو هذا العقل الموضوعي عند البشر ، وهكذا أوجدوا في الانسان عنصراً يدعى « كوندا بوفر » يجعل البشر يفهمون الخيال على انه واقع ، ومنذ ذلك اليوم حتى الآن ، ظل البشر تائهين في احلامهم ، ولم يكتفوا بذلك فحسب ، بل صاروا يقدمون « الطعام » الى القمر وهم يبدون اعجابهم به ! ولسوء الحظ ، فان عدم قدرتهم على رؤية الاشياء بصورة موضوعية صارت تقودهم الى الهلاك بخطى سريعة للغاية وانه من الضروري لبعض الناس على الاقل ان ينموا في انفسهم نوعاً جديداً من الادراك ، وان يفعلوا ذلك ببطء ويتحملوا في سبيله كل المشاق على ان يكون ذلك بصورة فطرية ، ومن غير ان يشعروا بما يحدث لهم . ألا

يكون مثل هذا الانسان لامنتمياً ؟

كلهم نائمون ، ويعود غورდييف الى هذه النقطة دائماً . يجب ان يشعروا بضرورة الاستيقاظ . ان تسمية هؤلاء البورجوازيين القانعين « بالخراف » كما تحدثنا بذلك حكاية الساحر امر ذو مغزى هائل . ان حفيد بلزعبول الحكيم « الشيطان » (والذي يعتبر المتحدث بلسان غورდييف) يسأل في نهاية « الجميع وكل شيء » عما اذا كان بالامكان انقاذ البشر وتوجيههم نحو الطريق المستقيم، الا ان بلزعبول يجيبه قائلاً : « إن الطريقة الوحيدة لانقاذ سكان الارض هي في ايجاد عنصر جديد فيهم ، عنصر آخر مثل — كوندابوفر — ... قوي بحيث يجعلهم يشعرون بأن الموت أمر لا مفر منه بالنسبة اليهم وبالنسبة الى غيرهم ممن تقع عليهم عيونهم . » (١٧)

ويشبه هذا ما يوحي به الدين ايضاً : « تذكّر النهاية » ، ولكننا نستطيع أن نرى ايضاً انه لا نفع في فكرة ايجاد « مكان خيالي لا وجود فيه ولا حياة » ، لان الامر متوقف الوجود ، وعلى الانسان ان يعيش اكثر ، وان يكون اكثر ولهذا فعليه ان يدرك دائماً مبدأ التحديد ، وقد قال غورდييف لاوسبنسكي : (هنالك وقت معين واسم معين لكل شيء ، كما ان الامكانيات التي يمكن ان تتوفر لاي شيء موجودة لوقت محدود وحسب) .

نرى اذن ان بحثنا قادنا الى تشكيل عدد من المفاهيم التي وجدنا انها دينية فكأننا قطعنا كل مراحل الحياة الانسانية وخططنا اصول الدين من جديد ، ولم نذكر عدداً كبيراً من المفاهيم التي يعتبرها رجال الدين ضرورية لفهم الدين — الله والجنة والجحيم — ويمكننا ان ندعو ما كوناه ، حتى الآن ، بضروريات الدين الاساسية المطلقة الجوهرية . وأظن ان هذا هو هيكل الدين كما نشأ لأول مرة في أذهان البشر . أما التدقيق العقلي المستمر فانه ضروري للاحتفاظ بهذه الخطوط غير مشوشة او غامضة . اما مقياسنا فقد كان كما يلي : « اية حقيقة دينية انما تتقرر ذاتياً » ، ونحن حين نتحدث عادة عن حقيقة فكرة ما فاننا نعني علاقتها بحقيقة ما خارجية ، وقد قال كيركغارد « الحقيقة هي الذات » ،

وهذا هو المفهوم الوجودي ، ولكن هل يمكن ان تكون عبارة « الكلب ازرق » حقيقة دينية ؟ كلا لأنها حتى اذا كانت صحيحة موضوعياً فانها تظل موضوعية ولهذا فلا علاقة لها بحقائق الدين . وقد يكون صحيحاً ان تقول « ان هنالك عالماً روحياً نذهب اليه حين نموت » تماماً كما نقول « الكلب ازرق » ، ولكن هذه الحقيقة في هذه الحالة هي حقيقة عن العالم الخارجي ، ولهذا فانها ليست حقيقة دينية . ولا يمكن ان توجد الحقيقة الدينية بعيدة عن العقل ، بعيدة عن المجهود الشخصي من اجل ادراكها . وحين كتب ايكهارت : « لا يستطيع الانسان ان يعيش بدون الله ، كما ان الله لا يستطيع ان يعيش بدون الانسان » ، فانه كان يتحدث عن حقيقة ذاتية ، ولكن ، حين اتخذ « إخوة الروح الحرة » من هذا عذراً لاراحة ارادتهم والقضاء على المقاييس الاخلاقية ، فان هذه الحقيقة لم تعد صحيحة بقدر ما كان الأمر يعنيهم . ان اقوى الحقائق العقلية المطلقة لا تعود صحيحة حين لا تسندها حياة ما . ان بوهمه يحدثنا عن تلميذ يسأل : « أين تذهب الروح بعد الموت ؟ » ويجيبه استاذه قائلاً : « لا حاجة بها الى ان تذهب الى اي مكان ، لأن الجنة والجحيم يملآن هذا الكون بصورة متعادلة » ، ويمثل هذا القول محاولة لاطلاق عبارة موضوعية عن الحقيقة . الا ان بوهمه نفسه يحذر قراءه بقوة نيتشه قائلاً في اول كتبه : « اذا لم تكن تحاول ان تسبق نفسك روحياً فدع كتابي هذا جانباً ، ولا تحشر نفسك معه ، وانما التزم تفاهتك » ، وهذا يمثل جوهر الدين .

وحين قتل ت . ي . هولمه في فرنسا عام ١٩١٧ ترك خلفه عناصر مجهود ضخم ، وكان نيتشه البادىء بهذا المجهود ، متفلسفاً « بالمطرقة » اما اول خطوة يخطوها للعودة الى تعريف الدين ثانية فهي ان يزيل ما علق بالقيم الاصلية من طفيليات وأن يحاول ان يرى شكلها الاصيل كما وضعها فيه اولئك الناس الذين ابتدعوها .

الا ان اللامنتمي ظل ما يقارب قرناً كاملاً من الزمان يلوّح بالمطرقة ، دون ان يدرك ماذا كان يفعل ، وهكذا فقد كان يخلق قيماً جديدة عن طريق التضمين ،

ويمكننا ان نرى بعد مضي اربعين عاماً على موت هولمه نتائج قرن كامل من البحث العقلي . لقد اعتبر هولمه الاشياء التي كان يتوقعها ويأملها مقدمة لـ « الافكار » لباسكال ، الا انه كان من الافضل له ان يعتبرها تمهيداً للأدب اللا انتمائي الذي لا غنى عنه بعد الآن ، ذلك الأدب الذي بدأ بدوستويفسكي في كتابه «مشاهدات من تحت سطح الارض» ،متضمناً « ستيفن وولف » ،و «الحياة السرية » . و « مذكرات نجنسكي » ، و « العقل في منتهى حدود الاحتمال » .

ويمكننا ان نمهد لتحليل هذه « الآمال » ببضع كلمات نتحدث بها عن تطور الوجودية . ويجب ان نقول ان تفكير هولمه لم ينطلق انطلاقاً منظماً ، اما ابسط الطرق لفهم اسلوبه وشعوره الفلسفي ، فذلك ان نفهمه عن طريق كيركغارد .

حين عبّر كيركغارد عن ثورته ضد هيغل في « الملحق اللاعلمي » ، فانه كان يحاول ان يقيم فلسفة ضد فلسفة ، ولكننا لن ندع هذا يحيرنا في محاولتنا التعرف على ما كان يفعله . لقد قذف أرسطو بالوحل في وجه سقراط قبل ما يقرب من ٢٤٠٠ سنة بنفس الطريقة ، اي بالاحتقار الذي يشعر به الشاعر نحو المنطقي ، الا ان الحضارة الغربية تسرعت في الحكم على أرسطو ، لأن المسألة الحقيقية ليست متعلقة بمشكلة هل ان ٢+٢=٤ أو ٥ ؟ وانما بمشكلة : هل تتقدم الحياة بأولئك الذين يحبون الكلمات أم بأولئك الذين يحبون الحياة ؟ أن مفهوم سقراط للتاريخ (الذي يعبر عنه البروفسور وايت هيد في عصرنا) ، يقول ان الحضارة تتقدم بالنسبة التي يكون بها المفكرون مولعين بالتجريد ، اي بالمعرفة من اجل المعرفة . أما أرسطو فقد انحى باللائمة على هذه الهرطقة وعرض سقراط للسخرية في كل مناسبة . ان ارسطو مثل نيتشه يعتبر المعرفة اداة وحسب من اجل العيش ، ويقول انه ليست هنالك معرفة مجردة ، وانما هنالك معرفة مفيدة وتفاهات لا فائدة فيها . ولو تصورنا ان الناس ألحوا على سقراط ان يعرف « المعرفة المفيدة » فاننا نتوقع منه ان يقول : « كل ما يمكن الانسان من ان يعيش اكثر » ، وهذا ما نفهمه من المسرحيات ايضاً .

لقد شعر كيركغارد بمثل هذا ، ولم يكن ، باعتباره انساناً يحيا حياة مركزة ،

ويقاسي من عذاب شديد ، معنياً بما اذا كان باستطاعة الانسان المجرد أن يناسب نظاماً كونياً مجرداً وانما كان يعنيه المخلوق البسيط المحدود الخاطيء المعذب الذي يدعى « سورين كيركغارد » والذي كان عليه ان يقرر شيئاً ما في وجه الله ، والذي كان بحاجة الى ان يشعر بأن لذلك القرار كل الأهمية مطلقاً وبصورة نهائية ، وليس ذلك لأنه اذا اختار بين الله وبين الشيطان فان النظام الكوني سيسير بصورة أفضل .

اذا تذكرنا الخلاف المتسع شيئاً فشيئاً بين سارتر وبين هايديغر بخصوص معنى الوجودية فاننا سنفهم ما يلي : ان معارضة كيركغارد كانت من اجل المعذبين والمتورطين ، وضد المجرد واللاشخصي . اما تقلب سارتر الذي لا نهاية له ، بين « الوجود لذاته » و « الوجود بذاته » ، في « الوجود والعدم » فانه لم يقل ازعاجاً لكيركغارد عن ثرثرة « هايديغر » عن الوجود والزمن . ولعل كيركغارد كان يفضل على ذلك كله « مدينة الليلة المفزعة » لتومسن ، و «اربعاء الرماد » لأليوت ، وليس هنالك من شك في ان لامنتمياً يشترك معه في هذا التفضيل. ان سلوك كيركغارد هو من الوجودية بحيث ان دينه يعتبر الله واسطة بينه وبين رفاقه من البشر ، ولا يستطيع ان يقبل وجودهم بدون قبول فكرة وجود الله ، انه يمثل حالة متطرفة من حالات الشاعر ستيفن ديدالوس الذي يقول « لن أخدم » ، لن أخدم شيئاً ما عدا الله وروحي انا ، وسأهدم كل مفاهيم المعرفة والحضارة والعوامل الاجتماعية وعمل الخير .

من الضروري ان نؤكد على هذا السلوك المتطرف لكي يكون في امكاننا فهم ما يؤلف جوهر الدين . انه لا ينفي المعرفة والحضارة وعمل الخير ، وانما يرفض ان تكون لهذه الاشياء الاهمية الاولى . ان سلوك ابوبن آذيم (بطل لي هنط) الذي يقر بأنه لا يحب الله وانما يطلب من الملاك ان يهبط الى الارض ليحب رفاقه ، هذا السلوك كريه بالنسبة اليه مثل السفسطة العاطفية تماماً .

كان هولمه مثل كيركغارد ، أي أن الدين كان امراً فطرياً بالنسبة اليه ، وقد كان شاعراً ، اما مفهوم الدين بالنسبة اليه فهو مفهوم شاعري . انه لا يقارن

طفلاً بكوكب (كما يفعل افلاطون) وانما يقارن الكواكب بالأطفال :

« رعشة من البرد في ليلة من ليالي الخريف ..
وانطلقت خارجاً
ورأيت القمر ورديا ، يتكيء على سياج
كفلاح احمر الوجه
ولم أتوقف لأقول شيئاً ، وانما أومأت
وكانت هنالك نجوم يتألق فيها الشوق والحنين
بيضاء الوجوه ، كأطفال المدن ... » (١٨)

ان مفهوم الدين لديه يشبه مفهوم ج. ك. تشيسترتون ، فان الاخير يحدثنا عن بطله الذي يحب لندن الى درجة انه لا يحلم بأن يقول : « ودارت سيارة اجرة حول الزاوية كالريح » ، وانما « ودارت الريح حول الزاوية وكأنها سيارة اجرة » (١٩) وهذا هو المفهوم الوجودي ايضاً . ان طريقة « التغرب » (عبارة من عبارات هيغل) تشير الى الخارج ، الى التجريد، اما طريقة التصوف فانها تشير الى الداخل ، الا الموجود .

لقد عبر هولمه عن كراهيته للطريقة الخارجية ، الطريقة الرومانسية ، في مقالته « عن الرومانسية الكلاسيكية » :

« يظن الرومانسي ان الانسان غير نهائي ولهذا فانه يجب ان يتحدث عن اللانهائية دائماً ... « انه » غالباً ما يطير ، يطير فوق المهاوي ، يطير في الأجواء الخالدة ، وانك لتجد كلمة « لا نهائي » في كل بيت من ابياته ...

وهنا يكمن جوهر كل « رومانسية » : ان الانسان ، الفرد ، هو خزان لا نهائي من الامكانيات ، وانك اذا استطعت ان تنظم المجتمع بتهديم النظام الظالم ، فان الفرصة ستتوفر لهذه الامكانيات ، وستتقدم انت .. » (٢٠)

« اما الكلاسيكية ، فيمكن تعريفها بعكس ذلك تماماً ، فالانسان حيوان ثابت محدود جداً يتميز بطبيعة مستمرة ثابتة ، ولهذا فلا يمكن ان يصدر عنه أمر معقول بدون التقاليد والانظمة . » (٢١)

ونجد هذا التمييز في جذور كل اقوال هولمه ، فانه يتحدث عن الفن الحديث (والفن الحديث بالنسبة لهولمه هو فن بيكاسو وكوديه بريسكا) ، فيقول : « هنالك نوعان من الفن ، هندسي وحيوي ، وهنالك فرق نوعي كبير بينهما ، ولا يمثل هذان النوعان تعبيراً عن فن واحد ، وانما يتبعان هدفين مختلفين ، وقد وجدا لتطمين ضرورتين متباينتين من ضرورات العقل .. وينبثق كل من هذين النوعين ويتعلق بسلوك عام معين نحو العالم ... » (٢٢)

يلوح للقارىء الآن أن ما عمله هولمه فعلاً كان أنه أوجد تمييزاً بين الطريقة التفاؤلية ، والطريقتين الانسانية والتشاؤمية في النظر الى العالم ، وانه دعا الطريقة التشاؤمية « بالطريقة الدينية » . الا أن هذا ليس صحيحاً تماماً بالنسبة لأفكار هولمه ، ويمكننا أن نوضح ذلك أكثر بالاشارة الى تطور نظرة شوبنهاور الى العالم لدى نيتشه . أما رأي شوبنهاور ، الذي هو رأي بوذي في أساسه ، فانه يقول ان الارادة هي الحقيقة الكامنة خلف العالم ، الا أنه أضاف ان الارادة تخدم عالم الفكرة والوهم في أنها لا تنهض للعمل الا بحافز خارج عنها متعلق بالعالم ، بعالم الفكرة . أما حرية الانسان فانها كامنة في رفضه العمل . الا أن أعمق تجارب نيتشه للارادة ، أي تشتيته ، جعلته يرفض نتائج شوبنهاور ، ولكنه لم يرفض تحليله للعالم كارادة وللعالم كوهم . ان مفهوم نيتشه العظيم لقول الـ « نعم » وهبه فكرة عن الهدف ، فكرة تلوح ايجابية . وهكذا وبعبارة اخرى ، فقد كان نيتشه دينياً متصوفاً .

وقبل ان نقتطف شيئاً من الصفحات الهامة في « الآمال » يجب علينا ان نوضح هذا الخلاف بين حيوية نيتشه واسلوب هولمه الديني ، وليس الخلاف واسعاً بينهما كما يبدو لأول وهلة ، فان هولمه لم يكن راغباً في الاهتمام بالمتشابهات ، لأن المتحمسين لنيتشه وبرنارد شو كانوا يدافعون عن تطرف حيوي بلغ حد الانسانية . أما الآن فان شو قد مات ، ولم يعد آحد يقرأ كتب نيتشه في انكلترا ، بينما أدت هجمات إليوت عليهما الى تغطية عناصر التوافق بينهما ، فصارا يمثلان افكاراً عتيقة بالية بالنسبة لدكتاتورية نقد اليوت . ويعرف الجميع تأثير هولمه على اليوت ،

كما أن حملتها الشديدتين ضد الحيوية تميلان الى السير على خط واحد ، واليك ما يقوله اليوت :

« يقول المستر بابت : « ان اعطاء المحل الأول للارادة يمثل طريقة أخرى لاعلان أن الحياة هي عمل من أعمال الايمان .. » وهذا صحيح، ولكن اذا كانت الحياة عملاً من أعمال الايمان ، ففي أي شيء هي عمل من اعمال الايمان ؟ ان المنادين ببواعث الحياة وعلى رأسهم شو سيقولون ، كما أظن : « في الحياة نفسها » ، الا أنني لن اتهم المستر بابت بأية تهمة حمقاء مثل هذه ... » (٢٣) واليك ما يقوله هولمه :

« ان علم الحياة ليس كعلم اللاهوت ، ولهذا فلا يمكن تعريف الله بمصطلحات « الحياة » و « التقدم » .. » (٢٤)

وهكذا نرى كيف أن اليوت قدم الينا شو بصورة خاطئة ، بينما نجد أن عبارة هولمه صحيحة ، الا انها لا تنطبق على نيتشه أو برنارد شو ايضاً . لقد أدت رغبة هولمه في أن لا يعتبره الناس نيتشياً الى اضطراره الى التصريح بعبارات غير معقولة بصدد العلاقة بين آرائه وآراء نيتشه ، فقد استعمل في أحد أبحاثه الطويلة تشبيهات حية للتعبير عن شكه في الفلاسفة وفي نظمهم :

« وقد يرتدي الانسان درعاً معقداً مزخرفاً، بحيث يلوح لساكن كوكب آخر لم ير درعاً من قبل ، مثل شيء لا انساني يتمتع بقوة ميكانيكية هائلة ، أما اذا رأى الدرع يسير خلف فتاة ، أو يأكل شيء في المطبخ ، فانه سيدرك حالاً أنه لم يكن قوة إلهية أو ميكانيكية وانما هو انسان عادي يرتدي درعاً غريباً . » (٢٥)

وهذا هو جوهر نقد نيتشه للفلاسفة في « وراء الخير والشر » في بحث « تحامل الفلاسفة » . الا ان هولمه لا يريد ان يعتبره الناس نيتشياً ، ولهذا فانه يقول :

« لست أريد أن أشير الى أي شك في امكانية وجود فلسفة علمية ، ولست أعني ما عناه نيتشه حين قال « لا تفكر فيما اذا كان ما يقوله الفيلسوف صحيحاً أم لا ، ولكن اسأل كيف ظن انه صحيح » ، لأن هذا يمثل نوعاً من « الشك »

الذي لا يعدو كونه هذراً . ان الفلسفة النقية يجب ان تكون موضوعية وعلمية تماماً . » (٢٦)

لقد فشل هولمه في معرفة ، أو أنه لم يشأ ان يعرف ، ان نيتشه لم يرفض امكانية وجود فلسفة موضوعية ، وانما رفض ان يعترف بصحة اية فلسفة غير وجودية . وهكذا فان نيتشه وهولمه عنيا امراً واحداً بانتقادهما الفلاسفة . قد يتضح هذا اكثر لهولمه اذا كان قد قرأ اعمال كيركغارد .

وقد يلوح هذا للقراء الذين لا تهمهم الفلسفة ثرثرة نجمت من بحثنا وتحليلنا للامنتمي ، ولكن دعني احاول ان اوضح هذا ببعض العبارات : ان مشكلة اللامنتمي تصل به الى طريقة في النظر الى العالم يمكن ان تدعى « تشاؤمية » (طريقة روكانتان مثلاً) . وقد حاولت ان اناقش ان هذه التشاؤمية صحيحة معقولة . وعليه فانها تسقط من الحساب كل المثل العليا الانسانية (كالقول بأن الانسان يرتقي على درجات من موتى البشر الى اشياء اسمى .. الخ) ، وتنقد الفلسفة بقولها انه لا مبرر هنالك لمحاولة الفيلسوف ان يعرف العالم ما دام لا يعرف نفسه . ان هذه الطريقة تقول بأن المثل الأعلى (الفلسفة الموضوعية) لن تتألف من المفكرين وحسب وانما من البشر الذين يجمعون بين المفكر والشاعر والانسان العملي . وليس أول اسئلة الفلسفة « ما هو الغرض من وجود هذا الكون ؟ » وانما « ماذا يجب علينا ان نفعل بحياتنا ؟ » ، اي ان هدفها ليس نظاماً معقولاً من الناحية العقلية ، وانما هو خلاص الفرد . والآن يمكنني ان اصرح بأن هذه العبارة هي قاعدة دينية ، سواء وجدناها لدى القديس أوغسطين او لدى شو . وان اهم جانب من جوانب هدف هذا الكتاب هو انني حاولت ايضاح هذه النقطة .

لم يسبق ان أوضح مفكر قبل هولمه تمييزه بين رأي الفيلسوف (الانسانية) والرأي الديني ، ويمكنني ان اقتطف اسس اختلافه مع نيتشه من الصفحات الأولى من « الآمال » حيث يقسم الواقع الى ثلاثة اقسام : المادي ، والحيوي ، والديني :

« دعنا نفترض ان الواقع ينقسم الى ثلاث مناطق ، منفصلة عن بعضها البعض بحدود مطلقة ، او بانقطاعات واقعية حقيقية : (١) العالم اللاعضوي ، الذي تعالج امره الرياضيات والعلوم الفيزيائية (٢) العالم العضوي ، الذي يعالجه علم الحياة وعلم النفس والتأريخ ، (٣) عالم القيم الخلقية والدينية . » (٢٧)

ان نيتشه يتفق مع اللاهوت الأوغسطيني في اعتبار العالم مؤلفاً بصورة جوهرية من المادة والروح وفي اعتبار الحياة منطقة عملها المشترك ، اي انه لا وجود هنالك لواحد مطلق منهما . كما ان المادة اللاعضوية هي دائماً التحول الى مادة عضوية ، ويدرك هولمه هذا في مقالة اخرى عن « بيرغسون » :

« يمكن ان توصف عملية التعبير بانها اضفاء الحرية بصورة تدريجية على المادة . ويمكنك ان تقول بخصوص الاميبا ان الباعث صنع ثغرة يمكن ان تدخل منها الفعالية الحرة الى العالم ، ولهذا فان عملية التعبير كانت توسيعاً تدريجياً لهذه الثغرة » (٢٨)

ويستعمل هولمه هنا ، كما في اي مكان آخر ، اصلاح « التعبير » بدون ان يضمنه اي نقد معين ، اما جوهر نقده للانسانية والرومانسية فانه مستمر في عبارته التي يصف بها الكلاسيكية : « انت مخلص دائماً لمفهوم التحديد » ، وهو يقول :

« ان مقدار الحرية الموجودة في الانسان مبالغ فيه . ان ديني والاراء التي حصلت عليها من الفلسفة الميتافيزيكية يدفعانني الى القول بأننا احرار في بعض الأحيان النادرة ، الا ان كثيراً من الاعمال التي نظن انها حرة ليست غير اعمال اوتوماتيكية . » (٢٩)

ولا حاجة بنا الى الاشارة الى التشابه الموجود بين هذا وبين حيوية غوردييف فان لديه مفهوماً مثل هذا عن التحديد ، ويلخص هولمه هذا قائلاً :

« يمكنك ان تصف حقائق التعبير بقولك انها تلوح وكأن تياراً هائلاً من الادراك قد تغلغل في المادة ، محاولاً ان ينظمها ليستطيع ان يبرز فيها الحرية .

ولكن الادراك ، بعمله هذا ، سقط في شراك بعض الاتجاهات ، وقد سيطرت المادة على الادراك الذي كان يريد أن ينظمها وقيدته باوتوماتيكيتها . لقد أصبحت الاوتوماتيكية واللاادراك يحكمان عالم النبات مثلاً ، أما في عالم الحيوان فان الادراك ما زال ينال شيئاً من النجاح والسيطرة ، الا أن الاوتوماتيكية تتبع الحرية خلال عملية التعبير وهكذا يؤدي ذلك الى اختناق هذه الحرية . ويستطيع الانسان ان يحصل على صورة لهذا التعبير من هذا التوضيح . وستمثل الصورة سيلاً من الادراك يتدفق في المادة وكأنه يتدفق في قنال صغير محاولاً أن يوسع مجراه من الناحتين ، ويحفر الثغرات ، الا أنه غالباً ما يتوقف أمام صخور شديدة الصعوبة ، في حين يستطيع ان ينفذ في صخور اخرى ليعود الى الحياة ثانية ... ان الطريق المارة بالمادة قد تهب جانباً من تيار الادراك شيئاً من التماسك الذي يساعده على البقاء دائماً بعد مروره . » (٣٠)

يمكننا ان نقارن هذا بكلام ليليث في نهاية « العودة الى ميتو شالح » ، حين تقول : « لقد جلبت الحياة الى دوامة القوة ، وأجبرت عودتي المادة على اطاعة روح حية ، ولكنني باستعبادي عدو الحياة جعلته سيد الحياة ، لأن في ذلك نهاية كل عبودية .. » ، وتحتوي عبارات ليليث هذه على عقيدة اللامنتمي : « أقول دعهم يخشون التوقف والانقطاع قبل اي شيء آخر ... » (٣١)

ونجد لدى شو ، كما نجد لدى غوردييف ونيتشه ، ادراكاً للمجهود العظيم الذي تقوم به الارادة الضرورية من اجل التعبير حتى عن اقل ما يمكن من الحرية . ويضع هذا اولئك الرجال بجانب باسكال والقديس أوغسطين كمفكرين دينيين . ولا ينقذ آراءهم من التشاؤمية الا ادراكهم الصوفي لامكانيات الارادة الحرة ، النقية من مربكات الأوتوماتيكية . ان « بيت اليوت في التئام شمل العائلة » : « والملاحظة الجزئية التي يبذلها الانسان لمعرفة اوتوماتيكيته » يضعه في مستوى واحد مع هولمه وغورديبف وبرغسون ، تماماً كما تؤكد عبارته « دع ارادتك تكون كاملة » في « الصخرة » على علاقة افكاره بنيتشه وبوهمه وايكهارت .

لقد تنبأ هولمه بنهاية الفترة الانسانية الحالية ، هذه الفترة التي افتتحها ، كما

قال هولمه ، عصر النهضة ونبذه لفكرة الخطيئة الاولى التي تعتبر المبدأ المحدد المطلق. لقد آمن بأن هذه الفكرة لا يمكن ان تنبذ بدون محو كل سطور التفكير الواضح ، وفتح الابواب لنماذج التفاؤل العاطفي الفكرية . لقد ادرك ان :

« الايديولوجية الجديدة ضد الانسانية لم تستطع ان تؤلف انتعاشاً تاماً لافكار القرون الوسطى . ان الفترة الانسانية طورت في العلم شيئاً من الامانة .. ومفهوماً للحرية الفكرية العملية سيظل .. » (٣٢)

لقد كان التبدل الذي حصل في العالم العقلي ، منذ ان كتب هولمه هذه العبارات مسؤولاً عن كل هذا . كما ان الفترة الحديثة ضد الانسانية ليست غير نتيجة للتفحص والاختبار الشديدين اللذين قام بهما افراد مثل بليك ونيتشه ودوستويفسكي وشو . اما الانسانية فهي اسم آخر للكسل الروحي ، أو عقيدة تصفية غامضة تبناها علماء ومناطقة كانت أذهانهم مشغولة بالعالم الرياضي والفيزيائي بصورة لا تتيح لهم ان يقلقوا بشأن الاصناف الدينية . ومن الضروري لهؤلاء الناس ان يضعوا الخطوط الاولى والاشتقاقات الخاصة بهذه الاصناف لأظهارها بصورة اوضح حتى تكون قابلة للفهم . الا اننا لا نتوقع منهم ان يكون بامكانهم تصنيف كل ما خلفه عصر النهضة من ترهات ، فان هذا يدخل في اختصاص افراد يحسون بالمعاضل الدينية احساساً عميقاً يتيح لهم ان يفعلوا ذلك بسهولة . وقد وضع شو اصبعه على الحاجة الحقيقية في مقدمة « العودة الى ميتو شالح » :

« دع الكنائس تسأل انفسها : لماذا لا تحدث ثورة ضد قوانين الرياضيات كما تحدث ضد الدين ؟ ليس ذلك لأن قوانين الرياضيات مفهومة اكثر . ان قانون اكمال المربع هو غير مفهوم بالنسبة للانسان العادي تماماً كما لا يفهم هذا الانسان نفسه العقيدة « الاثانيزية » ، وليس هذا لان العلم خال من السحر والاساطير والمعجزات وتواريخ الحياة التي يفاخر بها « الاصدقاء » ببطولاتهم وقدسياتهم ، ومن التافهين والفارغين الذين يدعون بأنهم مكتشفون ، بل على العكس ، فان تصورات وقدسيات العلم كبيرة جداً وحقيرة بقدر كثرتها . الا ان طالب العلوم لم يتعلم ان قانون الوزن النوعي يتألف من الاعتقاد بأن ارخميدس

قفز من الحمام وركض عارياً في شوارع سيراكوز صائحاً : وجدتها ، وجدتها ، أو ان قانون اكمال المربع يجب ان ينبذ اذا استطاع احد ان يثبت ان نيوتن لم يدخل بستاناً في حياته ... اننا نجد في الرياضيات والفيزياء أن الايمان ما يزال نقياً ، وبامكانك ان تتمسك بالقانون وتترك الاساطير دون ان يتهمك احد بالهرطقة ... » (٣٣)

دعنا نربط هذا بما يقوله بطل هولمه الذي لا يعترف « بعاطفية » الدين في « الآمال » :

« ليس عندي شيء من مشاعر الرضى بالحنين ، واحترام التقاليد ، والرغبة في الحصول على العاطفة التي شعر بها انجيليكو ، والتي يلوح انها تؤثر في معظم المدافعين عن الدين ، فان ذلك كله يلوح هباء ، اما المهم فهو ما لم يدركه احد — العقائد التي تشبه فكرة الخطيئة الاولى .. ان الانسان ليس كاملاً ، وانما هو مخلوق تعس ، الا انه مع ذلك يفهم الكمال . وعليه فلست لأحتمل العقيدة من أجل العاطفة ، وانما قد ابتلع العاطفة من اجل العقيدة . » (٣٤)

ان فهم الاسلوب الكامن وراء هذه السطور هو ، كما اظن ، من اهم الأمور التي يحتاج اليها عصرنا .

لقد اعتبر هولمه « آماله » مقدمة لقراءة باسكال . وقد هدفت انا ايضاً من تأليفي لهذه الدراسة عن اللامنتمي ، الى ايجاد مقدمة لحقل لا انتهاء له ، لحقل يحده شو وغوردييف من ناحية ، بينما يحده من الناحية الاخرى بروتستانتي متعصب مثل كيركغارد ، او كاثوليكي متعصب مثل نيومان . وقد بحثت في هذا المجال اشياء كثيرة بحثها قبلي راينهولد نيبور وكذلك فعل بيردييف ، ويجب عليّ ان اعترف بالدين الذي في عنقي لهما ، (ولاليوت الذي يدين له بذلك كثيرون من افراد جيلي) بالنسبة لمقالاته النفاذة عن الانسانية والسلوك الديني . ويجب ان اقول هنا انه لم يحقق كتاب يضم مائة ألف كلمة هذا الهدف قبل الآن ، فاذا استطاع هذا الكتاب ان يكون دافعاً للعودة الى قراءة شو فيمكنني اذن ان اقول انه قد حقق الهدف.ان شو يمر الآن بفترة يقلل فيها الناس من قيمته

الأمر الذي لم يحدث مثيله من قبل الا في القرن السابع عشر ، حين أهمل الناس شكسبير . ان هذا الاهمال الذي يصيب معلماً دينياً كبيراً مثل شو يعتبر أسوأ اعراض هذا العصر اذا لم يكن يبرره ميل الى المفكرين الوجوديين من أمثال بيرديف وكيركغارد وكامو. ولو قيض « للعصر الديني الجديد » الذي تنبأ به هولمه ان يولد قبل ان تدمر حضارتنا نفسها فان ذلك سيتطلب فترة حمل تتميز بمجهود عقلي يشترك فيه العالم المتمدن كله .

وما تزال هنالك صعوبات اخرى لا يمكننا ان نبحثها هنا ، كما ان مشكلة الحضارة هي في تبني أسلوب ديني يمكن تمييزه بالموضوعية التي تتميز بها عناوين صحف الاحد الماضي مثلاً . الا ان المشكلة بالنسبة للفرد تظل عكس هذا ، اي في الكفاح المدرك من اجل عدم تحديد كمية التجارب التي يمكن للفرد ان يراها ويلمسها ، والكفاح المرير من اجل تعريض مناطق الاحساس في الكيان لما قد يؤدبها ، ومحاولة النظر الى الامور ككل ، رغم ان غريزة الدفاع عن النفس تكافح ضد الألم الذي يصاحب التوسع الداخلي ، ودوافع الكسل الروحي تحاول ان تنسج شباك النوم حول كل مجهود جديد . وهكذا يبدأ الفرد ذلك المجهود المضني كلامنتم ، وقد ينتهي به الأمر فيصبح قديساً .

مصادر الكتاب

الفصل الاول

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، هنري باربوس : (الجحيم)
٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، هـ. ج.ولز (العقل في منتهى حدود الاحتمال)
١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، جان بول سارتر (مذكرات انطوان روكانتان)

الفصل الثاني

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ البير كامو : (الغريب)
٨ ، ٩ ارنست همنغواي (أول تسع واربعين اقصوصة)
١٠ (كل شيء عن همنغواي)
١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ارنست همنغواي : (وداع للسلاح)
١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ارنست همنغواي : (أول تسع واربعين اقصوصة)
١٩ جورج سامبسون : (الوجيز في تاريخ الأدب الانكليزي)
٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ هارلي كرانفيل باركر : (الحياة السرية)

الفصل الثالث

١ السر جون ساكلنك
٢ نوفاليس : (هاينريخ فون أوفتر دنكن)
٣ ، ٤ جيمس جويس : (صورة الفنان شابا)
٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ هيرمان هيس (دميان)
٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ هيرمان هيس : (ستيفن وولف)
١٩ هيرمان هيس : (ماجستر لودي)
٢٠ هيرمان هيس : (ستيفن وولف)

الفصل الرابع

١ (ت. ي. لورنس بأقلام اصدقائه)
٢ ، ٣ . ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ت. ي. لورنس : (اعمدة الحكمة السبعة)
٨ (ت. ي. لورنس بأقلام أصدقائه)
٩ ، ١٠ ، ١١ ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ت . ي . لورنس (اعمدة الحكمة السبعة)
١٩ (مذكرات فازلاف نجنسكي)

٢٠ رومولا نجنسكي (نجنسكي)
٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،
٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ : (مذكرات فازلاف نجنسكي)
٣٧ ، ٣٨ ت. ي. هولمه (الآمال)
٣٩ (مذكرات فازلاف نجنسكي)

الفصل الخامس

١، وليم جيمس (أنواع التجارب الدينية)
٢، كتاب (فكاهات عن الموت)
٣، (اغنية الى البلبل)
٤، (مدينة الليلة المفزعة)
٥، (الأرض القفر)
٦، (الشباب وقصص أخرى)
٧، وليم جيمس (أنواع التجارب الدينية)
٨، (المجتمع ، الشكل الانساني المتحرر)
١٠، فرانز كافكا (في المستقر العقابي)
١١، كونراد بونيفازي (كيركفارد ونيتشه)
١٢، وليم جيمس
١٣، نيتشه (الحكمة الممتعة)
١٤، هـ. أ. رايبورن (نيتشه)
١٥، د. هاليفي (حياة نيتشه)
١٦، نيتشه (مولد المأســاة)
١٨، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ نيتشه (الحكمة الممتعة)
٢٢ ، وليم بليك (الاعمال الكاملة)
٢٣، ٢٤ ، نيتشه (هكذا تكلم زرادشت)
٢٥، نيتشه (هو ذا الانسان)
٢٦، ٢٧ ، نيتشه (هكذا تكلم زرادشت)
٢٨، ريلكه (مالته لاوريدز بريكه)
٢٩، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، نيتشه (هكذا تكلم زرادشت)

الفصل السادس

١، ٢، ليو تولستوي (الحرب والسلم)
٣، ٤، ايلمير مود (حياة تولستوي)
٥، (حياة ايلمير مود)

٦، ٧، اليكسي تولستوي (مذكرات مجنون)
٨، ايلمير مود
٩، اليكسي تولستوي (موت ايفان ايليتش)
١٠، ج. هـ. نيومان (اعتذار)
١١، ١٢، فيودور دوستويفسكي (مذكرات من تحت سطح الارض)
١٣، (كنوز الادب الروسي)
١٤، وليم بليك (الاعمال الكاملة ـ زواج الجنة والجحيم)
١٥، وليم بليك (الاعمال الكاملة)
١٦، (اقتطفه بير دييف من دوستويفسكي)
١٧، (فيودور دوستويفسكي)
١٨، فيودور دوستويفسكي (الجريمة والعقاب)
١٩، بيرديف (دوستويفسكي)
٢٠، (الجريمة والعقاب)
٢١، فيودور دوستويفسكي (الشياطين)
٢٢، (الجريمة والعقاب)
٢٣، ٢٤، (الشياطين)
٢٥، (الالهام)
٢٦، فيودور دوستويفسكي (الاحمق)
٢٧، (الشياطين)

الفصل السابع

١، ٢، ٣، دوستويفسكي (الاخوة كارامازوف)
٤، (الشياطين)
٥، ٦، (الاخوة كارامازوف)
٧، (الجريمة والعقاب)
٨، (الاخوة كارامازوف)
٩، وليم بليك (الاعمال الكاملة)
١٠، توماس مان (الدكتور فاوست)
١١، نيتشه (هكذا تكلم زرادشت)
١٢، ارنست همنغواي (القصص القصيرة)

الفصل الثامن

١، وليم بليك (الاعمال الكاملة)
٢، جان بول سارتر (الوجودية والانسانية)
٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، جورج فوكس (المذكرات)

١٢، ر. م. ريلكه (مدائح دوينو)
١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، (جورج فوكس)
١٨، هـ. أ. رايبون (نيتشه)
١٩، ارنست داوسن (الاعمال الشعرية)
٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، وليم بليك (الأعمال الكاملة)
٣٢، (كتاب البوذيين)
٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، وليم بليك (الاعمال الكاملة)
٣٩، هيرمان هيس (ستيفن وولف)
٤٠، ج. هـ. نيومـان
٤١، وليم بليك (الاعمال الكاملة)
٤٢، ت. س. اليوت (الرباعيات الأربع)
٤٣، و. ب. ييتس (القصائد الكاملة)
٤٤، سورين كيركغارد (طريقة التتابع المركزي)

الفصل التـاسع

١، ترجمة مأخوذة من الفصل الأخير من (قلعة آكسيل)
٢، ٣، توماس تراهيرن (عصور من التأملات)
٤، و. ب. ييتس (القصائد الكاملة)
٥، توماس تراهيرن
٧، ٨، (حياة رأما كريشنا)
٩، ١٠، (تعاليم شري رأما كريشنا)
١١، وليم جيمس
١٢، ف. ل. وودوارد (اقوال بوذا)
١٣، ايكهـارت
١٤، ١٥، ب. د. أوسبنسكي (في البحث عن المعجزات)
١٦، قصائد القديس جون
١٧، جورج غورديف (الجميع وكل شيء)
١٨، ت. ي. هولم (الآمال)
١٩، ج. ك. تيشيسترتون (نابليون نوتنك هل)
٢٠، ٢١، ٢٢، ت. ي. هولم
٢٣ ، ت . س . اليوت (مقـالات مختارة)
٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ت. ي. هولم
٣١ ، برنارد شو (المسرحيات الكاملة)
٣٢، ت. ي. هولم
٣٣ ، جورج برنارد شو (المقدمات الكاملة)

فهرست


MOHAMED KHATAB

حين أصدر كولن ولسون كتابه هذا «اللامنتمي» كان لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره...

وقد أثار الكتاب، ولا يزال يثير، مناقشات لا تنتهي، مرجعُها إلى أنّه يعالج، لأوّل مرة، موضوعًا جديدًا، هو موضوع نفسية الإنسان اللامنتمي، الإنسان الذي لا ينتمي إلى حزب أو عقيدة، ويجرّر ظلّه العملاق في طريقه المظلمة، مستسلمًا حينًا ومتمرّدًا حينًا آخر.

ويقوم كولن ولسون بهذه المعالجة على ضوء دراسة واسعة لشخصية اللامنتمي كما تتجلّى في آثار كبار الكتّاب والفنانين، فيحلّل آثار كافكا ودستويفسكي وهمنغواي وكامو وسارتر ونيتشه وفان كوخ ولورنس وهنري باربوس وسواهم تحليلاً يأخذ بمجامع القلوب، ويلقي أضواء ساطعة على روائع هؤلاء الكتاب والفنانين.

وقد قال أحد النقّاد إنّ «اللامنتمي» هو أعظم كتاب في التحليل صدر في أوروبا منذ كتاب «سقوط الغرب» لاشبنجلر... وقال آخر: إنّنا لا نكاد نصدّق أنّ مؤلّفه فتى في الرابعة والعشرين...



دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف رفيع الجندي